الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مكتبة النخبة

عبد الرحمن أسامة سفر

لصوص النار

قصة العبقرية

لصوص النار

قصة العبقرية

عبد الرحمن أسامة سفر

لصوص النار

قصة العبقرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2020 م - 1441 هـ

ردمك 978-614-02-3878-7

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

acebook.com/ASPArabic
witter.com/ASPArabic
ww.aspbooks.com
sparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

إلى والدي

أسامة سفر من علمني أهمية الحلم،

وإلى والدتي بسمة البسام من علمتني أهمية الصبر،

شكرا لكما

"أنت يا بروميثيوس، يا من أذنبت في حق الإله... أنت يا لص النار".

هيرميس، مسرحية "بروميثيوس مغلولًا"

للمسرحي اليوناني اسخيلوس

المحتويات

خطيئة اللص الأول (أو شرح عنوان الكتاب)
13

عن الكتاب
23

عمَّ نتحدث حين نتحدث عن العبقرية؟
27

الباب الأول

تاريخ موجز للعبقرية (أو معضلة السرد)

الفصل الأول: عقيدة العبقرية
63

أمارات التبجيل
63

إله الفراغات
69

عبادة العباقرة
82

الفصل الثاني: من الجن إلى الجينات
99

يوتوبيا العبقرية
99

علامة العبقري
105

يانصيب الذكاء
110

نادي الأذكياء الفاشلين
119

الفصل الثالث: وهم الإلهام
125

هفوة داروين
125

الباب الثاني

الثعلب والقنفذ أو (نظرية أصناف العبقرية)

الفصل الأول: العبقري العفوي والحساس
139

سلوكان
139

شاب وشيخ
146

للإبداع سلوكان
154

الفصل الثاني: كيف أصبحوا عفويين أو حساسين؟
157

الذكاء
159

الفضول
166

فضول القنفذ وفضول الثعلب
171

الحلقة المفقودة
173

الباب الثالث

رحلة العبقري

مبدأ آنا كارنينا

181

الجزء الأول: ما قبل الشغف

191

السراب (أو العقبة الأولى)

193

الاكتفاء الذاتي

193

التفكير: السريع والبطيء

198

أذكى رجل في العالم

203

العبقري الذي صار

208

موسيقى نيتشه (أو ميلاد الفضول)

211

بوصلة أينشتاين

211

العفوي والحساس، مرة أخرى
222

كهف أفلاطون (أو فضيلة التمرد)
227

أن تعيش مُسيّرًا
227

أن تعيش مُخيّرًا
232

الجزء الثاني: طور الشغف
241

القبيلة (أو الفضوليون)
243

فضاء الإبداع
243

من جاور السعيد
250

للإبداع ثلاث تاءات
253

{... مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} (أو المرشد)
259

دانتي وڤرجيل
259

في سبيل الرغيف (أو الراعي)
269

مايكل أنجلو ولورينزو مديتشي
269

الجزء الثالث: تحقيق الشغف
279

مخ العبقري (أو المراس)
281

تشريح مخ أينشتاين
281

اللعبة الملكية (الجزء الأول)
284

اللعبة الملكية (الجزء الثاني)
292

أُسس المراس
300

المخ الذي يتغير
304

أن تكون ملولًا (أو الإبداع)
309

فهرنهايت العبقرية
309

في المهجر
318

نشوء الفكرة
326

عاقبة الشغف (أو الهوس)
331

العبقري كفاوست
333

المقامر
333

صفقة فاوست
340

"أي علم أدمنته؟"
346

الخاتمة
355

خطيئة اللص الأول

(أو شرح عنوان الكتاب)

إحدى أهم الأساطير في الميثولوجيا الغربية والتراث البشري أجمع هي أسطورة بروميثيوس، أحد أهم الجبابرة والأرباب في مَجمَع الآلهة الإغريقي، إذ أن هذه الأسطورة كانت مصدر إلهام وانبثاق ما يزيد على ستة عشر إلهًا وثنيًّا عبر تاريخ البشرية وفي مختلف بقاع الأرض، ابتداء من بوذا، مرورا بـ أوزوريس المصري وانتهاء بيسوع المسيح.

تكمن أهمية بروميثيوس في عواقب خلقه للبشر بتكليف من زيوس، رئيس مَجمَع الآلهة الإغريقي وحاكم جبل أولمبس، فنقرأ له قوله: "أنا ها هنا أخلق أناسًا أتقياء، على صورتي، أصنع جنسًا من نوعي"، وحين أنهى بروميثيوس خلقه كانت كل الصفات المهمة كالقدرات الجسدية (مثل القفز والجري والقوة) والحواس الأخرى (مثل الشم والسمع والبصر) قد مُنحت للحيوانات، كما أنها حظيت بغطاء جسدي (مثل الفرو والريش والحراشف) يقيها البرد والحر، وبذلك ظل الإنسان نحيفًا هزيلًا بليدًا. أغضب زيوس ما خلقه بروميثيوس، فمنع زيوس عنهم الكثير من النعم وأمور الحياة. وصف بروميثيوس حال خلقه: "عندما اعتلى زيوس الجبّار عرش الآلهة، أعطى مخلوقات الأرض بعض المزايا. لكنه لم يمنح الإنسان أي شيء. كان هدفه التخلص من هذا الجنس المسمّى إنسانًا... لقدّ رأيت الإنسان أحمق، فجعلته سيد عقله. كان يعيش مثل النمل في الجحور، وكانت كل أعماله ينقصها التدبير والكياسة. أنا الذي أعطيته الأعداد والحروف وعلمته الحساب والكتابة. وعلمته الصناعة وترويض الحيوانات المفترسة. ومنحته الشجاعة وعلمته صناعة السفن والإبحار". ضاعف ذلك من سخط زيوس، وعندما عرج إليه بروميثيوس ليستعطفه ويطلب منه أن يمنح البشر فحمًا يقيمون به أمور حياتهم، قوبل طلبه بالرفض، وعن ذلك قال برميثيوس: "أنا فقط من بين

الآلهة الذي جرؤ على عصيان زيوس الجبّار، وقام بمحاولة إنقاذ الإنسان المسكين من الفناء". المعصية التي يذكرها بروميثيوس هي قيامه بسرقة النار من فوق الجبل الأثير ومنحها للبشر. وكانت سرقته النبيلة ذات أثر عظيم على البشر، فحصول الجنس البشري على النار منح حياتهم غاية جليلة أكثر من كونها مجرد وسيلة للتدفئة والإنارة وطهو الطعام. فالنار هنا ترمز للتطور البشري والقدرة على صنع الفن والعلوم والحضارة. وكانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير وأثارت عليه سخط زيوس، والذي استدعى رب الحدادة والنار والصناعة هيفايستوس وطلب منه أن يصنع سلاسل قوية حتى يقيد بها بروميثيوس على صخرة في جبال القوقاز. يكتب المسرحي اليوناني أسخيلوس في مسرحيته الشهيرة "بروميثيوس مغلولًا" على لسان إحدى شخصياته: "لقد وصلنا إلى نهاية العالم. أبعد مكان خرب على سطح هذه البسيطة. أحكم وثاق هذا المتمرد الشرس بروميثيوس، وثبته بالصخرة. تذكر أن هذه هي أوامر زيوس الشخصية. اعلم يا هيفايستوس أن هذا المتمرد، قام بسرقة النار منك وأعطاها لهذا الكائن البائس، الإنسان". وبدوره هيفايستوس يصف أهوال عقوبة بروميثيوس: "أنا لا أقوى على لمس إله كان رفيقًا لي، لكنني يجب أن أمتثل لأوامر زيوس. من الجنون عصيان زيوس. مسكين بروميثيوس، لن تستطيع أن ترى الإنسان مرة أخرى. أشعة الشمس الحارقة سوف تشوي بدنك. هواء الليل البارد سوف يغطيك بالصقيع. لن يستطيع مخلوق إنقاذك مما أنت فيه. سوف تتأوه وتبكي، لكن دون جدوى. العظيم زيوس من الصعب استرضاؤه". ومن رحم المعاناة يصف بروميثيوس حاله: "بسبب حبي للإنسان، أكابد هذه الآلام. كما تروني، إله مسكين، مربوطًا بالسلاسل في جلمود صخر، تسخر مني الرياح، مكروهًا من باقي الآلهة. على أن أمتثل لقدري بقدر الإمكان. اسمعني أيها الفضاء السماوي. اسمعيني أيتها الأعماق في المحيطات. اسمعيني أمنا الأرض. أنصتي إلى آهات كربي وبؤسي. هناك شيء يقترب. كل جسم يتحرك يرعبني. إنه يقترب أكثر وأكثر وأكثر مني". ما يصفه بروميثيوس ويثير رعبه هو نسر عملاق يدعى أثون يأتيه كل صباح لينهش كبده، الذي ينمو من جديد في المساء ليستمر عقاب بروميثيوس الأبدي.

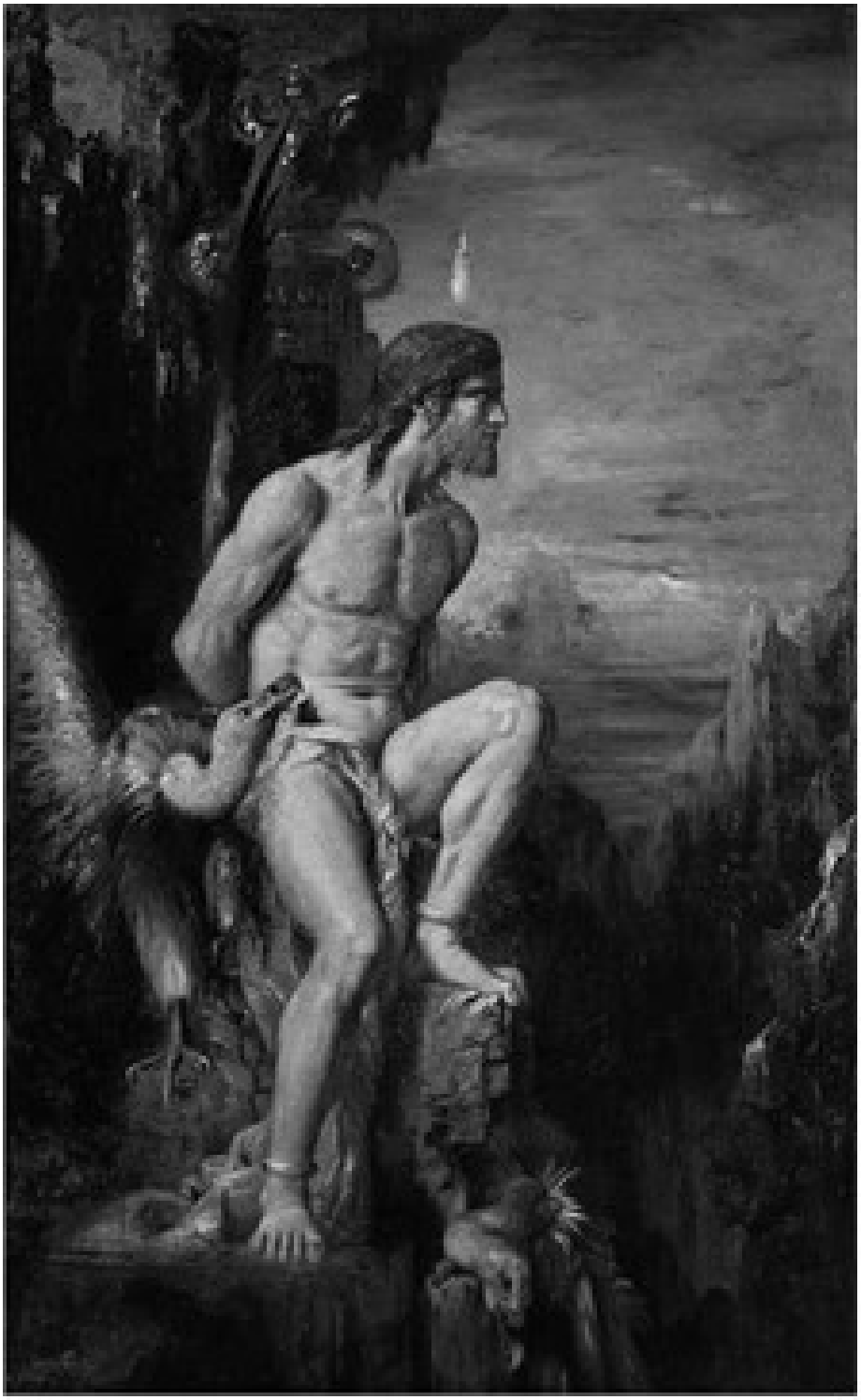

إن مصدر سخط زيوس على ما أتى به بروميثيوس لا يمكن أن يفهم إلا بالنظر إلى رمزيته. النار لم تكن لتمكن الناس من الطبخ وتقيهم شر الزمهرير في المساء فحسب، إنما ستسمح لهم بالخروج من تخبطات الجهل وبالخوض في دياجير المجهول وتثير لديهم شرارة حب المعرفة. إنِ النار ترمز للفضول،

فالنار ترمز لروح المعرفة والاستكشاف والتعلم. نقرأ أسخيلوس يقول على لسان بطل ملحمته: "لقد أعطيت الإنسان النار. ومن هذه النار، سوف يتعلم آلاف المعارف والفنون... نعم. أنا هو من ألهم الإنسان بكل هذه الاكتشافات". سيكون الفضول العامل الذي يساوي بين البشر وتلك الأرباب الزائفة.

إن لأسطورة بروميثيوس الإغريقية دلالات واستقراءات كثيرة، قد يكون أهمها هو التنبيه أن أولئك الذين تتبعوا فضولهم وسرقوا قبس معرفة يُصلبون على جبل هم كذلك.

* * *

هذا الكتاب مبني على فرضية بسيطة: بدون الفضول، لا توجد عبقرية. بدون الفضول، تلك النار المقدسة التي تضيء ممرات وأقبية المعرفة، سيظل المرء يتخبط في بحر من الظلمات، ولا يهم حينها ذكاء المرء أو نبوغه، أما الإبداع أو الجهد فيصيران لونًا من ألوان العبودية، يوظفها المرء لينير درب غيره، ولن يعرف المرء اهتمامًا أو شغفًا أصيلًا. مهمة جزء كبير من الكتاب هي إظهار الترابط الوثيق بين الفضول والعبقرية. بل إنهما يتشاركان تاريخًا، فمنذ أيام الفيلسوف اليوناني الأهم سقراط حتى أواخر عصر النهضة، نجد أن العبقرية حيثما وجدت كانت إلهامًا. ونجد أن الفضول كان فعلًا بغيضًا مكروهًا، فسقراط، مثل السواد الأعظم آنذاك، آمن بالميتافيزيقيات، بل إن له كذلك قرينًا يلهمه أمور الحكمة والمعرفة. كأن السابقين حاولوا تحذيرنا: فضولك يقودك إلى حتفك، فها هي أجنحة إيكاروس تذوب ويسقط حين أراد أن يعانق السماء ويعرف الشمس واقترب منها رغم صرخات أبيه ولوعته.

إن رسالة السابقين واضحة: العلوم والمعرفة والإلهام تُمنح للبشر ولا تُكتسب. لذلك نقرأ في الأدب الإغريقي أن للفنون والمعرفة والمهارات تسع ربات كن قائمات على الإلهام في أمور الشعر (المقدس والملحمي والحب) والملاحم والتاريخ والمآسي والرقص والكوميديا وعلم الفلك. كان واجبهن نشر الإلهام لأولئك الذين يستحقونه، فنجد هوميروس يتضرع لبعضهن في افتتاحية ملحمتي الإلياذة والأوذيسة، ونجده كذلك يصف الشاعر الأعمى دمودكوس "بالمنشد الإلهي"، والذي وهبته الربات "التطريب المعجز" ويتبرك هزيودوس بهم في افتتاحية ملحمته "أنساب الآلهة"، ونجد دانتي كذلك يتضرع لهن في معراجه للسماء في كتاب "النعيم"، ونلحظ إجماع العالم القديم بأن إنجازات المرء العظيمة وأعماله كانت بفضل روحٍ تزوره وتلهمه الإبداع والجمال والأفكار مباشرة. بالإضافة إلى الحضارة العربية والرومانية، نجد كذلك أن أديانًا أخرى عبر التاريخ آمنت بنفس الفكرة: فقد آمن الإغريق بأن الربة أثينا كانت (بالإضافة إلى مهامها الأخرى) هي ربة الفنون والحكمة. في

أساطير السلتيك، نجد الإلهتين آناد وسادڤ، في ثقافة النورس، فقد آمنوا بالرب كفسيار، ومجموعة من الأوروبيين آمنوا بإيبونا، ربة الإبداع والإلهام.

لقد كان الفضول صفة بغيضة ممقوتة، فهو صفة تقود إلى العلم والمعرفة والإلهام وتنزع العامل الغيبي من "مانح الإلهام" وتمنح البشر العادين صفات ينافسون فيها ذلك الكيان الغيبي المرهوب المانح. وخلال التاريخ، نجد تكرار التحذير من تتبع الفضول وسرقة النار. فبعد أن صلب زيوس بروميثيوس بين جبلين، أمر ابنه هيفايستوس بخلق العذراء باندورا كجزء من العقوبة على البشرية. وأوتيت باندورا الكثير من الهدايا والعطايا من جبل أولمبس. كانت إحدى تلك الهدايا هي صندوق منحها إياه زيوس، إلا أنه أمرها ألا تفتحه، غير أن باندورا لم تستطع مقاومة فضولها وفتحت الصندوق وخرجت كل شرور البشر منه. مذعورة، أسرعت باندورا لإغلاق الصندوق، إلا أنها تأخرت ولم يبقَ فيه من الشرور إلا فقدان الأمل لم يصب البشر.

أما العهد القديم في الكتاب المقدس والذي يفترض أنه رسالة الرب للبشر، فإننا نقرأ عقاب الفضول في أول فصوله في سفر التكوين: قصة خروج آدم وحواء من جنة عدن. فحين خلق آدم نجد الرب يحذره: "وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنَّة عدن ليعملها ويحفظها. وصى الرب الإله آدم قائلًا: من جميع شجر الجنَّة تأكل أكلًا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت". وفي ذلك الحين أخضع الرب الإله آدم لسبات وأخرج منه ضلعًا، ومنه بنى الرب الإله امرأة وأحضرها إلى آدم. ومن بين خلق الرب نتعرف على الأفعى والتي تقربت إلى المرأة وحاورتها: "وكانت الحيَّة أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: «أحقًّا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنَّة؟» فقالت المرأة للحيَّة: «من ثمر شجر الجنَّة نَأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنَّة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسَّاه لئلّا تموتا». فقالت الحيَّة للمرأة: «لن تموتا! بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر». فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان. فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر". وعندما يعلم الرب خطأهما، يكتب عقوبة لكل منهم: الحية، المرأة والرجل. لماذا؟ لأن القدرة على البصر في العهد القديم هي نفسها توازي سرقة النار في جبل أولمبس، فكلاهما يوازيان الرغبة المعرفية، وفي أعراف السابقين كلاهما يتطلبان عقوبة سرمدية. ويستمر العهد القديم في تحذيره من الفضول في قصة تدمير قرية النبي لوط التي كانت باسم سدوم (وهي من القرى الواقعة في منطقة البحر الميت) فنقرأ أنه عند خروج لوط وأهله من القرية نزولًا عند أوامر ملائكة رب العهد

القديم، سنرى عقوبة تتبع الفضول التي كانت ضحيتها زوجة لوط، فقد حذرهم الملائكة من الالتفات والنظر إلى ما سيحل بالقرية، وبينما التزم لوط وبناته بالأمر، خالفته الزوجة ونظرت فتحولت فورًا إلى عمود من الملح. ونقرأ نصًّا في سفر الجامعة في العهد القديم يحذرنا من جرم الفضول: "لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم، والذي يزيد علمًا يزيد حزنًا". أما القديس أوغسطين، والذي عاش في القرن الخامس فإنه يقول: "لقد بنى الرب الجحيم للفضوليين". وقد اقتبس أوغسطين من إنجيل القديس يوحنا المقولة الشهيرة أن الفضول هو "شهوة الأعين" وحذر من محاولات عد النجوم أو حبات الرمل، لأن في نظره أن مثل هذه الدروب تقود المرء بعيدًا عن النهج الإلهي.

لقد حاول الأسبقون تحذيرنا من حب المعرفة، فجعلوا العبقرية كيانًا غيبيًّا والفضول جرمًا أثيمًا.

ونجد تفرعات لهذه الفكرة في الأدب الأوروبي فنقرأ عن شخصية الخيميائي الألماني "الدكتور يوهان فاوست" في العمل الشهير الذي تناوله الأدباء الأوروبيون بوفرة والذي يروي قصة الطموح "فاوست" والذي يطلب معونة الشيطان فيستحضره ليمنحه علوم الأرض، لكنه يدفع ثمن ذلك ويصبح رهينة الشيطان في جهنم بعد وفاته.

* * *

إن قصة العبقرية هي قصة لصوص النار، أحفاد بروميثيوس وذريته الفكرية، أولئك الذين يتتبعون فضولهم ويمشون في دروب لم يسبقهم أحد أليها، لكن عقوبة لصوص نار المعرفة هي أشبه بالخطيئة الأولى كما يؤمن أتباع المسيحية، فكما عوقب لصوص الفردوس بالنزول منه، وكُتب على سلالتهم رجس الخطيئة الأولى، ورثت ذرية لص النار الأول عقوبته، ومثل ما صلب بين جبلين، فإن كل من سعى خلف النار ليضيء بها دروبا احترق بها. لذلك حذرنا الأولون من عواقبها أحيانًا في قصص رمزية، وأحيانًا بواقع مؤلم، فقد صلب بروميثيوس بين جبلين، وذاب جناحا إيكاروس ليسقط من شاهق، ونزل آدم وحواء من جنة عدن، وتحولت زوجة لوط إلى عمود ملح، وحوكم سقراط وتجرع سم الشوكران، واتُّهم ابن سينا وابن عربي بالحياد عن السنة السليمة، وحاكمت الكنيسة كوبرنيكوس وجاليليو، أما روح فاوست فإنها مغلولة في الدرك الأسفل من الجحيم.

لكن عقوبة لصوص النار ليست فكرة رمزية أو شاعرية كما يتغنى الكثير. إنما سنجد أن حقيقة عقوبتهم واقعية ومبررة، فتلك النار تحرق روح من يسعى لها وتكلفة ثمنًا باهظًا. إن العبقرية تتطلب فضولًا، والفضول يتطلب

تفردًا، والتفرد يتطلب تمردًا، والتمرد يتطلب تحدي المسلمات، وليس كل من خاض تلك الرحلة يعود منها آمنًا معافى، فبدون تعرف المرء إلى جانبه المظلم (والذي سماه عالم النفس الأهم كارل يونج: الظل) وبدون ملامسة ما نخشاه وبدون مواجهة ما كبتناه والتنقيب عما دفناه، لن نعرف السبيل إلى التنوير، وفي ذلك قال يونج مقولته الخالدة: "لا يذوق حلاوة التنوير ذلك المتأمل في ملكوت النور، إنما ذلك الذي يقر بسلطان الديجور، وذلك ثقيل عليه فهو يتلافاه".

لهذا تسعى المؤسسات المجتمعية والتعليمية والدينية لصيانة أفرادها وتنفرهم من التفرد وتجلد بسياطها أولئك الذي يشذون عن الصراط المستقيم، فغالبا نار المعرفة التي تحرقهم هي نفس النار التي تضيء الدرب لباقي البشر. لذلك حذرنا كارل يونج حين كتب:

"... يدفع المرء ثمنًا باهظًا لقبوله هبة نار الإبداع المقدسة...".

عن الكتاب

من الموبقات البغيضة في قراءة الكتب العلمية أن يسهب الكاتب في حديثه عن نفسه، ولعله من المكروه أن يقول "أنا" أو "وكان أثر ذلك عليّ" أو "كنت مصيبًا وكانوا على خطأ" إلخ... فالموضوعية مهمة في الكتب العلمية، وذلك يتطلب إزاحة المشاعر والذاتية. لذا أرجو من القارئ الكريم أن يغفر لي هذه المقدمة الصغيرة عن دوافعي لكتابة هذا الكتاب، وستكون آخر مرة أمنح لنفسي مساحة في الصفحات القادمة.

طيلة عمري كنت محاطًا بأشخاص أذكى وأنجح مني (على الأقل بالمعنى التقليدي، وما أقصده بذلك هو النجاح كطالب أو كموظف أو كرائد أعمال). وقد أورثني ذلك إحساس بالنقص والدونية والاتكال على الغير في صنع قرارات مستقبلي، وكان تبريري أنه من الأسلم ألا يفكر الأغبياء. إلا أنني اضطررت لمواجهة هذه الأفكار المترسبة حين بدأت أطور اهتمامي بالكتابة أيام الجامعة (وهو أمرٌ أبقيته لذاتي خشية السخرية والتنكيل). وسعيت أن أتفوق فيها بكل وسيلة ممكنة، وقد كان ذلك غاية في الصعوبة: فكون الكتابة عملًا إبداعيًّا يتطلب عقلًا يتيح للفوضى العبث والتجول في أحلام اليقظة، والدراسة والوظيفة تتطلبان عكس ذلك (مرة أخرى: بالمعنى التقليدي)، حيث يجب أن يتم كل شيء بسرعة وحسم. وقد عانيت أشد معاناة وضحيت بشتى السبل كي أحافظ على شغفي. فقد رأيت كيف تبعثرت أحلام أقراني الجامعيين الإبداعية بعد أن بدأوا حياتهم الوظيفية، فبدلًا من ممارسة هوايتهم (سواء كانت التصوير أو الكتابة أو الرسم أو حتى السفر حول العالم)، صار همهم الأول والأخير هو التفوق الوظيفي وارتقاء درجاته بأسرع وقت ممكن، حتى لو عنى ذلك التضحية بمعدنهم وشغفهم وهويتهم، وقضوا حياتهم لإرضاء رؤسائهم وعوضوا عن فشلهم عن إرضاء ذاتهم بسيارة فارهة ومنزل فخم وساعة فاخرة.

وبينما تقبل البعض هذا الوضع وتأقلموا معه، خشيت أن أقع في براثنه.

ذات مرة شرحت أزمتي لمدرب كتابة في ورشة عمل فوصف حالي كذاك الذي يحاول أن ينصف بين زوجته وعشيقته، بين رتابة وملل الحياة الزوجية، وبين شغف وحرارة العشيقة، وأنه في سبيل الإبداع، بعض التضحيات مطلوبة. لصوص النار لا يحق لهم أن يهنأوا بحياة هادئة. وبعد الاطلاع على حياة العباقرة والمبدعين تفهمت ما يقوله، ويجوز أن نقول إن الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه لخصها في قوله:

"... من ينازع وحوشًا يجب أن ينتبه جيدًا ألّا يتحول إلى وحش. فحين تطيل النظر إلى الهاوية، تنظر أيضًا الهاوية إليك وتنفذ فيك".

أثناء تأليف الكتاب، كنت أحاول أن أفهم لماذا فشلت بينما نجح أقراني، لماذا تقهقرت بينما بزغ نجمهم. قادني ذلك إلى فهم دور الحظ وتلك الهبات الخفية التي لا نعي وجودها حولنا وأثرها فينا، ولماذا كلما بذلت مجهودا حاصرني الفشل وعدم الرضا. ولعلي اقتبس كلمات الدكتور علي الوردي حين حذرنا من أنه ليس كل من جدّ وجد، وليس كل من زرع حصد. الحياة ليست عادلة، ورغم بساطة هذه الحقيقة، إلا أننا نتشبث بنضيدها بمخالب. وفي خضم محاولتي لفهم فشلي، بدأت أفهم خطأنا الشائع في تفسير النجاح والناجحين، أو أولئك الذين أطلقنا عليهم لقب العباقرة. وأدركت أن كتبنا خانتنا، وأنها أوصلت إلينا صورة خاطئة عن أولئك الأفذاذ، وقضيت آخر عشر سنين محاولًا فهم تلك الفجوة. ومن المناسب هنا اقتباس الروائي الأرميني الأمريكي ويليام سارويان على لسان جد ساخط عركته الدنيا:

"إذا قرأت في أحد الكتب، أن رجلًا يجلس طول اليوم تحت شجرة يعزف قيثارة ويغني، فاعلم أن هذا الكاتب لا يفقه شيئًا.

المال هو الغاية، ليذهب هو وقيثارته ويعمل فترة تحت الشمس!

إذا قرأت في أحد الكتب، أن صبيًّا يجيب رجلًا عجوزًا بحكمة، فاعلم أن هذا الكاتب لا يفقه شيئًا".

ما أحاول إنجازه في هذا الكتاب هو أن أثبت لك أن الكاتب الذي يخبرك "أن العبقرية هبة يولد المرء بها". فاعلم أن هذا الكاتب لا يفقه شيئًا. وإذا قرأت في كتاب تلك القصة التي تخبرك "أن العبقري عصامي". فاعلم أن هذا الكاتب لا يفقه شيئًا. إذا أخبرك شخص أن العبقرية تولد من رحم المعاناة، فاعلم أن ذلك الشخص لا يفقه شيئًا. إذا اقتبس أحدهم المقولة "أن العبقرية تسع وتسعون في المائة جهد وواحد في المائة إلهام". فاعلم أنه لا يفقه شيئًا. عندما يخبرك أحدهم أنك لست "جرمًا صغيرًا" وأن "وفيك انطوى العالم" فاعلم أنه أخبرك نصف حقيقة، فبينما أنت جرم صغير انطوى بداخله العالم،

إلا أنك جزء من مجرة ضخمة معقدة تخضع لقوانين صارمة قاسية لا ينجو منها الجميع.

وحين أتفكر في تعقيد ما سأقدمه، وأتساءل إن كنت أعقد الأمور وأبالغ في تحليل المعطيات، فإني أتذكر تفاحة ليو تولستوي من روايته المهمة "الحرب والسلم" (وربما حان الوقت أن يخلد التاريخ هذه التفاحة كما خلد تفاحة آدم وتفاحة نيوتن وتفاحة ستيف جوبز). يصف تولستوي أسباب فشل غزو نابليون لروسيا:

> **"بموجب تلاقي الأسباب وتضافرها فقد ظهرت آلاف الأسباب الصغيرة لهذه الحركة وهذه الحرب، وتوافقت مع ذلك الحدث المطاعن على خرق الحصار القاري وإهانة دوق أولدنبرج ودخول الجيش إلى بروسيا بقصد تأمين السّلام المسلّح (كذلك كان يعتقد نابليون)، حب نابليون للحرب وهو حب توافق مع استعدادات شعبه وجاذبية الاستعدادات الضخمة والنفقات التي جرتها وضرورة تأمين المنافع والمغانم اللازمة لتغطية تلك النفقات وأمجاد درسدن المثملة والمحادثات الدبلوماسية التي حدتها الرغبة الصادقة في السلام كما يرى المعاصرون... ملايين الأسباب الأخرى التي أسهمت في إتمام الحدث وتلاقت معه.**
>
> **عندما تنضج التفاحة وتسقط فلماذا تسقط؟ ألأن ثقلها جرها إلى الأرض؟ ألأن سويقها جف؟ ألأن الشّمس أحرقتها؟ ألأنها مفرطة الثقل؟ ألأن الرّيح هزّتها؟ أم لأن الصبي الجالس تحت الشجرة اشتهى أن يأكلها؟ ليس في ذلك كله ما يعد سببًا حقيقيًّا لسقوط التفاحة وليس ها هنا سوى توافق بين الشروط الملائمة لاكتمال الحدث الحيوي العضوي الابتدائي وعالم النباتات الذي يزعم أن التفاحة سقطت نتيجة لتحلل النسيج الخلوي أو لأسباب أخرى مشابهة، محق كالطفل الذي يزعم أنها سقطت لأنه اشتهى أن يأكلها ولأن الله استجاب لدعائه، ومن يزعم أن نابليون زحف على موسكو لأنه كان يريد ذلك وأنه لقي الخسران والدمار لأن ألكسندر كان يريد ذلك، محق ومخطئ معًا".**

أكتب هذا الكتاب لأولئك الذين يشع بداخلهم جرم صغير، والذين يقاتلون ليبقوه مشتعلًا متوهجًا.

أكتب لنفهم أسباب سقوط التفاحة، وكيف أنه علمنا شيئًا وخفي علينا كثير.

أكتب لأصف تلك القوانين الصارمة القاسية التي خفيت عنا.

عمَّ نتحدث حين نتحدث عن العبقرية؟

المشكلة

ما هي جدوى كتاب آخر يناقش شؤون العباقرة؟

قد يكون هذا السؤال هو الأهم لنقاش هذا الموضوع. ألم يُحسم الأمر بعد؟ فهو موضوع قد تناوله الفلاسفة والمفكرون (بحسب ما يخبرنا التاريخ المُوثق) منذ العصر الثالث قبل الميلاد، وقد ناقشه كثيرون بدءًا بسقراط وأفلاطون حتى عصرنا الحالي، وجميعهم بحثوا عن الحمض النووي الذي تأتي من بين طياته جينات العبقرية. وحتى عصرنا الحاضر يظل السؤال يؤرق قلب كل شاب بحث في خفايا الموضوع محاولًا معرفة إذا ما كانت العبقرية من نصيبه أم أنها حادثة، وجعل يبحث بعجز ويأس في كتب العظماء عن صفات تتوافق بينه وبين ذلك العبقري أو ذاك المخترع، خاصة إذا ما تعثّر في دربه الأكاديمي، أو لم يجد ذاته في السلك الوظيفي، أو شعر بإجحاف عام في مجتمعه لذكائه أو موهبته أو شغفه، لأن القصة التقليدية الهوليودية تخبرنا أن التعثر والمعاناة والجهاد هي من ديدن العمالقة. وبينما يأسى إن رفضته جامعة أو لعجزه عن الالتحاق ببرنامج موهوبين أو فشله في شركة، يطمئنه جزء آخر بداخله أن ذاك حال العظماء، بل قد يتجاوز ذلك ويعزي ذاته أنهم (أولئك الذين رفضوه) سيندمون في المستقبل القريب وسيعضون أناملهم حين يرون نجاحه مع غيرهم، كأنه يطالب الكون أن يؤمِّن له نفس تلك الصفقة التي عقدها مع أولئك العظماء الذين فشلوا في بداية حياتهم. وكذلك يتحرَّقُ بذلك السؤال كل "مُبدع" حاولت أنامله كتابة رواية، أو رسم لوحة أو نحت تمثال، أو بادر عمله في معمله وانحنى فوق مجهره ليتأمل الذرات الصغيرة، أو تناول مبضعه ليفهم أسرار الجسد، أو تطلع إلى السموات اللامتناهية متسائلًا عن مكانته ومكانه ووزنه وأهميته بين البلايين من نجومها. وكُل والدين تمنيا أن يأتي من ذريتهما طفلٍ ألمعي يحوز المراكز العليا في مشواره الأكاديمي، ويخلد اختراعًا أو فنًّا في التاريخ يغير به وجه البشرية، فيدللان طفلهما على أنه

دافينشي أو نيوتن أو بيكاسو أو أينشتاين، وقد يحاولان تأهيله في سن مبكرة لذلك المستقبل المبهر عن طريق الإلهام بالإيحاء، فنجدهما يعلقان صورًا لأولئك العظماء على جدار غرفته، أو يجعلانه يستمع إلى موسيقاهم أو يشاهد أفلامهم أو يقرآن له قصصهم وما إلى ذلك.

بحثٌ سريع في الشبكة العنكبوتية يظهر ما يزيد على ستين ألف كتاب بكلمة "عبقري" في العنوان، وهي كتبٌ يتناول بعضها السير الذاتية لأولئك الأفراد المتميزين، وبعضها يتناول قوائم العبقرية على شاكلة "أهم مائة عبقري في التاريخ" وما شابه. وحاولت كتب أخرى تقديم وصفة أكسير للعبقرية، وبإمكانك تمييزها من عناوين مثل: "كيف تُصبح عبقريًّا في عشر خطوات سريعة" أو "كيف أصبح فلان عبقريًّا" أو "عبقرية فلان".

منذ ما قبل الميلاد، كانت العبقرية محل نقاش الفلاسفة والمفكرين (وبعض الأحيان رجال الدين)، وذلك أبقانا في عتمة مضلِّلة لقرونٍ عديدة. أما أول محاولة علمية جادة للعلماء لفهم مصدر العبقرية فكانت في القرن الثامن عشر على يد العالم البريطاني فرانسيس غالتون (كما سنقرأ في الفصول الأولى)، وظل علماء القرون التاسعة عشر والعشرين والحادي والعشرين يحاولون فهم ذلك السر. لكننا تخبّطنا كثيرًا في محاولة فهمنا لمصدر هذه القوة الغامضة، فبعد أن أخبرنا بعض العلماء أن العبقرية هي هبة ميلاد جينية، وقع العالم ضحية الإيمان أن معدل الذكاء هو العامل المحوري لتحديد العبقرية، لكن أدلة دامغة من القرن العشرين والحادي والعشرين أظهرت خطأ هذا المنظور وحاولت البحث عن البديل.

نقطة أخرى قد تُهمِّش أهمية الكتاب هي أننا، على ما يبدو، لم نعد بحاجة للعباقرة في عصر التكنولوجيا والتقدم والمعلومات. ألم يصبح الدور الذي نسبناه لقدرات ومهارات الإنسان (والعبقري كذلك) شبه ثانوي في ضوء الثورة الإلكترونية؟ لقد تطلب الإنسان المنتصب (هومو إريكتوس) في كهفه قرونًا حتى يوظف النار ويطبخ الطعام ويُضرمها في أولئك الذين يختلفون معه. أما نحن (أولئك الذين لقبنا ذاتنا: الإنسان الحكيم أو هومو سابيان) فقد قفزنا قفزات نوعية غيرت تاريخ البشرية في فترة محدودة مقارنة بالرجل البدائي. وفي غُضُون خمسين سنة صنعنا الحاسب الآلي وصعدنا إلى القمر وضاعفنا مدة متوسط الحياة. أما اليوم فيتحدث العلماء المستقبليون عن المرحلة التالية للإنسان محاولين تخيل حال البشرية بحلول العام 2050م. فبينما قامت بعض التغيرات في تركيبتنا العصبية والهرمونية بالارتقاء بالإنسان البدائي الذي كان يستخدم السكين الحجرية إلى مصمم المركبة الفضائية، فلنا أن نتخيل ما سيحدث حين يتمكن الطب والتكنولوجيا من الوصول إلى علوم كافية تمكننا

من التلاعب بحمضنا النووي وبأعضائنا الجسدية، وبمشاعرنا وذكائنا بسبل مختلفة. بل وربما سينجح الطب الحديث حيث فشل فيكتور فرانكشتاين (كما في رواية ماري شيلي) ويتمكن الطب من صناعة رجل بعضلات مصارع ولسان شاعر ورئتي سباح وساقي عداء وعقل فيلسوف.

في كتابه "هومو ديوس"، يؤكد المؤرخ المهم يوفال نوح هراري حتمية حدوث ذلك، وسيكون ذلك في إحدى الصور التالية: الهندسة الحيوية (إعادة كتابة الحمض النووي، وإعادة صياغة الدوائر الدماغية، وحتى نمو أطراف جديدة تماما)، الكائن السيبراني أو السايبورغ (دمج الجسم العضوي مع الأجهزة غير العضوية مثل الأيدي البيولوجية، العيون الاصطناعية)، أما السبيل الثالثة، والأكثر طموحًا فهي هندسة الأعضاء غير عضوية (على سبيل المثال: سيتم استبدال الشبكات العصبية ببرمجيات ذكية، والتي ستمكننا من التنقل بين العالمين الافتراضي وغير الافتراضي، بدون قيود الكيمياء العضوية)، وقد رأينا الأدب والسينما يحلمان بهذه الفكرة ويعالجانها في صور مختلفة سواء كأبطال خارقين أو رجال آليين أو علماء متمردين وغير ذلك. خاصة إذا ما أخذنا في عين الاعتبار أن بإمكاننا في العصر الحاضر الاطلاع في يوم واحد على محتوى يفوق ما يعرفه المرء في حياته بالكامل في القرن الماضي، وأنه بفضل التراكم المعرفي والتطور أصبح بإمكاننا أن ننجز في ساعات ما احتاجوا أشهرًا أو سنوات أو عقودًا لإنجازه، وأن الموسيقيين المبتدأين اليوم يتفوقون على موتسارت وبيتهوفن، وأن ذلك ينطبق على باقي المجالات الفكرية البشرية. أما في حلبة الرياضة، فإن رياضيي اليوم أطول وأسرع وأقوى وأكبر من رياضيي الماضي، وليس لنظرية التطور أو النشوء علاقة بذلك، إنما هي كمية التراكم المعرفي والتطور التكنولوجي. لذلك فإن للمرء الحق أن يتساءل عن أهمية الاطلاع على كتاب يناقش العبقرية والعبقري، بينما في المستقبل غير البعيد سيكون لدينا القدرة على تدجين وتهجين بشر متطورين ومتفوقين.

ماذا عن الذكاء الصناعي؟ لماذا نحتاج لعقول العباقرة إذا كان بإمكاننا استبدالها بأدمغة أعصابها نحاس وعضلاتها من حديد؟

لقد هزم جهاز شركة آي بي إم المشهور باسم ديب بلو لاعب الشطرنج السوفياتي الأعظم غاري كاسباروف في عام 1997م. وفي الساحة الأدبية، كتبت بعض ألوان الذكاء الصناعي روايات وبعضها ترشح إلى مراحل متقدمة في مسابقات أدبية عالمية. أما السيارات ذاتية القيادة فقد أصبحت في متناول أصابعنا.

هل هو بعيد ذلك اليوم الذي تبدأ فيه الحاسبات الآلية باتخاذ قرارات وصياغة أفكار؟ لا يبدو ذلك. بل إن أيقونة الابتكار إيلون مسك حذرنا من أن

الذكاء الصناعي هو "أكبر تهديد وجودي" وينبع قلقه من أننا نخلق ما هو أذكى منا. كأنه يحذرنا من مسخ فرانكشتاين المعاصر.

قد يدل كل ذلك أن عبقرية البشر أصبحت من هموم الماضي وأنها تنتمي إلى رف الكتب نفسه الذي تنتمي إليه كتب العلاج بالسحر وأسلحة البارود والملاحة بالنجوم والمحرك البخاري وما إلى ذلك.

لكن هذا الكتاب لا يُعنى بكل هذا. إذ أن دوره بشكل رئيسي هو أن يكون كتاب تاريخ لفهم تاريخ العبقرية المُتشابك وسلوك العباقرة المُعقد، والذي رغم أهميته ما زلنا نخطئ فهمه.

وقد يقودنا ذلك لطرح سؤال مهم: لماذا ندرس تاريخ العبقرية؟

بالتأكيد، هناك الإجابة الجاهزة والتقليدية: نقرأ التاريخ كي نتعلم منه، فعندما نعرف سلوك العباقرة، بإمكاننا أن ننهج نهجهم، وإذا كنا أذكياء وتعلمنا درسنا، فإننا على الأرجح سنحظى باللقب. أما الإجابة الأخرى فهي أننا نقرأ التاريخ ليعيننا على التنبؤ بالمستقبل. لكن هذه الإجابات غير متماسكة وغير وافية وغير عميقة. لا يستطيع أحد أن يتنبأ بالمستقبل من خلال دراسة بيانات الماضي والحاضر، سواء كان ذلك في الرياضة أو الاقتصاد أو السياسة أو الصحافة أو القانون إلخ. وهذا ما أثبته العالم السياسي فيليب تيتلوك مرارًا وتكرارًا على مدار العقود الثلاثة الماضية، بل إنه لا يزال يؤكد أن دقة تنبؤات الخبراء تكاد لا تتجاوز الخمسين في المائة، أي أنها تظل أقرب للتخمين، ويضرب لنا مثالًا على ذلك: في عام 1984م في الولايات المتحدة الأمريكية، تم تشكيل لجنة لدراسة احتمال قيام حرب نووية جديدة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، وكان تيتلوك من ضمن أعضاء تلك اللجنة والتي تشكلت من خبراء في مجالات مختلفة (شملت اللجنة ثلاثة حائزين على جائزة نوبل). من ضمن إحدى مهام تلك اللجنة تقدير احتمالية رد فعل السوفيات على قرارات الرئيس الأمريكي رونالد ريجان، وتفاجأ تيتلوك من تضارب آراء الخبراء وعجزهم عن الوصول إلى توقع مشترك، بل إن كل التنبؤات أثبتت فشلها بعد عام (الأغرب من ذلك، أن الخبراء آمنوا أن تنبؤاتهم كانت صحيحة!).

عندما ننظر إلى التاريخ فإننا نسعى لاستشارة الأوائل عن حكمتهم وقدراتهم التكهنية، إلا أن ذلك سيقودنا إلى فشل ذريع، فالتاريخ لا يسير وفقًا لقواعد ثابتة تكرر ذاتها. في الواقع، عندما ندرس التاريخ فإننا نرجو التعرف إلى الخيارات والبدائل المهمة والتي عادةً ما نغفل عنها. فعندما يلتفت المؤرخون إلى التاريخ فليس ذلك لتكراره أو تجنب تكراره، إنما لتوسيع مداركهم والتعرف إلى خيارات تحررهم من تلك القبضة الباردة، أو كما لخصها

أبو حامد الغزالي في مقولته الخالدة: "إن الإنسان مُخيّر في ما يعلم مُسيّر في ما لا يعلم.. أي أنه يزداد حرية كلما ازداد علمًا". وكلما ازداد المرء حرية كانت أحلامه وأفكاره مختلفة وناضجة وطموحة.

يلفت هراري انتباهنا إلى حقيقة نغفل عنها: كل منا ألزمه ميلاده أن ينتمي إلى تاريخ معين، وهذا التاريخ صبّ فينا عادات وتقاليد وقيمًا ووضعنا تحت سقف زجاجي يكاد يستحيل تجاوزه [1]. وعادة ما يعزّي أولئك أنفسهم أن أجدادهم عاشوا هكذا، أو كما وصفهم القرآن الكريم: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا... قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...}** وينتهي بهم المطاف أن يعيشوا نسخة لنصٍّ كتبه السابقون. كل زمن تتحكم فيه عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وعلمية فريدة عن تلك التي تحكم أزمنة أخرى. ونادرًا ما يقضي أحدنا وقتًا يتأمل في هذه المعطيات، ونتعامل معها كأنها حقائق غير قابلة للتغيير أو أن تبعاتها محتومة ويخفى علينا قدرتنا على مقاومتها وتجاوزها. إن تطور التاريخ هو نتيجة عوامل مجتمعية وسياسية وتكنولوجية واقتصادية، لكنه أيضًا نتيجة أفكارنا ومخاوفنا وأحلامنا وطموحاتنا. ونشعر أن هذا التاريخ يقود توجهاتنا وسلوكنا إلى مستقبل محتوم لا نقدر على التنصل منه، وفي بعض الأحيان، نسعى إلى ذلك المستقبل بفخر موروث وحماس أعمى، ما يجعلنا معزولين محصنين، أو كما أشار الدكتور مصطفى محمود: "... الإنسان عدو لما يجهل... وهو لهذا لا يحاول أن يفهم... ويغلق كل باب يدخل منه النور بغبائه وتعصّبه...". ولذلك من العادة أن نبقى ضحيته، غير قادرين على التحرر منه، أو تخيل بدائل أخرى.

إن القصة التي نقرأها عن العبقرية هي قصة مغلوطة لكنها مترسبة في وعينا لدرجة أنه يصعب علينا أن نفكر بقصة أخرى وبدائل صحية. لذلك اقتضى الأمر دراسة تاريخ العبقرية، آملين أن نجد سبلًا تحررنا من قبضة تلك القصة، فأول خطوة لحل المشكلة هي إدراك أن هناك مشكلة، وإدراك ذلك يمكننا من دراسة البدائل واكتشاف إمكانيات لم تخطر ببالنا سابقًا أو ببال أجدادنا.

لنطلع على مثال من مجال آخر كنا دائمًا نحاول معالجته بالطريقة الخاطئة.

يخبرنا الطبيب النفسي چايبور ماتي في كتابه "في عالم الأشباح الجائعة: مواجهات وثيقة مع الإدمان" أن أكبر خطأ نرتكبه عند دراسة الإدمان والمدمنين هو افتراض أن درجة الإدمان تعتمد على قوة المخدر ونوعه،

فالحقيقة أن العامل الأهم أن درجة الإدمان تعتمد على تاريخ المريض بالدرجة الأولى، لذلك تختلف درجات الإدمان من شخص مدمن لآخر يتعاطى نفس المخدر (قد تبدو هذه الجملة جدلية جدًا، إلا أنها مؤيدة علميًّا). فعندما يسأل الطبيب المريض عن تاريخه النفسي والعائلي، فإنه لا يفعل ذلك ليتنبأ بالمستقبل، إنما لمعرفة المشاكل النفسية والبيولوجية المترسبة، وحينها يبدأ صياغة خيارات علاجية تُمكن المدمن التعامل مع الإدمان (والتي يأمل أن تقود إلى مستقبل أفضل).

بنفس الطريقة، يسعى الجزء الأول من الكتاب لدراسة تاريخ العبقرية وفهم ما نقصده حين نتحدث عن العبقرية.

ويقودنا ذلك لطرح السؤال التالي: هل لدينا إشكالية في فهم العبقرية؟

الإجابة المختصرة: نعم.

إننا نعاني من قصر في فهم العبقرية، ولعل أحد الأوائل الذين أشاروا إلى ذلك هو فيلسوف القرن التاسع عشر الألماني فريدريك نيتشه: "لقد تعودنا على عدم التساؤل، أمام كل شيء متقن، عن تكوينه، وعلى الاستمتاع بوجوده كما لو أنه انبثق من الأرض بضربة عصا سحرية. من المحتمل أننا لا نزال نكابد آثار انفعال ميثولوجي قديم. لا نزال تقريبًا نحس بنفس الشعور كما لو أن إلهًا شيد بكل يسر سكناه بتلك الأحجار الضخمة ذات صباح جميل".

لو تخيلنا العبقرية مريضًا مُحملًا بالأثقال يزور طبيبًا في عيادة نفسية، مثل أي مدمن مخدرات أو شخص يعاني من الأرق، فإن الطبيب سيحاول فهم جذور المشكلة الرئيسية التي قادت العبقرية لزيارته، ويسألها عدة أسئلة مهمة مثل: متى بدأت المشكلة؟ كيف بدأت؟ هل بدأت فجأة أم تدريجيًّا؟ هل تغيرت المشكلة مع مرور الوقت؟ وعند التنقيب في إجابات المريض، سيكتشف الطبيب أن العبقرية منحته أجوبة مُختلفة ومتضاربة في ثلاثة محاور رئيسية: في مفهومها (كيف تعُرف العبقرية؟)، في سلوكها (كيف تظهر العبقرية؟)، في صيرورتها (ما هي بُنية العبقرية؟).

بعد أن يستمع الطبيب للعبقرية تتحدث عن هذه التناقضات ويتعمق في تلك الإجابات المُعقدة والمُتشابكة ليفهم أصولها وتاريخها، يكتب وصفًا مبدئيًّا واضحًا لهذه المشاكل الثلاثة.

التشخيص:

لعلّ أول معضلة لوثت مفهوم العبقرية هو الأصل اللغوي لكلمة: "العبقرية".

من ناحية اللغة العربية، نجد أن القاموس المحيط يقر أن المصطلح مشتق من كلمة عبقر، وهو "موضع كثير الجنِّ" ويوافقه في ذلك المعجم الوسيط. أما تعريف المعجم الوسيط فيذكر: "العبقري: نسبة إلى عبقر: وهو صفة لكلِّ ما بُولغ في وصفه وما يفوقه شيء". ومصدر هذه التعاريف هو إيمان العرب الأوائل أن الشعراء النوابغ استسقوا شعرهم لما زاروا واديًا في مكان ما من منطقة نجد في الجزيرة العربية يعرف باسم وادي عبقر، وهو وادٍ شاع عنه أنه مسكون بالجنِّ والشياطين. فكتب الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه "العين" أن عبقر هو موضع بالبادية كثير الجن، وقال ابن الأثير: "عبقر قرية تسكنها الجن فيما زعموا، فكلما رأوا شيئًا فائقًا غريبًا مما يصعب عمله ويدقّ، أو شيئًا عظيمًا في نفسه نسبوه إليها فقالوا: عبقريّ، اتُّسع فيه حتى سمي به السيد والكبير". أما كتاب "جمهرة أشعار العرب" فيحكي قصة مظعون بن مظعون الأعرابي الذي كان مهووسًا بقصص الجن الذين رافقوا شعراء العرب، وينقل عن مظعون أنه قال: "علمت أن لشعراء العرب شياطين تنطق به على ألسنتها..." ويروي نفس الكتاب على لسان رجل من الشام أنه كان مقطوعًا بأرضٍ اسمها بلقعة ووجد هناك خيمةً فيها شيخٌ كبير وصبية وطلبهم المبيت. وعن تلك الليلة كتب: "... تحدثنا طويلًا إلى أن قلت: أتروي من أشعار العرب شيئًا؟ قال: نعم، سل عن أيِّها شئت! قلت فأنشدني للنابغة! قال: أتحب أن أنشدك من شعري أنا؟ قلت: نعم! فاندفع ينشد لامرئ القيس والنابغة وعبيد ثم اندفع ينشد للأعشى، فقلت: لقد سمعت بهذا الشعر منذ زمانٍ طويلٍ. قال: للأعشى؟ قلت: نعم! قال: فأنا صاحبه. قلت: ما اسمك؟ قال: مسحل السكران بن جندل، فعرفت أنه من الجن، فبت ليلة الله بها عليم ثم قلت له: من أشعر العرب؟ قال: إروِ قول لافظ بن لاحظ وهياب وهبيد وهاذر بن ماهر، قلت: هذه أسماء لا أعرفها. قال: أجل! أما لافظ فصاحب أمرئ القيس، وأما هبيد فصاحب عبيد بن الأبرص وبشر، وأما هاذر فصاحب زياد الذبياني، وهو الذي استنبغه. ثم أسفر لي الصبح، فمضيت وتركته".

ونجد كذلك حضور هذه العلاقة الميتافيزيقية في التراث الغربي كما نرى في اللغة الإنجليزية، والتي ورثت المصطلح من اللغة اللاتينية حيث نجد أبكر استخدام لها في كتابات المؤرخ بلوتارخ في القرن الثالث قبل الميلاد في حديثه عن العالم أرخميدس. فقد اصطلح الرومان على تسمية تلك الروح باسم (genius)[2] للدلالة على هذا المصدر. وقد آمنوا أن العبقرية هي روحٌ خفيةٌ تعيش بين شقوق جدران حجرة الفنان لتساعده في عمله وإنجازاته!

ونجد مثالًا مباشرًا لأهم فيلسوف في التاريخ الغربي: سقراط، فهو نفسه أحد أولئك الذين ادّعوا أنه كان لهم قرين يرشدهم إلى دروب الحكمة (فيما بعد، نسب البعض قبح سقراط الشديد إلى حقيقة أن روحًا شيطانية امتزجت بروحه). وكتب المُؤرخ زينوفون (الذي كان أحد طلابه)، أنَّ التُّهمة التي زجَّت بسُقراط في السجن هي أنَّه أتى وآمن بروحٍ جديدة تختلف عن ما كانوا يؤمنون به آنذاك ممَّا هدَّد أمن الولاية، ولهذا السبب اتهموه بالهرطقة وحوكم باعتباره مفسدًا للشباب! وذكر أحد المصادر أنه أخبر أصدقاءه وقت إعدامه بأنَّ قرينه الجنِّي أباح له شرب السم فشربه بهدوء ومات بهدوء.

ويبدو أن ذلك الإيمان تجاوز سقراط لأفلاطون، والذي نفى أي فضل للشاعر الذي تتقمّصه تلك الروح، وجعله أشبه بإناءٍ فارغٍ ونسب تلك الأفكار والإنجازات العظيمة تمامًا لأرواح وعفاريت خارج كيان العبقري.

وظل هذا التفسير الميتافيزيقي مهيمنًا على الفكر الغربي حتى عصورها الوسطى، في عام 1568م، نجد الفنان جورجو فازاري يكتب عن مصدر عبقرية فنان عصر النهضة الإيطالي رفائيلو: "تهب السماء في بعض الأحيان هباتها لواحدٍ وحيدٍ مفضل لديها...". أما في عام 1623م فنقرأ أحد أبكر المعاجم الإنجليزية يُعرف العبقري أنه "ملاك صالح أو روح مألوفة وشريرة!". أما في عام 1744م، فنقرأ للشاعر البريطاني مارك أكينسايد: "تنزَّل شعلات العبقرية من الجنة إلى صدر البشر". ويجب أن لا يخفى علينا أن وصف فازاري

ووصف أكينسايد للعبقرية يهمل العامل البشري الذي أتى من خلاله العمل العظيم، كأنما يتفقان مع أفلاطون والذي كما أشرنا مبكرًا جعل جسد الشخص أشبه بإناءٍ فارغٍ تأتيه الروح بإلهام. إن نظرية أن يأتي المرء بفكرة مبدعة ناتجة من داخله كانت مرفوضة وغير مُستساغة [3].

بإمكاننا تتبع تغير المنظور تدريجيًّا بمراقبة اللوحات الفنية التي رُسمت والتي تعبر عن العبقري، ليس كشخص، إنما كروح. في القرن السابع عشر، نجد رسمة أخرى مشهورة باسم "مُعضلة الفارس المسيحي" لرسامٍ مجهول الهوية، فيها، يظهر الفارس الذي أنجز أمورًا عظيمة يقف بين ملاك وشيطان، وهو محتارٌ لأي "عبقري" يستجيب. في نفس تلك الفترة نجد رسمة شهيرة بعنوان "عبقري الشهرة" وتمثل صورة شابة مُجنحة متكئة على ركبتها وتحمل في يمناها تاجًا من الورود. ولعلنا نجد أقوى تجسيد لتلك الفكرة العتيقة في رسمة الفنان يوجين ديلاكروا التي تصور الجني أو العبقري يحلق قريبًا من رأس الفيلسوف سقراط.

لقد كان الإبداع والقدرة الخلاقة من الأمور التي تخص الأرباب أو الأرواح أو الجن، وهم وحدهم القادرون على خلقها ومنحها للبشر. في كتابه "متاهة الإبداع"، كتب أرنولد باسي "سابقًا، كان الخلق من اختصاص الآلهة؛ أما الآن فيُنظر إليه على أنه نشاط يمكن للبشرية أن تشارك فيه...".

لكن رغم ذلك لا نزال نجد شوائبها مترسبة وأن استخدامها لا يزال دارجًا حتى وقت قريب، فنجد الشاعر الشهير روديارد كبلنج يقول: "حين تكون تحت وطأة قرينك، لا تحاول التفكير. انسجم، انتظر، وأطع". بينما يصف الروائي جورج أورويل كتابة الكتاب أنها تجربة مؤلمة: "... تأليف الكتاب هو صراعٌ رهيب ومرهق، كما لو كان نوبة طويلة من مرض مؤلم. لن يحاول المرء القيام بشيء كهذا أبدًا لو لم يكن مدفوعًا بشيطان ما، هو ليس قادرًا على مقاومته ولا فهمه...". أما الشاعر الحساس راينر ريلكه، والذي عانى من مشاكل نفسية مزمنة، والذي ربطته علاقة وثيقة بسيجموند فرويد (والذي كان مصدر إلهام فرويد عندما كتب مقاله الشهير بعنوان "عن الزوال")، فقد رفض أن يخضع للعلاج النفسي خشية أن يصحِّحه العلاج "كما يصحح القلم الأحمر عمل الطفل في المدرسة". والأهم من ذلك، أنه خشي من أن العلاج قد "يطرد الشياطين من داخله".

ويجب الإشارة إلى أن امتداد فكرة "العبقرية من خلال الروح" إلى القرن العشرين أمرٌ غريب، إذا أن موجةً أوروبيةً مُضادة ولدت في عصر

النهضة وقد سلكت سلوكًا مختلفًا، إذ تخبرنا أن العبقرية تأتي من مصدر آخر، وقد مهدت الطريق إلى فهمنا المعاصر للعبقري.

مع تقدم العلوم وتحرر الحشود من سلاسل وأوهام الكنيسة في عصر النهضة، شهدت الساحة الدينية الأوروبية نكسة روحانية جعلت المؤمنين يجتنبون الميتافيزيقيات (أو الماورائيات)، وهي نفس الفترة التي منحتنا أعلامًا مهمين مثل إسحق نيوتن، وروبرت بويل، ونيكولاس كوبرنيكوس وفرانسيس بيكون. ونشاهد تغييرًا من ذلك التعريف الغيبي السابق ذكره إلى آخر أكثر بشرية. في عام 1755م نجد السير صمويل جونسون، مؤلف أول معجم إنجليزي، يكتب: "العبقري الحقيقي هو شخص ذو قدراتٍ ذهنيةٍ فذةٍ وتسير في مسار محدد بمحض الصدفة". وقد نجد في أنفسنا ميلًا لقبول تعريف السير صمويل جونسون، خاصةً عندما نقرأ في ورقة بحث علمية بريطانية صدرت عام 1999م أن الباحثين الذين درسوا مخ ألبرت أينشتاين (الذي تم تهريبه من فوق منضدة تشريح جثته) أن المنطقة التي تحتضن الخلايا الرمادية (تعرف باسم: الفُصيص الجداري السفلي) المسؤولة عن عمليات مثل الحسابات الرياضية واللغة، كانت في دماغ ألبرت أينشتاين أضخم بنسبة 15٪ من المخ العادي، وهذا قد يقودنا إلى الإيمان أنه ولد بعقل ذي "قدراتٍ ذهنيةٍ فذّةٍ". وكانت هذه قصتنا المُفضلة لشرح العبقرية حتى مؤخرًا، إلا أن بعض التمحيص والتحقيق في هذه القصة باستخدام الدليل العلمي يظهر لنا خطأنا في سرد قصة هذا العبقري.

في مقولة شهيرة تُنسب أحيانًا إلى الفيلسوف الروماني سيسرو وأحيانًا أخرى إلى الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس نقرأ: "في كثير من الأحيان، تقود الهبة الطبيعية (بدون التعليم) المرء إلى المجد والفضيلة أكثر من التعليم دون الهبة الطبيعية". لكن عند قراءة سير أفراد غيروا مجرى التاريخ مثل تشارلز داروين، سنجد أن طفولتهم لم تدل على أي تميز فكري فذ أو مميز (لا يعني ذلك أنهم كانوا أغبياء، لكنهم لم يكونوا نوابغ كذلك)، ولا نستغرب أن تشارلز داروين جعل لسيرته الذاتية عنوانًا ثانويًّا: "ذكريات تطور ذهني وشخصيتي"، كتب فيها أنه كان بطيئًا مقارنة بأخواته. وأرفقها بالملاحظات التالية عن نفسه: "... كنت مفكرًا بطيئًا جدًّا، ولعله قد يدهشك كم سنة قضيت حتى أتمكن من التعرف بوضوح إلى المُعضلات التي احتجت حلها... لقد عانيت بسبب بطء فهمي وفطنتي، واللذين ميّزا رجالًا أذكياء... ولذلك كنت ناقدًا ضعيفًا: فكلما قرأت بحثًا أو كتابًا أثار إعجابي، ولكن بعد فترة من التأمل تتضح لي نقاط ضعفه".

ها هو داروين، أحد أهم أيقونات البشرية، يصدمنا ويقر بتواضع قدراته الذهنية (سنطلع عبر الكتاب على المزيد من أمثاله العباقرة ذوي القدرات الذهنية المتواضعة). ويصادق أحد مؤرخي داروين على هذا الحقيقة إذ كتب أن داروين يعد مثالًا على الأفراد الذين تطورت مهاراتهم الذهنية ببطء. وذلك يتوافق مع مفهوم نيتشه للعبقرية حين كتب في عام 1878م: "إنَّ نشاط العبقري لا يبدو في جوهره شيئًا مختلفًا، بل إن كل ما يفعله العبقري هو تعلُّم كيفية وضع الأحجار ثم كيفية البناء مع البحث المستمر عن أدوات أفضل ليعمل بها... لا تحدثوني عن المواهب الطبيعية أو عن المواهب الفطرية! إذ يمكننا أن نذكر، في كل المجالات، عظماء كانت موهبتهم ضعيفة". وكأنه بقوله هذا يخالف سلفه الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط الذي كتب رأيًا مخالفًا جملة وتفصيلًا، ففي تعريفه للعبقرية لا يفسح مجالًا "لتعلم كيفية وضع الأحجار"، بل إنه يطرد العلماء من صرح العبقرية، وعلى وجه الخصوص نيوتن وما أتى به إذ كتب عام 1790م: "مع أن العمل الخالد الذي توصَّل إليه نيوتن عن مبادئ الفلسفة الطبيعية تطلَّب عقلًا عظيمًا، إلا أنه يظلُّ شيئًا يمكننا تعلُّمه وتقليده عبر القيام بذات الخطوات ومتابعة العناصر الهندسية الأولية التي قام بها بحذافيرها. بينما لا يستطيع المرء تعلُّم كتابة الشعر الملهم حتى لو حصل على شرح مفصَّل، والسبب في ذلك يعود إلى أن نيوتن استطاع جعل اكتشافاته العظيمة والعميقة ملموسة وظاهرة للعيان، ليس فقط لنفسه بل لكل شخص آخر. بينما لم يتمكَّن هوميروس أو فيلاند أن يشيرا إلى الكيفية التي انبثقت منها أفكارهم الشعرية، لأنهم هم كذلك لا يعلمون كيف تتشكَّل كقصائد غنية بالرموز والكنايات".

بإمكاننا فهم وجهة نظر إيمانويل كانط إذا قرأنا مفهومه للعبقرية: "... يتفق الجميع على أن العبقرية تقف على النقيض تمامًا من روح التقليد. وما دام التعليم ليس سوى تقليد،... لا يمكن اعتباره عبقرية... إن العبقرية هي موهبة إنتاج ما لا يمكن تعليمه بحسب قاعدة محددة، وليس إظهار البراعة في مهارة يمكن تعلمها بحسب قاعدة معينة". ويذكر كذلك: "العبقرية ذاتها يصعب عليها أن تشرح علميًّا مصدر نتاجها، أو حتى التلميح إلى ذلك". ويتفق معه في هذا المنظور الفيلسوف السويسري جان جاك روسو في عام 1769م، لما سُئل عن العبقرية فأجاب: "أيها الفنان الشاب، لا تسلني ’ما هي العبقرية‘، إما أن تكون فطرتك، وستدركها حينها، أو تفتقر إليها، وتكون حُرمت منها". ثم صادق على هذه المقولة عالم الجينات الأول فرانسيس غالتون حين عرف العبقرية في عام 1869م أنها: "قدرة فطرية عالية بشكل استثنائي".

أي المنظورين صحيح؟ منظور كانط أم منظور نيتشه؟ هل نؤمن بالمنظور الكانطي الذي يخبرنا أن العبقرية هي نتيجة موهبة مجهولة المصدر؟

أو نؤمن بالمنظور النيتشي الذي يخبرنا أن الموهبة قليلة الأهمية؟ وإذا آمنا بمنظور كانط، فهل ننفي عبقرية كل العلماء بمن فيهم نيوتن وداروين وأينشتاين وفرويد وغيرهم الكثير؟

لكن الاختلاف بين كانط ونيتشه ليس حالة استثنائية على الاختلاف بين الفلاسفة في مفهوم العبقرية. فنجد تضاربًا آخر بين تعريف الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور مع تعريف الفيلسوف الأمريكي رالف والدو إيمرسون، فيكتب شوبنهاور: "... العبقرية هي أن تصيب هدفًا لا يمكن لأحد أن يراه" لكن إيمرسون يأتي بغير ذلك: "في كل عمل عبقري، نقرأ أفكارنا التي تجاهلناها، أنها تعود إلينا بجلال يضيفه الاغتراب... غدًا، سيقول غريبٌ أفكارنا وما شعرنا به بالضبط وبإجادة تامة، وسنكون مُجبرين على أن نتناول بخجل رأينا نحن من يد شخص آخر".

وقد يقول قائل إن أفضل من يوفر لنا إجابة على مصدر العبقرية هم العباقرة أنفسهم. لكننا عندما نستمع إليهم فإننا نجد تناقضًا، فالعباقرة بين أنفسهم اختلفوا على مصدر عبقريتهم! فنجد أشهر عبقري في القرن العشرين: ألبرت أينشتاين يخبرنا أن المُخيلة أهم من المعرفة، لكن تشارلز داروين يذكر أنه وصل إلى ما وصل إليه بفضل التحقيق في الحقائق وتحليلها، بدون أي ذكر للمخيلة. ولكل من هؤلاء الأفذاذ أتباع وطوائف، بعضهم يوافقونهم وآخرون يخالفونهم.

هكذا تحدث نيتشه

إن التأمل في التناقضات أعلاه يقودنا إلى استنتاج أن تعريف العبقرية اعترته ثلاثة مشاكل: النقطة الأولى: عدم توافق التعاريف بين المفكرين والفلاسفة والعلماء.

النقطة الثانية: اختلافنا في من يستحق لقب العبقري. فقد اختلف السابقون في من يستحق اللقب الأريب. على سبيل المثال: شريحة دائمًا ما نصفهم أنهم عباقرة هم أشباه المحقق المُتخيل شارلوك هولمز، الذي أنجبته مخيلة المؤلف والطبيب آرثر كونان دويل، إذ اشتهر هولمز بمهارته المذهلة في استخدام عقله، وقدرته السريعة على الاستنباط والتحليل، إضافة إلى تطويعه مجالات مختلفة مثل الطب الشرعي والكيمياء لحل أعقد القضايا. فبينما يفوز هؤلاء الأفراد بانتباهنا وانبهارنا، إلا أنّ وصفهم بالعباقرة لم يكن أمرًا موفقًا (سنتوسع بعد قليل في هذا الشأن).

النقطة الثالثة: اختلافنا في تحديد مصدر العبقرية، فبعد أن تخلّى العالم عن المنظور الغيبي الميتافيزيقي للعبقرية، ما هو المصدر الذي بدأ العالم ينظر إليه؟

كان الإيمان الشائع (مُتمثلًا مقولة جان جاك روسو التي اطلعنا عليها قبل قليل)، أن العبقرية غامضة المصدر، تأتي المرء من حيث لا يعلم، وكل ما عليه هو استخراجها (وهو ما عارضه نيتشه جملةً وتفصيلًا). عجز الفلاسفة عن توفير أجوبة مُرضية قاد إلى نقل حوار العبقرية من حقل الفلاسفة إلى العلماء، فنجد بعض رجال القرن الثامن عشر يتساءلون: هل بالإمكان النظر داخل الإنسان لفهم العبقرية؟ وأدى ذلك إلى تطور عدة مناهج منها: السيكوجونومي والفرينولوجي والكرانيامتري [4]. اعتمدت هذه المناهج على دراسة تفاصيل الوجه والجمجمة لاستنتاج إذا ما كان المرء عبقريًّا أو خلافه. وقد أسس الأديب السويسري جون كاسبر لافاتر علم السيكوجونومي، وصرح أن المرء فقط بحاجة إلى دراسة وجه المرء لاستنتاج عبقريته، وكتب أحد أعلام هذا المنهج: "لسنا بحاجة لدراسة أعمال نيوتن، كل ما علينا فعله هو دراسة صورة له حتى تؤكد لنا مدى عبقريته العظيمة". ومن الطريف أن أتباع السيكوجونومي استنتجوا أن الفيلسوف رينيه ديكارت هو بالفعل عبقري. أما أتباع علم الفرينولوجي، وقد أسسه الطبيب الألماني فرانس جوزيف جال، والذي قد توصل إلى أن بعض صفات الوجه تدل على التفوق في مجالات معينة، فإنه قد استثنى ديكارت من جوقة العباقرة، نظر لأن جبهته كانت صغيرة جدًّا! وذلك يشير بحسب دراساتهم إلى "قدرات تحليلية ومنطقية محدودة"، وبذلك انتهوا إلى حقيقة أن ديكارت لم يستحق كل ذلك الثناء. ورغم أن هذه العلوم تُعد وصمةً محرجةً في تاريخ العلوم، إلا أننا نجد أعلامًا مهمين مثل مارك توين وإدجار آلن بو وجورج إليوت آمنوا بها. والأدهى في الأمر أننا نكتشف وجود الثقة بمثل هذه العلوم في صور مختلفة ومتعددة، فنجد أن دماغ الفيلسوف الفرنسي فولتير (مثل ألبرت أينشتاين بعده) قد سُرق.

أما علم الكرانيامتري أو علم قياس الجماجم، والذي كان بدوره بعيدًا كل البعد عن العلوم الرصينة، فقد قام بترويجه ساموبل جورج مورتون، والذي قاس آلاف الجماجم حتى مات عام 1851م. وكان متعارفًا حينها أنه حين تحين وفاة أحد الرجال المتميزين أن يمنح مخهم لإفادة العلم بعد وفاتهم. واستغل مورتون هذه المنحة فصار يملأ جماجم الرجال العظام ببذور الخردل ثم يقيس الوزن. فوجد أن جمجمة الشاعر الألماني الشهير فريدريك شيلر وزنت 1,785

جرام، أما المؤلف الروسي إيفان تورغينيف فقد وزنت جمجمته 2,012 جرام، مما أعطى مورتون ثقة في نظريته، لكن لاحقًا بدأت تظهر نتائج معارضة، فوزن جمجمة الشاعر الأمريكي والت ويتمان كان 1,282 جرام، بينما وزنت جمجمة الشاعر الفرنسي أناتول فرانس قرابة 1,017 جرام.

غيّر دخول القرن العشرين موجة البحث بعض الشيء، فحدث تغيير ونقلة نوعية في تعريف العبقرية، وبدلًا من النظر في أعمال المرء أو مخرجاته الفكرية، تم ربط العبقرية بالجينات ومعدل الذكاء. وإذا قمت بزيارة صفحة ويكيبيديا العربية عن العبقرية، ستجد أنها تذكر أهمية معدل الذكاء وعلاقتها بالعبقرية، وأن العلاقة بينهما طردية، بمعنى أنه كلما ازداد معدل الذكاء كلما ازدادت عبقرية الشخص. لكن التاريخ عبر حقبات مختلفة يقدم لنا نماذج تخالف ذلك. وليس ذلك فحسب، إنما سنرى وندرك عواقب هذا النوع من التصنيف المُجحف!

وإذا كان للعبقرية مصدر، فمتى ينضج العبقري ويمنح العالم هبته؟ فوفقًا للكثير من الآراء: العبقرية والخيال هما هبة الشباب، والاعتقاد السائد أنه يستحيل على المرء إنتاج ما يستحق الثناء بعد سن الثلاثين. وقد آمن الكثيرون بهذا المعتقد.

علماء النفس الذين درسوا الإبداع يجمعون على هذا الرأي: قد يكون تقدم العمر يزيد الحكمة، لكن الشباب فقط هم المبدعون، ولن يتقاطعا أبدًا. في عام 1953م، أقر البروفيسور هارفي ليمان بأن "المتقدمين في السن عادة يمتلكون حكمة عظيمة واسعة كبيرة" إلا أنه أرفق ملاحظته بملاحظة أخرى هي أن التقدم في العمر يسبب صلابةً تشل المرء وتعميه عن البحث عن "طريقة جديدة للنظر إلى الأشياء". في عام 1990م، وافقه عالم النفس دين سيمونتون والذي كتب كثيرًا في أمور العبقرية والإبداع على هذا الرأي. في عام 2003، أوضح روبرت ستيرنبرغ أن الحكمة والإبداع يتطلبان طرق تفكير مختلفة تمامًا إذ كتب: "التفكير الإبداعي هو في كثير من الأحيان مندفع، في حين أن التفكير الحكيم متوازن". ونجد ستيف جوبز (والذي رغم أنه لم يخترع شيئًا بعكس الآراء الشائعة إلا أن آراءه عن الإبداع متداولة كأنها آيات مقدسة) قد آمن بالمبدأ البوذي "عقل المبتدئ" وآمن أن الخبرة والعمر يدمران الإبداع، وعن ذلك قال: "من النادر أن ترى فنانًا تجاوز الثلاثين أو الأربعين وأن ينتج ما يستحق الاهتمام". ألبرت أينشتاين يتفق معه في هذا المنظور (فهو نفسه مثال على ذلك).

لكن لحسن الحظ، كما سنكتشف لاحقًا: هم مخطئون. كإثبات سريع: عند النظر إلى رابحي جائزة نوبل سنكتشف وجود قائمتين مميزتين: الأولى

للحاصلين على جائزة نوبل في سن شاب (تقارب أعمارهم سن الثلاثين)، والثانية للذين حصلوا عليها في سن متأخرة (هؤلاء تجاوزوا الثمانين والتسعين سنة!). وسيتوسع الكتاب في نقاش الفرق بين الشريحتين. إن دراسة هذا التفاوت العمري سيفيدنا في فهم الفرق بين شاعرين مثل جرير والفرزدق، وبين موسيقيين مثل فولفجانج موتسارت ولودفيج بيتهوفن، وبين رسامين مثل بول سيزان وبابلو بيكاسو، وبين عالمين مثل داروين وأينشتاين.

* * *

قراءة هذه السطور تقودنا إلى تشخيص مهم: نحن لا نملك مفهومًا أو تعريفًا أو تصورًا واضحًا للعبقرية. إن نهج الاستجواب السقراطي في تعريف العبقرية يبين لنا تفاوتًا عظيمًا في ما نعتقد أنه تعريف للعبقرية، سواء كانت منصة الحوار بين الفلاسفة أو العلماء أو العباقرة نفسهم. فما نراه حولنا من تعاريف مُتداولة هي مُبهمة اتّبعها بعض العباقرة وخالفها بعضهم الآخر، دون أن تُختزل في تعريف واحد متكامل يجمع في جعبته كل السمات الفريدة التي تُشكّل اللّبنة الأساسية لتكوين وصناعة العباقرة. وهذا النوع من التخبط والتوهان متوقع ومألوف لكل من يسلك دروبًا فكرية جديدة. وقد دون نيتشه رأيه الحصيف في أهمية التخبط والضياع اللذين يسبقان ولادة العلوم الرصينة عندما كتب: "هل تعتقدون أن العلوم كان يمكن أن تتطور وتنمو إطلاقًا لو لم يكن في طليعتها السحرة والخيميائيون والمنجمون والساحرات، والذين بوعودهم وأوهامهم في أول الأمر أثاروا عطشًا وجوعًا للعلوم الخفية والمُحرمة؟".

لماذا يهمنا تعديل منظور العبقرية؟

لأنه بعد أن اعترفنا بوجود مشكلة، يجب علينا فهم تأثير هذه المشكلة علينا (الإيمان باعتقادات باطلة ومُسلمات خاطئة) حتى نتحرر من ذلك الفخ ونبدأ البحث عن بدائل أخرى، فهي تفسد فضولنا وتطوي رغبتنا في التحقيق في شؤون العبقرية أو الاستقراء في مصدرها، فعندما نؤمن أن يدًا خفية ألهمت العبقرية للبعض أو زرعتها في حمضهم النووي ولم تقدم لنا نفس المكرمة، فهذا يقودنا للاعتقاد أن العبقرية هي هبة وُهبت لقليل وحرم منها كثير.

إن منظور أمثال سيسرو (وفي أحيان أخرى ماركوس أوريليوس) وكانط وروسو للعبقرية يقدم لنا مجموعة من المشاكل الفكرية والأخلاقية، لكن فيما يخص حديثنا هذا فإنه يعوقنا عن التحقيق في مصدر العبقرية أو تعريفها، فكما أشرنا سابقًا: هذا النوع من الأيمان قد يورث بعضنا حسًّا بالتفوق

والأفضلية ويورث الآخر إحساسًا بالدونية. لكن الجانب الآخر من هذه العملة له عواقب وخيمة كذلك، فعندما تؤمن أنَّك خُلقت هكذا وأنَّك ستعيش هكذا، وستموت هكذا، يُثنيا ذلك عن التساؤل عن أسئلة مهمة ومعقدة تخص العبقرية وعن مسؤوليتنا. ولم يخفَ على نيتشه معرفة سبب نسب العبقرية إلى قوى غيبية، فمن السهل التخلي عن تلك المسؤولية والادعاء أن العباقرة ينتمون إلى طبقة أخرى. وعن ذلك كتب: "وهذه هي طريقتنا للحفاظ على كبريائنا الخالص، حيث أن غرورنا وحبَّنا لذواتنا يدفعاننا إلى إجلال العبقري. فمن الأسهل أن ننسب أصول العبقرية إلى عناصر سحرية خارقة للطبيعة، لأننا عندها لسنا مضطرين إلى أن نقارن ذواتنا بهم، أو أن ننعت أنفسنا بالمقصِّرين. فالقول عن شخص ما أنه "معجزة" يعني: هنا، لا مجال للمنافسة ولا فائدة من المحاولة".

ومن هذا المنطلق نستنبط أهمِّية جدية تجديد مفهوم العبقرية ومعالجة ما شابه من أخطاء، وواجبنا في نفض الغبار عن تلك الاعتقادات التقليدية وإبدالها بأخرى حديثة مبنية على أدلة وتحقيق. ولذلك تتجلَّى مهمة هذا الكتاب في التعرُّف إلى جوهر العبقرية الخام، أو الحمض النووي الذي منه تتشكَّل العبقرية، وهي ليست عامل إلهام ميتافيزيقيًّا كما صوَّرتها لنا حكايا الأولين. إنما هي عوامل وأنماط تتشاركها قصص العباقرة.

وعبر دراسة تاريخ العباقرة من منظور علمي بحت في هذا الكتاب، سنخلع تلك النظَّارة القاتمة التي أعاقت رؤيتنا السليمة للعباقرة، وكما حاولت الصفحات السابقة إقناعنا، فإننا نواجه مشكلة في فهمنا للعبقرية من المحاور الثلاثة: المفهوم، السلوك، والصيرورة.

في الجزء الأول من الكتاب: تاريخ موجز للعبقرية، سنطلع على المشاكل التي لوثت فهمنا للعبقرية، وبإمكاننا القول أن أساس هذه المشكلة هو طريقة روايتنا لقصص العباقرة. فهناك خطأ فادح في طريقة سردنا لقصصهم، والاطلاع على تاريخ وجذور هذا السرد سيمكننا من التحرر من تلك المعتقدات والمسلمات الخاطئة. بإمكاننا اختصار دور الجزء الأول بأن نقول أنه سيشرح لنا ما لا يمثل العبقرية وسيساعدنا على فهم تلك الأخطاء.

قراءة الجزء الأول تسمح لنا بالانتقال إلى دراسة سلوك العباقرة وتصنيفهم، وهذه مهمة الجزء الثاني من الكتاب: العبقري العفوي والعبقري الحساس، حيث سنتعرف إلى صنفي العبقرية، وما هو العامل الذي يجعل العبقري ينتمي إلى أحد السلوكين.

في الجزء الثالث من تشخيص العبقرية، سنطلع على رحلة العبقري، أو ما هو المعمار المشترك في سير العباقرة والذي يخوضه كل شخص سلك درب العبقرية الخاصة به [5].

من الوارد جدًّا أن البعض يعترض في هذه الجزئية بالإشارة إلى أن البحث قد أغفل أو قلل من شأن الفروق والاختلافات بين عباقرة الشرق والغرب، بين العباقرة القدماء والمعاصرين، وبين العباقرة في حقول الفن وحقول العلم، وبين من آمن أنهم مستحقون للقب العبقرية ومن نفى ذلك عنهم. لكن بإمكاننا أن نجد أن هذا الاعتراض صحيح كذلك في أي كتاب طبي أو مخطط تصوير تشريحي لا يقيم وزنًا للفروقات البشرية الفردية، حيث يتم تجاهل الاختلافات العرقية لفهم جسم الإنسان. هناك بالطبع اختلافات بين العديد من العباقرة، لكن هذا الجزء من الكتاب يهتم بأوجه التشابه، وليس الاختلاف. وكما تقتضي المقولة الشهيرة: "الحقيقة واحدة، لكن الحكماء يتكلمون عنها بأسماء عديدة". وبإمكاننا هنا استخدام تشبيه الفيلسوف آرثر شوبنهاور حين وصف الحقيقة أنها أشبه بالماء، وأنك بحاجة لحاوية لنقل الماء. ستختلف كل حاوية عن غيرها بطبيعة الحال، إلا أن الماء لا يتغير.

هل يستوي البشر؟

اعتراضٌ متكرر يواجهه هذا الكتاب هو احترامه لدور الحظ وإقراره بعدم تكافؤ الفرص واحترام العشوائية وكيف أنها تؤدي دورًا مهمًّا في بُنية العبقري. وهو ملحظٌ سليم. فعند دراسة تاريخ العبقرية بطريقة جادة، نلاحظ أن مبدأ اللامساواة، ومبدأ عدم تكافؤ الفرص يؤديان دورًا محوريًّا مرارًا وتكرارًا (لكننا نكره الإقرار بذلك). سنجد أمثلة كثيرة على هذا المبدأ خلال هذا البحث.

على سبيل المثال، خلال التحضير لهذه المادة، وجدت اعتراضًا على هذا المبدأ لدى فئات مختلفة، فالكتاب يناقش قواعد صيرورة العباقرة والتي تعتمد بشكل كبير على يانصيب الحياة، وهي عوامل مثل الجينات المتفوقة والبيئة المتميزة والفرص النادرة. ففي قمة السلم الاجتماعي الاقتصادي، نجد المُرفهين ذوي الإنجازات يميلون إلى نسب إنجازاتهم إلى ذاتهم وإلى ذكائهم وعزمهم وإصرارهم وغير ذلك، وبطبيعة الحال لا يناسبهم أن ننسب إنجازاتهم إلى عوامل أخرى (ولا ننفي هنا أهمية ذكائهم وعزمهم وإصرارهم وغير ذلك) أما المُرفهون الخاملون فيستاؤون من المحتوى لأنه يظهر لهم قيمة الفرصة المهدرة. أما على الطرف الآخر للسلم الاجتماعي الاقتصادي، فنجد استياءً من أولئك الذين يؤمنون بأن الفرص وُزعت بالتساوي، وأن "من طلب العلا سهر

الليالي" وأنهم لو اجتهدوا فإنهم بدورهم سيكون لهم أثرٌ على مصير الكون (لذلك نقع في غرام قصص الأشخاص العصاميين الذين بدأوا من الصفر، وهي أداة قصصية محببة لدى هوليود، لكنها مليئة بالأخطاء والتدليس كما سنقرأ الجزء الأول من الكتاب)، إلا أن قراءة حريصة وأمينة للتاريخ تخبرنا قصة مخالفة. فالكون والحياة ليسا عادلين، مبدأ باريتو يخبرنا بحقيقة عدم تكافؤ الفرص (سواء في الثروات أو المبيعات أو الإنجازات الإبداعية وما إلى ذلك) يؤكد ذلك كما سنقرأ مرارًا وتكرارًا.

وقد يقود ذلك البعض لاستخدام الواقي الديني لحماية أنفسهم من هذا المبدأ فيجادلون بأن البشر خُلقوا سواسية، ويستشهد المسيحيون بأمثلة من الكتاب المقدس، فنقرأ في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: "لأَنْ لَيْسَ عِنْدَ اللهِ مُحَابَاةٌ". بينما يستشهد المسلمون بحديث رسول الله محمد عليه الصلاة السلام: "النَّاس سَوَاسِيَةٌ كَأسْنَان الْمِشْط الْوَاحِد. لَا فَضْل لِعَرَبِيّ عَلَى عَجَمِيّ إِلَّا بِالتَّقْوَى"، ومن المهم تقويم الفهم الخاطئ في هذه القراءات. فهذه الأدلة والكثير غيرها لا تناقش كون البشر وُلدوا سواسية أو أن فرصهم متساوية، وإنما أنهم في عين الرب العادل سيحاسبون سواسية، أي بدون تفضيل أو محاباة لجنس أو جنسية أو نسب إلخ. أما تساوي الفرص فلا وجود له في الكتب السماوية. وبإمكاننا قراءة مشاهدات من الكتب السماوية في مواضع مختلفة، فنقرأ في إنجيل القديس متى هذه الآية: "لأَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطَى فَيَزْدَادُ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ"، وفي إنجيل يوحنا نقرأ: "اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ". أما في القرآن الكريم فإننا نقرأ آية في سورة الزخرف تقول: **{... وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا...}**. ونقرأ في سورة النحل: **{وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ...}**.

"العلا" ليس متاحًا لكل من "سهر الليالي"، وهذه حقيقة في كل دروب الحياة، خاصةً في سياق العبقرية. وحتى الآن لم نجد نظامًا اشتراكيًّا يسمح بتوزيع "مَلَكَة الْعَبْقَرِيَّة" بشكل متساوٍ (وقد يسميه البعض "عادل")، إنما العبقرية مُترسبة منذ فجر التاريخ في السلوك الرأسمالي، حيث يصل القليل إلى شواطئ العبقرية ويغرق البقية. وهذه حقيقة تثير غضب واستياء الكثيرين الذين يؤمنون بأهمية التدريب لمدة عشرة آلاف ساعة كما بشر الصحفي مالكوم جلادويل أو بمقولة توماس أديسون الشهيرة: "العبقرية عبارة عن واحد بالمئة إلهام وتسع وتسعين بالمئة بذل مجهود". لكن التدقيق في تاريخ العباقرة يخبرنا قصة مختلفة، وأهم من ذلك، فإنه يحررنا من تلك المسلمات

التي أصبحت بمثابة الحقيقة، لكنها أخطأت كذلك. ولعلنا نقتبس من الدكتور العراقي علي الوردي عندما كتب: "فهم [المعلمون والكتاب والخطباء] قد وعظونا وعلمونا على أن (من جدّ وجد) وأن (كل من سار على الدرب وصل) وأن مستقبل الفرد بيده إذ هو يستطيع أن يصنع نفسه حسب ما يشاء بحزمه وإرادته وسعيه واجتهاده. إن هذه نصيحة لا بأس أن نلقيها على أطفالنا وتلاميذنا الصغار حيث نحرضهم بها على العمل والدأب ومواصلة الدراسة ثم نردعهم بها عن اليأس والخمول... وأود أن أصارح القارئ بأني كنت... ضحية من ضحايا هذا المبدأ السخيف، مبدأ (من جدّ وجد)".

ويجب أن لا نخطئ قراءة أو فهم ما يحاول الدكتور علي الوردي قوله، الاجتهاد والمثابرة جزءان لا يتجزءان من رحلة كل عبقري كما سنرى في رحلتهم. لكن الوردي يحاول أن يوضح لنا أن الجائزة أو العرفان أو المكافأة غير مضمونة، لأن الفرص لم توزع بالتساوي، وأن الإجحاف سينال من البعض بينما ينجو منه البعض الآخر. وفي سياق العبقرية، كما سنرى مرارًا وتكرارًا، هذه الحقيقة حاضرة، وهي جزء من المعاناة التي لا بد أن نتقبلها في سبيل سعينا، فليس "كل من زرع حصد"، فقد يعاني البعض ويزرع ولا يحصل أن يحصد لسبب أو لآخر. وهذا الدرس حاضر في قصص أعلام التاريخ. ولم يكن من محض الصدفة أن نجد جوزيف كامبل في كتابه المهم "البطل ذو الألف الوجه" يشدد على أهمية المعاناة والخروج من منطقة الراحة والتخبط في غياهب المجهول... فكان قبول الشقاء والإقبال على العناء في مقام المرحلة الأولى في رحلة أبطاله، أولئك الذين يهجرون القرية تنوروا بأفكار وأسئلة جديدة تختلف عن تلك التي عهدها في مسقط رأسه، وبدون أي ضمان مستقبلي... البوذا، على سبيل المثال، لم يكن ليخلده التاريخ لولا خروجه من قصر النعيم إلى درب فوضى الشقاء والعناء حيث قاده إلى التنور كما تقص القصص المتداولة عنه. ونرى الراهب البوذي سيدهارتا يتقلب تعيسًا شقيًّا في قريته رغم محبة الشيوخ له واقتداء الشباب به، وافتتان النساء بحسنه. بينما يخرج الهوبيت فرودو باغنز من قرية الشاير لتدمير الخاتم في نيران جحيم موردور. وفي رواية موبي ديك يترك إسماعيل وظيفته كمدرس ليبحث عن مغامرة في البحر بعد أن أصبحت روحه في حالة ضجر من عالمه البليد حيث كتب أن في روحه شيئًا من رطوبة تشرين.

الإيمان بمبدأ عدم المساواة سيقودنا إلى تقبل حقيقة أخرى أو وجه آخر من أوجه الإجحاف الذي يطال لقب "العبقرية"، فهي لقب يُمنح ولا يُكتسب، ليس كلقب طبيب أو معلم أو وزير. ليس هناك شهادة تُمنح لتوثيق مكانة المرء كعبقري، إنما هي بصمته. ويجب أن نتفق على أن كل عبقري ترك بصمته على التاريخ، وكل بصمة تختلف باختلاف هؤلاء العباقرة من ناحية الأثر

الذي تتركه عبقريتهم علينا. فبعضهم قد يستفَّزنا مثل سيجموند فرويد، وبعضهم قد يتحدى مُسلماتنا مثل تشارلز داروين، وبعضهم قد يدمِّرنا مثل روبرت أوبنهايمر، وبعضهم قد يسحرنا مثل جبران خليل جبران، وبعضهم قد يُروعنا مثل إدجار آلن بو. ولكن مهما اختلفت آثار عبقريتهم علينا إلَّا أنَّهم يتشابهون من ناحية واحدة: لقد غيروا سير العالم في مجالهم، فبعدهم أصبحت الأرض مكورة وليست مسطحة ولا يمكننا الإيمان بعكس ذلك. وحتَّى بعد وفاتهم ما زلنا نبني أفكارنا وعلومنا وفنوننا وآدابنا على أكتافهم وأفكارهم. الغالبية العظمى تأمل أن تقاربهم وتصبح مثلهم، وعندما نحاول فعل ذلك، نجد أنفسنا في مأزق عظيم حيث لا نجد نمطًا موحدًا، فالعدّاء ولاعب الشطرنج والمهندس يجدون تفاصيل وخطوات أضحت تقودهم للتفوق، لكن العبقرية تختلف، وتفاصيلها خانتنا منذ قبل الميلاد - ولا سيما وأن التَّاريخ صاغ سيرتهم بنهج قصصي معيَّن حسب الحقبة الزمنيَّة والمنطقة الجغرافيَّة والسياق الاجتماعي الذي وُجدوا فيه، وهذا ما جعلنا ندرس كل عبقري على حدة وفي معزل عن العباقرة الآخرين. وتسبَّب هذا المنظور الضيق في التركيز على الاختلافات بينهم بدلًا من البحث عن الشبه والصفات المشتركة التي جعلتهم يقدِّمون أفكارهم واختراعاتهم العظيمة للعالم. وبذلك أصبح من المستحيل (إذا اعتمدنا على تلك التعاريف) أن نستخرج تعريفًا واحدًا يتضمَّن جميع الصفات الملهمة التي ننسُبها غالبًا لكل من نبغ في مجاله.

قد نجد أن لقب "عبقري" هو اشبه بلقب "القديس" لدى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية الشرقية وغيرهما. إعلان القداسة هو طقس تعلن من خلاله الكنيسة قداسة شخص معين بعد وفاته، بدأ الطقس بالشهداء الذين توفوا في سبيل الدين، وعادة يكون التقديس مستندًا إلى "معجزة" أتى بها ذلك الميت (قبل وفاته على الأرجح)، ويتم دراسة تلك "المعجزة" التي يصنعها القدّيسون لدورها المهم في الكشف عن قداستهم إذ أن "المعجزات" تأتي بأمر "الروح القدس". وسنرى نمطًا مشابهًا في تاريخ العبقرية وأولئك الذين مُنحوا اللقب عبر التاريخ، وسنرى التعسف في آلية منح اللقب لأنه (بخلاف لقب "القديس") لا توجد سُلطة مُوحدة تمنح ذلك اللقب، إنما هو إجماع قد يتفق فيه الخبراء وقد يختلفون. ثانيًا، هناك بعض المعطيات والعطايا التي يحظى بها أولئك الذين مُنحوا لقب "عبقري"، بعضها فطري (أو جيني) وآخر بيئي، وقد وصفها رجل الأعمال الشهير وارن بافيت بأنها أشبه بيناصيب الحياة.

كمثال سريع على هذا الإجحاف، لنطلع على أولئك الذين منحتهم البشرية ذلك اللقب الأريب: عبقري.

نحن عادة نربط بين العبقري وكونه رياديًّا فريدًا مهووسًا وأن فكرته التي غيرت تفكيرنا في مجال معين هي فكرة ريادية فريدة، وذلك منطلقٌ من إيماننا أن الفكرة القوية تلفت انتباه العالم إلى مؤلفها وكنتيجة يمنحه اللقب، ويسمى هذا المنظور باسم: "النظريّة البطوليّة للاختراع والاكتشاف". فنذكر العالم البريطاني إسحاق نيوتن عندما نتحدث عن مخترع علم التفاضل والتكامل، ونذكر العالم البريطاني تشارلز داروين حين نذكر نظرية التطور والانتقاء الطبيعي، ونذكر المخترع الإسكتلندي جراهام بيل حين نتحدث عن الهاتف، وكذلك نتحدث عن فضل عالم النفس النمساوي سيجموند فرويد حين نتحدث عنه كمؤسس علم النفس الحديث.

لكن قد يفاجئنا أن نكتشف أن هؤلاء الأفراد لم يكونوا فريدين في أفكارهم. فحين نتحدث عن نيوتن، فإننا نغفل عالمًا ألمانيًّا أقل شهرة منه وحظًا وهو غوتفريد فيلهيلم لايبنتز في ألمانيا والذي قدم نظرية تكاد تكون مطابقة لنظرية نيوتن في نفس الوقت، بل يعود له الفضل في استخدامنا المصطلح الرياضياتي "دالة رياضية". أما تشارلز داروين فقد تفاجأ بشاب اسمه ألفرد راسل والاس يناقشه بأمور نظرية النشوء رغم أنه (داروين) عمل عليها بشكل مستقل قرابة ثلاثين سنة! وعندما توجَّه جراهام بيل لتسجيل براءة اختراع الهاتف، تقدم إليشا جراي بالطلب نفسه وفي اليوم نفسه، ولكنه تأخَّر عنه ساعة وهذا هو الفارق الزمني (ومن طالب ببراءة الاختراع أولًا لا يزال محل جدال بين المؤرخين)! وماذا عن عالم النفس الفرنسي بيير جانيت الذي طرح نظريات تشابه نظريات سيجموند فرويد والذي قاد إلى جدل كبير في مؤتمر طبي في لندن عام 1913م، رغم اعتراف فرويد بفضل أفكار جانيت؟

بل إن كمية هذه الاختراعات جعلت عالم الأنثروبولوجيا الثقافي ألفريد لويس كريبر يكتب في مقال في عام 1917م أنه لو مات مخترعا في طفولته، فإن هناك كمية كافية من الأذكياء في الجوار، وعلى الأرجح أحدهم سيصل إلى نفس الفكرة. وفي عام 1922م، قام عالما الاجتماع وليام أوغبورن ودورثي توماس من جامعة كولومبيا بإعداد قائمة تضم 148 اكتشافًا واختراعًا مستقلًا ظهرت بين 1420 و1901م. وقد استخدم علماء الاجتماع اسم "فرضية الاختراع المتزامنة" عند دراسة هذه الظواهر.

لأسباب نجهلها ولا يبدو أن بإمكاننا تفسيرها أو أن تمكننا من أن نجيب على السؤال: "ما الذي يجعل أحد المخترعين المتزامنين يفوز بكرسيه في التاريخ بينما يسهو التاريخ عن الآخر؟" لأي سبب آخر عدا فوضوية الفرص (أو

الحظ الحميد والحظ التعيس)، قرر التاريخ الاحتفاء بالبعض وإخفاء البعض الآخر.

وإذا أسقط التاريخ تلك الأسماء من سِفر العبقرية، فمن الوارد جدًا أن لا يظهر اسم شخص تؤمن بعبقريته في بحثنا. وقد يعزينا في هذه المأساة مقولة عالم الكيمياء الحيوية السويدي آرني تيسيليوس الحاصل على جائزة نوبل والذي كان كذلك أحد أعضاء لجنة تقييم جائزة نوبل: "إن لجان نوبل تدرك تمامًا حقيقة أنه يستحيل اكتشاف من هو الأفضل لسبب بسيط وهو أنه لا يمكن للمرء أن يحدد ما هو الأفضل. كل ما نستطيع فعله هو محاولة العثور على مرشح جدير بذلك. حتى لو بذل المرء كل جهده فإنه قد يُهمل أو يُظلم وهذا أمر لا مفر منه".

إن التاريخ والحياة ليسا عادلين، والإقرار بذلك مهم جدًا في نقاش رحلة العبقري.

قد يصل قارئ السطور السابقة إلى أنه ربما كان من الأولى عدم محاولة بذل الجهد والتخلي عن المسؤولية الشخصية طالما أن العبقرية تبدو عشوائية وتعسفية لحد كبير. لكن ذلك غير صحيح، فالاجتهاد وتكريس الذات لاحتراف معين مهمان، فكما سنرى في فصل "رحلة العبقري" فإن الحظ والفرصة يخدمان الجاهزين والمتمرسين، فأولئك اكتسبوا أدواتٍ تمكنهم من المشي في دروب العشوائية (أو الفوضى) هي التي تمكنهم من خلق دروب جديدة والخروج بمعنى جديد (أو منهج) لا يصل إليه الكثير، وقد اختصرها القرآن الكريم في الآية الكريمة: **{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}**.

سندرس تلك الدروب، ونكتشف خلال ذلك أن لكل عبقري خريطته الخاصة، إلا أنه يحتاج أدوات معينة حتى يتمكن من المشي على الخريطة ليصل إلى مكان يمنحه لقب الأريب.

* * *

بطبيعة الحال، لن يتمكن هذا الكتاب من أن يكون الكلمة الفاصلة في هذا الموضوع، فمبدأ العبقرية هو مفهوم عضوي حيوي يتطور باستمرار (مثله مثل تعريف السعادة والحب والنجاح)، وكما سنرى خلال الصفحات التالية، فقد تماشت ترجمات وتعاريف المبدأ مع الأفكار السائدة آنذاك.

لنوضح ذلك من خلال استعارة مشابهة. في القرن التاسع عشر، وصف العلماء الدماغ والعقل كما لو أنهم يصفون محركات بخارية. لنأخذ على سبيل المثال النظرية الفرويدية التالية: "تُسخر الجيوش الدافع الجنسي لتغذي العدوان العسكري. يجند الجيش الشبان فقط عندما يكون الدافع الجنسي في ذروته. يحد الجيش من فرص الجنود لممارسة الجنس فعلًا وإطلاق كل هذا الضغط الذي يتراكم في داخله. ثم يعيد الجيش توجيه هذا الضغط المكبوت ويسمح بإطلاقه على شكل عدوان عسكري".

هذه هي بالضبط آلية عمل المحرك البخاري. نضخ البخار داخل حاوية مغلقة. ضغط البخار يتزايد (كبتنا الجنسي)، حتى نفتح الصمام فجأة، وينطلق الضغط خارج الحاوية، فينطلق القطار (أو طاقتنا الجنسية). ونستخدم هذه الاستعارة في جميع مجالات النشاط (ليس فقط في الجيوش)، غالبًا ما نشكو من الضغط المتراكم في داخلنا، ونخشى أنه إذا لم "ننفس عن أنفسنا" فقد "ننفجر".

لماذا المحركات البخارية؟ لأن هذه كانت التكنولوجيا الرائدة في ذلك اليوم، والتي بها تعمل القطارات والسفن والمصانع، لذلك عندما حاول البشر شرح الحياة، افترضوا أنها يجب أن تعمل وفقًا لمبادئ مماثلة. فأصبحوا يقولون إن العقل والجسم يتكونان من الأنابيب والأسطوانات والصمامات والمكابس التي تكوّن الضغط وتطلقه، وبالتالي تنتج الحركات والأفعال. كان لهذا التفكير تأثير عميق حتى على علم النفس الفرويدي، وهذا هو السبب في أن الكثير من مصطلحاتنا النفسية ما زالت مليئة بالمفاهيم المستعارة من الهندسة الميكانيكية. في القرن الحادي والعشرين، نحن لا نقارن النفس البشرية بمحرك بخاري. اليوم نحن نعرف عن تكنولوجيا أكثر تطورًا - الحاسب الآلي - لذا شرحنا النفس البشرية كما لو كانت بيانات معالجة حاسوبية بدلًا من محرك بخاري ينظم الضغط [6].

كل تفسير سيقع ضحية بيئته وعصره، لذلك نجد العبقرية تغيرت من جني إلى موهبة إلى جينات إلى عشرة آلاف ساعة. لكننا ننوي الخوض في هذه المواضيع ونحاول إزالة الغشاء المحير والذي جعلنا نتيه لفترة طويلة.

خلال هذه الرحلة تغيرت الكثير من المفاهيم الشخصية والتي آمنت بها لفترات طويلة، وآمل أن أقنعكم بتغيير تلك القناعات كذلك. لذلك أقدم هذا البحث بين أيديكم وأدعوكم لتحدي كل كلمة وجملة وفصل.

الباب الأول

تاريخ موجز للعبقرية

(أو معضلة السرد)

الفصل الأول

عقيدة العبقرية

أمارات التبجيل

تشير دراسات علماء الإنسانيات عن الحضارات عبر القرون إلى أن الحضارات تتخبَّط حينما يتم كبت عقول مفكريها، وتعيش عصرها البرونزي عندما تكون إسهامات تلك العقول مقيَّدة، بينما تعيش عصرها الذهبي بازدهار تلك العقول، ومن الطبيعي أن نتقبَّل هذه الفكرة المنطقية، ولا سيما أنَّنا تعرَّفنا على الحضارات المختلفة من خلال عباقرتها (فلاسفة، مفكرين، شعراء، رسامين، علماء، أدباء، إلخ).

فعلى سبيل المثال، لم نكن لنعرف التاريخ اليوناني الجميل بدون أعمال هوميروس وفيثاغورس وهيرودوت وأفلاطون. وما كنَّا سنستمتع بمخرجات الحضارة الأوروبية لولا أعمال شكسبير ودافنشي وجاليليو وديكارت وتولستوي وموتسارت. ومع أنَّ كلَّ خلافة إسلامية اشتهرت بخلفائها، إلَّا أن شعراءها وأدباءها وكتَّابها وعلماءها ساهموا كذلك في ترك أعظم الأثر.

حرصت المجتمعات منذ نشأتها على نقل وترجمة أعمال العباقرة من الحضارات كافة، الحاضر منها والبائد، والمجاور والبعيد، وهذا ما درجت عليه العادة حتَّى أصبحت هذه القصص جُزءًا لا يتجزَّأ من الثَّقافة المشتركة والذَّاكرة العالمية. كما أن الدول دائمًا ما تتفاخر بعدد جوائز نوبل التي حصدها مواطنوها. فأصبح من السَّائد أن تحتفي المجتمعات والمحافل والجامعات بهذا الإبداع والتميز والمواهب الفذَّة، فوضعوا العباقرة الذين بزغ نجمهم على قمَّة الهرم البشري بالقرب من الأنبياء والأبطال الأسطوريين وقادة الحروب والسياسيين. في ألمانيا اليوم نجد بيوت عباقرة مثل نيتشه وفاغنر محفوظة مصونة حتى اليوم. أما في مصر فنجد ميدانًا مُكرسًا للأديب نجيب محفوظ. تم تخليد عباقرة عصر النهضة الإيطالي بتماثيل حول معرض أوفيزي، فلورنسا.

وفي واشنطن دي سي نجد نصبًا تذكاريًّا برونزيًّا ضخمًا لألبرت أينشتاين. بل إن العبقري المُبدع شارلوك هولمز له نصبه ومزاره في لندن في نفس الشارع الذي وصفه مبتدعه آرثر كونان دويل!

تمثال ألماني يخلد أيقونتين ألمانيتين شهيرتين: فريدريك شيلر ويوهان جوته

والأمثلة على ذلك لا حصر لها. لقد شغر العباقرة حيزًا من تفكيرنا وأصبحت لهم معاملة خاصة وكأنهم ظاهرة بشرية استثنائية لا تتكرر. فانتشرت حالة أشبه بالهوس عند ولوج القرن العشرين وحتى عصرنا الحالي، حيث صار مسعى الجميع الحصول على لقب العبقري، وأصبح الجميع يتطلَّعون إليه كما كانوا يتطلَّعون سابقًا للقب الفارس أو مستشار الملك!

لكن كما رأينا في مقدمة الكتاب، عند إخضاع التعاريف المتداولة للأسلوب السقراطي، يَظهر لنا تفاوت عظيم في خصائص ومفاهيم ذلك اللَّقب المشرِّف والصفات التي يجب على حائزه امتلاكها، ونجد كذلك أن هناك فجوة هائلة بين فهمنا الوهمي للعبقرية، وماهية العبقرية الحقيقية على أرض الواقع. لذا جاز لنا قول إن هناك هالة ضبابية تحيط بالمنظور الشائع للعبقرية وبأصحابها، بل كما سنرى بعد قليل، تلك الهالة فصلتهم عن البشر وارتقت بهم إلى مرتبة الأرباب! فصاروا أشبه بأرباب الإغريق منعزلين في جبل أوليمبوس العاجي. ولا نبالغ في الجملة السابقة، فكما سنرى بعد قليل، إن أسلوب روايتنا لقصصهم يستلهم عناصر أساسية من قصص ميثولوجية للأرباب والأبطال. وساهم ذلك في إنشاء حواجز وفوارق بيننا وبينهم، وخلق طبقيَّة جديدة صعدت بهم إلى السماء وتركتنا حيارى على الأرض في حالة من السوداوية والوهن والتي حذر منها نيتشه، فالاعتقاد أن الحظ لم يحالفنا "نحن البشر العاديِّين" في الانضمام إلى قائمة أصحاب العقول الفذَّة من العباقرة والعظماء هو تهرب.

ورغم وجود ذلك الضباب والتباين، يتفق الجميع بقناعة تامَّة بأن العباقرة هم أشخاص لا يمكن تجاهلهم. فهم يلفتون انتباه معلميهم وزملائهم وأقرانهم ثم العالم ككل، ويكون ذلك عبر ترك بصمة لا تُمحى (حتى لو أثبت العلم لاحقًا أن أفكارهم أو نظرياتهم أو أعمالهم كانت خاطئة).

* * *

مصدر العبقرية لدى القدماء ليس العامل الوحيد الذي اختلفوا معنا فيه، إنما أيضًا من يستحق اللقب، فبينما نطلقه اليوم على كل من يبهرنا، كانت القائمة حصرية جدًا آنذاك. وعند تتبُّع بدايات هذا اللقب إلى ما قبل الميلاد وبعده لفترة، نجد أنَّه كان مقتصرًا على رجال الدين (سواء كان ذلك في البوذية أو الهندوسية أو الديانات الإبراهيمية)، والشعراء (مثل هوميروس)، والفلاسفة (مثل سقراط). يشير المؤرخ دارين مكماهون إلى أن التقدير آنذاك كان محصورًا بأولئك الذين استخدموا ذاكرتهم بطريقة مبهرة في استحضار نصوص طويلة (سواء كانت سياسية أو شعرية أو دينية).

وكان الحفظ تكليفًا فخريًّا في الثقافة الإغريقية، فقد أنجب زيوس، رئيس مَجمَع الآلهة لدى الإغريق، من زوجته منيموسين، وهي ربة الذاكرة (منها اشتقت كلمة Memory في الإنجليزية)، تسع بنات، وهن رباتٌ يحكمن ويمنحن الفنون والعلوم (واللاتي أشرنا إليهن سابقًا). بنات زيوس ومنيموسين ائتمنّ على علومهن لدى ذاكرة مجموعة من البشر في وقت لم تكن فيه كتابة أو كتب، فكان على الشعراء وغيرهم أن ينجزوا أعمالهم في ذاكرتهم.

إضافة إلى أساطير الأولين، بإمكاننا أن نقرأ جذور هذا التقدير للذاكرة في حوار سقراطي نقله عنه طالبه الأريب أفلاطون في "حوار فايدروس" والذي يوثق فيه اعتراض سقراط على اختراع الكتابة كما نقل لنا. ينقل أفلاطون عن أستاذه في ذلك الحوار قصة إله الحكمة المصري تحوت عندما قدم اكتشافه للحروف الأبجدية إلى الإله المصري آمون على أنه رحيق الذاكرة حيث تفاجأ من ردة فعله، إذ أنه استاء من اختراع الحروف وقال:

> **"هذا الاختراع سينتهي بمن سيعلمونه إلى ضعف التذكر، وإلى أنهم سيتوقفون عن تمرين ذاكرتهم. سيثقون بالحروف الأبجدية الخارجية المكتوبة ولن يتذكروا بأنفسهم. إنك لم تجد علاجًا للذاكرة ولكن للتداعي... أما بخصوص الحكمة فإن ما قدمته لتلاميذك ليس هو الحقيقة بل مظهرها، فهم حين يتجرعون بفضلك المعلومات بغير استيعاب يبدون قادرين على الحكم في كل شيء بينما هم في معظم الأحيان جهلة لا يمكن تحملهم، ومن ثم يكونون أشباه الحكماء من الرجال لا الحكماء!".**

وفي بقية حوار سقراط مع فايدروس، نكتشف سببًا قد يقودنا لفهم لماذا رفض السابقون تتويج الكُتّاب والرسامين بلقب العبقرية قرونًا بعد وفاة سقراط وحتى عصر النهضة الأوروبي:

> **"وللكتابة يا فايدروس تلك الصفة العجيبة التي توجد أيضًا في التصوير، وذلك لأن الصور المرسومة تبدو كما لو كانت كائنات حية، ولكنها تظل صامتة لو أننا وجهنا إليها سؤالًا، وكذلك الحال في الكلام المكتوب. إنك لتظنه يكاد ينطق كأنما يسري فيه الفكر ولكنك إذا ما استجوبته بقصد استيضاح أمر ما فإنه يكتفي بترديد نفس الشيء. وهناك أمر آخر هو أن الشيء بعد أن يُكتب يظل ينتقل من اليمين إلى اليسار بغير مبالاة، فيساق إلى من يفهمون وإلى من لا يعنيهم منه شيء على السواء، وهو فضلًا عن ذلك لا يدري إلى مَنْ مِن الناس يتجه أو لا يتجه. ومن جهة أخرى حين تتجه إلى موضوعه أصوات المعارضة أو حين يُحتقر ظلمًا يصيح في حاجة لمساعدة مؤلفه لأنه لا يستطيع وحده أن يدرأ الخطر عن نفسه ولا يقدر على الدفاع عن نفسه"** [7].

إذًا للذاكرة اعتبارها في العالم القديم، وبإمكاننا أن نجد جذورًا لهذا الإيمان في قصة (قد تكون أسطورية) بطلها الشاعر الإغريقي الشهير سيمونيدس (556-468 ق.م) الذي تلقى دعوة من سكوباس ملك ثيساليا

لحضور حفل في القصر. وطَلب من الشاعر أن ينظم قصيدة لمدح الملك أمام المدعوين مقابل مبلغ كبير من المال. لبى سيمونيدس الدعوة في الحال، وفي الموعد المحدد ذهب إلى القصر مصطحبًا معه الرقعة المكتوب عليها القصيدة، وشرع في إلقاء قصيدته فور حضوره أمام الأمراء والفرسان وأثرياء القوم. وبعد أن فرغ من إلقاء القصيدة، انشغل كل ضيف بما يشغله فخرج الشاعر حينها من القصر. وبينما هو يتأمل سارحًا حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ زأرت الأرض واهتزت وارتجت أركان القصر وانهارت على كل من فيه وامتلأ المكان بالغبار والعويل والصراخ، ولم ينجُ أحد من المدعوين سوى الشاعر.

وعندما ذهب أهالي الضحايا إلى البقعة المنكوبة لرفع الأنقاض لم يستطيعوا التعرف إلى جثث ذويهم بسبب ضياع معالمها وتناثر أشلائها في كل مكان، فطلبوا من سيمونيدس أن يساعدهم في التعرف على الجثث كونه الناجي الوحيد. بدأ سيمونيدس بتخيل حال القصر قبل الانهيار، وكأنه يرى جدران القصر بُنيت من جديد وارتفعت أعمدته مرة أخرى واستوى القصر في صورته الأولى. وظل سيمونيدس يتذكر أين كان كل شخص حتى جاوز عدد الأسماء التي تذكرها الألفين! ومنذ تلك اللحظة وضع سيمونيدس الأسس الأولى للمبدأ الشهير المعروف باسم "قصر الذاكرة" أو "Method of loci"، والذي تطور ليصبح تقنية يستخدمها أبطال الذاكرة (بعكس الاعتقاد الشائع بأن أبطال الذاكرة يعتمدون على قدرة ذهنية خارقة للحفظ، إنما هم يعتمدون على التقنية لتساعدهم في الملاحة).

يقودنا ذلك للإيمان بأن القدماء لم يفكروا في العبقري كشخص يخلق الأفكار الجديدة، إنما الحاوية التي تحتوي كلمة الإله (أو الإلهات). على سبيل المثال، خلّد التاريخ الشاعر هوميروس لأنه قص علينا تاريخ حرب طروادة ورحلة الأوديسة بطريقة شعرية آسرة بينما وثّقت المعلقات السبع بصورة جميلة، وبعض الأحيان ملحمية، حياة العرب آنذاك. أما في الكوميديا الإلهية فإن خليلة دانتي باتريشا (التي تكاد تكون بمثابة ملاك) تنصحه حين تلقاه في أحد أفلاك الفردوس الأعلى: "ولتفتح ذهنك لما أوضحه لك وتحفظه في ذاكرتك إذ أن المعرفة لا تتم بفهم الحقيقة دون تذكّرها". وبإمكاننا رؤية أهمية الحفظ في التاريخ، فالقدماء، سواء في مصر أو الصين أو اليابان أو التبت أو أفريقيا، منحوا مكانةً خاصة لرجال الدين الذين حفظوا نصوصًا طويلة ومعقدة وكان بإمكانهم استحضارها متى شاءوا. وبإمكاننا أن نرى نفس المكانة مُنحت في الإسلام لأولئك الذين حفظوا أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ابتداءً بصحابة مثل أبي هريرة وعبد الله بن عمر وصولًا إلى البخاري ومسلم. ونجد

أن الإمام الشافعي يخبرنا أن هذه القدرة هي هبة إلهية تُمنح لمن استقام واهتدى، في قصته مع معلمه وكيع، والتي لخصها (وخلدها) في الأبيات التالية:

شَكَوْت إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظي فَأَرْشَدنِي إِلَى تَرْك المعَاصي

وَأَخْبَرنِي بِأَنَّ الْعِلْم نُورٌ وَنُور الله لَا يُهْدَى لعاصي

وما زلنا حتى اليوم نكنّ مكانة خاصة لأولئك الذين يبهروننا بقدراتهم على الحفظ سواء في الحديث أو الشعر أو في غيرهما.

إله الفراغات

ظل لقب العبقري كذلك حصرًا على رجال الدين، الشعراء، الفلاسفة، السياسيين حتى عصر النهضة الأوروبي، حيث شاهدنا توسُّعًا في دائرة الأفراد الذين أُطلِق عليهم لقب عباقرة.

أحد العناصر الرئيسية التي ساهمت في ذلك التوسع هو أنَّ نظرة المجتمع الأوروبي تغيَّرت إزاء من يستحق لقب العبقري.

في عصور ما قبل الميلاد، حصل الأفراد على هذا اللقب تقديرًا لإبداعات عقولهم الفكرية. ومع أنَّ الإعجاب بأعمال الرسَّامين والنَّحاتين والكُتَّاب كان محل تقدير في تلك الفترة، إلا أنَّهم لم يستحقُّوا آنذاك شرف هذا اللقب لأن إبداعاتهم كانت يدوية. ولكن في عصر النهضة تم ضم الرسَّامين والنَّحاتين إلى قائمة العباقرة، فحصل على اللقب أعلام مثل ليوناردو دافنشي ومايكل أنجلو ورافائيل. أما شكسبير فلم يُعتبر عبقريًّا إلَّا في القرن الثامن عشر بفضل الفيلسوف الفرنسي فولتير في ترويج سمعة الكاتب البريطاني كعبقري بعد أن قضى فترة في لندن وتعرف إلى أعماله. وفي عام 1712م، كتب الناقد البريطاني جون دينيس مقالًا بعنوان "حول عبقرية وكتابات شكسبير" وقال فيه: إن شكسبير هو "أحد أعظم العباقرة الذين شهدهم العالم على الإطلاق"، وعلى حد علمنا، فذلك أول تعميد بالعبقرية حصل عليه شكسبير.

يخبرنا مؤرخ العبقرية دارين مكماهون عن تأخر العلماء في الانضمام إلى ذلك الركب (خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن كلمة "علم" في اللغة الإنجليزية "Science" ولدت عام 1833م، أي أن نيوتن، على سبيل المثال، لم يصف نفسه كعالم، إنما كفيلسوف طبيعي، بينما وصفه رفيقه وخصمه روبرت

بويل بأنه قسيس الطبيعة)، بل إنه أشار إلى القرن الثامن عشر على أنه ميلاد العبقري الحديث، إذ أن فلاسفة تلك القرون حاربوا فكرة تتويجهم بذلك اللقب (ونرى ذلك حاضرا عند أرسطو، والذي نختلف مع بعض أفكاره، حين قال: "ما تفسير أن كل أولئك الذين أصبحوا بارزين في الفلسفة أو السياسة أو الشعر أو الفنون عانوا من كآبة قاسية...؟" فنجده لا يشمل العلماء في تلك الطائفة)، وكان ذلك من منظور أن العبقرية تأتي من موهبة وأصالة وليس من تعلم أو تقليد كما أشار كانط وروسو. بعد ذلك، في القرن التاسع عشر، انضم رجال الأعمال والمهندسون والموسيقيون إلى قائمة العباقرة. بل إن أصحاب الذكاء العالي لم ينضمُّوا إلى قائمة العباقرة سوى في مطلع القرن العشرين (سنتوسع أكثر في هذه النقطة في فصل قادم). وهي نقطة تغيير محورية ومهمة في تعريف العبقرية وما هو متوقع من العبقري، فقد أدى ذلك إلى تغيير المعادلة. ففي السابق كانت تعتمد على إنجازات إبداعية (مثل القصائد والكتب والرسومات الفنية والاختراعات)، بينما أصبحت لاحقًا تعتمد على رقم يصنِّف المرء كعبقري من خلال اختبارات الذَّكاء وما شابهها! أي أنك لم تعد بحاجة لرسم الموناليزا، فمعدل ذكائك الذي ولدت به كفيلٌ بضمك إلى القائمة.

إن السبب الذي قاد لتوسع دائرة العبقرية هو التغيير الذي طرأ على تفسير مصدر العبقرية.

فكما رأينا سابقًا، كان مصدر العبقرية هو أن ينفخ فيك إلهٌ إلهامًا أو يقترن بك جنِّيٌّ أو روحٌ أو ملاكٌ فتتمثل لك الأفكار على طبق من ذهب، إذ كان من السائد نسبة الأحداث غير المفهومة من الطبيعة إلى قوى غير مرئية أو إلهية. وقد يكون هذا ما قصده شكسبير على لسان هاملت حين قال هوراشيو: "لهذا وجب عليك أن ترحب بها [يقصد العجائبيات] كما تفعل بالغريب. هناك في الأرض وفي السماء أشياء أكثر بكثير مما حلمت به في فلسفتك يا هوراشيو". إن هاملت هنا يطلب من هوراشيو التخلي عن التشبث بالمنطق في بعض الأمور (لكي يؤمن بشبح أبيه)، وكأن شكسبير هنا يفتح لنا نافذة إلى الصراع القائم في عصره ويشرح لنا منها كيف تعامل معاصروه مع الميتافيزيقيات، فقد نسب الأقدمون الأشياء التي عجزت الفلسفة عن شرحها إلى كيان ميتافيزيقي مُختلق. وإذا ألقينا نظرة سريعة على التاريخ، سنجد أن السابقين رحبوا بغرائب الأرض والسماء بصدر رحب. لذلك نجد لدى الفراعنة والصينيين والنرويجيين والآشوريين وغيرهم قصة خلق فريدة ومعقدة تفسر ميلاد الكون والبشرية، أما الرومان فقد نسبوا حركة الشمس إلى إلهٍ سموه

أبولو بينما نسبه الفراعنة إلى رع، أما جوبيتر فكان مُسبب الرعد بينما نسبه الإغريق إلى زيوس، ونسب الرومان عواصف البحر إلى نبتون، ونسبها الإغريق إلى بوسايدن!

كل ما جهله المفكرون القدماء (والجاهلون المعاصرون) نسبوه ببساطة إلى كيان ميتافيزيقي مُختلق، وهذا ما أطلق عليه هنري دروموند - وهو محاضر مسيحي في القرن التاسع عشر - مصطلح إله الفراغات (أو God Of Gaps) حيث لاحظ طريقة تفسير بعض المسيحيين المعجزات والخوارق والأشياء التي لا يستطيع العلم تفسيرها، وأصروا على أن عدم القدرة على إيجاد تفسير علمي لتلك الفراغات المعرفية هو بالضرورة دليلٌ على وجود إله قائم وعالم بتلك الخفايا. أما القس ديتريش بونهوفر فقد عبر عن المفهوم ذاته باستعمال ذات المصطلحات في رسائل كتبها عندما كان في السجن النازي خلال الحرب العالمية الثانية والتي لم يتم نشرها حتى أعوامٍ لاحقة. نقتبس من كتابته: "... كم هو خاطئ استعمال الإله لسد الفراغات في معرفتنا المنقوصة. في الحقيقة إذا تم دفع (توسيع) حدود المعرفة أكثر فأكثر (وهذا محتم الحدوث) فإن دور الإله سيتقلص كذلك. وبالتالي فهو في حالة تقلص مستمر...".

لقد عاش العالم القديم على فكرة إله الفراغات (أو الأشياء التي تتجاوز الفلسفة التي يحلم بها هوراشيو) فحيثما تفشى الجهل، استُخدم الكيان الميتافيزيقي لسد الفراغات. يقتبس المفكر ستيفن بنكر في كتابه المهم: "التنوير الآن" أن الرجل البريطاني المتعلم في القرن السابع عشر كان يؤمن بأن السفن تغرق بسخط من الساحرات، وأن قوس قزح هو رسائل إلهية، وأن المذنبات تحارب الأرواح الشريرة، وأن مصدر الأحلام هو رؤيا مستقبلية، وغير ذلك الكثير من الفراغات التي عجزوا حينها عن تفسيرها بالطريقة الصحيحة.

لعل ذلك يقودنا للاستنتاج بأن أعمال الفلاسفة والمفكرين والشعراء والسياسيين كانت على درجة من العظمة لدرجة أن معاصريهم لم يستطيعوا أن يجدوا تفسيرًا بشريًّا لحالتهم، فنسبوا أعمالهم إلى كيان ميتافيزيقي وكأنهم قرنوا عمل العبقري بالطبيعة (الرعد والعاصفة وخلق الإنسان والكون وما إلى ذلك!) إن جزءًا كبيرًا من فهمنا للعبقرية اليوم هو ضحية قرون وقرون من تفسير العبقرية بمنظور إله الفراغات.

لكن هذا المنظور بدأ يتغيّر كلما تعمَّقنا في عصر النهضة الأوروبي. فقد تدخَّلت ثورة في المجتمع الأوروبي في تغيير مسار الحكاية وإعادة صياغة

سرد وتفسير العالم من حولهم فاستعانوا بالمنطق وهجروا الميتافيزيقيات. ويرجِّح المؤرخ والفيلسوف مارسيل جوشيت سبب ذلك إلى أنَّ أوروبا عانت في ذلك الوقت من كارثة دينيَّة إيمانية روحانية، وعلى إثره حدثت نقلة جوهرية من الاتكال على كيان غيبي إلى الاعتماد على العلوم الطبيعية، من التقبل والتسليم إلى التحقيق والتمحيص. ورفضت شريحة كبيرة من المفكرين الأوروبيين ما روته الكنيسة عن أعمال الملائكة وقصص المعجزات وقدرات الأنبياء، واستبدل الناس الإيمان بالمعجزات بالتحقيق المنطقي في أصول الأمور، وحاولوا سد الفراغات بالعلم والدليل بدلًا من الخرافات والغيبيات [8].

ويجوز أن ننسب هذا التغير الجوهري لأحفاد عصر النهضة الأوروبي، وهي الحركة المعروفة باسم الحركة التنويرية (وتسمى كذلك: العالمية، الإنسانية، المجتمع المفتوح، الليبرالية الكلاسيكية). ويرجح كثيرٌ من المؤرخين أن بداية عصر التنوير كانت منتصف القرن السابع عشر كامتداد طبيعي لجهود مفكري عصر النهضة: رينيه ديكارت ونيكولاس كوبرنيكوس ويوهانس كيبلر وجاليليو. ولعل أفضل من لخص أفكار التنويريين هو الفيلسوف السابق ذكره إيمانويل كانط عام 1784م، في مقالة شهيرة بعنوان "ردًا على السؤال: ما هو التنوير؟"، حيث كتب:

> **"التنوير هو انعتاق المرء من حالة العجز الذاتي. العجز هو عدم قدرة المرء على استخدام فهمه الخاص دون توجيه الآخر. إذا لم يكن سبب هذه الحالة، من عدم النضج الذاتي، هو نقص في ملكة الفهم، فهو بالأحرى، نقص في الشجاعة والإقدام لاستخدامهما دون إرشاد الآخر. لذلك، يكون شعار التنوير إذن: تحلّ بالشجاعة لاستخدام عقلك بنفسك!**
>
> **إن العجز والكسل، هما السبب وراء انقياد هذا الحجم الكبير من البشر، على الرغم من أن الطبيعة حررتهم دائمًا من أي قيادة دخيلة، إلا أنهم يبقون، بسعادة، عاجزين طوال حياتهم. وللأسباب ذاتها، يكون من السهل جدًا، للآخرين أن ينصّبوا أنفسهم قادة ومرشدين. إنه من المريح جدًا، أن لا تكون ناضجًا! إذا كان لدي كتاب يفهم عني، مرشد روحي استبدل به ضميري، طبيب يضع لي خطة غذائية، وهكذا، لن أكون بحاجة لبذل أي مجهود. لست بحاجة إلى التفكير، ما دمت قادرًا على الدفع؛ سيتكفل الآخرون، بالنهاية، بهذه المهمة المتعبة".**

دعت رسالة رواد الحركة التنويرية إلى تشجيع التقدم وتفسير الحياة والمجتمعات والعلوم والسياسة بعقلانية وتحدِّي العقائد الرَّجعية بل ونبذها. فألهمت حواراتهم حول الفكر والمناهج العلمية أجيالًا من العلماء والمُفكِّرين مثل فرانسيس بيكون وإسحق نيوتن وفولتير وآدم سميث وجون لوك.

هناك عدد من العوامل التي قادت إلى عصر التنوير، نذكر بعضها هنا على سبيل المثال لا الحصر.

لعل أهم تلك العوامل هو ترجمة أعمال وعلوم علماء ومفكري الإسلام والعرب، ففي تلك الفترة المعروفة بعصر الإسلام الذهبي (القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر الميلادي)، والتي تعتبر إحدى أهم الثورات الابتكارية في تاريخ العالم، منحت بغداد العالم آنذاك بيت الحكمة، والتي على مدار مائتي سنة، عُنيت بترجمة العلوم البابلية والمصرية والصينية والإغريقية والفارسية والسورية والرومانية والآرامية. أدى ذلك إلى قفزات نوعية في علوم الرياضيات والطب، والهندسة، والملاحة وغيرها، وقام الخوارزمي آنذاك بتقديم الأرقام الهندية لدى العرب والأوربيين. لو درسنا فقط أعمال نيكولاس كوبرنيكوس، والذي مهد الطريق للثورات السماوية وأثار روع الكنيسة الكاثوليكية، لوجدنا أنه استفاد من أعمال عالمين عربيين مُهمين. التفاصيل الرياضية والحسابية التي طور بها كوبرنيكوس نموذج حركة القمر كان مصدرها عالم الفلك الدمشقي ابن الشاطر، والذي تُوفي عام 1375م. واستفاد كذلك كثيرًا من أعمال مدرسة "مراغة" التي كان يرأسها نصير الدين الطوسي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. يشير مؤرخ جامعة كولومبيا جورج صليبا (أمريكي الجنسية ولبناني الأصل)، أن السبب الذي جعل كوبرنيكوس يطمس أسماء العلماء العرب الذين استفاد من علومهم (مثل ابن الشاطر وابن الطوسي وغيرهم من العلماء العرب كذلك) هو مُعاداة الوسط الثقافي الأوروبي للعرب في القرن السادس عشر. وما قصة كوبرنيكوس إلا غيض من فيض، فعصر النهضة الأوروبي تأثر بوفرة عطايا عصر الإسلام الذهبي. حينها، على سبيل المثال، كان مرفوضًا بين مسيحيي أوروبا استخدام الصفر لكونه اختراعًا عربيًّا مسلمًا، أي أنه اختراع أتى من شخص غير أبيض.

ويلي ذلك ميلاد عصر النهضة، والذي قد يصعب تحديد سنة ميلاده، فهو كان أشبه بتراكم عدة عوامل عبر عقودٍ مختلفة قادت إلى ميلاد ذلك العصر في القرن الخامس عشر. فلورنس بالتحديد في إيطاليا كانت عاملًا رئيسيًّا في هذا التغيير، فنجدها فترة مهمة سمحت للفنانين والعلماء والشعراء والفلاسفة والنحاتين بتجاوز حدود المعتاد، فالمبدع حينها لم يعد ملزمًا بتفكير معزول ثقافيًّا يرتع تحت سقف زجاجي، بل أصبح قادرًا على دمج عدة ثقافات ومناهج وأفكار لم يدمجها أحد سابقًا، وهذا التلاحم مكّنهم من خلق توجّهات فنية وعلوم جديدة. إلا أن هناك إجماعًا بفضل دور عائلة ميديتشي والتي سكنت في مدينة فلورنسا الإيطالية والتي كان لها الفضل الأعظم في قيادة تلك الموجة. بل إن الكاتب السويدي فرانس جونسون سماه "تأثير الميديتشي"، وذلك العصر مكّن أوروبا من الوصول إلى ابتكارات عديدة. تصف هيلين جاردنر في

كتابها "الفن عبر العصور"، العلامات الفارقة التي قادت إلى تلك الثورة، مثل تعرف أوروبا إلى نوعية الأسلحة الجديدة (والتي غيرت آلية الحرب)، وصناعة الزجاج، والاكتشافات الجغرافية التي قادها أمثال كريستوفر كولومبوس وماركو بولو، والاكتشافات العلمية التي قدمها أمثال كوبرنيكوس وجاليليو.

يذكر المؤرخ أنتوني جرايلنج عاملًا آخر مهمًّا في تعبيد الطريق لعصر التنوير، هو تطور البريد والتواصل، فهو يشدد على أهمية الدور الذي لعبه في إنشاء شبكة تواصل بين علماء القارة بشكل غير مسبوق (وهو ما وصفه أحد الكتاب بأنه قاد إلى خلق "عقل كوني" أو "عقل خلية النحل" للإشارة إلى المركزية الجماعية في الأفكار والخبرات عبر اللغات والجغرافيا)، فكان العالم الباريسي يرسل أوراقه إلى زميله الأكاديمي اللندني دون القلق من ضياع تلك العهدة.

وهناك عامل آخر هو تعرف أوروبا إلى طباعة الكتاب. ففي منتصف القرن الخامس عشر تمكن صائغ ذهب ألماني اسمه يوهان جوتنبرج من تقديم أول ماكينة طباعة في أوروبا (رغم أن الصينيين سبقوه في تقديم ذلك الاختراع كما يخبرنا المؤرخ ديك تريسي)، وهو اختراع منح الكُتّاب طريقة لحفظ نصوصهم وتناقلها ومقارنتها ودراستها.

وتُضاف نشأة الجمعية الملكية للعلوم البريطانية عام 1660م إلى تلك العوامل، فحينها لم يخشَ العلماء (مثل إسحق نيوتن وروبرت بويل وروبرت هوك) من الكبت الكنسي وجاهروا بعلومهم، بعكس أسلافهم الذين اضطروا إلى إخفاء بركان فضولهم كي يتجنبوا العقاب. يخبرنا البروفسيور آدم غرانت على سبيل المثال: عندما أكمل كوبرنيكوس كتابه عن دوران الأرض حول الشمس، أبقاه سرًا لمدة ست وعشرين سنة خوفًا من الكنيسة أيضًا ولم يرَ هذا الكتاب النور في حياته (هناك شائعة مفادها أن بروفيسور رياضيات اكتشف عمل كوبرنيكوس ونشره بنفسه!). أما جاليليو فبعد أن شارك العالم علومه قامت ذراع الكنيسة الحديدية المعروفة، محاكم التفتيش، بنفيه وظل حبيس منزله حتى وافته المنية في عام 1642م (جدير بالذكر أن الكنيسة قدمت اعتذارًا رسميًّا لجاليليو عام 1983م). لكن أعضاء الجمعية الملكية لم يقلقوا من ترّهات مشابهة. وأصبح لهم مناصب رسمية ورواتب تتيح لهم التفرغ لأعمالهم، وهو امتياز كان مقتصرًا على الفنانين الإيطاليين قبل ذلك بفضل منح الكنيسة الكاثوليكية ورعاية بعض العائلات الإيطالية فاحشة الثراء (مثل عائلة المديتشي). عزز كل ذلك من مكانة العلماء وصاروا جزءًا من عائلة العبقرية ومهدوا كذلك لعصر التنوير، إحدى أهم الثورات البشرية.

آمن حواريو التنوير بأربعة أعمدة: العلم، المنطق، الإنسانية والتقدم، لذلك إذا بدا أن أي موضوع يخالف تلك المسارات، وأنه بُني على إيمان ضال أو مسلّمة واهية أو نصوص مقدسة أو أفكار ميتافيزيقية، فإنه يخضع لعدسة منهج التفكيك الصارم (reductionism) وهو أحد المناهج الفكرية التي التزم بها التنويريون، ويقوم على تفكيك وردِّ كل شيء إلى أصله (إلى المادة)، أي أن كل الظواهر تُردُّ إلى ظواهر فيزيائية ومادية، وما لا يقبل الرد يُعدُّ خرافةً ووهمًا ويتجاوزونه. فأصبح عصر التساؤل والتشكيك. وكان هذا العصر الذي استُبدل فيه البحث والتدقيق بالإيمان المُطلق، ولعلَّ ذلك الانقلاب هو الذي ألهم مقولة ديكارت المشهورة: "أنا أشك إذًا أنا أفكِّر، وأنا أفكِّر إذًا أنا موجود" [9]. وبإمكاننا مشاهدة حالة مباشرة على هذا النوع من التفكيك والرفض عندما قام توماس جيفرسون (الذي يعد أحد أهم مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية) برفض الصورة التقليدية ليسوع المسيح، وفي بداية القرن التاسع عشر، قام بتمزيق الأجزاء العجائبية والميتافيزيقية ومعجزات يسوع المسيح مثل إحياء الموتى وشفاء الأعمى وغيرها. لقد كان هدفه البحث عن يسوع الإنسان، وليس يسوع الإله.

هذا التمسك بالمنطق خلق النكسة الدينية الأوروبية التي أشرنا إليها مبكرًا، والتي كان لها الكثير من العتبات، إلا أنه في ما يخص ساحة العبقرية قاد ذلك إلى عدة تغييرات مهمة:

أولًا: لم يعد مصدر العبقرية كيانًا ميتافيزيقيًّا مُختلقًا، بل المرء نفسه. إلا أن ذلك لم يكن تغييرًا فوريًّا أو لحظيًّا، إنما تطلب قرونًا.

ثانيًا: استبدل العلماء بإله الفراغات التحقيق في الطبيعة. وصحب ذلك تغيُّر في رؤية المفكرين لدور الرب في تدابير حياة البشر، فتبدَّل من كونه ذلك الكيان المُدبِّر للأمور إلى كيان يراقب ما يحدث عن بعد وبصمت. قادت هذه الاكتشافات البروفيسور دارين مكماهون ليكتب: "في القرن الثامن عشر تمَّت ولادة التعريف الحديث للعبقري نتيجة فترة التنوير... حين لاحظ العلماء ظهور العباقرة وصنَّفوهم على أنَّهم أرقى فصيلة بشرية، واعتبروهم النموذج المثالي للتفوق البشري". لقد أدرك الأوروبيون أنَّه لن يكون هناك معجزات عجائبية ولا تدخلات ملائكية بعد الآن.

ثالثًا: تغيرت نظرة المفكر الأوروبي في تعريف الفضول، والذي كما رأينا كان يعامل معاملة الجُرم الأثيم، أما مع تلك التغييرات التي طرأت على العقل الأوروبي، فإننا نقرأ تغيرًا مهمًّا في تعريف الفضول في تلك الفترة

الذهبية بين عصر النهضة وعصر التنوير. ويكتب عالم الفلك والمؤلف ماريو ليفيو أن أول شخص يعترف بأهمية الفضول كشعور مهم للبشر هو عالم الرياضيات الفرنسي والفيلسوف رينيه ديكارت. رغم أنه اعتبر الفضول سقمًا لا غنى عنه، إلا أنه قال:

> **"يغشى البشر عمى الفضول الذي يستحوذ عليهم حين يعملون عقولهم لاستكشاف حقول لم تُستكشف سابقًا، بدون سبب يجعلهم يأملون في النجاح، إنما بدافع حب الاستكشاف لمعرفة أين تقع الحقيقة".**

ووصف مهمة الدهشة أنها "أن نتعلم ونحتفظ في ذاكرتنا بأمور كنا غافلين عنها سابقًا". وعندما تحدث في كتابه "عن الإنسان" عن "العواطف البدائية" الست، وهي الدهشة والحبّ والكره والرّغبة والفرح والحزن، نلاحظ أن ديكارت عيّن الدهشة (الشعور الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالفضول) على قمة القائمة. الجدير بالذكر أن ديكارت كان يعمل على هذا الكتاب في النفس الفترة التي عاقبت فيها الكنيسة جاليليو على إرواء فضوله، فهجر ديكارت العمل مذعورًا مما حدث. إلا أن ذلك لم يوقف غيره من المفكرين في تعريف الفضول. فقال الفيلسوف إمانويل كانط إن الفضول هو "الشهية للمعرفة". وقد وصفها الفيلسوف توماس هوبز في القرن السابع عشر بـ "شهوة العقل"، وعن ذلك كتب:

> **"الرغبة في معرفة (لماذا) و(كيف) هي الفضول، وهي لا توجد في مخلوق حي إلا الإنسان: هكذا يتميز الإنسان عن الحيوانات الأخرى، ليس بعقله فقط، إنما بهذا الهوى الفريد. فعند الحيوان تُذهب شهية الطعام وغيرها من المتع الحواس (بحكم تفوقها) بالاهتمام بمعرفة الأسباب. وهذه شهوة للعقل تفوق (بالمثابرة على اللذة الناتجة عن توليد المعرفة المستمر والذي لا يتعب) القوة القصيرة الأمد لأي لذة جسدية".**

وفي عام 1751 م، كتب صمويل جونسون (ذكرنا تعريفه سابقا للعبقرية): "الفضول هو واحد من الخصائص الدائمة والخاصة في العقل القوي".

ولعل كل هذه التراكمات للاحتفاء بالفضول، والسعي الذي نكاد نصفه بالنهم في تنصيب العلم محل الإله، هي التي دفعت نيتشه ليكتب في كتابه "العلم المرح" مقولته المشهورة:

> **"أين الإله؟... أنا سأقول لكم! لقد قتلناه - أنتم وأنا! نحن كلنا قتلناه!... مات الإله! ويظل الإله ميتًا! ونحن هم الذي قتلناه! كيف سنعزي أنفسنا؟ نحن أكبر قتلة! إن أقدس وأقوى ما ملك العالم إلى الآن قد نزِف دمه بِطعنات مدانا - من سيمسح هذا الدم عن أيدينا؟...**

أي ماء سيطهِّرنا؟ ألا يجب علينا أن نصير نحن أنفسنا آلهة كي نبدو جديرين بهاته الفعلة؟".

ورغم أن الكثيرين يخطئون بأخذ المعنى الحرفي لهذا النص (أي أن نيتشه يبشر ويتشفى في وفاة رمز الرب، وكل ما يمثله وضع في نفس الجرة التي وضعنا فيها أمثال زيوس وجوبيتر وأودين وكل أرباب الماضي الوثنيين)، إلا أن ما قصده نيتشه هنا أن العلم حل الدين، وأن العلماء حلوا محل القساوسة، وحلت يد المنطق الباردة محل قلب الغيبيات المواسية. إن لهجة نيتشه هنا لم تكن لهجة ذلك المغبون الذي آن له أن يتشفى، إنما المُتوجف من العواقب، فقد تنبأ أن الدم سيُباح في الطرق لأننا سنفقد البوصلة الأخلاقية، ذلك النظام الديني الآمن الذي عاش فيه الأوروبيون لآلاف السنين على وشك الزوال (بل يشير البعض إلى أن الحربين العالميتين ومآسي القرن العشرين ما هي إلا تحقيق نبوءته). ويمكن تفهُّم وجهة نظر حنق الكنيسة على العلماء بمختلف مجالاتهم، إذ يمكن القول أنه كلما تمكَّن العلم من إعطاء شرح أدق للعالم من حولنا، كلما تضاءلت حاجتنا لإله مُطلق وانعدمت الحاجة للإيمان به بالخوارق والمعجزات والغيبيات، وهذا ما قلَّل من الحاجة إلى إله (والكنيسة أيضًا) في نظرهم.

وهذا بدوره أعطى أهميَّة أكبر للعباقرة. فعندما تفشّت العلمانية وضعفت الركائز الدينية والتمسُّك بإلهٍ أزليٍّ شافٍ وحامٍ وقاضٍ ومُشرِّع وحكيم ومخترع ومدمِّر، اختلَّ توازن الإنسان وأصبح يتخبَّط في حالةٍ من الضياع، هنا أتى دور الغريزة البشرية التي تحدث عنها فولتير: "لَوْ لَمْ يُوجَد الْإِلَه لِكَان مِنْ الضَّرُورِيِّ اخْتِرَاعُهُ". إلا أن المثقف الأوروبي آنذاك فقد إيمانه بذلك الكيان الأزلي كما فقد إيمانه بالأمور الميتافيزيقية. وبدلًا من إله يملأ الفراغات التي استعصى على الشعب فهمها، خلق إلها جديدا في صورته، وكان ذلك الإله هو العبقري، النابغة الذي تجاوز أقرانه، فأصبح ذاك البشري الفاني هو الشافي والحامي والقاضي والمُشرِّع والحكيم والمخترع والمدِّمر.

وهنا بدأ يتحور دور العبقري الذي أصبح فوق البشر، وكاد أن يرتقي إلى مرتبة الأنبياء والقديسين والصالحين.

عبادة العباقرة

ما أتى به حواريي المنطق والعلم أثار قلق شريحة من المفكرين الأوروبيين. فقد آمنوا أن قوة الشعراء والفلاسفة والفنانين تأتي من المشاعر والعواطف والخيال الجامح، وأنها هي المصدر الحقيقي والأصيل للتجارب الجمالية، وقد رأوا أن ما تدعو إليه كنيسة التنوير يفقد المرء إنسانيته ويجعله

جافّا وميكانيكيًّا. أما الشاعر وليام بليك فقد كتب بصريح العبارة أن الفن هو شجرة الحياة بينما العلم هو شجرة الموت. ونجد الشاعر البريطاني جون كيتس يكتب في نفس النهج قصيدة باسم: "لاميا" حذر فيها من أن الفلسفة تقص أجنحة الملائكة، وتحكم الغيبيات بالمسطرة والمنطق. وقد ألهم بكلماته الروائي الأمريكي إدجار آلان بو والذي بدوره كتب قصيدة سماها "إلى العلم!" وكان فيها يعتب على الدمار الذي ألحقه العلم بروح الشاعر.

وكان لهذه الصراعات أثرٌ جسيم في نظرتنا للعبقرية والعباقرة، أو ما أسميته عبادتنا للعباقرة.

* * *

بالإمكان القول إن الخوف على عفوية الطبيعة البشرية قاد إلى ميلاد الحركة الرومانسية في منتصف القرن الثامن عشر. من رواد هذه الحركة فلاسفة وشعراء أمثال يوهان غوته، جون كيتس، اللورد بايرون، وليام بليك، كاسبر ديفيد فريدتش، وليام تيرنر وهنري فوسيلي، وهم أولئك الذين قدَّموا الخيال على الحقائق، والمشاعر على العقلانية، والعاطفة على العلم، وفضّلوا البحيرة على الجسر، والشجرة على البرج، والراعي في الغابة على العامل في المصنع. وتجسد ذلك بصورة واضحة في أعمالهم.

بل بالإمكان القول إن عمل الروائية الرومانسية ماري شيلي الشهير "وحش فرانكشتاين" ما هو إلا طريقتها الرمزية (المبالغ فيها) لتحذيرنا من عواقب العلم الشنيعة، إذ ما يمثل فيكتور فرانكشتاين إلا رمزًا طالحًا لجهود علماء التنور، وأن الوحش القبيح والمشوه الذي جمعه وركبه وخلقه ما هو إلا إشارة لعواقب محاولتهم للتحكم بالطبيعة. وبإمكاننا أن نقول إن الروائي الرومانسي هيرمان ميلفيل حاول أن يحذرنا في عمله "موبي ديك" من غرور الإنسان في محاولته للسيطرة على الطبيعة، وبإمكاننا النظر إلى القبطان الشيطاني إيهاب على أنه ما هو إلا رجل العلم الذي يحاول تسخير الطبيعة تحت سيطرته، لكنه يفشل فشلًا ذريعًا في فعل ذلك أمام ذلك الحوت الأبيض الحُر موبي ديك، والذي ما هو إلا رمزٌ للطبيعة العذراء الشغوفة المُنطلقة.

ويعزو المؤرخون نشأة هذه الحركة إلى كتابين مُهمين. نُشر الأول منهما عام 1762م، وهو كتاب الفيلسوف جان جاك روسو "Émile ou De l’éducation" ويترجم عن اللغة الفرنسية إلى "إميل، عن نشأة الطفل". يحتفي هذا الكتاب بعفوية الطفل ومخيلته التلقائية في عالم يمسخ كل شيء حوله بالعلوم والمنطق. الكتاب الثاني والذي نُشر عام 1774م هو رواية ألمانية

بعنوان "آلام ڤرتر" للفيلسوف الألماني غوته. باعت هذه الرواية ما يزيد عن 3 ملايين نسخة حال طباعتها وأثنى عليها الإمبراطور نابليون بونابرت كثيرًا.

ما الرومانسية إذًا؟

أجاب على هذا السؤال الفيلسوف نيتشه (والذي وصفه أحد المؤرخين أنه تائب عن الرومانسية):

> **"ما هي الرومانسية؟ كل فن، وكل فلسفة يمكن أن يعتبِرا كوسائل ملائمة ومساعدة في خدمة الحياة النامية المصارعة: إنهم دائمًا يفترضون وجود معاناة ووجود كائنات تعاني".**

ويبدو أن تلك الرمزية كانت متفشية ومتسربة لدى العديد من الأعلام الرومانسيين الذين ربطوا بين العبقرية والتضحية، إلا أن الفرنسيين أدّوا دورًا محوريًّا في هذا الوضع. فنجد الرسام الشهير أوجين ديلاكروا، والذي عُرف باسم: أمير الرومانسية، يصور الشاعر الإيطالي توركواتو تاسو في دار مجانين، كعبقريٍّ شهيدٍ وحيدٍ مظلوم. ونجد الناقد الألماني هاينرش هاينه يكتب: "تاريخ الرجال العظام هو الشهادة، وإن لم يعانوا من أجل البشرية العظيمة، فإنهم يعانون من عظمتهم". ويبدو أن هاينه استلهم كلماته من الشاعر الفرنسي ألفونس دي لامارتين عندما كتب: "كل عبقريٍ هو شهيد". وهي نقطة يوافق عليها آرثر شوبنهاور عندما استفاض في وصف معاناتهم بسبب نظرتهم الفريدة للعالم، وكيف يؤثر ذلك عليهم. بينما صاغها نابليون بونابرت بطريقة شاعرية حين قال: "الرجال العظماء مثل الشُهب. يشع نورهم، يلمع ويفنى لينير الأرض". وهو بدوره كان ناشطًا مهووسًا بترويج فكرة "الرجال العظماء". أما بنجامين فرانكلين، أحد أهم مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية، والذي كان سفيرًا لفرنسا بين الأعوام 1778م و1785م، وصديقًا شخصيًّا لفولتير (له دورٌ كبير في تغيير منظورنا للعبقرية كما سنرى بعد قليل) فقد حظي بمعاملة خاصة في وطنه الجديد، إذ نظر إليه الفرنسيون على أنه شخص يتحلى بقوة عجائبية، وسماه البعض "بروميثيوس الحديث" إذ إنه حرفيًّا سرق النار من السماء (يقصدون هنا تجربته عندما حول البرق إلى نار). لا يجب أن يفوتنا أنه بعد ذلك بحوالى نصف قرن، كتبت ماري شيلي رواية "فرانكشتاين" وسمته كذلك "بروميثيوس الحديث"، والذي كذلك وظف نار السماء لإحياء مسخه. وعندما توفي فرانكلين في عام 1790م في أوج الثورة الفرنسية، تم إقامة حداد لثلاثة أيام في فرنسا بسبب وفاة "العبقري الذي حرر أمريكا وأشع نورًا في أوروبا"، يبدو أن فولتير منحه لقب "العبقري الخالد"، أما الفرنسيون فقد توجوه ألقابًا مثل "بطل الإنسانية" و"منافس

القدير" رغم أن بعض المؤرخين يؤكدون ضآلة دور فرانكلين في الثورة الفرنسية.

أما على الجانب الألماني، فنجد المفكرين يوهان غوته وآرثر شوبنهاور وهاينريش هاينه وفريدريك شيلر يحاكون ذلك المنظور.

وإذا أردنا البحث عن تعليل لهذا النوع من التنميط، فقد نجد إجابة لدى عالم النفس كارل يونج، الذي ناقش نظرية الأنماط أو النماذج البدائية (أو الأركتايب)، وهي كلمة مشتقة من اللغة الإغريقية والتي تعني: البصمة الأولية أو النمط الأولي. الأركتايب، في المفهوم اليونجي، هي أنماط موروثة في اللاوعي الجماعي من أجدادنا [10]. قد يكون النمط فكرة، أو صورة، أو نموذجًا وما إلى ذلك، وهي حاضرة عالميًّا في الوعي الفردي، أي أنها تراث بشري قديم متشارك [11] (لعل مثل هذه الأفكار هو ما دفع نيتشه ليكتب أن الإنسان حين يحلم، فهو يحج إلى أفكار الأولين والسابقين) وعادة ما نجد هذه الأركتايب تقدم نفسها في الفلكلورات والخرافات والأساطير والقصص الدينية، بل وأيضًا في الفنون (الروايات والأفلام والرسوم). واكتشف يونج عدة أنواع للأركتايب متفرقة عبر الحقبات والحضارات والجغرافيات، منها "الأم"، و"الرجل الحكيم"، و"الظل"، و"المظلوم أو البريء" ولعل أشهرها هي أركتايب "المُخلص القرباني" أو "الفدائي" واسم آخر لها هو "الشهيد" [12].

يوثق لنا التاريخ صورة أركتايب المخلص مرارًا وتكرارًا، منها لص النار الأول بروميثيوس، وأويريس، وحورس، وأتيس، وبوذا، وكريشنا، وزرادشت، وديونيس، وهرقل، وميثرا، وباكو، وساتورنو وهيركوليس، ربما كان أشهرها اليوم هو يسوع المسيح، لكن سبقته على الأقل ثلاثون ديانة وثنية عبر التاريخ تتشارك صفات يسوع المذكورة في العهد الجديد، فنجد أنهم كانوا أبناء الرب، وُلدوا في الخامس والعشرين من ديسمبر، وكانت النجوم تشير إلى أماكن ولادتهم، وزارهم وفد من الرعاة حين كانوا أطفالًا رضّعًا، فروا من الموت كأطفال، أظهروا حكمة تفوق أعمارهم خلال طفولتهم، قضوا وقتًا في الصحراء، سافروا أثناء تعليمهم، كان لهم تلاميذ، أتوا بمعجزات، اضطُهدوا ورُفضوا وصُلبوا، ونزلوا إلى العالم السفلي بعد الموت، قاموا بعد موتهم أو صعدوا إلى السماء.

يتحدث المؤلف الأمريكي كيرسي جريفز في كتابه المهم: "المخلِّصُون الستة عشر المصلوبون فداءً للبشر" عن أشباه يسوع أو كما يشير غيره "أرباب المسيحية الوثنية قبل المسيحية"، ومنهم كريشنا من الهند،

ديونيسوس الإغريقي، مثرا الفارسي، حورس من مصر، أودين عند الإسكندنافيين، زرادشت من بلاد فارس، بعل لدى الكنعانيين. ويبدو أن الأوروبيين الذين عانوا من النكسة الدينية وقلصوا دور رب الفراغات في تلك الفترة قرروا إزاحة الأعلام الميتافيزيقية أمثال حورس وبروميثيوس ويسوع وكرشنا واستبدلوا بهم سقراط ونيوتن وفولتير وفرانكلين. بل إن الفيلسوف السابق ذكره إيمانويل كانط قال:

"لقد أصبح واجبنا الكوني كرجال أن نرتقي بذاتنا إلى هذا المثل الأعلى من الكمال الأخلاقي [يقصد يسوع]. يعنى ذلك أن نصل إلى هذا الأركتايب لهذه النزعة الأخلاقية بكامل نقائها، ولهذه الفكرة التي يقدمها المنطق لنا لنضاهيها بحماس القدرة على منحنا القوة".

وربما كانت ملاحظة كانط منشقة من حقيقة أن الأوروبيين قد بدأوا بالفعل باستبدال العباقرة بالأرباب الوثنيين (على وجه الخصوص في فرنسا). لعل أهم مثال على ذلك هي قصة ثاني أشهر تفاحة في تاريخ البشرية (أول أشهر تفاحة تعود لقصة إقصاء والدينا من جنة عدن)، وهي قصة تفاحة نيوتن. يجمع المؤرخون على أن إسحق نيوتن لم يدون قصة وقوع التفاحة على رأسه في مذكراته، ويوجد إجماع على أن الفيلسوف الفرنسي فولتير اختلق القصة حين طُرد من فرنسا وعاش في بريطانيا، إذ أنه من الوارد جدا أن يكون فولتير حاضرًا جنازة إسحق نيوتن عام 1727م، وكتب عنه التالي: "كان السير إسحاق نيوتن يسير في حدائقه حين زارته أول فكر في نظام الجاذبية عند رؤية تفاحة تسقط من شجرة". ويبدو أن فولتير، الذي كان حواريًّا متعصبًا لثورة التنوير والذي آمن بأن البشر سيخلقون إلهًا (كما قرأنا مبكرًا)، استخدم التفاحة ليرمز للتغيير والنقلة الفكرية من المنظور الديني (تفاحة الخطيئة الأولى وميلاد العبء الديني) إلى المنظور العلمي (تفاحة نيوتن وميلاد العصر العلمي)، ورغم أن زيف قصة التفاحة بات من المسلمات العلمية الموثقة، إلا أن أثرها علينا حتى اليوم لا يزال حاضرًا وعميقًا. ويبدو أن العالم أضاف لمسة ميتافيزيقية إلى نيوتن، إذ نقرأ على ضريحه باللغة اللاتينية النقش التالي:

"هنا يرقد إسحق نيوتن، الفارس، الذي بقوة عقله شبه الرباني اكتشف أولا حركات الكواكب وأشكالها ومسارات المذنبات ومد المحيطات وجزرها... فليفتخر بنو البشر بوجود مثل هذا الشخص العظيم الذي زيّن الجنس البشري!".

ونجد مُواطنه ومُعاصره الشاعر ألكسندر بوب يكتب:

"الطبيعة وقوانين الطبيعة ظلت خاملة متخفية في الظلام،

حتى قال الرب لنيوتن كُنْ فأضاءت كلها".

بل يفاجئنا رجل الاقتصاد المهم جون كينز إذ صرح ذات مرة بأن مصدر عبقرية نيوتن كان ميتافيزيقيًّا أيضًا! ففي خطبة ألقاها عام 1946م بعنوان: "نيوتن، الرجل" وصفه فيها بأنه آخر السحرة فقال: "لم يكن نيوتن الأول من عصر المنطق بل كان آخر الميتافيزيقيين!" وورد أن عالم رياضيات فرنسيًّا تساءل عن عظمة نيوتن: "هل يأكل ويشرب وينام مثل الرجال الآخرين؟ فلا يمكنني تصديق سوى أنه عبقري، أو أن ذكاءه سماوي منفصل بالكامل عن المادة".

ويظل المسؤول الأهم عن توطيد صورة الأركتايب الرومانسي للعبقرية وإجلال العباقرة هو الكاتب الأسكتلندي توماس كارليل، والذي شرع بإلقاء ست محاضرات في شهر مايو من عام 1840م، وجمعها فيما بعد ليجعل منها كتابًا عُرف باسم "البطولة وعبادة الأبطال" والذي نُشر عام 1841م.

في محاضراته، يتناول كارليل الأبطال وعبادتهم بدراسة أدبية وتاريخية للبطولة، واختار كارليل لعرضها وتحليلها عدة نماذج إنسانية؛ البطل معبودًا في شخص أودين المعبود الإسكندينافي الأسطوري، والبطل نبيًّا في شخص نبي الإسلام محمد بن عبدالله عليه السلام، والبطل شاعرًا في شخص دانتي وشكسبير، والبطل راهبًا في شخص مارتن لوثر زعيم الإصلاح الديني وجون نوكس زعيم المطهرين، والبطل كاتبًا وأديبًا في شخص جونسون وروسو وبرنز، والبطل ملكًا وحاكمًا في شخص كروميل ونابليون.

كارلايل يشيد بأبطاله والأعمال التي قدموها للعالم. وهو يقدم أبطاله كنماذج وقالب للرجال الآخرين ليقلّدوهم، ويبدو أنه يتوقع من الجماهير تقديسهم، وعن ذلك كتب:

> **"إن البطل ما زال معبودًا منذ زمن [الإله] أودين... وسيكون كذلك ما دام الليل والنهار لأنه ما منا إلا من يعشق الأبطال، يعشقهم ويجلهم وينحني إكبارًا لهم، وهل ينبغي الانحناء لغيرهم؟ بل ألا يحس المرء أن في إجلاله لمن هو أرفع منه رفعةً لنفسه؟...**
>
> **وإني لأرى في غريزة عبادة الأبطال الصخرة الراسخة التي تتلقى الأمم الساقطة في مهاويها فتمنعها من الضياع في أعماق الخراب...**
>
> **وهكذا يظهر لي أن عبادة الإنسان للبطل هي الصخرة الحية وسط كل سقوط وتدهور...".**

صدى كلمات كارليل الرومانسية وأفكاره عاش عبر التاريخ وما زال يؤثر في منظورنا لأولئك الأفراد، فعاملنا الأبطال والعباقرة معاملة تكاد تكون ربوبية. ولا نزال نجد كلماته تصدح عبر حاضرنا ومن خلال أفواه فلاسفة

ومفكرين مهمين مثل رالف والدو إيمرسون وغيره. بل نجد المؤرخ الأمريكي الشهير ويل ديورانت يصرح بأن العبقرية هي العقيدة الأخيرة، وكتب عنها قائلًا:

> **"في زمنٍ حط من شأن كل شيء ولا يقدر شيئًا، فإني أقف مع الفيكتوري كارليل، وأشعل شمعتي على أضرحة الرجال العظماء...**
>
> **فسأتمسَّك بهذه العقيدة الأخيرة، وأكتشف في داخلها صلوات تدوم أكثر من نشوات الشباب المتعبِّدين. فلماذا نقف متبتِّلين أمام الجبال والأنهار ومنظر القمر وهو يعانق البحر، ولا نعطي التبجيل ذاته لأعظم معجزة على الإطلاق؟ رجل خيِّر وعظيم. كثير منَّا لا يمتلك سوى موهبة مجرَّدة، وكأنَّنا أطفال أذكياء في لعبة الحياة. وعلينا، عندما نقف أمام حضرة العبقري، أن ننحني أمامه، فهو إثبات على عظمة الخالق واستمرارية إبداعه. مثل هؤلاء العباقرة هم دم التاريخ وحجر الأساس الذي تُبنى على رؤيته السياسة والصناعة".**

وبإمكاننا تمييز ذلك الحماس نفسه لعبادة العباقرة في كلمات المؤلف هيوستن تشامبرلين حينما كتب: "العباقرة أشبه بالرب". ويكتب في نص آخر: "قفوا تبجيلًا لأعظم معجزة وهبتها لنا الطبيعة: العبقرية!".

أهي مصادفة أن تفاحة نيوتن لدى فولتير (1727م) ومضاهاة البشر للمثل العليا لدى كانط (1793م) وألوهية الأبطال لدى كارليل (1841م) ونزع ألوهية المسيح لدى كيرسي جريفز (1875م) وموت الرب لدى نيتشه (1882م)، كلها أتت في فترات متقاربة؟ أم أنهم كانوا يوثقون انتقال هالة التقديس من فوق رؤوس أشباه الأرباب إلى رؤوس العباقرة، وأنهم بشّروا (أو حذّروا) بميلاد أرباب جدد، وهم أولئك الذين يداوون ويرسمون ويكتبون ويخترعون ويُعلِّمون ويُلهمون كأنما يأتيهم الإلهام والوحي من ذاتهم، وليس من دونهم. وربما لذلك حتى اليوم حين نتحدث عن العباقرة فإننا ننسب إليهم من دون وعي تلك الصفات التي ننسبها إلى أرباب ما قبل الميلاد، فأصبحنا نتحدث عن التضحيات والمعاناة والمعجزات التي خاضوها، لقد ارتقينا بهم إلى أركتايب الأرباب والرسل والقديسين. فنحن حتى اليوم لا نزال نربط بين العبقري والتضحية والشهادة والمعاناة والرفض، ويلي كل ذلك نجاح العبقري والتي قد نقارنها باللحظة التي حرر فيها هرقل بروميثيوس من صَلبه، أو لحظة إعادة يسوع المسيح إلى الحياة.

أيجوز أن تكون دعوة كانط الكونية قد تجاوزت الجزء الأخلاقي وأننا أصبحنا نضاهي العباقرة بالأرباب كُليًّا؟

أيجوز أن تكون التفاحة التي منحها فولتير لنيوتن قد بشرت بعصر تأتي فيه المعجزات على أيدي البشر وليس الأنبياء؟

أيجوز أن يكون موت الرب لدى نيتشه قد منح ميلادًا لنوع جديد من الأرباب الذين يمشون بين البشر؟

وهذا ما جعل الأمور تتفاقم، فكتب الطبيب النفساني فيلهلم لانج إيتشباوم في كتاب بعنوان "مشكلة العبقرية" عام 1931م، واصفًا تلك الحقبة الزمنية وأثرها: "في العصر الحديث، تمَّ استبدال تقديس العقائد الدينية السابقة بتقديس العبقرية والعباقرة".

ولا تزال آثار تقديسهم وتقديرهم قائمة حتى يومنا هذا، بل قد تتخطَّى الحد الطَّبيعي لتصل إلى الغرابة المطلقة! فعلى سبيل المثال، نجد إصبع العالم الإيطالي جاليليو المبتور محفوظًا لدى متحف العلوم في مدينة فلورنسا (كما في الصورة المرفقة).

كما تم استخراج قلب فولتير وإيداعه في تمثال له في المكتبة الوطنية في باريس. وتُعرض جمجمة عالم الرياضيات رينيه ديكارت في المتحف الوطني للعلوم التاريخية الطبيعية في باريس كذلك، بل إن بعضهم أخذ أجزاءً منها وصنع عقودًا وخواتم كنوع من التبرُّك والأمل في اكتساب الموهبة ذاتها أو تلقِّي الوحي ذاته!

ومن المشاهدات على ذلك أن بعض الأشخاص وصل بهم الحال إلى أن يحجُّوا إلى منازل شكسبير وغوته! بل إن الكاتب والناقد الألماني اليهودي أوتو وينينغر انتحر في بيت الأيقونة الألمانية بيتهوفن في عام 1903م فأصبح شهيدًا في دين العباقرة، ما جعل هتلر يصفه بأنه "اليهودي الوحيد الصالح". وقد نستغرب هذا التعليق من الرجل الذي جعل مهمته في الحياة إبادة اليهود، لكن هتلر نفسه (والذي آمن أنه هو ذاته فنان عبقري) كان أحد دعاة إجلال العباقرة، إذ قام بزيارات إلى منازل عباقرة وأعلام مثل نيتشه، حيث رحبت به أخت نيتشه إليزابيث فورستر نيتشه، والتي كانت قائمة على أمور تراث أخيها الأدبي بعد وفاته ومنحت هتلر نسخًا خاصة من أعمال أخيها، كذلك قام بزيارة منزل الموسيقار الشهير فاغنر حيث وقف الجميع بعضهم إلى جانب بعض لالتقاط صورة جماعية حميمة.

لكن لعل أكثر حواريي ديانة العبقري حماسًا كان عالم الاجتماع الفرنسي أوغست كونت والذي أسس دينًا للإنسانية، في هذا الدين كان هناك

ثلاثة عشر شهر بدلًا من اثني عشر، وكانت أسماء الشهور كالتالي: موسى، هوميروس، أرسطو، أرخميدس، قيصر، القديس بولس، شارلمان، دانتي، جوتنبرج، شكسبير، ديكارت، فريدريك، وماري بيشات.

ورغم أن الأمثلة أعلاه قد تكون متطرفة، إلا أنَّ مفهوم إجلال العبقرية يؤثِّر كثيرًا في نظرتنا إلى العباقرة ويعيق فهمنا لحياتهم، فأصبح مفتاح تغيير العالم في أيدي فئة محدودة مُغلقة لا تسمح لغيرهم بالمشاركة بفكرة أو الإدلاء برأي، ممَّا يؤثر تبعًا على نوعية الحياة التي نختارها لأنفسنا وسلوكنا المُقيد بفكرة استحالة أن يكونوا بشرًا مثلنا.

والمُحزن أن انتشار ظاهرة تضخيم صورة العباقرة لم تُبنَ على ما قدَّموه من علم وفن كما هو مفترض، بل على تصويرهم بشكل مُعجِز يفوق الخيال، تصويرهم في منظور المخلِّص الإنساني الذي استبدل المخلِّص السماوي. وكأنهم أبطالٌ أسطوريون لا مثيل لهم، بشرٌ فوق الطبيعة، بل بشرٌ فوق البشر! وقادنا ذلك كبشر لِسرد قصصهم في إطار شعري ملحمي رومانسي دراماتيكي تراجيدي، يركِّز فيه على المصاعب والعقبات واللحظات العصيبة التي مرُّوا بها منذ نعومة أظفارهم وحتى إتمام رسالتهم. أصبحنا نسعى لإظهارهم كأشخاص خارقي القوة منزَّهين عن باقي البشر بذلك العنصر العجيب الذي يدعى العبقرية!

لنأخذ ولفجانج موتسارت كمثال، والذي وصفه ألبرت أينشتاين بأنَّه: "كفنَّان وكموسيقار، كان رجلًا من عالم آخر" ووصفه الفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتغنشتاين بأنه ابن الرب الحقيقي. ويبدو أنهما لم يكونا الوحيدين اللذين آمنا بهذا المنظور كما سنقرأ في القصة التالية.

في عام 1994م نشر البروفيسور وعالم الموسيقى الأمريكي نيل زالسو، والذي كرَّس جزءًا كبيرًا من حياته لدراسة موتسارت، ورقة بحثية عن الموسيقار، وصف فيها مواجهة حدثت في مؤتمر في فيينا على شرف أيقونة الموسيقى النمساوي. تكلَّم فيه عن تطور حرفة موتسارت عبر السنين كفنَّان وموسيقار، وعن ذلك كتب:

> **"في معرض حديثي، يبدو أنَّني لمَّحت باعتقادي (وربما كان عليّ ذكر أن كثيرين ممَّن درسوا حياة موتسارت يتفقون معي في ذلك) بأن موتسارت نادرًا ما أنهى كتابة مقطوعة إذا لم تكن هناك ضرورة قصوى. ودلَّلت على ذلك بأن موتسارت كان مشغولًا دائمًا، وخاصَّة أن التلحين عمل يتطلب كثيرًا من الجهد، لذلك وجب أن تكون هنالك ضرورة ملحَّة للعمل حتَّى يبذل فيه وقته وطاقته. وفي الغالب أن السبب الرئيس هو حاجته الشديدة للمال، إذ أنَّه كان يعاني من شحٍّ فيه.**

أدرك أني بقولي ذلك ناصبت العداء للمنظور الرومانسي، لكنني صُعقت من رد الفعل العنيف للجمهور على حديثي. أما رئيس الجلسة فقال التالي:

"لا يجوز مقارنة الموسيقى التي عزفها موتسارت بما عزفه الموسيقاريون المعاصرون... لأنه بينما كانوا هم موسيقاريين عاديين، كان موتسارت عبقريًّا أصيلًا. الموسيقى التي عزفها تنتمي إلى أعلى مرحلة من مراحل الإبداع".

بعد الاستماع إلى خطبته العصماء، أجبته بكل أدب: "حضرة البروفيسور، إذا فهمتك بشكل صحيح، فإنّني أختلف معك تمامًا... فموسيقاه لم تُعدُّ عظيمة إلّا في القرن التاسع عشر، بينما كان مستواها يماثل مستوى معاصريه خلال فترة حياته"".

لقد اهتاج الجمهور النمساوي واتهموه بأنَّه تجرَّأ على إهانة هذا العبقري الأعجوبة، بأن شبَّهه بالبشر وبأنَّه في حاجة إلى تدريب ومال، بل حاول مدير الجلسة طرده من على خشبة المسرح! بل هم على الأرجح لن يتقبلوا حقيقة أن جمعية أوركسترا لندن ضمّت فقط ست معزوفات موسيقية كتبها موتسارت إلى قائمة أعظم خمسين عملًا في الموسيقى الكلاسيكية، فموتسارت كتب ما يزيد على ستمائة معزوفة قبل وفاته في سن الخامسة والثلاثين (في نفس القائمة، ضمت الجمعية خمسة أعمال لبيتهوفن من ضمن ست مائة وخمسين عملًا، وفقط ثلاثة أعمال من أعمال باخ، والذي كتب ما يزيد على ألف معزوفة).

للأسف، هذا المنظور الذي بشر به كارليل مهَّد الطريق للسرد الرومانسي للعبقري، ولا يزال شائعًا حتى عصرنا الحاضر، فتجدنا نفضل ما هو عجائبي وميتافيزقي ورومانسي ومتماشٍ مع النمط الأولي (الأركتايب).

وما هي أهم أيقونة في أركتايب المخلِّصين؟ إنه يسوع المسيح كما تقول صورته الإنجيلية. حتى اليوم، ما زلنا نستعير عناصر من السرد الإنجيلي لقصة حياته حين نروي قصص العباقرة والأبطال، بل نستخدم ثلاثة عناصر رئيسية من قصة يسوع الإنجيلية وهي: التكفير (والذي يأتي في صورة الرفض أو التجاهل أو التهميش)، ثم الصلب (والذي يأتي في صورة النفي أو التضحية أو الجهاد)، ثم القيامة (والتي تأتي في صورة الإنجاز أو الخلاص أو الانتصار). وكما قرأنا سابقًا على لسان الرومانسيين، فإن العبقرية مربوطة بالشهادة، والشهادة تستلزم بالضرورة الرفض. حتى يسوع المسيح كان قد أُنكر وتوفي على الصليب، مؤمنًا بأن والده الذي في السماء نفسه رفضه وتخلّى عنه في أحلك ساعاته. إن الصورة المُتخيّلة عن عزلة العبقري وسوء فهم معاصريه ما هي إلا استمرار للصورة الرومانسية للعبقري (على الأرجح مستلهمة من حيوات أركتايب المخلصين الشهداء المرفوضين) الذي لم يفهمه أو يقدره أحد خلال حياته.

القصة التي رواها نيل زالسو نزعت هذه العوامل اليسوعية وجعلت من موتسارت مجرد شخص عادي، بنى حرفته على التدريب والفشل، وكان كأي بشر آخر بحاجة للنقود.

على الأرجح أن الجمهور النمساوي كان يفضل سماع قصص كالتي سطرتها أدناه:

> **"كان موتسارت طفلًا في السابعة من عمره في أول ظهور علني له، ولأن الجمهور اعتاد رؤية موسيقاريين اشتعل رأسهم شيبًا فإنهم سخروا منه واستهانوا به. إلا أن عزيمة موتسارت الصغير وشغفه جعلاه ينطلق في عزفه، وكأن ربة الموسيقى نفسها قد مست ناصيته. بدأت أصابعه تعزف نغماتٍ ملائكية وكأنه أوتي مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ وبُهت الجمهور وسكتوا مُصغين لكل نوتة موسيقية عزفها. وجعلت الدموع تحتشد في عيون الحضور الذين سخروا منه قبل دقائق. وبعد أن أنهى موتسارت معزوفته استمر التصفيق والتهليل لمدة عشر دقائق بدون انقطاع وصار الجمهور يطالب بالمزيد، ما أثار الحبور في صدر العازف الصغير، فالتفت إلى أبيه الواقف خلف ستار المسرح أحمر المقلتين، فهزّ له رأسه كأنه يبارك له طلبه، ولما حصل موتسارت على تلك المباركة التفت إلى الجمهور ولبّى طلبهم وعزف المزيد. وبعد ساعةٍ من العزف المتواصل، تفصّدت جبهة موتسارت بالعرق إثر الحماس والتركيز وبدا أنه في معزل عن جمهوره والمسرح، بل بدا كأنه يحلق حينها في الفردوس الأعلى، ثم تقطعت أنفاسه ونياط كمانه فألقاه على الأرض وانحنى بقامته القصيرة أمام جمهوره الذي وقف أجمعه واستمر في التصفيق المتواصل لمدة عشرين دقيقة، كأنهم بذلك يقرون انتماء ذاك الصبي إلى مكانة يوهان باخ وأساطير العزف".**

إن هذه القصة التي اختلقتها هي ما نُفضل أن نسمعه حين نتداول قصص العباقرة، ولعلها كانت تلقى قبولًا لدى الجمهور النمساوي، فتصوير موتسارت كهبة إلهية، رفضها العالم وبعد جهدٍ جهيد قبلها، ثم صعدت إلى القمة، هي ما يحرك مشاعرنا. لكن الواقع يخالف ذلك، فتلك الإنجازات الذهنية العظيمة لا تختلف كثيرًا عن إنجازات الأفراد الذين حاولوا إيجاد حلول إبداعية لمشاكلهم الأقل تعقيًدا كما سنرى مرارًا وتكرارًا في هذا الكتاب. وهي ما سماها نيتشه (كما رأينا آنفًا) بنشاط العبقري لما تحدث عن أهمية "تعلُّم كيفية وضع الأحجار ثم كيفية البناء، مع البحث المستمر عن أدوات أفضل ليعمل بها". وكأنه يوجه لطمةً إلى الجمهور النمساوي لما قال "إنَّ كلَّ نشاط يقوم به الإنسان هو غايةٌ في التعقيد، وليس نشاط العبقري فحسب، ومع ذلك لا يُعتبر أيٌّ من تلك النشاطات معجزة".

من المؤكد أن النص أعلاه لا يعني التقليل من شأن العباقرة أو إنجازاتهم، إنما يسلط الضوء على تفضيلنا لهذا السرد والإقبال عليه. وهذا ما يتجلّى بوضوح في عصرنا الحاضر.

الفصل الثاني

من الجن إلى الجينات

يوتوبيا العبقرية

بدأت هيمنة الحركة الرومانسية تضعف في منتصف القرن التاسع عشر، وقد يُعزى ذلك لعدة أسباب، منها ارتداد بعض أعلامها مثل نيتشه وغوته عنها، ويجوز كذلك الإشارة إلى أن الزحف العلمي صار قويًّا وحاضرًا. بحلول ذلك القرن، انتقل نقاش العباقرة من صالونات الفلاسفة ومجالسهم إلى معامل العلماء ومختبراتهم، وقد تبنّى بعضهم إيمان الرومانسيين بأن العبقري ظاهرة غامضة وحالة استثنائية. إلا أنهم خالفوا من سبقهم في عدة محاور: فقد رفضوا فكرة أن مصدر العبقرية هو عجائبي ميتافيزيقي، وكذلك رفضوا منظور نيتشه المهم عن نشاط العبقري، وعن أهمية "تعلُّم كيفية وضع الأحجار". وعوضًا عن ذلك فسَّروا تفوق هذه الفصيلة عبر منظور الجينات والوراثة، أي أن منظورهم أصبح أن العباقرة هم أفراد يأتون بأفعال عظيمة بسبب جينات مميَّزة متفوقة بدلًا من المنظور الميتافيزيقي الذي كان شائعًا قبل ذلك القرن.

قاد هذه النقلة العالم البريطاني فرانسيس غالتون، وقد شارك غالتون الرومانسيين رؤيتهم في إجلال العبقري، إلا أنه شذ عنهم في محاولته أن يُؤطِّر هذه النظرية في إطار علمي.

لقد نضجت أفكار غالتون في وقت كانت فيه آراء علماء الطبيعة عن دور الوراثة وأصل الأنواع ونظرية التطور (مثل تشارلز داروين وألفريد والاس) تُتداول في محافل إنكلترا الثقافية والعلمية. لندن نفسها كانت تخوض ثورتها العلمية وعصر النهضة الخاص بها، فهذا المجتمع ذاته هو الذي احتضن أعلامًا مثل اسحق نيوتن، مايكل فاراداي، ريتشارد بويل، روبرت هوك، جون ستيوارت ميل وتشارلز ديكنز.

كان غالتون نفسه جزءًا من ذلك المحيط النابض والمُتّقد. لكنه في عام 1851م تلقى صفعة وطنية (وكذلك عددٌ من مواطنيه) حين تبين له تفوق الولايات المتحدة الأمريكية تكنولوجيًّا وعسكريًّا وصناعيًّا. ومثل الكثير من معاصريه، قلق على وضع بريطانيا العظمى ومكانتها بين دول العالم المتقدم. كانت هناك نظرية متداولة مع أقرانه عن سبب ذلك التأخر والتدهور: سبب انحدار المجتمع هو تكاثر أفراد الطبقة الفقيرة الكادحة (خاصَّة أن الإمبراطورية البريطانية آنذاك عانت من تفّشي الجرائم وتدنَّي الذكاء والنظافة فيها).

ما ساهم في توطيد إيمانه بهذه النظرية أنه هو نفسه كان سليل عائلة غنية أرستقراطية (والتي صنع أفرادها ثرواتهم كمصرفيين وتجار سلاح، بينما صنع الطرف الآخر من عائلته الداروينية ثروته في الطب والعلم) وقد تمكن من القراءة في سن الثانية، وفي سن الخامسة تعلم شيئًا من الإغريقية وبدأ قراءة أعمال شكسبير. في سن الرابعة، كتب هذه الرسالة لأخته أديل: "أديل العزيزة،

> **عمري 4 سنوات، وبإمكاني قراءة أي كتاب باللغة الإنجليزية... وأستطيع قراءة 52 بيتًا شعريا باللغة اللاتينية. أستطيع أن أقوم بأي عملية جمع وضرب للأرقام التالية: 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10، 11... وأستطيع قراءة القليل في اللغة الفرنسية وقراءة الساعة كذلك.**
>
> **فرانسيس غالتون"**

هناك عامل آخر ساهم في تعزيز تلك النظرية هو أنه لاحظ أثناء فترة دراسته في جامعة كامبريدج المرموقة أن لأقرانه الأرستقراطيين طلَّة بهية وأجسادًا رشيقة وذكاءً متقدًا ومستقبلًا باهرًا، وقد انتهى بهم المطاف في مناصب مهمَّة وحساسة في عصرهم.

عندما بدأ تحرياته اتضحت له حقيقة آمن بها وافتتح بها كتابه "العبقرية الموروثة" حيث يقول: "أسعى أن أبين في هذا الكتاب أن قدرات الإنسان الطبيعية هي نتيجة الوراثة، وتخضع للقيود نفسها التي يخضع لها التكوين والخصائص الفيزيائية في العالم العضوي بأسره".

أي أنه يتفق مع إيمانويل كانط وجان جاك روسو في نسبة العبقرية إلى الموهبة الطبيعية وأنها تؤدي دورًا أساسيًّا في تفوق المرء وفشله، ففي اعتقاده يعتمد ارتقاء المجتمع على الجينات الأرستقراطية التي لاحظها في أقرانه الأثرياء كما لاحظها في نفسه. لنطّلعْ على تعريف غالتون للموهبة الطبيعية: "أعني بالقدرة الطبيعية صفات الفكر والقابلية، والتي تحث وتؤهل

الرجل للقيام بأعمال تبني سمعته... أعني الطبيعة التي... تحث بفعل المُحفز الموروث، على السير على الطريق المؤدي إلى العظمة، ولديها القوة للوصول إلى القمة".

قرَّر غالتون أن يمشي على خُطى نسيبه تشارلز داروين مُلهمًا بكتابه "فِي أَصْل الْأَنْوَاع عَنْ طَرِيق الِانْتِقَاء الطَّبِيعِيّ"، الذي تحدَّث فيه مؤلفه عن المزارعين وكيف قاموا عبر السنين بتدجين الحيوانات والنباتات ليحصلوا على أقوى الفصائل وأفضلها. تساءل غالتون - وكذلك هتلر من بعده - إن كان بالإمكان تطبيق الفلسفة نفسها على البشر. ولكن ما غاب عن غالتون هو أن داروين خصَّص الصفات الجسدية فقط في دراساته مثل الطول والأجنحة ولون العين (سنناقش لاحقًا علاقة الجينات بالذكاء)، بينما سلكت أفكار غالتون مسارًا آخر وهو التدجين من أجل التميز والعظمة والموهبة، وذلك لأن غالتون أخطأ فهم العبقرية وكذلك الموهبة الطبيعية.

كتب غالتون مقالًا بعنوان "وِرَاثَة الشَّخْصِيَّة وَالْمَوْهِبَة" في عام 1864م، حيث يسرد أسماء أفراد متفوقين في مجال الموسيقى والتأليف وأمور اللاهوت والدولة والعلم وأسماء أقاربهم المميزين كذلك، كتفسير لتناقل الموهبة والشخصية بالجينات كما لو كانت لون الشعر والبشرة. ثم يتحدث عن حلمه في ذلك المقال قائلًا: "دعونا نطلق عنان خيالنا، ونتخيل يوتوبيا [المدينة الفاضلة]... حيث تم تطوير نظام امتحان تنافسي للفتيات والشباب، يهتم بجودة العقل والجسد، وحيث تم تخصيص مبلغ كبير سنويًّا لهذا الوقف حتى نُمكّن هذا التزاوج، إذ سيتم تسخير أطفال هذه الزيجات ليكونوا خادمين بارزين للدولة. لنتخيل مراسم سنوية للزواج في تلك اليوتوبيا... حيث يخاطب الأمين الأكبر للوقف عشرة شبان... كلهم في الخامسة والعشرين من العمر، على النحو التالي: "أيها السادة، سأعلن نتائج الفحص العام، والتي أجريت على المبادئ مُعتبرة؛ مما يدل على أنه في ما يتعلق بتلك الصفات من المواهب، والشخصية، والحيوية فإنكم تنتمون للصفوة في عامكم هذا، وذلك يثبت أنكم ستخدمون سلالتنا. كما تم إجراء فحص على المبادئ المعمول بها بين جميع السيدات الشابات في هذا البلد، واللواتي هنّ الآن في سن الحادية والعشرين... مكننا ذلك من اختيار عشرة أسماء تتوافق مع صفاتكم الفردية. هناك احتمالية كبرى أن تجلب لكم هذه الزيجات بينكم وبين هؤلاء السيدات العشر السعادة العظمى. بالإضافة إلى ذلك، وهو ما يشكل أهمية قصوى للدولة، فإن هذه الزيجات ستنتج نسلًا من المواهب العظيمة... نحن مستعدون لتخصيص 5000 جنيه إسترليني كهدية زواج، وتحمل تكاليف تعليم أطفالكم والحفاظ عليهم...

لو أننا استثمرنا جلّ جهدنا وتعبنا في تطوير الجنس البشري مثل ما فعلنا في تطوير نسل الخيول والماشية، لكان لدينا مجرَّة مليئة بالعباقرة!".

في عام 1869م طرح أحد أهم نظرياته: الجينات هي التي تحدِّد مقدرة الإنسان الذهنية وصفاته الجسدية، وكتب عن ذلك قائلًا: "إنَّ الوراثة هي النَّاقل الأساسي للقُدرات الطبيعية لدى الإنسان".

في عام 1883م، طرح غالتون أفكاره في محاضرة اشتهرت بعنوان علم تحسين النسل (*Eugenics*) والتي نُسِبت له فيها العبارة الدارجة "الطبيعي ضد المكتسب" (Nature vs Nurture) وذكر فيها أن دراسته لأهم شخصيات عصره تثبت نظرية أن الجينات هي المعيار الرئيسي للتفوق والعبقرية وليس التعليم أو البيئة.

في خطبة ألقاها عام 1904م قال: "ما تقوم به الطبيعة بشكل عشوائي، بطيء وقاسٍ، يستطيع أن يقوم به الرجل بحكمة، وسرعة ولطف". ويعود إليه الفضل في تعريف الموهبة الطبيعية على أنها قدرة المرء المحدودة والمحدَّدة، إذ كتب: "تصبح طاقة الأداء القصوى كمية محدَّدة ومحدودة". ووثَّق أفكاره في أحد أهم أعماله: كتاب "العبقرية المتوارثة"، والذي ذكر فيه أن العباقرة هم أفراد رُزقوا بجينات متفوقة. فكانت نظرته للأمور بسيطة وهي أنَّه كما يولد المرء طويلًا، يولد كذلك عبقريًّا! فقد آمن إلى حدٍّ الهوس، أن ما يحدِّد مستقبل الطفل، كأن يكون قاضيًا أو شاعرًا أو حتى مصارعًا، يعتمد على الجينات التي يرثها من أهله، وعن ذلك كتب: "ليس لديّ صبر على النظريات الشائعة التي كُتبت للتهذيب، والتي تقول إن الأطفال وُلدوا سواسية، وإن الفرق الوحيد بين الطفل والآخر وبين الرجل والآخر، هو الاجتهاد والأخلاق!".

من باب الإنصاف، يجب ذكر أن غالتون في فحصه لشؤون العباقرة أفلح في ربط تفوقهم بانتمائهم إلى العوائل الأرستقراطية (سنبين أهمية هذه العلاقة في عدة فصول خلال هذا الكتاب)، إلا أنَّه أخطأ في اعتقاده أن العبقرية والموهبة تورثان بصورة جيناتية، وذلك يعود لفهمه الخاطئ للعبقرية. وللأسف لم نتحرر من هذا التعريف أو المفهوم حتى يومنا الحاضر. وما زلنا نرى آثار غالتون حين نقرأ شخصًا يصف نفسه أنه "ولد عبقريًّا" أو أن الشخص "يحمل جينات عبقرية" أو "مبدع بالفطرة"، إنه بخطئه هذا يعوق فهمنا للعبقرية.

وصنَّف غالتون البشر من خلال دراسته للمجتمع البريطاني الذي عاصره إلى الشخص المتفوق (The Eminent) وهو الشخص الذي تتفوق

صفاته على صفات باقي أقرانه، والشخص العادي (The Mediocre) الذي تتوافق صفاته مع صفات أقرانه العاديين، وأخيرًا المغفَّل (The Imbecile) وهو الشخص ذو الصفات الأقل من المتوسط.

لقد كانت نظرياته مشهورة ولاقت قبولًا واسعًا من بعض معاصريه مثل المخترع الاسكتلندي ألكسندر غراهام بيل والروائي البريطاني إتش. جي. ويلز والروائي الفرنسي إميل زولا (في عام 1896م، عين زولا فريقًا طبيًّا لتأكيد عبقريته) والرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت والكاتب المسرحي الإيرلندي جورج برنارد شو، وأخيرا الفيزيائي الألماني ألبرت أينشتاين.

أما رجل الأعمال الأمريكي روبرت جراهام فقد اجتهد فعلًا لخلق "مجرَّة مليئة بالعباقرة" في ثمانينيات القرن العشرين (لا نعلم إذا كان استلهمها من غالتون مباشرة أو كانت محض صدفة) حيث أسس مصرفًا منويًّا باسم "Repository for Germinal Choice" عام 1980م. كان الهدف منه هو جمع حيوانات منوية من رابحي جائزة نوبل! (ويقال أيضًا إنه جمع عينات من نخبة الجامعات والمشاركين في الألعاب الأولمبية ومحترفي الشطرنج) من أجل توليد وتهجين عينة الأفراد خارقي الذكاء (كما رغب غالتون قبل قرن من الزمان) لكن المصرف أُغلق عام 1997م بعد وفاة المؤسسين دون معرفة ما إذا نجحت الفكرة أم فشلت.

لكن حتى ندرك الأثر الذي تركته أعمال غالتون على التاريخ، نمر مرورًا سريعًا على قصَّة العالم الأمريكي هنري جودارد الذي تبنَّى أعماله وأجرى دراسة مرعبة بناءً على ذلك. فقد درس العلاقة بين من سمَّاهم "ضعاف العقول" والمجرمين، ولأنَّه وجد علاقة بينهم، رفع توصية في الولايات المتحدة الأمريكية بتعقيم ضعاف العقول لمنعهم من التناسل. ورغم أن جودارد لاحقًا أدرك خطأه، إلا أنه كان متأخرًا، فنظريته حصدت قبولًا وتبنَّت توصيته عشرون ولاية.

علامة العبقري

كما أشرنا مُبكرًا، مع حلول عصر النهضة تلاشى دور الجن والأرواح والتفت المتأملون إلى قدرات المرء، وذلك ما دعا بعض علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى التأمل: دائما ما نسمي المرء عبقريًّا بناء على سُمعته وشُهرته (ويحدث ذلك غالبًا بعد وفاة الشخص)، وذلك قادهم إلى التساؤل: هل توجد علامة تخبرنا بعبقريته بينما لا يزال على قيد الحياة؟

وأشرنا كذلك إلى المحاولات الأولى التي حاولت اكتشاف علامة العبقري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث تطورت بعض المناهج العلمية الزائفة التي تخصصت في دراسة تفاصيل الوجه (السيكوجونومي والفرينولوجي والكريانمتري) حتى يتعرفوا على سمات العبقري.

كان غالتون أحد أولئك. فعلى الرغم من ضخامة حجم دراساته وأرقامه وإحصائياته، كانت هناك حقيقة تزعج غالتون: بينما دلته أبحاثه (كما آمن) إلى مصدر العبقرية، إلا أنها كلها كانت بأثر رجعي، فقد اضطر لدراسة تاريخ أعمال رجال عظام، درس السمعة وما دوّنه الآخرون عنهم، أي بعد فوات الأوان (إذ أن معظمهم ماتوا حينها)، إلا أنه لم يتمكن من أن يجد طريقة تتنبأ بعبقرية الشخص، فبدلًا من انتظار إنجازات الشخص، أراد غالتون أن يجد وسيلة كي يكتشف مبكرًا إذا ما كان الشخص يحمل جينات عبقرية. دوّن أحد علماء تلك الحملة في عام 1904م السطور التالية: "لو كان بالإمكان التعرف إلى الأفراد ذوي الذكاء الاستثنائي عن طريق قراءة علامات خاصة في مرحلة الطفولة، سيكون بالإمكان الارتقاء بتعليمهم وتجهيزهم لثقافة أرقى. وإذا أنجزنا ذلك، فإنه عند البلوغ، سيصبح أولئك الأفراد نخبة مثقفة قادرة على تطوير المجتمع في كل مجالاته".

وقد حاول غالتون أساليب متعددة لاستنتاج ذلك (مثل قياس حجم الرأس وقوة المصافحة ودراسة الشخصية) آملًا أن يجد مشيرات إلى عبقرية المرء، إلا أن محاولته باءت بالفشل.

تزامنًا مع محاولاته لاكتشاف آلية تعينه على اكتشاف العباقرة، خطت فرنسا خطوة كبيرة في هذا المجال، إذ كلفت الحكومة الفرنسية عالم النَّفس الفرنسي ألفرد بينيه في جامعة السوربون باختراع آلية (أو اختبار) ليكتشف الطلاب الذين يعانون من إعاقة أو اختلال عقلي. بعد سنة، وبالشراكة مع زميله استطاعا تطوير اختبار يكشف ذلك، وكان ذلك البِذرة الأولى التي قادت بينيه لتطوير ما يُعرف اليوم باختبارات معدَّل الذكاء أو (IQ: Intelligence Quotient). أما الاختبار الذي طوّره بينيه في عام 1905م فإنه يقيس حالة الطالب العقلية ويقيِّمها ثم ينسبها إلى تصنيف: "طبيعي" أو "مغفل" أو "مُعتل"، وأصبحت هذه الأداة تمكِّننا في مرحلة مبكِّرة من قياس ذكاء المرء كما نقيس طوله أو وزنه! وآمن معاصروه أنها ستُخبرنا كذلك عن مستقبل الأفراد والإمكانيَّة الفكرية لديهم. وصار الاختبار أداة لدى الفلّاحين الباريسيين الذين يرغبون بمعرفة إذا وجب عليهم إخراج أبنائهم من الحقول وإرسالهم

إلى المدارس وتوفير فُرص أفضل لمستقبل مشرق، أم أنهم ينتمون إلى الحقول.

يجب ذكر أن ألفرد بينيه، مثل سابقه غالتون، تساءل إن كان بإمكان استخدام هذا الاختبار لمعرفة الأفراد ذوي الذكاء الفذ، أولئك الذين يتجاوزون الحد المعتاد. وفي عام 1908م، قام بتعديل الاختبار ليقيس الأفراد ذوي العقول الاستثنائية. ولكن على عكس غالتون، كان بينيه يشكك في حجة الوراثة بل إنه خشي أن تسلك الأبحاث التي أتى بها منعطفًا آخر ويُساء استخدام المعيار الذي قدَّمه، فشدَّد على أن الأطفال المتأخرين عن أقرانهم ليسوا بالضرورة حبيسي تلك العقلية، وأن بإمكانهم "تعلُّم التعلُّم". كما قال أيضًا إن الذَّكاء ليس عاملًا فرديًّا إنما يعتمد على عوامل متداخلة ومعقدة كثيرة. ومع الأسف تجاهل معاصروه تلك الملاحظات واحتفوا بالمعيار الرقمي فقط.

* * *

بعد عقد من الزمان، وعلى قارَّة أخرى تحقَّقت مخاوف بينيه، إذ أخذت أبحاثه منعطفًا خطيرًا وضالًّا، والذي سنبقى نعاني من آثاره إلى يومنا الحاضر. فما قدَّمه غالتون وألفرد بينيه للساحة العلمية أوجد أتباعًا آمنوا بأبحاثهم وأفكارهم وآرائهم. وحاول العلماء حينها قياس هذا التفوق بإيجاد آلية تقيس الذكاء والعبقرية بطريقة علمية كما نقيس طول المرء ووزنه، وكانت النظرية السائدة آنذاك (ولا نزال نؤمن بها) أنه كلَّما ارتفعت تلك الأرقام، ارتفعت نسبة الذكاء، وبالتالي ارتفع احتمال العبقرية. ومن أهمِّ أولئك عالم النفس البروفيسور لويس تيرمان في جامعة ستانفورد [13]، والذي كان حواريًّا مُتعصبًا لفرانسيس غالتون ومؤمنًا بدور الوراثة والجينات [14]. الجدير بالذكر أن تيرمان تحدث عن زيارته في طفولته إلى شخص تخصص في علم الفرينولوجي والذي عاين رأسه الصغير وحدد أن ذكاءه لا يتجاوز المعدل. يبدو أن لويس لم يهتم كثيرًا بذلك التحليل، إذ أنه شق طريقه ليصبح أحد أكثر الأشخاص تأثيرًا في فهمنا اليوم للذكاء.

وفي الوقت الذي كان ألفرد بينيه يطور اختبار قياس الذكاء، كان تيرمان قد أنهى شهادة الدكتوراه من جامعة كلارك، وقد طور شغفًا لأبحاث بينيه وطوَّر عبر السنوات تطبيقات مختلفة للاختبار، وفي عام 1906م، نشر بحثه الشهير: "العبقرية والغباء: دراسة بعض العمليات الذهنية لسبعة نابغين وسبعة أغبياء". ثم قام بإصدار نسخة منه أطلق عليها اسم اختبار بينيه - ستانفورد لقياس الذكاء. وكما سنرى بعد قليل، قام تيرمان على إنشاء

مشروعٍ طموحٍ، كان يسعى من خلاله لإيجاد تلك المجرَّة التي حلم بها غالتون لما كتب "مجرَّة مليئة بالعباقرة!".

بدأ تيرمان باستكشاف حقول جديدة لاختبار معدل الذكاء، وكان يجرب مجالات مختلف لمعرفة أبعاد وفوائد اختبار معدل الذكاء. ومع أنَّه كان مؤمنًا بألفرد بينيه وما أتى به، إلَّا أنَّ سبب اهتمامه باختراع بينيه كان نقيضه تماما. فبينما بحث بينيه عن المعدل الأدنى الذي يسمح للمرء بالالتحاق بالمدرسة، كان تساؤل تيرمان هو: هل باستطاعة علم النَّفس استخدام مقاييس الذكاء في اكتشاف الطلَّاب العباقرة؟ تساؤل آخر كان يدور في ذهنه: كم من شخص عبقري حولنا لكننا لا ندرك عبقريته؟

ويعود مصدر إلهامه لسماعه عزف شاب موهوب موسيقيًّا باسم هنري كويل. ولما اختبر لويس ذكاء هنري وجد معدَّل ذكائه يصل إلى 140 نقطة (إذا علمت أن معدل ذكاء العالم الفيزيائي ريتشارد فاينمان، والذي يعد أحد أهم علماء الفيزياء والحاصل على جائزة نوبل، بلغ 124 نقطة، فلك أن تتخيل قدرات هنري الذهنية). المثير للدهشة أن هنري كويل كان يعمل بوابًا في مدرسة صغيرة قريبة من جامعة ستانفورد، وكان يعزف في المساء حيث اكتشفه تيرمان، والموسيقى التي عزفها هنري كانت خلابة. وهذا الاكتشاف جعل تيرمان يتساءل كم من موهبة موجودة ومُتجاهَلة ومدفونة؟ وشجَّعه للبحث عن أشخاص مثل هنري. وكان العالم الذي اكتشفه تيرمان مليئًا بأشباه هنري.

حصل تيرمان في عام 1921م على دعم وميزانية كريمة تمكِّنه من إنجاز هذه المهمة، فزار مع فريقه المدارس المحلية حول ستانفورد وسان فرانسيسكو، وطلب من المدرِّسين ترشيح الطلاب الذين أظهروا بوادر النبوغ. وبعد اختبار المرشحين تمَّ استبعاد أولئك الذين لم يتجاوزا الـ 130 نقطة، واختيار أولئك الذين تجاوزا تلك النقاط. كان عدد الطلاب الذين اعتقد تيرمان أنهم يستحقُّون لقب عبقري هو 1,470 طالبًا تتراوح معدَّلات ذكائهم ما بين 140 إلى 200 نقطة. أطلق على هذه الشريحة اسم تيرمايتس (Termites) تيمنًا باسمه. ولا تزال الدراسة مستمرَّة حتى يومنا الحاضر بدعم من جامعة ستانفورد، وستستمر حتى يتوفى آخر واحد من الترمايتس أو يقرر الانسحاب من الدراسة، والعدد المتبقِّي منهم اليوم هو 200.

كانت حياة هؤلاء الطلاب هي المشروع الذي كرس تيرمان له حياته، وسمى هذا المشروع "الدراسات الجينية في العبقرية"، ولبقية حياته تتبعهم ودوَّن حياتهم الصحية والاجتماعية والاقتصادية والأكاديمية ودعمهم بشهادات

توصية حتى يلتحقوا بجامعات ووظائف مرموقة. احتفى لويس تيرمان بطلّابه العباقرة لأنه آمن أن هذه الثلة من العباقرة ستقود مستقبل أمريكا، ويحصدون جوائز نوبل، ويشغلون أهم المناصب القيادية في الدولة. ولعله في ذلك كان يود تحقيق رؤية قدوته الأعظم فرانسيس غالتون حين كتب: "لا شك لدي أن أي شخص... لن يشكك في وجود بشر عظماء... ذوي طباع نبيلة جلية، أفراد وُلدوا ليكونوا ملوك الرجال".

وخلال فترة حياته نشر تيرمان خمس مجلَّدات عن نمله الأبيض (الترجمة الحرفية لكلمة Termites)، ووثَّق فيها حياتهم العائلية والتعليمية والوظيفية وتاريخهم المرضي، بل كلَّ مسارٍ استطاع توثيقه في حياتهم. وكتب تيرمان الجزء الخامس منها وهو على فراش الموت، وكان يوثِّق آنذاك حياة عباقرته الذين وصلوا إلى منتصف الثلاثينات من أعمارهم.

يانصيب الذكاء

في أي نقاش للعبقرية، لا مفر من نقاش عامل الذكاء ودوره في صنع الأفكار العظيمة. من المفهوم جدًا لماذا نقع نحن البشر في حب ذوي الذكاء العالي؛ فهو عامل مهم في حياتنا منذ أولى مراحلها، ويؤثر في تفوق الطلاب وتمايزهم في الأداء الدراسي والوظيفي، وهذا الأداء هو مؤشر ممتاز ومنطقي على مستقبل الطفل الدراسي. فبينما يعاني أفراد كثيرون من حل مشاكل التفاضل والتكامل وحفظ وظائف ومميزات العناصر الكيميائية في الجدول الدوري، نجدهم يتعاملون معها بمنتهى البساطة. لذلك من المنطقي أن ننسب ميلاد الأفكار العظيمة إلى أصحاب الذكاء العظيم، وأن نؤمن بأن الذكاء العالي هو الصفة الأهم والأولى في ميلاد العبقري. أما في المجال الوظيفي، فإن معدل الذكاء العالي أداة ممتازة تمكن المرء من حل المشاكل الجديدة، وربما القدرة على تطوير حلول جديدة أيضًا. ولذلك فإن معدل الذكاء هو إشارة ممتازة للتنبؤ بمستوى الدخل كذلك (بل إن هناك أدلة أنه يشير إلى طول العمر أو قصره).

اليوم، وبعد قرابة قرن من اختراع اختبار معدل الذكاء، لا يزال هذا المعدل أداة ممتازة لتقييم المرء. وبرغم أننا لا نصرف النظر عن أهمية الذكاء وعن دوره المهم في العبقرية، لكن يجب أن نتعرف عليه بعمق حتى نفهم أبعاده، ولماذا أخطأ كثيرون في فهم دوره في العبقرية، فنحن لا نملك تعريفًا واضحًا للذكاء (مثل العبقرية)، بل إننا نعده مرحلة مبكرة للعبقرية، أو أنه العبقرية إذا تطور ونضج. فنجد أنفسنا نحتفي بسريعي البديهة، وأولئك الذين يأتون بأفكار جديدة لحل مشاكل قائمة (وذلك تعريف الإبداع، وهو القدرة على

توليد أفكار جديدة وبالضرورة مُفيدة، وهو ليس ذكاء، إلا أنه يُعتمد عليه)، وأولئك الذين تفوقوا في الحساب والعلوم وإلخ.

يعرِّف عالم النفس والجينات الأمريكي روبرت بولمان الذكاء بأنه القدرة على التعلُّم واستيعاب مشاكل معقدة وحلِّها وتقييم المنطق في وقت سريع مقارنة بالغير، ويصفه بأنه القدرة الذهنية العامة. وبما أن الذكاء ليس صفة جسدية أو محسوسة، فليس بإمكاننا قياسه مباشرة، إنما يمكن إجراء مجموعة من الاختبارات المعرفية التي تقودنا لاستنتاجه (نقصد هنا اختبارات معدل الذكاء)، بعض تلك الاختبارات لفظية والأخرى غير لفظية. ورغم تباين تلك الاختبارات في طبيعتها واختلافها على السطح إلا أنها مترابطة، والتفوق في أحدها هو دليل آخر على التفوق في غيرها.

هذه الحقائق تقود البشر دائمًا إلى السؤال القديم: "هل الذكاء موروث أم مكتسب؟" وعندما نسمع هذا السؤال، فإن السائل عادة ما يحاول أن يستوضح عن دوره ومسؤولياته.

فإذا كان الذكاء عاملًا جينيًّا متوارثًا، فذلك يقودنا للإيمان (مثل ما آمن غالتون) بأنه مثل الطول ولون الشعر، فإن الذكاء كمية مُحدّدة لا تتغير. هذا المنظور الحتمي يقودنا للتفكير بأن المرء ذو الذكاء المتدني يجب أن لا يُلام على ما هو فيه، فقدره مختوم ومحتوم بما وُلد عليه. وبإمكاننا أن نجد رواسب هذا الاعتقاد في الكاريكاتير الشهير الذي نشرته مجلة النيويوركر عام 1981م، من عمل الكاريكاتوري تشاس آدمز، إذ قدم لنا نسخة من العلاقة بين الجينات والسلوك في صورة الكاريكاتير الشهير "توأم ماليفرت"، والذي يُصِّور لنا توأمين متماثلين افترقا عند الولادة ولم يعرفا بعضهما يومًا، وبعدها بسنين التقيا في مكتب محامٍ كي يوثِّقا اختراعهما المتطابق!

Separated at birth, the Mallifert twins meet accidentally.

إن فكرة الكاريكاتير تؤكد أننا لم نتحرر بعد من مفهوم الوراثة والحتمية الجينية وأن العبقرية (وبشكل ضمني الإبداع والابتكار) هي متوارثة.

غالتون وطائفته يمثّلان طرفًا من المعادلة، أما الطرف الثاني فهو طائفة السلوكيين الذين يؤمنون بأن الذكاء قابل للتعديل مثل العضلات والوزن. أي أن المرء مهما كانت درجة ذكائه، فإنها لا تقيده، وأن بإمكانه أن يصبح ما يريد. وقد يكون من الصواب ربطه بما كتبه الفيلسوف البريطاني الشهير جون لوك في عام 1690م: "فلنفترض أن العقل عند الولادة صفحة بيضاء خالية من أي فكرة أو صفة، فكيف لهذا العقل الفارغ أن يتأثث؟ نستطيع الإجابة على هذا السؤال بكلمة واحدة فقط: التجربة. وعليها تُبنى وتُستمد كل المعرفة في نهاية المطاف. فكل ملاحظاتنا للعالم من حولنا سواء كانت عن الأشياء الخارجية أو ما ينتج كأفكار من عقولنا، مستمدة من إدراكنا لها وانطباعاتنا عنها. وهذا ما يشكّل لدينا المفهوم الذي نصل إليه عبر استخدام أدوات التفكير".

أصبح هذا المبدأ والذي اشتهر باسم اللوح الفارغ أو الصفيحة البيضاء (Tabula Rasa) جزءًا من النقاش البشري الذي خاضه الكثير من الفلاسفة عبر الزمن. وقد لاقى قبولًا في القرن العشرين وتأطّر بإطار علمي. وهذا ما آمن به مؤسس مدرسة علم النفس السلوكية جون واتسون في مقولته الشهيرة: "أعطني اثني عشر طفلًا أصحاء، سليمي التكوين، وهيئ لي الظروف المناسبة لعالمي الخاص لتربيتهم وسأضمن لكم تدريب أيٍ منهم بشكل عشوائي ليصبح طبيبًا، محاميًّا، فنانًا، تاجرًا ورئيسًا، وإذا ابتغيت، بإمكاني جعله متسولًا ولصًّا، وذلك بغض النظر عن مواهبه، وتوقعاته، وميوله، وقدراته، ومهنته، وأصول أجداده".

إلا أن الأدلة الراهنة تخبرنا قصة مختلفة. وهي مهمة في فهمنا للعبقرية.

* * *

في بحثٍ مهم بعنوان: "القوانين الثلاثة في علم الوراثة السلوكي ومدلولاتها" يفتتح عالم النفس إريك تركهايمر بهذه العبارة "إن جدال الموروث ضد المكتسب محسوم. كل شيء موروث". ثم يستشهد بعلم الجينات السلوكي وأنه عند دراسة الصفات البشرية (ونخص هنا في حديثنا الذكاء)، نجد أن العلماء توصلوا إلى ما يُسمى بقوانين السلوكيات الجينية الثلاثة: القانون الأول: كل الصفات البشرية موروثة (ويجب التوضيح أن ما نقصده بالجينات الموروثة هنا هو الذكاء والسمات الشخصية).

القانون الثاني: أثر أن ينشأ شخصان تحت سقف عائلة واحدة أضعف من أثر الجينات (لو نشأ طفل في عائلة تبنته، فسنجد طباعه أقرب لعائلته الجينية التي لم يلقَها).

القانون الثالث: جزء كبير من التغييرات في السلوك البشري لا يمكن تفسيرها بالجينات أو العائلة.

ثم يخبرنا تركهايمر أن إحدى أهم حقائق علم الجينات اليوم هي أن تركيبة ذكائنا مُتوارثة بنسبة 60% إلى 80%، ورغم أن البيئة تؤدي دورًا حيويًّا في زيادة ذكائنا في طفولتنا، إلا أن تلك النسبة تتضاءل كلما كبرنا في السن. وكما يشير الكثير من العلماء، فإنه من الصعب جدًّا رفع معدل الذكاء، ولرفعه فإننا نحتاج استثمارًا ضخمًا في عوامل مهمة في نشأتنا مثل التغذية والتعليم أو تبني الأطفال الذين وُلدوا في عائلة تعاني من فقر مدقع.

الحقيقة القاسية الأخرى التي لا بد أن نواجهها هو أنه الممكن جدًا أن ينخفض الذكاء. فهي تخبرنا أن عدم توفر المصادر الاجتماعية والاقتصادية حولنا تجعلنا رهينة تدني جيناتنا. ولعل هذه المعلومة مُثبطة ومثيرة للإحباط، وكأنها تعيد تأكيد المقولة الإنجيلية "لأن كل مَن له يُعطى فيزداد، ومَن ليس له يُؤخذ منه". إن هذه المقولة ليست مجرد نص ديني فحسب، إنما اكتشاف علمي توصل إليه العلم الحديث.

لقد أثبت إريك تركهايمر، عند دراسة معدل الذكاء لدى الأسر الفقيرة، أن البيئة تؤثر بنسبة 60% في معدل الذكاء، بينما تكون الجينات خاملة متخاذلة (بمعنى أنه حتى لو ورث الطفل معدل ذكاء عاليًا، فإن البيئة الفقيرة قد تعوق تفعيل ذلك الذكاء). يخبرنا الطبيب الكندي چايبور ماتي عن قابلية تفاعل الجينات: "قدرتنا الوراثية لتطوير الدماغ لا تصل إلى قدرتها الكامنة إلا إذا كانت الظروف مواتية". لأسباب متعلقة بعملية النشوء، لا يولد البشر بأنظمة حيوية ناضجة أو بنية جسدية كاملة، ولا حتى يقاربونها. وحتى نفهم ذلك، لننظر إلى عالم الحيوان، فمثلًا: المهر الذي يولد اليوم لديه القدرة على التنزه بجانب أمه في اليوم نفسه، أما الهُريرة فبإمكانها أن تغادر أمها بعد أسابيع محدودة لتجمع قوتها بنفسها. لا يمكن للبشر فعل ذلك، ومن حسن حظ الأمهات أن عملية النمو تؤجل نضج العمليات الحيوية والجسدية للإنسان خارج الرحم بدلا من داخله، وإلا لكانت عملية الولادة عسيرة (وقد تتسبب في وفاة الأم). إن ربع عقل الإنسان ينمو في الرحم، بينما تتطور ثلاثة الأرباع المتبقية خارج الرحم. وعند بلوغ الطفل ثلاث سنوات يصل المخ إلى ما يقارب 90% من حجمه الكلي (عكس الجسم، الذي يكون قد بلغ 18% من حجمه الافتراضي). لذلك يأتي البشر إلى العالم ضعفاء واهنين متكلين على غيرهم في مرعاهم ونشأتهم وتعليمهم.

لذلك نحتاج الظروف المواتية كي يحدث تفاعل صحي بين الجينات والبيئة. ويضرب لنا چايبور ماتي مثالًا على رضيع بصحة سليمة ووظائف حيوية ممتازة. ثم يخبرنا أنه لو وضعنا ذلك الرضيع في غرفة مظلمة لعدة سنوات فإنه سيفقد القدرة على الإبصار إلى الأبد.

الجينات تحتاج الظروف المواتية لتفعيلها. وما هو صحيح للبصر وباقي أعضائنا الحيوية صحيح للذكاء. من حسن حظ البشرية، أن معدل الذكاء ليس منقوشًا على حجرٍ. والذين يؤمنون بذلك يتجاهلون نصيحة ألفرد بينيه حين حدثنا عن أهمية تعلُّم التعلُّم.

فبعكس ما عُلِّمناه، وبعكس ما اعتقد جون واتسون والسلوكيون، إن دور الجينات في بناءِ صفاتِنا الجسدية أو تفاصيل شخصيتنا هو دور تعاوني

وتفاعلي، وليس حتميًّا ونهائيًّا (كما آمن غالتون)، فالجينات لا تتصرف بصورة منعزلة عن العوامل البيئية، بل تتفاعل معها بطريقة مباشرة، وهذا هو ما يصنعنا كأفراد ويصقل شخصياتنا باستمرار. ونقتبس هنا كلمات عالم الجينات مايكل ميني من جامعة مكغيل الكندية: "لا تصح دراسة العوامل الجينيَّة بشكل منفصل عن العوامل البيئية. ولا توجد عوامل بيئية تتصرَّف بشكل منفصل عن الجينوم. فالصفات ببساطة لا تتولَّد إلَّا عن تفاعل الجينات مع البيئة". ويصادق عالم النفس السابق ذكره روبرت بولمان على ذلك حين كتب: "يشير التفاعل البيئي - الجيني إلى وجود علاقة مشروطة، إذ أن تأثير الجينات في الذكاء يعتمد على البيئة. على سبيل المثال، تشير بعض دراسات التوائم إلى ضعف نسبة توارث الذكاء في البيئات الأسرية ذات الوضع الاجتماعي والاقتصادي المنخفض وإلى قوتها في البيئات الأسرية ذات الوضع الاجتماعي - الاقتصادي المُرتفع".

يصادق إريك تركهايمر على هذه النقطة بتشديده على حقيقة أن العلاقة بين كل تلك العناصر هي علاقة تفاعلية. ويخبرنا أنه لو وُلد الطفل من عائلة مقتدرة أحسنت تعليمه وتغذيته ستمنح المجال لجيناته لتنضج وتتحسن. ويخبرنا تركهايمر أن أثر الجينات في ذكاء المرء هي بنسبة 60% (عكس تجربة الجينات في العوائل الفقيرة).

وتثبت الدراسات أن التأثيرات الجينية تتضخم من خلال تفاعل البيئة (Environment) والجينات (Genes) مع مرور الوقت. ويُشار إلى هذه العلاقة التفاعلية بعامل: GxE، وليس بالعامل GvsE (البيئة ضد الجينات) يكتب روبرت بولمان: "حقيقة أن نسبة التوريث للذكاء عالية يجب أن لا تحجب حقيقة أن نسبة التوريث ليست العامل الوحيد".

ولكن كيف يحدث ذلك؟

تشير الدراسات إلى ثلاثة عوامل تؤثر في نمو العقل وهي: الغذاء، والأمان الجسدي، والأمان العاطفي.

وبإمكاننا أن نرى أثر نظرية ماتي إذا ما اطَّلعنا على دراسة مذهلة ومُقلقة في آن بعنوان: "الفقر كعامل معوِّق للوظائف الإدراكية".

القائمون على الدراسة كانوا ثلاثة باحثين: عالمي الاقتصاد البروفيسور أناندي ماني والبروفيسور سيندهيل مولاناثين، وعالم الاقتصاد السلوكي الدار شافير. في زياراتهم الميدانية قاموا بزيارة 464 مزارعًا هنديًّا في 54 قرية

عشوائية وأجروا دراسة لاختبار قدرات وظائفهم الإدراكية في المخ، وهدف الاختبار هو تقييم قدرة المنطق والذاكرة وكيفية التعامل مع المعلومات بشكل عام. على عكس باقي أفراد القوى العاملة، فإن هؤلاء المزارعين لا يملكون دخلًا أسبوعيًّا أو شهريًّا، إنما يأتيهم الدخل مرتين في السنة (وفي بعض الأحيان مرة واحدة)، ويكون ذلك خلال موسم بيع الحصاد. بناءً على هذه المعلومة، حَرِص الباحثون على أن تتمَّ هذه الدِّراسة على المزارعين أنفسهم مرتين بفارق أربعة أشهر بين المقابلتين. كانت المقابلة الأولى تتم في "فترة الفقر" وهي الفترة التي تسبق بيع المحصول الزراعي، وهي فترة حرجة يعاني فيها المزارعون من فقر مُدقع وديون كثيرة لدرجة أنَّهم كانوا يرهنون أغراضهم ليحصلوا على لقمة العيش ويدفعوا الفواتير. بينما كانت الفترة الثانية هي "فترة الرفاه" والتي تتبع بيع المحصول، وهي فترة رخاء تمنح المزارعين ثروة لفترة محدودة.

خلال مقابلات فترة الفقر وفترة الرفاه، أجرى العلماء سلسلة من الاختبارات على المزارعين وقاسوا خلالها معدل الذكاء وكيف تمايز بين الفترتين. تبين أن ما وجده الباحثون كان صادمًا، فقد أظهر الاختبار أن هؤلاء المزارعين خلال فترة الرفاه ارتفع معدل ذكائهم تسع أو عشر نقاط. فقد كانت قدراتهم الذِّهنية في فترة الفقر أضعف بكثير من فترة الثراء. قاد بعض السلوكيات مثل عدم الالتزام بأسلوب صحي، وقلَّة التداوي، وانشغال الوالدين عن الأبناء، وضعف إنتاجيتهم في العمل، وسوء إدارتهم للأموال، إلى تلك النتيجة المأساوية. والمتعارف عليه أن هذه الممارسات السيئة وغيرها آفة في حالة الإنسان العادي، فكيف إذا كان من ذوي الدخل المحدود؟

بالتَّأكيد ستساهم هذه الممارسات بجعل أسلوب حياة الفرد أسوأ. أضف إلى ذلك ضعف النظام التَّعليمي الذي يوجد عادة في تلك المناطق الفقيرة، والذي لا يضمن تطوّر الجيل التالي كثيرًا عن سابقه.

عادةً، عندما نسمع عن تدهور أحوال فئة معينة فإننا نسب ذلك إلى صفات شخصية، مثل كونهم أغبياء أو مهملين. لكن مخرجات هذه التجربة أظهرت لنا تلك الفئة في ضوء مختلف، ففي نهاية الدراسة، استنتج الباحثون أنَّ "الهموم التي تأتي مع الفقر تعيق الوظائف الإدراكية، وتستهلك جميع القدرات العقلية، فلا يتبقَّى إلَّا القليل منها للمهامِّ الأخرى".

تقودنا قراءة هذه السُّطور لأن نستشهد بنص من كتاب "متشرد بين باريس ولندن" للمؤلف البريطاني جورج أورويل، والذي يحكي عن قضائه فترة تقارب السنتين من عمره فقيرًا في مدينة باريس حيث عمل في حاناتها ومطاعمها.

كتب أورويل نصًّا ساخرًا وكئيبًا عن تلك البيئة القاسية التي عاشها بين الفقراء والسَّكارى والمرضى وفاقدي الأمل، قال فيه: "في اقترابك من الفقر ستكتشف اكتشافًا أعظم من الضجر والشقاء المعقَّد وبدايات الجوع المهينة. ستكتشف حسنة الفقر الوحيدة، وهي أنه يمحق المستقبل. فمن المعقول أنَّه عندما يقل مالك يقل توترك وقلقك كذلك!

فحين يكون لديك مئة فرنك ستخطر لك ألف فكرة وفكرة، لكن حين يكون لديك ثلاثة فرنكات فقط فأنت غير مبال، إذ أنَّ الفرنكات الثلاثة سوف تطعمك حتى غد فقط، وليس بمقدورك أن تفكر أبعد من ذلك، فالفكرة الوحيدة التي قد تمر في بالك بضجر هي: سوف أكون جائعًا بعد يوم أو يومين. أمر صادم، أليس كذلك؟ ثم ينتقل ذهنك إلى أمور أخرى".

نادي الأذكياء الفاشلين

بعد أن نضجت شريحة عباقرته، قام تيرمان وفريقه بدراسة تفاصيل حياة سبعمائة وثلاثين شخصًا منهم، وقسمهم إلى ثلاث شرائح. الشريحة الأولى، كانت شريحة الناجحين وهم أولئك الذين صنعوا لأنفسهم شأنا في وظائفهم، فكانوا محامين أو أطباء أو مهندسين أو أكاديميين. الشريحة الثانية، كان أداؤها "مُرضيًا" كما كتب تيرمان. أما الشريحة الثالثة، والتي تكونت من مائة وخمسين شخصًا، فكانت مخيبة للآمال. إذ حصل ثمانية منهم فقط على شهادات جامعية، بينما لم يكمل ثلثهم الدراسة الجامعية، بل أن قليلًا منهم نجحوا في تخطي المرحلة الثانوية (تذكَّر أننا نتحدث عن أشخاص تم تصنيفهم على أنهم عباقرة!). دوَّن تيرمان كل تفاصيل حياتهم ودرسها ليصل إلى فهم الفرق بين الشرائح الثلاث من ناحية وظائفهم وصحتهم وعاداتهم وهواياتهم، وكلها لم تكن ذات أثر.

إذًا ما العامل الوحيد الذي كان يفصل بين النجاح والفشل ويحدد انتماء العبقري إلى الشريحة الأولى أو الثالثة؟

لقد كان هذا العامل المؤثر هو حالة العائلة الاقتصادية والاجتماعية.

الأسر من المجموعة الأولى كانت بيوتها عامرة ببيئة شغوفة بالمعرفة والعلم، وكانت من مرتبة اقتصادية متوسطة الدخل أو أفضل. والآباء في هذه المجموعة كانوا حاملي شهادات جامعية وشهادات عليا. كانت المجموعة الثانية أقل نصيبًا من الأولى. أما المجموعة الثالثة فكانت النقيض تمامًا، من حيث ندرة التعليم في عائلاتهم. إذ أثبتت اختبارات لويس تيرمان أن سبب فشلهم لم يكن جينات خاملة أو غباء، فكما أثبتت الأرقام كان ذكاؤهم عاليًا، وإنما كان السبب في أن محيط عائلاتهم لم يحفزهم ويشجعهم.

يصف عالم النفس التربوي بنجامين بلوم دور الآباء: "الآباء الذين ينجحون في إبلاغ أطفالهم (سواء بأن يكونوا قدوة لهم في ذلك أو بأوامر صريحة) بأن الذكاء مهم، وأن القراءة أو التعلُّم أفضل من مشاهدة التلفاز أو إضاعة الوقت، وأن أخذ المسؤولية في بعض المهام وعن أنفسهم مهمة جدًا. هؤلاء الآباء يربون أطفالًا متحمسين للتعلُّم، وكنتيجة لذلك يصبحون متفوقين. بينما الآباء الذين شعروا أن التعليم غير مهم، أو لم يستطيعوا زرع ذلك في أبنائهم عادة ما يواجهون مشكلات في التعليم، وذلك لأنهم لم يروا أهمية بذل الجهد المطلوب للتعلُّم".

لاحظ بلوم في دراسته أن الآباء لم يُجبروا الطفل على تخصّص معين، إنما أرادوا له أن يكون سعيدًا يستكشف ما يثير فضوله أو يشغل مخيلته. تقول والدة أحد المتفوقين في الرياضيات: "كانت الفكرة أن يكون ابني نابغة واجتماعيًّا في الوقت نفسه، وأن يكون له أصدقاء، وكثير من الاهتمامات، وألّا يكون عنيدًا".

نستنتج من هذا كله، أن البيت الذي ينضج فيه الذكي الناجح مهم جدًا، حيث يؤدي الوالدان دورًا محوريًّا سواء كان ذلك بقصد أو دون قصد في صياغة مستقبل الابن أو الابنة. ففي ذلك النوع من البيئة المنزلية يتعرَّف الطفل على مسارات مختلفة مثل الموسيقى والرياضة والثقافة، ودائمًا ما نجد الوالدين مستثمرين في حياة الطفل، فيرافقان الابنة إلى دروس البيانو أو الابن إلى المتاحف. وأحيانًا ما يتجاوز هذا الدعم المعنوي المشاعر والعواطف ليصل إلى تعليم متعمِّق يشكِّل شخصية العبقري، فقد يكون أحد الوالدين مارس تلك الهواية أو تخصص فيها.

بل ذكر تيرمان في مجلَّده الرابع من سلسة دراسته الجينية للعبقرية بعد سنوات من الأبحاث: "في كل الأحوال، يتضح من دراستنا للقدرات الذهنية والإنجاز أنه لا توجد أي علاقة بينهما".

ستظل العلاقة بين العبقرية والذكاء تثير مخيلتنا وتحيرنا. لكن كما رأينا مرارًا وتكرارًا، وكما سنقرأ لاحقًا فإن معدل الذكاء، بدون الفضول والمثابرة لا يقود حامله بعيدًا.

ومن سخرية الأقدار أن نكتشف أن تيرمان رفض الطالبين وليام شوكلي ولويس ألفريز أثناء بحثه في المدارس عن عباقرته لأن معدل ذكائهما لم يصل إلى المستوى المطلوب! لكن اتضح له خطأه بعد سنوات من رفضهما، فقد حصل لويس ألفريز على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1968م،

بينما حصل وليام شوكلي على الجائزة مع زملائه جون باردين ووالتر براتين لاختراع الترانزيستور عام 1956م.

لو أننا قرأنا تلك المعلومة بدون السياق المقدم، فقد نستغرب أن شخصين بمعدل ذكاء أدنى تفوّقا على عينة أذكى منهما وفقًا للاختبارات النفسية. لكننا الآن نعلم أن تلك الاختبارات ليست المقياس الوحيد.

في نهاية بحثه، يذكرنا الدكتور روبرت بولمان بهذه الحقيقة المهمة: "الذكاء ليس حتميًّا إنما هو احتمالي. باختصار، لا ينبغي حصر الفرد بمجموع جيناته أو درجات ذكائه. فهو يفوق ذلك".

وبالفعل، حتى نفهم العباقرة، لا يجب أن نكتفي بالتعرف إليهم وإلى سماتهم الشخصية، وإنما خلفيتهم كذلك. وبدراسة وليام شوكلي ولويس ألفريز، سنجد مشيرات قوية بسرعة. فعلى الرغم من أنَّهما لم يستوفيا معايير عبقرية تيرمان، إلا أنهما استوفيا أحد أهم معايير بنجامين بلوم للعبقرية، فكلاهما أتيا من منزل يقدِّر العلم والتعليم.

تخرج والد وليام شوكلي من معهد ماساتشوستس التقني (MIT) وعمل مهندسًا في مجال التنقيب وتحدث ثماني لغات، أما أمه فكانت خريجة الجامعة العريقة ستانفورد، وكانت شخصية ذات نجاح مبهر في وظيفتها. بينما كان لويس ألفريز ابن طبيب وحفيد طبيب، وقد ألف أبوه كتبًا في مجال الطب.

هذان العبقريان حصلا على إلهام وافر في بيتيهما، وفي بيوت مثل هذه يكون الطفل مكتفيًا ذاتيًّا ومطمئنًا بشكل يجعله يؤمن بقدرته على تغيير العالم بخطوات ثابتة.

* * *

في عام 1946م، أسس المحاميان الإنجليزيان لانس وار ورونالد بيرل المنظَّمة العالمية المعروفة باسم جمعية منسا الدولية. الانتماء إلى هذه المؤسسة يتطلب شرطًا وحيدًا: يجب على الراغب في الانتساب أن يتحلى بمعدل ذكاء يتجاوز 130 نقطة، أي الشريحة النخبوية التي تمثل 2% وفقًا لهم. في إفادتهم الرسمية، ذكروا أن هدف الجمعية هو إنشاء مجتمع يحتضن الأفراد الأفذاذ والنوابغ. ينتسب إليهم اليوم ما يزيد على 134 ألف عضو من مائة بلد في العالم. والمضحك المبكي أنَّهم على الأرجح كانوا سيرفضون الكثير من العباقرة الذين غيروا وجه التاريخ، من أمثال أولئك العالم جيمس واتسون

الذي شارك في اكتشاف الحمض النووي لأن معدَّل ذكائه هو 125 نقطة، ومن سخرية القدر أننا لا نجد أي مساهمات فكرية أو علمية من تلك التي ننسبها إلى العباقرة (مثل فئة الترمايتس)، أي تلك الأفكار التي تغير المنظومة الفكرية.

أحد أهم أعضاء هذه الجمعية امرأة تعيش في الولايات المتحدة الأمريكية باسم مارلين فاس سافانت، وهى كاتبة أمريكية اكتسبت شهرة كبيرة في تسعينيات القرن العشرين. ويرجع سبب شهرة مارلين إلى حقيقة غريبة: فهي قد حققت أعلى المعدلات في اختبارات الذكاء، وقد صنفتها موسوعة جينيس العالمية في أعوام 1986م حتى 1989م بأنها أذكى إنسان في العالم في ذلك الوقت. وبحسب علمنا، فإنها تحمل أعلى معدل ذكاء تم تسجيله، والذي يتخطى 180 نقطة. لو أن تيرمان رآها لجعلها على رأس مجموعته.

لكن مارلين، مثل التيرمايتس، لم تطوع ذكاءها الفذ لتغيير العالم، فهي لم تنتج أفكارًا مهمة، أو على الأقل لم تعبد الطريق لغيرها، وعوضًا عن ذلك تخصصت مارلين في كتابة عمود في المجلة. وكان عنوان العمود: "أسأل مارلين". وكان هذا العمود عبارة عن بريد للقراء حيث يرسل إليها أحد القراء سؤالًا معينًا أو لغزًا مُحيرًا. وكانت مارلين تجد الإجابة لذلك الاستفسار.

ويبدو أن آفة عدم الإنتاجية بين ذوي الذكاء العالي متفشية، ما دفع لانس وار، أحد المؤسسين لجمعية منسا، أن يقول في احتفال الجمعية في عامها الخمسين: "أشعر بخيبة أمل لأن العديد من الأعضاء يقضون الكثير من الوقت في حل الألغاز".

الفصل الثالث

وهم الإلهام

هفوة داروين

بعد خمس سنوات من وفاة تشارلز داروين في عام 1887م، صدرت سيرته الذاتية والتي يتناول فيها داروين تفاصيل حياته بحرصٍ عظيم، فيتحدث عن طفولته وعائلته، عن التعليم والجامعة، وعن رحلة سفينة البيغل، ويتناول كذلك نقاش إنجازاته وتاريخها. لقد كانت السيرة تفصيلية وجريئة، ويتناول فيها داروين عدة مواضيع جدلية مثل آرائه عن الكنيسة ورموز دينية أخرى، ما أجبر أفراد عائلته وناشره على حذف بعض تلك الأجزاء خشية أن تؤثر في سمعة العالم الراحل.

رغم كثرة ودسامة الحقائق التي تناولها داروين في سيرته، إلا أننا سنركز على إحدى أهم لحظات حياته والتي تتعلق بغرض هذا الفصل: لحظة الإلهام التي زارته ومكّنته من التوصل إلى نظرية التطور.

في معرض كتابه، يتحدث داروين عما اكتشفه عندما قرأ نصًّا من كتاب توماس مالتوس عن التكاثر السكاني. وعن تلك اللحظة الذهبية كتب: "في أكتوبر سنة 1838م وبعد انقضاء خمسة عشر شهرًا من بداية استقصائي في هذه القضية، كنت أقرأ نصًّا عن التكاثر لمالتوس من باب قضاء الوقت، ولأنّني مطّلع بشكل كبير على معاناة النضال الدائمة من أجل البقاء نتيجة دراستي المطوَّلة للسلوك الحيواني والنباتي، اتضح لي لحظتها أنه في ظل ظروف الصراع على الغذاء والمكان والبقاء، لن ينجو إلّا من يستطيع التكيُّف مع التغيُّرات بينما سيتلاشى من يفشل. وهذا بدوره سيؤدِّي إلى تكوين أنواع وفصائل ومخلوقات جديدة، ومن هنا أصبح لديّ نظرية أستطيع العمل بها!".

هذه هي التفاحة التي سقطت على رأس داروين، واللحظة التي جعلته يركض عاريا صارخا "يوريكا يوريكا!"، ولقرابة قرن من الزمان تبادل الناس في الدوائر العلمية هذه القصة على أهمية دور الإلهام في عمل العبقري، إذ أنها تتوافق عادةً مع تصورنا عن ذلك العالم المهووس المنعزل منهمكًا في القراءة والبحث تحت إضاءة مكتبه الضعيفة في عتمة الليل، حيث نام كل من حوله إلا هو، إذ أبقاه شغفه وحرقته مستيقظًا، ونتعاطف معه إذ نشعر أنه كرّس حياته وحرفته في سبيل الحقيقة مثلما يكرس الأنبياء والرسل حياتهم لرسالتهم الربانية، ومثلما يكرس المصلح الاجتماعي حياته ليحسن حياة قومه، ومثلما يكرس القائد حياته لينتصر بجيوشه لصالح أمته. وبفضل عبقريته يصل إلى الإجابة كاملة كأنما زاره روح القدس في المنام وقرأها عليه. إن مثل هذه القصص تملأ سردنا في قصص العباقرة وأصبحت تُستخدم في نقاش لحظات الإلهام التي تغير حياة المرء.

لكن الحقيقة بعيدة كل البعد عن ذلك.

العلماء، المخترعون، الفنانون، الروائيون، والشعراء، يميلون إلى اختزال سرد قصصهم بلحظة الإلهام، وهذا ما أشرنا إليه سابقًا باسم: "النظريّة البطوليّة للاختراع والاكتشاف". وربما نفسر ذلك بسبب اللمسة الرومانسية التي ترافق أركاتايب المُخلِّص الذي يتحلى بقدرات ميتافيزيقية، أو ربما الإيحاءات الروحانية التي ترافق كلمة "الإلهام"، فنجد المعاجم العربية والإنجليزية تتفق حول هذا التعريف فنقرأ: "مَا يُلْقِي بِهِ اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فِي نَفْسِ عِبَادِهِ الأَصْفِيَاءِ لِهَدْيِهِمْ وَاطْمِئْنَانِ قُلُوبِهِمْ" فالأنبياء والقديسون والمُكرمون عبر التاريخ زارهم ذلك الإلهام السماوي بشكل أو بآخر. خصص الإغريق روحًا باسم مورفيوس ووكلوا له تلك المهمة حيث يقوم بزيارة البشر في أحلامهم برسائل من جبل أوليمبوس. أما في مقدمة ملحمة الإلياذة، فإننا نقرأ الآلهة مينرفا تتضرع لأبيها ليرسل مبعوثه هيرميس، ليدبر مركبًا عظيمًا لأوديسيوس، ثم إنها تخطط لإلهام ابن أوديسيوس تليماك قائلة: "إني سألهب إحساسه، وأفتح عينيه على ما ينبغي... سأجعله يخرج من هذه العزلة المعيبة ليبحث عن والده..." أما في الأديان الإبراهيمية فهو روح القدس أو جبريل عليه السلام.

وهذه مشكلة مهمة في دراستنا للسلوك الإبداعي، فإذا آمنا أنه وحي لحظي، فإننا سنرتكب خطأً شائعًا: سنفترض أن الأفكار الجيدة تُخلق في عقولنا جاهزة، بدون جهد، وترافق ميلاد هذه الأفكار نشوة خاصة، وقد حاول نيتشه تحريرنا من ذلك المفهوم لما كتب: "الفنان يعرف أنَّه لن يكون لعمله التأثير الكامل إلّا إذا جعل المُتلقي يعتقد أنَّ فيه شيئًا من الارتجال، وأنَّ ظهوره للوجود لا يخلو من معجزة بِسبب فجاءته. لن يفوته كذلك أن يُسهِم في هذا

الوهم وأن يُدخل في الفن، في بِداية الإبداع، عناصر الإثارة الملهمة، عناصر الفوضى التي تخبط خَبْطَ عشواء، عناصر الحلم المتيقظ، وكل الحيل الخداعة الهادفة إلى تهيئة روح المشاهد أو السامع بحيث تعتقد أنه في انبثاق مفاجئ للإتقان...

> **للفنانين بعض المصلحة في أن يؤمن الناس بِحدسهم المفاجئ وبإلهامهم المزعوم، كما لو كانت فكرة العمل الفني، فكرة القصيدة، الفكرة الأساسية في فلسفة ما، شعاعًا مباركًا يوحى من السماء. في الواقع، إن خيال الفنان الجيد، أو المفكر، لا يكف عن الإنتاج الجيد، البين بين والرديء، لكن حكمه المشحوذ والذرِب، يرفض وينتقي وينسق.**
>
> **إننا نرى اليوم من خلال دفاتر بيتهوفن أنه قد نظم أروع ألحانه بالتدريج، مستخرجًا إياها تقريبًا من عدة مسوَّدات".**

الحقيقة المهمة أن الكثير يفقد تلك النشوة أو الحماس حين يبدأ بمواجهة الواقع في سبيل نضج الفكرة، لأن في تصوره أن الأفكار تولد بعفوية، وإذا تعطلت هذه الولادة، فمن الأسهل أن نقول إن الإلهام فرّ منا بدلًا من العمل الشاق والجهد الذي يتطلبه الإبداع، فالفكرة ستخضع لكثير من الخطوات المختلفة حتى تنضج وتكتمل ونتمكّن من ترجمتها على أرض الواقع. المعضلة الحقيقية أن البعض يُظهر عكس ذلك. إن البحث عن الإلهام وعنصر الفُجاءة في عمل العبقري يفسد فهمنا للمفهوم ويجعلنا رهينة مفهوم خاطئ.

في عام 1990م، قام عالم نفس باسم كيفن دوبنر من جامعة ميغيل الكندية باختبار كلمات نيتشه من خلال مشروع ذكي وصعب. وحتى يتمكن من إنجاز ذلك، اتبع دوبنر أسلوبًا تحقيقيًّا يعرف باسم "في الوسط الحيوي" (باللاتينية: in vivo) أما الأسلوب التقليدي حيث يكون الاطلاع عن بعد، فقد أطلق عليه اسم "في المختبر" (باللاتينية: in vitro). وكمثال يخبرنا أنه يوجد طريقتان لدراسة فيروس فقدان المناعة البشرية (أو HIV)، إما أن يدرس الفيروس في طبق اختبار (أو طبق بتري)، فيكون الفيروس خارج الكائن المضيف، أي أن الفيروس بمعزل عن بيئته حيث يكون حيويًّا وفاعلًا، وهذه هي طريقة in virto. أما الطريقة الأخرى فهي اختبار الفيروس داخل الكائن المضيف، حيث يكون الفيروس حرًّا وطبيعيًّا. وهذه طريقة in vivo. وهذه الطريقة التي قرر دوبنر استخدامها، فنظر في حياة أولئك العلماء في بيئتهم الأصلية بدلًا من دراستها في طبق بتري، بذلك نعني التعرف على قصص الإنجازات العظيمة من خلال قراءة قصص المخترعين أو قراءة سيرهم الذاتية.

قام دوبنر بمراقبة أولئك الأفراد عن كثب في بيئتهم الطبيعية، أي حيث يعملون. وقام بتثبيت آلة تصوير في أربعة معامل علمية مهمة وقام بتصوير وتسجيل كل ما تمكن من الوصول إليه. بالإضافة إلى ذلك، فقد قام بإجراء مقابلات مُطوّلة وعميقة مع الباحثين حيث ناقشوا تطورات أفكارهم وتجاربهم، وذلك جعله يحظى بمعلومات جديدة بدلًا من قراءتها لاحقًا في كتب وصحف.

ما توصل إليه دوبنر مذهل: يميل الأشخاص عادة إلى اختزال قصص أفكارهم وإنجازاتهم بسرد قصير، كأنهم نسوا الدروب الطويلة والمعقدة التي مشوا فيها ليصلوا إلى ما وصلوا إليه.

داروين نفسه كان ضحية هذا النوع من الوهم.

وفقًا لنص داروين السابق فإنه توصل إلى النظرية عام 1838م، بينما كتب سيرته الذاتية عن طريقة وصوله إلى أعظم اكتشافاته عام 1876م، أي بعد انقضاء أربعة عقود من لحظة الاكتشاف. يخبرنا علم النفس أن مصدر هذا النوع من السرد للماضي يأتي مما يعرف باسم "النفس المُتذكِّرة"، وهي الذاكرة المولودة بعد الحدث، وليس خلاله، كأن تسأل صديقًا عن إجازته بعد شهر من انقضائها. بعد عديد من الدراسات، أثبت علماء النفس أن هذه النفس ليست دقيقة، وأن النفس الأكثر دقة هي "النفس المستشعرة"، وهي أن تتصل بصديقك في إجازته وتتحدث معه وتسمع صوته، وحماسه أو مله وهو يصف العناصر حوله. حينها بإمكانك أن تعرف بدقة المشاعر الحقيقية لذلك الشخص في ذلك الوقت بالتحديد. علم النفس يخبرنا أننا نخلط بين النفس المُتذكرة والنفس المستشعرة حينما نحاول تذكر حادثة معينة. وهو خلط ذهني شائع، خاصة أن النفس المستشعرة لا تملك صوتًا بينما النفس المتذكرة متسلِّطة. لذلك على سبيل المثال، عندما ينتهي زواج بطلاق، يعتقد الزوجان أن زواجهما كان أشنع سني حياتهما أو يعطيان قصصًا متناقضة لنفس الحادثة، وكل تلك القصص تصف تعاسة أيامهما كزوجين، ولكن ذلك ليس صحيحًا بالضرورة، فهما على الأرجح عاشا سنوات جميلة ولديهما كثيرٌ من اللحظات السعيدة، لكن النهاية المأساوية أشعلت النفس المتذكرة وجعلت ذاكرة الزواج كلها بغيضة.

غالبًا ما نجد اختلافًا بين الأفراد الذين يصوِّرون كل مشهد طبيعي في إجازاتهم (أنهار، غابات، شلالات، جبال، أودية... إلخ)، وأولئك الذين يفضِّلون أن يستنشقوا الهواء بعمق ويتحسَّسوا الأشجار أو أن يستحَّموا في النهر أو تحت الشلال. فالفئة الأولى لا تستشعر اللحظة، وتعمل على توثيق ما تراه على أمل أن تنعش النفس المتذكرة بعد سنين، أما الفئة الثانية فتركِّز على اللحظة،

على استشعارها وتقديرها، وسيكون إحساسها أعمق وخبرتها أكبر. وفي دراسة أجراها أحد علماء النفس، طُلب من مجموعة من الطلّاب أن يدونوا تفاصيل إجازتهم أثناءها، ثم طُلب منهم تقييم الإجازة بعد انتهائها. ولاحظ العالم أن التقييم النهائي للرحلة لا يعكس ما دوّنه الطلبة في مدوّناتهم! هذه هي طبيعة العراك بين النفس المتذكرة والنفس المستشعرة. وذلك يتوافق مع ما وصفه الروائي الفرنسي مارسيل بروست في عمله المهم "البحث عن الزمن المفقود" حين حذرنا من الاعتماد على الذاكرة كمصدر موثوق، وعن ذلك كتب: "... عبثًا كنا نحاول استذكار ماضينا، فجهود عقلنا برمتها عديمة الجدوى. إن الماضي يختفي خارج مجال إدراكنا ومداه، في غرض ما مادي (في الإحساس الذي يخلقّه فينا هذا الغرض الماديّ) ولا نرتاب فيه... إنه تناقض أن يبحث أحدهم عن الواقع بالنظر إلى لوحات يختزنها في ذاكرته، لعلها ستفتقر على الدوام إلى السحر الذي تضيفه عليها الذاكرة وأنها لا تدركها الحواس. إن الواقع الذي عرفته سابقًا لم يعد موجودًا... إن ذكرى صورة معينة إنْ هي إلا الندم على لحظة معينة...".

إنّ ما يحاول أن يشير إليه بروست في نصه المذهل أن علينا أن نعامل ذاكرتنا بحذر وشك، فوقائع الحياة تحدث مرة واحدة، أما ما نتذكره فهو لا يحاكي الواقع الذي حدث أو يوثقه. ثمة وهمٌ متوارَثٌ، رَوَّجت له زمنًا نظرياتٌ سيكولوجيةٌ عتيقة، يقول إن الذاكرة البشرية أشبه بشريط التسجيل الذي يسجل كلَّ ما يرد عليه دون أن يَخْرِمَ منه شيئًا، وأن كل منبه ورد على عقل الإنسان هو مسجَّلٌ فيه بشكلٍ ما وبدرجةٍ ما. وإن تكن أغلبُ المادة المسجَّلة محفوظةً في مستوًى عميق من باطن العقل؛ وهي من ثم قابلة للاسترجاع. الوقت يمسخ الذاكرة، وتجارب الحياة تحدث الذاكرة والأحداث التي عايشناها. أي أن الذاكرة ماهي إلا انعكاس لآخر مرة حاولت أن تتذكر فيها حادثة أو مناسبة، وتتأثر تلك الذاكرة بأي حوار أو مشاعر مما يمسخها أكثر. أي أننا كلما حاولنا أن نتذكر شيئًا، قلّت دقة تلك الذاكرة.

لماذا نؤمن أن داروين اختزل قصة اكتشافه؟ لأنه استشار نفسه المتذكرة وهي عرضةٌ للخطأ والتحوير. إن ذاكرته لتلك اللحظة ليس لأحداثها، إنما لما أخبر نفسه وأقنع ذاته به عبر السنين.

* * *

السؤال الذي يطرح ذاته: لماذا نعتقد أن داروين استشار الذاكرة الخاطئة؟ للإجابة شقان.

الشق الأول هو لأننا نعرف أن تاريخ الأفكار العظيمة لا يختزل بلحظة معينة، والمرء لا يصل إلى نظرية ضخمة في طرفة عين. وهذا ما دفع الفيلسوف والمؤرخ العلمي توماس كوهن (كأنما ألهمه نيتشه) إلى أن يقول: "من المقبول بشكل شائع بين مؤرخي العلم وفلاسفته أنه لا يمكن حصر معظم الاكتشافات في المكان والزمان. فهي ليست أحداثًا فردية، إنما عمليات معقدة وفوضوية وفي كثير من الأحيان تمتد لفترة من الزمن وتكون نتيجة مساهمة عوامل متعددة".

أما الشق الثاني فهو أن العلم وجد طريقة للتسلل والاطّلاع على نفس داروين المستشعرة، ووجد إجابة تتوافق مع الشق الأول، إذ أننا تمكنا من فحص ادعاء داروين تحت مجهر طبق بتري.

في سبعينيات القرن العشرين، قرَّر عالم النفس هاورد غروبر (الذي كرس كثيرًا من وقته لدراسة تاريخ العلوم) أن يدرس مذكرات داروين المشهورة التي واظب على تدوينها عبر السنين دون أن يطَّلع عليها الجمهور العلمي. وبعد التقصي والبحث توصَّل إلى حقيقة مذهلة ورواية مغايرة تمامًا لتلك النسخة الرومانسية والمختزلة التي قدمها داروين بناءً على نفسه المتذكرة، حيث أن غروبر استطاع أن يطّلع على نفس داروين المستشعرة. من خلال التدقيق في المذكرات التي دوّن فيها داروين أفكاره وملاحظاته عن نظرية أصل الأنواع المحورية، اكتشف غروبر أنها كُتِبَت قبل سنة كاملة من قراءته لنظريات مالتوس.

كي نلخص ما نحاول قوله نقول: اكتشف داروين نظرية أصل الأنواع قبل أن يكتشف داروين نظرية أصل الأنواع! خلال تلك السنة، ظلت تلك العوامل تتبلور لدى داروين (دون علمه) حتى تاريخ 28 سبتمبر، 1838م، أي قبل شهر من التاريخ الذي افترض داروين أن الإلهام زاره! لقد كانت نظرية أصل الأنواع في متناول يديه إلَّا أنَّه لم يعلم بذلك، بل إنه لم يدرك أهمية اكتشافه حتى بعد قراءته لأعمال ماتيوس، فيلحظ غروبر أن داروين في اليوم التالي يدون أمرًا آخر، واستمر لمدة شهر بعد ذلك في استكشاف أفكار أخرى قبل زيارة تلك الفكرة مرة أخرى وأخذها على محمل الجد.

هذا هو الوهم الذي وقع فيه داروين، لقد اعتمد على نفسه المتذكرة في تدوينه، ويبدو أنه خلال العقود الثلاثة التي انطوت بين اكتشافه النظرية وتدوينها في سيرته الذاتية، تحوّرت القصة وتغيّرت جذريًّا في مخه، أي أنه كان يكتب معتمدًا بالكامل على النفس المتذكرة بينما تلاشى صوت النَّفس المستشعرة بالكامل ولم يعد لها أي أثر يُذكر، ما جعله يختزل رحلة اكتشافه إلى لحظة إلهام يتيمة.

لقد تلاشت تلك المعرفة تدريجيًّا من نفسه المستشعرة وتمحورت صورة ممسوخة في النفس المتذكِّرة، ومع السنين تغيرت وتحورت في أماكن مختلفة من عقل تشارلز داروين الباطني، فهي لا تعيش في العقل الواعي، بل إنَّها أشبه بحدس كامن وتراكمات مُترامية يجمعها المرء عبر السنين من خلال البحث والتعلُّم والتقصِّي. وعندما يتحلَّى المرء بالصبر والعزيمة والمثابرة، يظهر ذلك الحدس الكامن بشكل فكرة مترابطة وينتقل إلى العقل الواعي ليغيِّر العالم.

يبدو أن العباقرة أنفسهم يتحيّزون إلى السرد الرومانسي ويفضِّلونه عند ذكر إنجازاتهم، مع أنها قد تجافي الحقيقة! فمن المفاجئ أنهم يعكِفون على اختزال قصصهم بلحظة إنجاز عظيمة واحدة. وهي تمنحنا حسًّا ضمنيًّا "أن العباقرة لديهم المقدرة على أن يقولوا "كُنْ فيكون" كما وصفه نيتشه وحذر منه كوهن، لكن ذلك بعيد عن الصحة.

فمثلًا، أصر المؤلف الروسي الشهير فيودور دوستويفسكي على أن الإبداع هو وليد لحظة تُفاجئ مؤلفه، لكن التنقيب في مذكراته وأوراقه يثبتان لنا دراسته لأعمال مؤلفين آخرين في المجال نفسه! إذ أن سلوكه الإبداعي الذي منحنا عبقريته الأدبية كان مختلفًا تمامًا عمَّا أصرَّ عليه. فقد كانت طريقه إلى الإبداع طويلة ومعقدة ومليئة بالتجربة والخطأ، حتى أنَّه كتب ما لا يقل عن ثماني مسوّدات لأحد أهم أعماله (الأبله) وكان هذا للجزء الأول فقط من الرواية!

وقد لا يكون مستغربًا أن نيتشه نفسه كان ضحية ذاكرة تلاعبت به. وحتى نفهم هذه العبارة، لنقرأ نصًّا من كتاب: "الإنسان ورموزه" لعالم النفس الأهم كارل يونج، والذي يخبرنا فيه عن اكتشاف أذهله حين توصل إليه: "أنا نفسي اكتشفت مثالًا رائعًا عن هذا الأمر في كتاب نيتشه (هكذا تكلّم زرادشت) حيث يعيد الكاتب حادثة من الحوادث ورد ذكرها في سجل في إحدى السفن عام 1686 م، ويكاد النص يتطابق بحذافيره. ذلك أنني بمحض المصادفة كنت قد قرأت ما سجله ذلك البحار في كتاب نشر عام 1835م (أي قبل نصف قرن من الزمن الذي كتب فيه نيتشه كتابه) وعندما وجدت الفقرة المشابهة في (هكذا تكلّم زرادشت) فاجأني أسلوبها المتميز الذي كان مختلفًا كل الاختلاف عن أسلوب نيتشه ولغته المألوفة. فاقتنعت أن نيتشه لا بد وأن يكون قد قرأ ذلك الكتاب القديم رغم أنه لم يشر إليه قط. بادرت بالكتابة إلى أخته التي كانت لا تزال على قيد الحياة وأكدت لي أنها هي ونيتشه قد قرآ فعلا ذلك الكتاب حين كان هو في الحادية عشرة من عمره. ومن سياق النص، أعتقد أن نيتشه لم يكن لديه فكرة عن أنه كان ينتحل تلك القصة لنفسه. كما

أعتقد أنها، بعد خمسين سنة، انزلقت على نحو غير متوقع إلى مركز ساحة الوعي عنده".

إن كل عظيم يقف على أكتاف عظيم آخر، حتى لو نسي ذلك (أو رفض الإقرار بذلك)، فالتراكم المعرفي مهم ولا غنى عنه في أي تطوّر لفكرة مهمة. كتب السياسي الإيطالي ميكيافيللي عن أهمية التراكم المعرفي: "... الناس يسيرون في الدروب التي طرقها غيرهم، وتحاكي أعمالهم أعمال الآخرين... أما في ما يخص تدريب العقل فإن على الأمير أن يطلّع على التاريخ، ويدرس أعمال الرجال العظماء، ليرى كيف كانوا يتصرفون... ويدرس أسباب انتصاراتهم وهزائمهم حتى يستطيع أن يسير على درب الظافرين منهم ويتحاشى هزيمة المقهورين منهم. وقبل كل شيء يجب عليه أن يسير على درب عظماء الماضي، الذين كانوا يتخذون هم بدورهم من العظماء الذين سبقوهم قدوة لهم...".

* * *

إن اختزال رحلة الإنجاز يؤثر جذريًّا في سرد قصص العباقرة، وبالتالي في تعريفنا لمفهوم العبقرية. بل إنه يعزز (حتى لو لم نعِ ذلك) منظور تبجيل العباقرة، لكن كما رأينا في حالة داروين، فقد تم اختزال الإنجاز بلحظات منحت داروين ذلك الضوء الرومانسي الذي يبجِّل العباقرة. وربما يكون سبب ميلنا لهذا الاختزال، ونسبة النتيجة للحظة إلهام، هو كونها تتوافق مع السرد اليسوعي الذي يخبرنا أن النصر هو لحظة يتيمة.

إلا أننا للأسف لم نتعلم الدرس من قصة داروين، وما زلنا نسرد قصص الإنجازات العظيمة في قصص حيوات العباقرة كذلك. يكتب المؤلف سكوت بيركن: "تقريبًا كل ابتكار رئيسي في القرن العشرين حدث دون ادعاءات الإلهام. الشبكة العنكبوتية، متصفح الشبكة العالمية، فأرة الكمبيوتر، ومحرك البحث - أربعة تطورات محورية في تاريخ الأعمال والتكنولوجيا - تضمّنت جميعها سلسلة طويلة من الابتكار والتجريب والاكتشاف".

الباب الثاني

الثعلب والقنفذ

أو

(نظرية أصناف العبقرية)

"الثعلب يعرف أشياء كثيرة، ولكن القنفذ يعرف شيئًا واحدًا، ضخمًا".

الشاعر اليوناني آركيلوكوس

الفصل الأول

العبقري العفوي والحساس

سلوكان

خلال صفحات التاريخ وعبر الأدب، كانت هناك محاولات كثيرة من قبل الفلاسفة والشعراء والمفكرين والمؤرخين لتحديد وتصنيف ألوان العبقرية وجموع العباقرة. وكان السؤال "ما هي أنواع العبقرية؟" يأتي بصور مختلفة، فكنا نحاول أن نصنف العباقرة بأشكال مختلفة، لكنها ظلت عشوائية وتائهة.

على سبيل المثال، يصنف البعض الشعراء حسب الأسلوب، كالشعراء الاعترافيين، والذين يمثّلهم روبرت لويل وسيلفيا بلاث وغيرهما. أما البعض الآخر فيُصنف الشعراء حسب الحقبة. فنجد مدرسة الإحياء في الشعر العربي التي قادها محمود سامي البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم، والتي تلاها جيل جماعة الديوان التي كان من أفرادها عباس محمود العقاد وإبراهيم المازني وعبد الرحمن شكري. واختصت كل مدرسة بما اختصت به. فالفارق بينها كان في تعريف القصيدة والأسلوب والتعبير ونقاط التركيز.

أما في الرسم فنجد التصنيف بحسب أسلوب الرسم والذي أتبعه حشدٌ من الفنانين، فنجد المدرسة الكلاسيكية الجديدة والمدرسة الواقعية والمدرسة الرومانسية والمدرسة الانطباعية والمدرسة التعبيرية والمدرسة التكعيبية إلخ.

بالمثل، قامت طائفة بتصنيف العبقرية بناءً على نظرية الذَّكاء المتعدد التي صنّفها البروفيسور هاورد جاردنر في كتابه: "أطر العقل: في نظرية الذكاء المتعدد"، حيث ركّزت أبحاثه على المبدعين بحسب ميولهم أو بالأحرى تخصّصهم، ففرَّق بين الذكي الموسيقي والذكي الرياضي والذكي اللغوي على سبيل المثال لا الحصر. أما غيره فقسم الذكاء إلى ذكاء عاطفي واجتماعي

وأخلاقي وغيرهم. بينما جمعت كُتبٌ أخرى العباقرة بحسب عاداتهم وممارساتهم الإبداعية وحاولت استخلاص وتلخيص تلك العادات ووفَّرت لنا صندوق أدوات للتفكير، فنجد كتبًا مثل "كيف تصبح عبقريًّا" أو "كيف تفكر مثل ليوناردو دافنشي" أو "التفكير على طريقة أينشتاين" أو "أدوات الجبابرة"، ومثل هذه الكتب حاولت حصر عادات العباقرة بين دفتيها، حيث غلب عليهم الاعتقاد بأنَّنا جميعًا نستطيع التفكير مثل شكسبير أو ليوناردو دافنشي أو ريتشارد فاينمان إذا ما استوفينا خطوات معينة.

مشكلة التصنيفات المذكورة أعلاه أنها تنظر إلى العبقري عندما يخرج إلى العالم، في أي مجال نبغ واشتهر، أي أننا نحن عامة البشر (مثل غالتون): صنفناهم بحسب السمعة، والتي تخبرنا عن مخرجاتهم وأعمالهم، فعرفنا المدرسة التكعيبية بفضل بيكاسو وعرفنا أينشتاين بفضل النظرية النسبية والاقتصادي محمد يونس بفضل مصرف الفقراء وهلمَّ جرًّا.

إلا أن النظر في السمعة والإنجازات يعمينا عن نقطة أكثر أهمية وأكثر عمقًا، فنحن بحاجة لنقاش السلوك الذي سبق شهرتهم وكوّن شكل نبوغهم وأتاح لأعمالهم أن تكون محل أنظار العالم.

وعند دراسة التاريخ، والاطّلاع على أعمال ودراسات رجال درسوا العباقرة والمبدعين، سنكتشف أنه عبر التاريخ، كان للعبقرية سلوكان.

* * *

كتب ابن قتيبة الدينوري في عام 276هـ (889م) - في كتابه "الشعر والشعراء" بأنَّ الشعراء يأتون على وجهين. ففي الوجه الأول، يكون الشاعر مُتكلِّفًا. وهو وصف استعاره من الأصمعي الذي وصف به زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأمثالهما. أما الوجه الآخر لهذه العُملة فهو أن يكون الشاعر مطبوعًا. وعن الفرق بينهما كتب ابن قتيبة الدينوري:

> **"ومن الشعراء المتكلّف والمطبوع فالمتكلّف هو الذي قوّم شعره بالثقاف ونقّحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة وكان الأصمعي يقول زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين وكذلك كل من جود في جميع شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة".**

ومن النُقَّاد من يرى أن المطبوع لا يُكثر من الأشكال البلاغية المستهجنة مثل ما يُشاهد في قصائد البحتري والمتنبي. ولنذكر زهير بن أبي سلمى كمثال على الشاعر المتكلِّف. فقد أُطلق على قصائده مسمَّى "الحوليَّات"، لأنها تتطلب عامًا كاملًا حتى تنضُج. فهو كان ينظُمها في أربعة

أشهر ويهذِّبها في أربعة أشهر ويعرضها على خاصَّة الشعراء في أربعة أشهر ولا ينشدها للنَّاس إلا بعد حول كامل. وقال الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين":

> **"لولا أنَّ الشعر قد كان استعبدهم [أي المتكلفين]، واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلُّف وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهوًا ورهوًا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالًا"** [15].

وقال العرب إن شعر جرير كأنَّه يغرف من بحر بينما شعر الفرزدق كأنَّه ينحت من صخر.

هذه الحالة الشِّعرية ليست مقصورة على الشاعر العربي فحسب.

في عام 1605م نجد أنَّ الشاعر البريطاني وِلْيَمْ شكسبير وصف إحدى الحالتين في عمله الشهير "تيمون الأثيني" حيث قدَّم لنا حوارًا بين شاعر ورسَّام، ووصف فيه آلية العمل الإبداعي لدى الشاعر المطبوع بدقَّة:

> **"الرسَّام: ألا تفكر، يا سيدي، بإعداد كلمة توجِّهها إلى مولانا الجليل؟**
>
> **الشاعر: لم يخطر ببالي هذا الأمر. لأن الشعر كالنَّسغ الذي يسيل تلقائيًّا من جذع الشَّجرة السخية. والشَّرر لا يتطاير من الزناد إلا عندما تقدحه. إن قريحتنا النبيلة، نحن معشر الشعراء، تتدفَّق منها الفصاحة كالسَّيل العرم الذي يجرف كلَّ ما يعترض سبيله".**

ونجد في ليوناردو دافنشي مثالًا على الفنان المُتكلف بنسخته الخاصة من الحوليات.

في عام 1550م، كتب جورجو فازاري (الذي كان في الثامنة من عمره عندما توفي ليوناردو دافنشي) كتابه المهم "حيوات أفضل الرسامين والنحاتين والمهندسين المعماريين" والذي أشار فيه إلى عدم قدرة أيقونة العبقرية لإنهاء أعماله، وعن ذلك كتب: "لأنه وضع نفسه على أشياء كثيرة يتعلمها،... فإنه تخلّى عنها بعد أن بدأها". وكذلك نقرأ أنه عندما سمع البابا ليو العاشر أن ليوناردو كان يتذمر من الأدوات التي يستخدمها للرسم بدلًا من الرسم، فأنه تشكّى قائلًا: "للأسف! هذا الرجل لن ينجز ما يستحق الذكر، لأنه يبدأ بالتفكير في النهاية قبل بداية عمله". لكن كلًّا من جورجو فازاري والبابا ليو العاشر أخطأ في فهم سلوك دافنشي الفني، فهما كانا يبحثان عن فنان فطري يغرف من نهر، لكن دافنشي كان فنانًا مُتكلفًا، كان ينحت في صخر. وبينما كانت قصيدة زهير بن أبي سلمى تحتاج حولًا كاملًا حتى ينهيها، فإن جدارية العشاء الأخير تطلبت دافنشي أربعة أعوام حتى ينهيها، أما رسمة الموناليزا فقد

احتاجت قرابة ستة عشر عامًا حتى ينهيها (قد يبدو هنا أننا نقارن حمامةً بحصان، لكننا هنا ننظر إلى الفروقات السلوكية، وسندرس لاحقًا الفروقات المجالية).

في عام 1711م، كتب جوزيف أديسون مقالة مهمة وفريدة من نوعها، يتساءل فيها عن صيرورة الكاتب العبقري. وهو بذلك يعد أحد الأوائل الذين وثقوا رفضهم للروح أو الجني الذي يلهم العبقرية للغير، وجعل مصدر العبقرية المرء نفسه، وأراد فهم مصدرها. ليس ذلك فحسب، إنما أديسون يعد من أوائل من ضم الكتَّاب إلى عائلة العبقرية (كما ذكرنا سابقًا، لم يحصل الكتّاب على شرف هذا اللقب إلَّا مؤخرًا). قام عندها بتقسيم العباقرة إلى فئتين: العبقري الفطري والعبقري المُحاكي. وصف أفراد الشَّريحة الأولى بأنَّهم لم يقعوا ضحيَّة للتَّعليم المُطفئ لشمعة الإبداع، وأنَّهم ليسوا عبيدًا للقواعد الصارمة، بل وصلوا إلى ما وصلوا إليه بتمرُّدهم وموهبتهم الطبيعية دون الخضوع لقيود تعليم رسمي صارم مُكبِّل. بينما كانت الشريحة الثانية، المقلِّدة أو المُتعلِّمة تابعة للقوانين والقواعد، وتعلَّم أفرادها فنَّهم بحسب ما تُمليه مدارس الفن.

وبينما أثنى أديسون على الفئتين، إلا أنَّه كالنُّقاد العرب، أشفق على العباقرة المُحاكين ووصفهم بأنَّهم: "يشلُّون مواهبهم بكثرة التَّقليد، ويبنون أنفسهم على نماذج سابقة، وبذلك يكبحون مواهبهم الطبيعية". فوقف في صفِّ الأصالة ضدَّ التجربة، وفضَّل جموح الطَبعية على التَّعليم المُقنَّن.

في عام 1794م، وقعت حادثة شهيرة بين شاعري ألمانيا الشهيرين يوهان غوته وفريدريك شيلر، إذ التقت الأيقونتان الأدبيتان بدون تخطيط مسبق في محاضرة لعالم النباتات أغسطس باتسش. كان كلاهما يعرف بوجود الآخر ومطلعًا على أعماله إلا أنهما لم يلتقيا سابقًا، وهو لقاء وصفه غوته لاحقًا أنه "صدفة سعيدة". بعد المحاضرة تبادل الاثنان أفكارهما ومخرجاتهما ثم اجتمعا بعد ذلك في منزل شيلر لنقاش المحاضرة. رسم حينها غوته أفكاره ونظرياته عن النباتات على ورقة، وعندما تفحَّصها شيلر قال: "هذه ليست ملاحظة، هذه فكرة!" فأجاب عليه غوته محاولًا كبت غضبه: "على الأقل أنا محظوظ بأن أفكاري تنهمر دون علمي بشكل يسمح لي بأن أراها بأم عيني!".

في عام 1795م، على الأرجح متأثرًا بعلاقته مع غوته، كتب شيلر مقالًا بعنوان "عن الشِّعر العفوي والحسَّاس" أو "Über naive und sentimentalische Dichtung". شرح المقال كيف أنَّ "هناك صنفين مختلفين من البشر"، وفنَّد

تلك الفروقات في طبيعتهما وتركيبتهما النفسية والأهمُّ من ذلك كله، أنَّه مايز بين طيفيّ الشعراء بحسب سلوكهم الإبداعي. وفي هذه النقطة خالف شيلر الذين سبقوه لأنَّهم كانوا يصنِّفون الشعراء حسب الحقبة أو العصر، بينما تجاهل هو ذلك وقرَّر أن يبني تصنيفه على هاتين الصِّفتين المهمَّتين.

وعند المقارنة بينهما، يظهر لنا أنَّ الشَّاعر الذي وصفه شيلر بالعفوي يطابق أوصاف المطبوع عند الدينوري والفطري عند جوزيف أديسون! فقد وصف الشَّاعر العفوي بأنَّه يعمل على سجيَّته وكأنَّه وُلد شاعرًا. وبأنَّ شِعره متجذِّر من طبيعته والبيئة التي نشأ فيها. ودلَّل على ذلك بأنَّه يكتب الشعر بكل أريحية وبطاقة متفجِّرة، وكأنما بدون تفكير. فالقصيدة بالنِّسبة إليه ليست فعلًا مدروسًا أو مُهندَسًا، إنما تنثال انثيالًا، أو كالنَّسغ الذي يسيل تلقائيًّا من جذع الشَّجرة السخية. واعتبر شيلر دانتي وشكسبير وغوته من الشعراء الذين ينتمون إلى هذه الطائفة. ووصف شيلر الشعراء بقوله: "أولئك الفطريون مثل غوته، والحسَّاسون مثلي!".

لنطلع الآن على الوجه الآخر للعملة وهو الشَّاعر الحسَّاس. يعرِّفه شيلر بأنَّه الشَّاعر الذي انحرف عن بساطة الطبيعة، وأصبح محصورًا في بئر مشاعره وأفكاره وتجاربه الخاصَّة، فصار يعتمد على خبرته أكثر من طبيعته، ويعاني ويجتهد في صياغة نصِّه. وهذا ما أطلق عليه الدينوري اسم الشَّاعر المُتكلِّف بينما سمَّاه أديسون بالعبقري المُحاكي.

في عام 2009م، قدم الروائي التركي أورهان باموك سلسلة من المحاضرات في جامعة هارفرد، أشهرها كان بعنوان: "الرِّوائي العفوي والروائي الحسَّاس" والذي ارتكز فيه على أفكار شيلر في الشعر وأسقطها على عالم الرواية. لننظر إلى مقارنته بين الرِّوائي العفوي والروائي الحسَّاس في هذا المقال:

> **"عقولنا تعمل بكل نشاط كلما تعمقنا أكثر في الرواية... نتأرجح باستمرار بين المشهد، الأشجار، الشخصيات، أفكار الشَّخصيات والأشياء التي يلامسونها... من الأشياء إلى ذكريات يستحضرونها، إلى شخصيَّات أخرى، ومن ثمَّ إلى أفكار عامة. عقلنا وإدراكنا يعملان باهتمام مع سرعة وتركيز، وينفِّذان العديد من العمليَّات في نفس الوقت، لكن أغلبنا لم يعد يدرك حتَّى بأنَّنا ننفِّذ كل هذه العمليات. تمامًا مثل شخص يقود السيَّارة "أي أنَّه يقودها بدون وعي"، يضغط برجله على الدوَّاسات... يقرأ إشارة المرور ويفسِّرها، ويراقب حركة المرور...**
>
> **هذا التشابه مع سائق السيارة لا ينطبق على القارئ فحسب ولكن على الرِّوائي أيضًا. بعض الروائيين لا يدركون الأساليب التي يستخدمونها، فهم يكتبون بأريحية وكأنَّهم يقومون بعمل طبيعي تمامًا، بلا وعي للعمليَّات والحسابات التي ينفذونها في رأسهم وإلى حقيقة أنَّهم يستخدمون العتلات والفرامل والأزرار التي زودهم بها**

الأسلوب الرِّوائي. دعونا نستخدم كلمة عفوي لوصف هذا النوع من الإحساس... ودعونا نستخدم كلمة حسَّاس لوصف الإحساس المعاكس تمامًا... الكُتَّاب المفتونون بتصنُّع النَّص وعجزه عن تحقيق الواقع، والذين يولون اهتمامًا كبيرا للأساليب التي يستخدمونها في كتابة الروايات...".

يكتب باموك عن العفويين بأنَّهم مُتَّحدون مع الطبيعة، وأنَّهم يشبهونها من ناحية الهدوء والقسوة والحكمة. وهم يعملون على حرفتهم سجيتهم ببراءة ونقاء وبدون قلق لأي تبعات فكريَّة أو أخلاقية أو أيديولوجية. وبذلك يتَّفق باموك مع شيلر حين يقول إنَّهم لا يهتمُّون بآراء الآخرين. ويبدو أن فنَّهم يتدفَّق تدفقًا تلقائيًّا كأنَّهم لا يتكلَّفون عناء التفكير.

كتابة الشعر (أو الرواية) ليست سلسة للمتكلِّف (أو الحسَّاس أو المحاكي)، وكما ذكر شيلر في مقاله، يعود سبب ذلك إلى أن المتكلِّف فقد طبيعته الطفولية فيصفه باموك بأنَّه "متأمِّلٌ معاصر" وكأنَّه يخبرنا بأن ما يكتبه ينبثق من تجربته، وأنَّه فقد ذلك التدفُّق الطبيعي والجارف وأصبح رهينة مشاعره وأفكاره.

استشهد باموك بأفكار شيلر مرة أخرى:

"...وفقًا لشيلر، الشاعر الحساس قلق (عاطفي، متأمِّل)، وقبل ذلك كلِّه، هو غير متأكِّد مما إذا كانت كلماته ستحيط بالواقع أو تحقِّقه، أو إذا ما كان تعبيره سيوصِّل المعنى الذي يريده. فهو واعٍ جدًا للقصيدة التي يكتبها والطرق والأساليب التي يستخدمها ببراعة أثرت في مسعاه... هناك صفة مميَّزة للشَّاعر العفوي وعلينا أن نشير إليها بشكل خاص لأهمِّيتها وهي أنَّ الشَّاعر العفوي لا يشك بأن كلماته وتعبيره وأبيات قصيدته قد صوَّرت المشهد العام، وبأنها سوف تمثِّله، وبأنها وصفت وكشفت الجملة للعالم بشكل دقيق وتام...".

شاب وشيخ

ذكر باموك ملاحظة مهمَّة عن مقال شيلر وهي أنَّه: "لا يتناول فقط الشِّعر والأدب والفن عمومًا، بل أصبح نصًّا فلسفيًّا عن أنواع البشر". ومن المذهل أنَّ علم السلوك الحديث يتَّفق مع هذه العبارة، فقد توسَّع ليثبت لنا أن سلوكي هذين الطيفين ينطبقان كذلك على مُختلف ألوان العبقرية.

حتى نفهم هذه العبارة، سنستند إلى أبحاث عالم الاقتصاد ديفيد جالنسون من جامعة شيكاجو، الذي كرَّس جزءًا كبيرًا من حياته الأكاديمية لدراسة أحد أهمِّ مكونات العبقرية وهو الإبداع.

فمنذ عصر النهضة الأوروبي وحتَّى عصرنا الحاضر، كان هناك إيمانٌ شائعٌ بأنَّ الإبداع والمخيلة هما هبة الشباب، وأنه بتقدم العمر يفقد المرء تلك

الموهبة وكما قرأنا سابقًا: يختنق المرء في شباك تجربته ومشاعره. آمن ألبرت أينشتاين بهذا المنظور لما قال: "إذا لم يقدِّم المرء شيئًا عظيمًا في العلوم قبل سنِّ الثلاثين، فلن يتمكن أبدًا من فعل ذلك". وتبعه في هذا الاعتقاد عدد كبير من علماء النفس الذين تخصَّصوا في شؤون الإبداع، وأصرُّوا على استحالة الحصول على تلك المَلكة بعد العشرينات. وهذا ما اعتقده عالم النفس هارفي ليمان لما كتب: "العقد الذهبي لكتابة الشعر... لا يأتي بعد عشرينات المرء".

بل إنه عند حديثه عن أيقونات عبقريَّة في مجالات مختلفة، يركز عالم النفس هاورد جاردنر على الأشخاص الذي نضجوا في سن مبكِّرة في الشعر، فعلى سبيل المثال يستشهد في مجال الشعر بالشاعر تي إس إليوت وفي العلم بألبرت أينشتاين، وفي الرسم بابلو بيكاسو وفي الموسيقي بإيجور سترافينسكي. بل إنَّ جاردنر كتب:

> **"الشعر بشكل عام... هو حرفة يقدم فيها الفنان إنجازاته في سن مبكرة. معظم شعراء القرون الأخيرة العظماء كتبوا أهم أعمالهم في عشريناتهم أو ثلاثيناتهم. وأولئك معظمهم ماتوا، أو توقفوا عن الكتابة، أو أنهم واصلوا الكتابة... بدون أي تقدم أو نضج يستحق الذكر...".**

تكمن أهمية عمل جالنسون في أنَّه تحدَّى مُسَلَّمَة آمن بها العالم لمدَّة قرون عن الإبداع، بل إنه أثبت خطأ جميع أولئك الذين أصروا على أن الإبداع هو هبة الشباب.

عند النظر إلى الآراء السابقة والتي احتفت بالعفويين، يتملكنا إحساس بأنّ الفنانين الحسَّاسين كانوا منبوذين خلال فترة احترافهم لفنِّهم، وأن النُقَّاد وضعوهم في مرتبة ثانية بعد الفنَّانين العفويين. فقد كتب أحد النُقَّاد أنَّ الانطباع العام لدى كبار الشعراء هو أنَّ الشِّعر المطبوع هو الشِّعر المحمود. قيل كذلك: "... القدرة الفطرية على فنِّ القول نظمًا أو نثرًا تأتي من فيض إلهي بغير تعلُّم، فمن حرمه الله منها فلا يتعبنَّ نفسه فهو لن يكون شاعرًا". لا بد أنَّ الشُّعراء الحسَّاسين أنفسهم كانوا يؤمنون بذلك، فكانوا يحسدون العفويين ويلومون أنفسهم لاعتقادهم أن الله حرمهم من تلك القدرة. ويُقال إن الأصمعي كان يُعيب الشاعر المتكلِّف الْحُطَيْئَةَ، ولما سُئل عن ذلك أجاب (وكأنه يعتذر عن قوله في الوقت نفسه): "وجدت شعره كله جيدًا فدلَّني ذلك على أنَّه كان يصنعه، وليس هكذا الشاعر المطبوع الذي يرمي الكلام على عواهنه، جيده على رديئه".

لكن أعمال جالنسون تمنحنا منظورًا مختلفًا، وكما سنقرأ بعد قليل: يجب أن نعامل هذين الطيفين بالأهمية نفسها. فقد دحض المُسَلَّمَة الشائعة

المترسِّخة كالجبال، والتي ربطت بين الشباب والإبداع والتي قللت من شأن الحكمة وأهمية الخبرة. وعلى هذا الأساس توصَّل إلى نظرية أنَّ الإبداع ينضج في فئتين عمريتين مُختلفتين ومتباعدتين.

بدأ ديفيد جالنسون دراسة الفروق السلوكية بين الشعراء، واطَّلع على أربع وسبعين موسوعة شعرية وثَّقت أفضل الأعمال الشعرية لشعراء أمريكيين في القرن العشرين، والتي تمَّ اختيارها بإجماع الأكاديميِّين على أنها أعظم القصائد الأمريكية. وكانت القائمة تتضمن عديدًا من الشعراء الأفذاذ مثل:

- ت. س. إليوت (قصيدة بروفروك).
- روبرت لويل (قصيدة ساعة الظربان).
- روبرت فروست (قصيدة وقفت عند الغابة ذات مساء مثلَّج، وقصيدة ترميم الجدار).
- وليام كارلوس وليامز (قصيدة عربة اليد الحمراء، وقصيدة الرقصة).
- إليزابيث بيشوب (قصيدة السمكة).
- عزرا باوند (قصيدة رسالة زوجة التاجر النهري، وقصيدة في محطة المترو).
- سيلفيا بلاث (قصيدة أبي).
- والاس ستيفنز (قصيدة رجل الثلوج).

لكن الهدف من دراسته لتلك الأعمال جميعها هو الحصول على معلومة واحدة فقط: كم كانت أعمار أولئك الشعراء عند كتابة أهم قصائدهم؟

لنعد مجدَّدًا إلى القائمة نفسها، وهذه المرَّة، سنستبدل اسم القصيدة بعمر الشاعر وقت كتابتها:

- ت. س. إليوت (ثلاثة وعشرون).
- روبرت لويل (واحد وأربعون).
- روبرت فروست (ثمان وأربعون، وثمانية وثلاثون).
- وليام كارولز وليام (أربعون، وتسعة وخمسون).
- إليزابيث بيشوب (تسعة وعشرون).
- عزرا بوند (ثلاثون، وثمانية وعشرون).
- سيلفيا بلاث (ثلاثون).
- والاس ستيفنز (اثنتان وأربعون).

كتوضيح سريع لهذين السلوكين لندرس المثالين التاليين: عندما أنهى الروائي فرانسيس فيتزجيرالد روايته المهمة "جاتسبي العظيم"، كتب إلى محرره: "أعتقد أن روايتي هي أعظم ما كتبته يد روائي أمريكي... لقد نضجت أخيرًا". كان حينها في التاسعة والعشرين من العمر. على النقيض، نجد أن الروائي المهم مارك توين أنهى أحد أهم أعماله الروائية "مغامرات هكلبيري فين" في سن التاسعة والأربعين، بعد أن قضى عقدًا من الزمان يحاول إنهاءها.

والشواهد على تلك الفوارق السلوكية كثيرة، ومن المهم التعرف إليها حتى نتمكن من التعرف (والتنبؤ أيضًا) إلى طينة العبقري.

المستفاد أن العلاقة بين العمر والشعر لا تؤثر على جودة الشعر أو أهميته، فكلتا الشريحتين تحظيان بنفس الأهمية لدى الخبراء، إنما تؤثر على الأسلوب الإبداعي وطريقة التفكير. حتى نتمكن من تقدير أهمية تطور الأسلوب المتأخر، يُلفت جالنسون انتباهنا إلى أن موسوعة الشعراء الأمريكيين التي بنى عليها أبحاثه تضم ثمانية أعمال لروبرت فروست أتمها قبل سن الأربعين، لكنها كذلك تضم اثنتين وأربعين قصيدة كتبها بعد سن الخمسين، كأنه بذلك يضرب بكلام كل من ألبرت أينشتاين وهاورد جاردنر وهارفي ليمان عرض الحائط.

* * *

عامل جالنسون الفنانين كأنهم وحدات بيانية وبدأ بدراسة عميقة في مختلف المجالات الفنية والعلمية، وبذلك تمكن من وضع كلام السابقين في إطار علمي محدد. وأهم ما توصل إليه هو الصفات السلوكية لكلا الفئتين.

الفئة الأولى، هي الفئة الشابَّة، وهي ما سمَّاها المبتكرين المفاهيميين (Conceptual Innovators). وهم أولئك الذين يستخدمون فنهم لإرسال رسالة، سواء كانت تلك الرسالة للتعبير عن أفكارهم ومخيلتهم أو عواطفهم، فهم يستخدمون حرفتهم (سواء كانت فنًا أو علمًا) للتَّعبير عن مفهوم معين (سواء كان رؤية أو مبدأ أو فكرة أو شعور). يتدرَّج أسلوب عملهم من نظرية عامة إلى عمل متخصَّص، أي أنَّ تفكيرهم استدلالي (يُعرف كذلك باسم التفكير الاستنتاجي)، فهم يبدؤون بنظرية أو مجموعة حقائق تحكم وتوجِّه طريقة عملهم مما يتطلّب منهم في العادة أن يستثمروا وقتًا أطول للتخطيط قبل الإقبال على أي عمل، وذلك ما يمنحهم ثقةً ووضوحًا. لذلك تتجلى أفكارهم بدقَّة ويكون أسلوب عملهم منهجيًّا ونظاميًّا. وقد تختلف مصادر الإلهام ووسائل الدراسة والتخطيط للعمل، فقد يكون الرسام سليل عائلة رسَّامين ألهموه بأعمالهم، وقد يكون الموسيقار شقيق مدرِّس موسيقى. أو قد يطَّلع الشاعر على شعر من سبقه، بينما يقرأ الروائي العديد من الأعمال والأبحاث التي ستعينه في عمله.

وفي هذه الفئة، يظهر العبقري على الساحة في عمر صغير، وما يقدِّمه يغير وجه المجال بشكل كامل. فقد قدَّم ألبرت أينشتاين أهم نظرياته العلمية بين عمر الواحد والعشرين والستَّة والعشرين. وتعرَّف العالم إلى بابلو بيكاسو لما رسم لوحته Les Demoiselles d’Avignon في عمر السادسة والعشرين. وكتب فرانسيس إس. فيتزجيرالد روايته الخالدة جاتسبي العظيم في التاسعة والعشرين من عمره. بينما عزف موتسارت أهم معزوفاته في بداية العشرينات. ونظم الشاعر ت. س. إليوت إحدى أهم قصائده "الأرض اليَباب" في سن الرابعة والثلاثين وعرف العالم سيلفيا بلاث وأحبَّ شعرها قبل أن تنهي حياتها في سن الواحدة والثلاثين.

ناقش جالنسون وجود الإبداع في فئة عمرية ثانية مهمَّة ومُهمَلة. في هذه الشريحة، تظهر عبقرية أفرادها في مرحلة متأخِّرة من أعمارهم مثل شيلر وباموك وزهير والحطيئة. أطلق ديفيد جالنسون على هذه الشريحة اسم

المبتكرين التجريبيين (Experimental Innovators) وهم أولئك الذين يسعون لتوثيق رؤيتهم وواقعهم ومخرجات تجاربهم. وهؤلاء يكتسبون فنَّهم وحرفتهم تدريجيًّا ومن خلال علمهم، ويحدث ذلك خلال وقت زمني طويل لأن هدف الفنانين التجريبيين هو تسجيل ونقل خبرتهم البصرية والحسية، ومع تراكم معلوماتهم وخبراتهم، فإنهم يضطرون إلى تطوير آلية خاصة للتعامل مع ذلك الكم المعلوماتي الهائل والقدرة على تحليله، ولذلك هم لا يمتلكون تصوُّرًا نهائيًّا لما يريدون التَّعبير عنه، ويتخلل منهجهم البطء، لأنهم يخوضون مرحلة طويلة من التجربة والخطأ (عكس المفاهيميين الذين يمضون في عملهم بدون تمهل). يعتمد أسلوب عمل التجريبيين على الاستكشاف (يعرف كذلك باسم التفكير الاستقرائي) فيكون التدرُّج من الشيء المخصَّص إلى الشيء العام. وغالبًا ما يبدؤون برأي (وليس بنظرية أو مبدأ) وبدون أي تصوُّر واضح للنتيجة النهائية، الرحلة تقود استكشافاتهم وتظهر لهم لاحقًا النتائج فنهاية الطريق غامضة ولا تتضِّح لهم إلَّا بعد المضي فيها، (أو كما لخصها الشاعر روبرت فروست: فإذا لم يتفاجأ الكاتب، لن يتفاجأ القارئ.) ويتخلل تلك العملية الكثير من التطوير والتَّحسين والتَّقنين.

أعمال هذه الشريحة من العباقرة تحاكي واقعهم المحسوس الذي عَبَّرُوا عنه، إما عن طريق الرواية أو الشعر أو العلم أو الرسم. فنجد الروائي الفرنسي الشهير مارسيل بروست قبل وفاته بليلة ينادي خادمته سيلسيت ويطلب منها أن تغيِّر نص وفاة أحد شخصياته إلى وفاة بطيئة، فتجربته مع الموت منحته فهمًا جديدًا للتجربة وأراد تدوينه. الشاعر الأمريكي والت ويتمان قدم عمله الشهير "أوراق العشب" عام 1855م، إلا أن تنوع خبراته الحياتية المتراكمة اضطره أن يعيد الكتابة ويراجع كتابه "أوراق العشب" مرات عديدة حتى وفاته (آخر طبعة تُعرف باسم "سرير الموت"). قاد ذلك إلى ولادة عدة طبعات يختلف بعضها عن بعض عبر أربعة عقود، فالأولى منها تتكون من 12 قصيدة والأخيرة تتكون من أكثر من 400 قصيدة. أبحاث محمد يونس عن الفقراء أتت من نزوله إلى الشارع وقرى بنغلاديش وخارج مكتبه الجامعي حتى يتنفس الواقع.

وفي الواقع، غالبًا ما تتوارد صورة الفنان المفاهيمي في مخيلتنا عندما نفكِّر بالعباقرة. ذلك الشاب الفذُّ النابغ الذي يأتي بفكرة تغيَّر وجه المجال الذي اقتحمه. بل إن الحقيقة المؤلمة أن معظم التجريبيين متجاهَلون ومهمشون، فالشاب الطموح أكثر جاذبيةً من أشيب الشعر. وهذا يزيد في طموح الشخص المفاهيمي، فالثناء ولفت النظر الذي يحصده في سن مبكرة

(مع كل الدعم المقدم) يزيده ثقة في نفسه ما يزيد إقباله ويرفع غزارة إنتاجه. يجدر بنا هنا الإشارة إلى أن الحساسين كانوا على الأرجح يغارون من العفويين. وعن ذلك كتب باموق: "لقد حسد شيلر غوته على نقائه وفطرته وثقته العمياء في قدرته، وعلى تلك المقدرة في أن يأتي بأفكار رائعة وعظيمة دون جهد يُذكر، وعلى استطاعته بأن يكون نفسه ببساطة وتواضع، وعلى عبقريته الفريدة وفهمه البريء المشابه لفهم الأطفال". لاحقًا، كتب شيلر رسالة لأحد أصدقائه، والتي قد تجعلنا نفهم نوع العلاقة المعقدة التي جمعت الشاعرين: "إن أحاسيسي تجاهه تشابه تلك التي شعر بها بروتس حيال [يوليس] القيصر. أكاد أن أقتل روحه ثم أحبه من كل قلبي!".

إن حياة العبقري التجريبي على الأرجح صعبة لأنه يعاني ويحارب على عدَّة جبهات: فهو بحاجة لتطوير حرفته لتظهر أعماله في الساحة، وعليه أيضًا أن يقلق بخصوص الموارد المالية وإدارة الشؤون الحياتية (خاصَّة إذا لم يكن محظوظًا ماديًّا)، ما سيجعله يبحث عن عمل بساعات طوال لدعم نفسه وربَّما عائلته، وهذا الشيء سيشتِّته عن التركيز في إبداعه وحرفته الخلَّاقة. وفي بعض الحالات مع مرور الوقت قد يفقد المُبدع إيمانه بنفسه وعمله، وهذا قد يجعله يهجُر حرفته، ما يجعلنا نخسر العديد من الفنَّانين والمفكرين والعلماء الذين لم تسمح لهم ظروفهم بأن يمشوا في درب العبقرية.

للإبداع سلوكان

يشير جالنسون إلى أن المفاهيميين يصلون إلى مجدهم بسرعة، فنجد أن بيكاسو صار محط الأنظار في منتصف العشرينات، بينما يجاهد التجريبي ليكتشف أسلوبه، والذي يأتي متأخرًا بعض الشيء، فنجد أن سيزان اكتشف الرسم في سن الثامنة عشرة (في ذلك العمر، أَبْهَرَ بِيكَاسُو أَقْرَانَهُ وأساتذته والعالم بقدراته الفنية)، أما في السن الثلاثين، فكان لا يزال يحاول أن يطور أسلوبه. حتى نفهم سبب هذه الاختلافات في السلوك الإبداعي، يلفت جالنسون انتباهنا إلى ثلاث محطات مهمة يخوضها الفنان في حياة أي عمل فني، وهي:

- التخطيط للعمل (ما يفعله الفنان قبل الإقبال على العمل)،
- سلوكه خلال فترة تنفيذ العمل (القرارات التي يتخذها خلال إجراء العمل)،
- إنهاء العمل (اللَّحظة التي يقرِّر فيها إنهاء العمل).

ففي حالة الشخص التجريبي، نجده يبدأ بدون تخطيط (وفي بعض الأحيان بدون رؤية واضحة للهدف)، ولذلك يندر أن نجد لديهم مسوّدات تخطيط أثناء تنفيذ العمل لأن قراراتهم المهمَّة تنضج خلال نضج العمل نفسه. فهم يفضِّلون أن يقودهم العمل للإجابة على سؤال يحيرهم، ما سيقودهم إلى حقيقة جديدة وأصيلة بدلًا من ربطه وتطويقه بإطار معين، فيكون تركيزهم بين محاولة إتقان الأسلوب وبين النتيجة التي تبزغ ببطء. فنجد أن الشاعر روبرت فروست كان ضد تخطيط "كتابة القصيدة"، إنما آمن باستكشافها من خلال كتابتها. وقال عن ذلك:

"عندما أستهل كتاب القصيدة، فإني لا أسعى لكتابة نهاية بهيجة... يجب أن تُستكشف النهاية برضى... إذا لم يدمع الكاتب، لن يدمع القارئ".

كما يصعب عليهم إنهاء العمل أو الاعتراف بوصوله إلى درجة الكمال، فإذا وصلوا إلى نقطة النِّهاية (الفصل الأخير في الرواية، البيت الأخير في قصيدة، فقرة توقيع اللَّوحة) شغلوا أنفسهم بأعمال أخرى! فهم يعدُّون قرار إنهاء العمل محوريًّا ومصيريًّا ويتجنبونه لذلك!

بالنسبة للأشخاص المفاهيميين، فإن التخطيط يعد أهم مرحلة، ومن المعتاد أن يقضوا فترات مطولة في هذه المرحلة، فهي تقودهم إلى رؤية واضحة أو إلى خطة عمل واضحة، ويساعدهم ذلك على التخلص من أي شك قد يشوب عملهم (وهذا ما نراه لدى التجريبيين)، ويقودهم ذلك إلى مخطّطات عمل مفصَّلة تجعلهم على قناعة تامَّة بتمام عملهم وكماله. يستخدم جالنسون بيكاسو مثالًا على الرسامين المفاهيميين، والذين من طباعهم التخطيط قبل العمل، ويذكر أحد المؤرخين أن بيكاسو رسم ما يقارب 400 مسوّدة قبل تقديم رسمته Les Demoiselles d’Avignon الشهيرة للعالم، ويقدر أنه لم يقارب أي فنان هذا الرقم في تحضيره وإعداده لعملٍ واحد. أعمال هذه الفئة تعتمد على المفهوم أو المبدأ أو الفكرة. ويعلق مؤرخ آخر، أن المدرسة التكعيبية التي قادها بيكاسو وجورج براك كانت ابتكارًا مفاهيميًّا فِي جَوْهَرِهِ، لا يعتمد على الخبرة أو المحسوس، إنما على الفكرة والمخيِّلة. وكما قال بيكاسو: "لا أرسم الأشياء كما أراها، إنما كيف أفكر فيها". من صفات هذه الفئة الثقة ووضوح الرؤية، ويأتي ذلك كنتيجة لوضوح المفهوم.

أما خلال تنفيذ العمل، فإن المفاهيمي واثق من نفسه ومدرك لوجهته. وعكسه التجريبي، إذ يشكِّك عباقرة هذه الفئة كثيرًا بأنفسهم وبجودة عملهم، ويتطلَّب فنُّهم وقتًا طويلًا حتى ينضُج. يُحكى أن سيزان حاول رسم صديقه

امبرواز فولار في مرسمه 150 مرة! وفي كل مرة كان فولار يجلس على كرسيه من الساعة الثامنة حتى الحادية عشرة والنصف دون أن يتحرك. وذات يوم غفا فولار فصرخ عليه سيزان مغتاظًا: "هل تتحرك التفاحة؟!".

في المرحلة الأخيرة، وهي اتخاذ قرار إنهاء العمل، نجد سلوكين متناقضين جدًا. فبينما كان بيكاسو يوقِّع جميع رسوماته ويكتب التاريخ كذلك (وفي بعض الأحيان كان يكتب ساعة إنهاء العمل أيضًا)، نجد سيزان يرفض أن يوقِّع معظم رسوماته لأنها بمثابة إقرار واعتراف منه بأنَّه أتمَّ العمل عليها، إذ أنه كان في حالة رفض دائم لذلك، معتقدًا أن جميع أعماله ناقصة ولن تصل إلى درجة الكمال.

الفصل الثاني

كيف أصبحوا عفويين أو حساسين؟

في عام 1953م، كتب الفيلسوف الروسي - البريطاني أشعيا برلين مقاله المهم بعنوان "القنفذ والثعلب: مقالة في نظرة تولستوي إلى التاريخ"، وفي مقدمة ذلك المقال كتب: "من بين الشذرات التي تركها الشاعر اليوناني آركيلوكوس هو بيتٌ شعريٌ يقول: "الثعلب يعرف أشياء كثيرة، ولكن القنفذ يعرف شيئًا واحدًا، ضخمًا". لقد اختلف الباحثون حول تفسير هذه الكلمات الغامضة... لكنها إذا ما فُسّرت على نحوٍ تصويريّ، فإن هذه الكلمات يمكن أن تحمل معنىً يتضمّن واحدًا من أعمقِ الاختلافات التي تفصل بين الكتّاب والمفكرين، بل وربما بين البشر إجمالًا. فهناك هوةٌ عظيمةٌ تفصل بين جانبين.

> **فمن جانب، هناك هؤلاء الذين يُرجعون كل شيءٍ إلى نظرةٍ مركزيةٍ واحدة، نظامٍ واحدٍ، متجانسٍ أو واضح، متوافقٍ مع ما يفهمونه، ما يعتقدون فيه، وما يشعرون به؛ مبدأٍ وحيد، عامٍّ، منظمٍ لكل شيء، بحيث أن كل ما هم عليه، وما يقولونه، يأخذ معناه منه وحده.**
>
> **ومن جانبٍ آخر، هناك من يتحرّكون على عدة جبهات، هي غالبًا غير مترابطة، بل ومتناقضة، لا ترتبط - على فرض الارتباط - إلا من ناحيةٍ واقعية، ولأسبابٍ سيكولوجية أو فسيولوجية، لا يجمع بينها عاملٌ أخلاقيّ أو جماليّ. إن هؤلاء يعيشون حيوات، ويقومون بأفعال، ويفكّرون بأفكارٍ نابذةٍ أكثر منها جاذبة، أفكارهم مبعثرة ومستفيضة، تتحرّك على عدة مستويات اعتمادًا على خلاصة مجموعةٍ متنوعةٍ من التجارب والأشياء التي يبحثون - بوعيٍّ منهم أو من دون وعيّ - لأن يدمجوها في، أو يُقْصوها من، منظورٍ جامدٍ، شاملٍ، متناقض تارةً وناقص تارةً أخرى، وأحيانًا متطرّف، مُستوحد وداخليّ.**
>
> **إن النوع الأول من الشخصيات المثقفة والفنية ينتمي إلى القنافذ، فيما يُنسب الثاني إلى الثعالب".**

إن ما يصفه أشعيا برلين في مقاله هنا يتفق مع ما قرأناه سابقًا عن العبقري العفوي والعبقري الحساس. ويضرب لنا برلين مثالًا على أولئك الذين

ينتمون إلى فئة القنافذ، وهم: الفيلسوف اليوناني الكلاسيكي أفلاطون، الشاعر الإيطالي دانتي ألجيري، الفيلسوف والشاعر الروماني لوكريتيوس، الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال، الفيلسوف الألماني جورج هيجل، الروائي الروسي دوستويفسكي، الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، الكاتب المسرحي النرويجي إبسن، والروائي الفرنسي مارسيل بروست. أما الذين ينتمون إلى فئة الثعالب فنجد منهم المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت، الفيلسوف أرسطو، الشاعر البريطاني وِلْيَمْ شكسبير، الشاعر والفيلسوف الألماني جوته، أمير شعراء روسيا ألكسندر بوشكين، الأديب الفرنسي بلزاك والكاتب والشاعر الإيرلندي جويس.

فلعل أول سؤال يطرحه المرء على نفسه عند قراءة الفروقات بين العبقري العفوي (أو الثعلب) والعبقري الحساس (القنفذ)، قد يكون السؤال التالي: هل أنا عفوي أم حساس؟ عند دراسة الأمثلة التي قدمتها سابقا، سواء كان المتحدث شاعرًا أو فيلسوفًا أو صحفيًّا أو عالم اقتصاد، فإننا نتفاجأ أنه بقدر ما تم نقاش السلوكيات الإبداعية عبر التاريخ، إلا أنهم لم يتطرقوا إلى موضوع نشأة تلك الفروقات السلوكية.

كون هذه الصفات بيولوجية بالدرجة الأولى لا يمنع من وجود درجة اكتساب متأثرة بالبيئة وغيرها من العوامل التي نناقشها في رحلة العبقري. لقد درس العلماء كل صفة على حدة، وأغلب الظن أن بإمكاننا الاستفادة من دراساتهم للإجابة عن السؤال: "كيف أصبحوا حساسين أو عفويين؟".

الذكاء

لقد فصلنا مبكرًا في الذكاء وتعريفه وحاله، لكننا الآن سنتعمق إلى مستوى أعمق في هذا الموضوع، وهو فهم أنواع الذكاء وفهم علاقتها بأنواع الابتكار والإبداع والعبقرية.

بين ثلاثينات وخمسينات القرن العشرين، كرس عالم النفس البريطاني رايموند كاتل وقته محاولا تطوير اختبار ذكاء يتيح له التفرقة بين الذكاء الذي لا يعتمد على خلفية معينة، والذكاء الذي يسمو بصاحبه في بيئة معينة. في عام 1940م، نجح كاتل في تصميم اختبار ذكاء يختبر قدرة المرء التحليلية، بغض النظر عن الخلفية المعرفية لذلك الشخص. وفي العام نفسه، قدم كاتل محاضرة أمام جمعية علم النفس الأمريكية، وفيها قدم تصنيفات مهمة للذكاء. تنبثق تلك التصنيفات من الذكاء العام، وهو ما أشار إليه بالحرف ع (باللغة الإنجليزية: G من كلمة General). يشير المعامل ع إلى القدرات البشرية

المعرفية العامة، وقد لاحظه علماء النفس مبكرا حين لاحظوا أن هناك ذكاءً معرفيًّا مشتركًا بين الأطفال بغض النظر عن الخلفية التعليمية، وهو عادة ما نعنيه حين نتحدث عن الذكاء بشكل عام، وهو ما ناقشناه مبكرا في حديثنا عن الذكاء. ومن هذا العامل نشتقّ صنفين للذكاء: الذكاء السائل والذكاء المتبلور.

الذكاء السائل هو القدرة على التفكير المنطقي وحل المشكلات الجديدة بأسلوب تجريدي، ويشار إليه بالحرف س (F من كلمة Fluid)، فيصبح معامل الذكاء السائل Gf أو ع - س. وهذا النوع من التفكير لا يتطلب معرفة مُسبقة مُكتسبة، وتشير الدراسات إلى أن هذا النوع من الذكاء هو ذو طبيعة بيولوجية عصبية. وهذا الذكاء هو القدرة على تحليل المشكلات وتحديد أنماطها والعلاقات التي تستند إليها واستقرائها باستخدام المنطق. وهو ضروري لحل جميع المشكلات المنطقية في حقول العلوم والرياضيات، وحل المشكلات التقنية. والذكاء السائل يتضمن الاستقراء والاستنباط. ما نلحظه هو أن نجاح المرء الذي يستخدم هذا الذكاء يزيد من ثقته بنفسه وإقباله على تحديات جديدة.

هل تذكر الدراسة التي ذكرناها سابقا عن الفلاحين الهنديين الذين ازداد ذكاؤهم في أوقات الرخاء ونقص في أوقات الشدة؟ كان العلماء حينها يدرسون هذا النوع من الذكاء.

أما الذكاء المتبلور فهو القدرة على استخدام المهارات والمعرفة والخبرة في إطار ثقافي ومعرفي معين (ولعل هؤلاء هم من نشير إليهم في حياتنا على أنهم حكماء). ويُشار إليه بالحرف م (C من كلمة Crystalized) فيصبح معامل الذكاء المتبلور Gc أو ع - م. الذكاء المتبلور هو حصيلة وعمق الإنجاز الفكري على مدى حياة الشخص، ويتبلور في حصيلة الشخص من المفردات والمعارف العامة. وهو يتطور بتقدم العمر، حيث تميل الخبرات إلى توسيع معرفة الشخص في مجال معين. ولم يغب عن علماء النفس ملاحظة أن الذكاء السائل يساهم في بناء الذكاء المتبلور. بل إن أحد تعاريف هذا الذكاء هي: "الذكاء المتبلور في هذه السنة هو نتيجة وحصيلة الذكاء السائل للسنة الماضية بالإضافة إلى المعارف المكتسبة من حقول مختلفة". وربما بإمكاننا أن نلخص الفرق بين الاثنين على أنهما: القدرة على حل المشاكل وخلق أفكار اعتمادًا على الخبرة أو اعتمادًا على المهارات الذهنية. لاحقًا، وصف عالم النفس فيليب أكرمان تصنيفين للذكاء في لغة مشابهة للغة كاتل: الذكاء

كعملية (شبيه الذكاء السائل) والذكاء كمعرفة (شبيه الذكاء المتبلور). من أمثلة الوظائف التي تعتمد على الذكاء كعملية، الفيزياء النظرية، والرياضيات المجردة، وبعض المجالات الإبداعية. أما من أمثلة الوظائف التي تعتمد على الذكاء كمعرفة فهي المحاماة (أهمية الخلفية القانونية) والطب (أهمية الخلفية الطبية).

إلا أن قائمة الفروقات بين الذكاءين لا تقف عند هذا الحد، فكاتل يقدم لنا حقيقة أخرى: كلا الذكاءين يرتبطان بمرحلة عمرية معينة. ومن خلال دراسات مطولة ومقارنات بين درجات أشخاص اختبروا اختبارات الذكاء في سن معينة ثم تم إخضاعهم لاختبارات أخرى في سن لاحقة، ظهرت حقيقة مثيرة للاهتمام: درجات الذكاء السائل تكون نشيطة في مرحلة البلوغ، وتكون في أوجها بين أعمار الست وعشرين وخمس وثلاثين. إلا أن الحقيقة المريعة أن المرء يفقد هذه القدرة الحيوية التي تبدأ في التقهقر مع التقدم في العمر، ومعها يفقد المرء قدرات مثل الذاكرة والسرعة التحليلية وتكوين المفاهيم. هذه الحقيقة قادت بعض العلماء لتسمية الذكاء السائل "المقدرة الضعيفة".

تشير الدراسات نفسها إلى أن سلوك الذكاء المتبلور معاكس للذكاء السائل، فهو يستمر في التطور خلال مراحل حياتنا (تشير إحدى الدراسات أنه يستمر في التطور حتى سن السبعين والثمانين). في مقارنة لدرجات اختبار الذكاء المتبلور، وجد الباحثون أن درجات الأشخاص متوسطي العمر كانت أفضل بنحو جذري مقارنة بأولئك الأصغر سنًّا! وهذه الدرجات لا تشير فحسب إلى مستوى الذكاء المتبلور، إنما تشير أيضًا إلى جودة الأداء في الحياة الواقعية (مثل الوظيفة)، القدرة على بذل الجهد والإصرار والمثابرة.

وذلك يقودنا لفهم الحيرة التي واجهت بعض دارسي الذكاء في عام 1967م، حين لاحظ عالما نفس تصادمًا غريبًا في دراسات الذكاء، وعن ذلك كتبوا: "أظهر العديد من الدراسات أن الذكاء يتراجع مع التقدم في السن في مرحلة البلوغ، كما أظهرت دراسات أخرى أن الذكاء يتزايد بتزايد العمر..." بالنظر في أعمال كاتيل، فبإمكاننا فهم أن هؤلاء الباحثين كانوا يدرسون نوعين مختلفين من الذكاء.

يكتب عالم النفس دين سمينتن، الذي درس أمور العباقرة والمبدعين لفترات طويلة: "الإنتاجية في بعض الحقول الإبداعية تأتي كما النيازك، تصل الذروة في سن مبكرة، وتتلاشى بصورة قاسية. أما في بعض الحقول الأخرى، فإن المهارة تكون تدريجية، وتكون نقطة الإتقان متأخرة، أما التلاشي فيكون هادئًا ورحيمًا".

وقد يساعدنا هذا في تفسير ما توصل إليه دايفيد جالنسون حينما نظر إلى قيمة المخرجات العبقري مقارنة بالمرحلة العمرية التي أنتج فيها العمل.

* * *

لندمج الآن ما تعلمناه عن نوعي الذكاء مع ما أخبرنا به جالنسون. فبينما قدم لنا اكتشافه الأول نظرة واعدة ومحررة، وهي أن الجميع لديه فرصة ليأتي بفنه سواء في مقتبل العمر أو آخره، إلا أن الاكتشاف الثاني يقدم لنا صورة عملية (بل اقتصادية) عن أهمية التمييز بين الطيفين. وقد يكره الفنانون (والعلماء كذلك) فكرة أن تُقارن أعمالهم (التي يعدونها تجربة إنسانية) بطريقة مادية أو تطويقها في إطار علمي بحت، إلا أن جالنسون وفريقه تمكنوا من قياس تلك الأعمال بطريقة ذكية ومقارنتها على ذلك الأساس.

قام الفريق بدراسة اثنين وأربعين فنانًا أمريكيًّا معاصرًا، وتتبعوا أعمالهم الفنية في المزادات ونظروا إلى أسعارها. الأهم من ذلك، أنهم نظروا إلى سعر كل قطعة، وفي أي عمر أنتجها الفنان. فعلوا ذلك مع كل قطعة وجدوها لكلٍّ من الاثنين وأربعين فنانًا. ووضعوا تلك البيانات على رسم بياني، بحيث كان سعر الرسمة على المحور العمودي (x axis) وكان العمر الذي أنهى فيه الفنان تلك الرسمة على المحور الأفقي (y axis)، ما وجده جالنسون هو نمطان قويان.

في حالة الفنانين المفاهيميين، كان منحنى العلاقة بين العمر والسعر عاليًا في بداية أعمارهم (العشرينات والثلاثينات)، لكنه يبدأ بالانحدار بعدها بقسوة كما أشار سمينتن، أي أن أهم أعمالهم والتي بيعت في المزادات بأسعار غالية (ما يدل على أنها حصلت على قبول ملحوظ) كان في شبابهم، ولكن كأن طاقة شبابهم ومُخيلتهم وقريحتهم الفنية تدهورت مع تقدم السنين، ولم يقدموا ما يُذكر. أما في حال الفنانين التجريبيين فالعكس صحيح. أعمالهم الفنية في مقتبل عمرهم بيعت بأسعار متواضعة، لكن كلما تقدم سنهم، ارتفعت أسعار قطعهم في المزادات. أي أن أعمالهم وفنهم نضجا بمرور الوقت.

عندما درس جالنسون أعمال بيكاسو (مفاهيمي)، والذي أصبح أيقونة عالمية بسن السادسة والعشرين وعاش حتى تسعيناته، وجد أن الفنان الإسباني أنتج الكثير في حياته، لكن العالم اهتم أكثر بأعماله التي أنتجها قبل سن الثلاثين.

أما الفنان التجريبي سيزان فهو يقدم صورة معاكسة، فكتب الفن بالكاد تناقش أعماله التي أنتجها قبل سن الثلاثين وحتى ما قبل الأربعين، لكن أعماله التي أنتجها بعد سن الخمسين ملأت تلك الكتب. ومتى أنتج أغلى رسمة فنية في حياته؟ في السابعة والستين، السنة التي توفي فيها.

أعظم أعمال بيكاسو جاءت مبكرًا؛ أما أعمال سيزان فجاءت متأخرة.

الرسمة من قبل جيرالد سكارف

بالتأكيد يصعب قياس العمل الفني على قيمته في السوق والمزادات، فهناك عوامل كثير يتأثر بها السعر ويصعب مقارنتها بعدل، فسمعة الفنان، وحجم اللوحة، وتاريخ البيع ومكانه، كلها عوامل تؤدّي دورًا مهمًّا. إلا أنها تدلنا على جودة عمل الفنان خلال رحلته الفنية. لكن جالنسون استخدم حيلة ذكية لتعزيز مخرجاته، فنظر إلى الكتب المعنية بالأعمال الفنية لكلا الفنانين (من اللغتين الإنجليزية والفرنسية) وشرع يبحث عن أعمال الفنان المذكورة في تلك الكتب، ثم أجرى مقارنة بين تلك الأعمال وعمر الفنان التي قدم فيها تلك

الأعمال (مثل المقارنة التي قمنا بها سابقًا بين الشعراء وأعمارهم)، أي أنه كلما ذكرت أعمال أكثر في عمر معين، دلنا ذلك على أن الفنان أنتج أهم أعماله في ذلك العمر أو حوله. فنجد أن الكتب الفنية الإنجليزية والفرنسية تستشهد كثيرًا بأعمال بيكاسو التي أنتجها بين العشرينات والثلاثينات. بالنسبة لسيزان، نجد أن الكتب الفنية تستشهد كثيرًا بأعماله التي أنتجها في سن السابعة والستين.

هل يكون سبب تغير الأداء هو أن بيكاسو فقد ذكاءه السائل مع تقدم العمر؟ (لا ننسى أن علماء النفس وصفوها بأنها المقدرة الضعيفة)؟ وأن ذكاء سيزان تبلور أكثر كلما ازداد عمره (وازدادت خبرته). إذا كان ذلك صحيحًا، لماذا لم يبدأ بيكاسو بالاستثمار في ذكائه المتبلور والذي تراكم بفضل ذكائه السائل وخبرته؟ لا توجد أجوبة مباشرة على حد علمنا، لكن أحد أبحاث جالنسون قد يقودنا للإجابة. فهو يخبرنا أن ما هو صحيح في حال الرسامين المفاهيميين فهو صحيح في حال الشعراء والعلماء المفاهيميين، وأن اليد الباردة التي تكبت إنجازاتهم تطول جميع أعضائهم وتمسك بكعوبهم بلا رحمة. وفي أحد أوراقه العلمية، يشير إلى حقيقة أنه بينما يكون العلماء المفاهيميون شُبانًا ذوي أثر راديكالي في مجالهم، إلا أنهم عادة في كبرهم يتشبثون بآراء شبابهم، ويرفضون تقبّل الجديد. وبإمكاننا أن نرى أن الكثير من أولئك الذين استفادوا من الذكاء السائل تنبهوا إلى تلك الحقيقة. فنجد الشاعر تي. أس. إليوت يخطب في محاضرة ألقاها عام 1940م: "عندما يصل الرجل إلى منتصف العمر، فإن لديه ثلاثة خيارات: التوقف عن الكتابة تمامًا، أو تكرار ذاته ربما بمهارة متزايدة من البراعة، أو يفكر في طريقة للتكيف مع منتصف العمر وإيجاد طريقة مختلفة للعمل". كان عمر إليوت حينها اثنين وخمسين سنة، وفي هذه السنوات كان إنْتَاجُهُ الإِبْدَاعِيُّ جافًّا، كأن قحطًا أصاب قريحته الشعرية. وإذا آمنا أنه كان يدين ببديع شعره لذكائه السائل، فلماذا لم يطوّع ذكاءه المتبلور؟ يجب هو نفسه على هذا السؤال: "القليل من الشعراء أظهروا مهارة التأقلم مع السنين. فذلك يتطلب صراحة نادرة وشجاعة لقبول التغيير. معظم الرجال إما يتشبّثون بتجارب الشباب، بحيث تصبح كتاباتهم تقليدًا رديئًا لتراثهم، أو أنهم يهجرون شغفهم، ويكتبون فقط... ببراعة مجوّفة ومُهدرة".

بإمكاننا رؤية هذا العناد في سلوك سيجموند فرويد في دفاعه عن نظرية الجنس. كتب كارل يونج (أحد حواريي فرويد ولاحقًا ندّه) في سيرته الذاتية أن فرويد تشبث بتلك النظرية (التي نضجت عندما كان فرويد في الثلاثينات من عمره) بطريقة عاطفية. ورغم رفض المجتمع النفسي للنظرية آنذاك، إلا أن فرويد طالب يونج أن يعامل نظريته كما لو كانت "حصنًا لا يتزعزع".

وبإمكاننا رؤية نموذج في سلوك أينشتاين لما رفض قبول نظرية ميكانيكا الكم في مراحل عمره المتأخرة، والتي تناقش مبدأ عدم التأكد (من سخرية الأقدار أن تلك التطورات كانت مبنية على النظرية الكمية التي قدمها هو نفسه في عام 1905م). رفضه للمنظور الجديد أثار خيبة زملائه، خاصة مع تراكم الأدلة التي تدعم المنظور. بل إنه كتب مرةً لصديقه الفيزيائي ماكس بورن: "لا يمكن للمرء تجاهل ميكانيكا الكم. لكنّ بداخلي صوتًا يقول لي إنها ليست صالحة بعد".

الفضول

عادة في نقاشنا لأمور العباقرة، فإننا نركز على الذكاء بدرجة أولى، ثم على صفات أخرى مثل الإصرار والمثابرة والتفكير خارج الصندوق. لكننا لا نجد كل البشر يسعون لإثبات فكرة جديدة أو دحض فكرة قديمة، أو يستغلون الفرص المحيطة بهم بطريقة بنّاءة، ذكائهم يخدمهم بشكل محدود، أو كما أشار والتر إيزاكسون: "نحن محاطون بالكثير من الأشخاص الأذكياء... لكنهم لا يساهمون بإنجازات تُذكر، لكن المبدعين هم الذين يغيِّرون العالم". ما الذي يغير حال المرء من ذكي إلى مبدع؟ الكثير من العوامل، إلا أن الفضول أهمها. لكن الفضول أصبح محدودًا متضائلًا ويكاد يتلاشى. قد تكون هناك أسباب كثيرة تعلِّل ذلك، منها أن التعليم حدّ بصرنا وأخبرنا أن المهم هو ما يحتاجه سوق العمل، وبذلك طرحنا اهتماماتنا وطموحنا جانبًا واستمعنا إلى صوت غيرنا، مهملين الصوت بداخلنا (سنناقش هذه النقطة بتوسع في فصل التمرد).

هناك اعتقاد شائع بأن المرء يولد شغوفًا بالمجال الذي تفوق فيه، إلا أن الحقيقة بعيدة عن ذلك. فالمرء لا يولد موسيقارًا أو روائيًّا أو عالمًا، إلخ. فعندما يكرس المرء حياته لصنعة معينة، فما ذلك إلا صورة للشغف، وما الشغف إلا تطور للفضول. لذلك وجب علينا أن نفهم الفضول وأهميته من ناحية علمية، وفي الفصل الذي يليه نتعرف إلى رحلة الفضول التي تقود الأشخاص إلى الإنجازات عظيمة. وقد يبدو ذلك غريبًا، فنحن لدينا تصورات وانطباعات وأفكار معينة عما هو الفضول، وكذلك يعامله الكثير كعنصر ثانوي في حياتنا، فلا رحلة له. بل إن بعضنا تعود تجنبه، إذ أن الفضول بطبيعته يقودنا إلى ألوان مختلفة من المخاطر الاجتماعية والاقتصادية والدينية والقانونية والجسدية (كقولنا: قتل الفضول القطّة).

لكن العلم الحديث ودراسة سير العباقرة يخبراننا أن الفضول أهم مما نتصور وأكثر تعقيدًا مما نعتقد، بالإضافة إلى ذلك، سنكتشف أن الفضول هو سمة بشرية مغروزة في جميع البشر، لكنها، كما سنرى، بحاجة لتفعيل

وتنشيط، بالإضافة إلى كونها سمة حساسة بحاجة لصيانة وحماية خصوصًا في سني المرء الأولى. وبعد ذلك، تغذيته وتحويله والتعبير عنه إلى فكرة تغير العالم.

* * *

إذا كان هناك أيقونة خالدة تمثل الفضول عبر التاريخ فإنها الفنان الإيطالي ليوناردو دافنشي، والذي كتب عنه الناقد الفني كينيث كلارك: "مما لا شك فيه أنه لم يعشْ شخص أكثر فضولًا منه في أي وقت مضى". أما هيلين جاردنر والتي كتبت عن حقبة عصر النهضة في كتابها "الفن عبر العصور" فتقول: "كان المعنى الرئيسي للنهضة آنذاك هو طريقة جديدة للإقبال على الحياة، أدت إلى تطوير الفرد، ومنحته حرية في التفكير، والتي بدورها منحته فضولًا...". ثم تصف مصدر عبقرية ليوناردو دافنشي بالعبارة التالية: "... والذي كان ذا فضولٍ لا يرتوي فيما يخص الإنسان، الحيوان، النبات، والآلات الميكانيكية، ودرس المُعضلات الهندسية، بل إنه أيضًا اكتشف بعض المبادئ الميكانيكية للطيران والغوص". مؤلف آخر في سيرة العبقري الإيطالي هو المؤرخ والتر إيزاكسون، ويمنحنا ملاحظة مشابهة لتلك التي ذكرتها هيلين جاردنر: "بعض الأشخاص نبغوا في مجالات معينة، كمثل موتسارت في الموسيقى و[ليونهارد] أويلر في الرياضيات. لكن عبقرية دافنشي شملت عدة مجالات. فضوله دفعه ليكون أحد أولئك القلة عبر التاريخ الذين حاولوا معرفة كل شيء عن كل شيء في كل شيء".

هم لم ينسبوا عبقرية دافنشي لذكائه أو إصراره ومثابرته أو حكمته، إنما لفضوله. وذلك ليس تقليلًا من أهمية تلك العوامل، لكن لما للفضول من أهمية، فبدونه، لما كان لتلك العوامل المهمة أي أهمية. لهذا قال أينشتاين مقولته الشهيرة: "لستُ موهوبًا، إنَّما أنا فضولي شغوف".

لماذا الفضول مهم؟

لأن الفضول الصادق يقودنا إلى أسئلة مهمة، ويجب أن ندرك في حديثنا عن الفضول أن الأسئلة أهم من الأجوبة، وكما أشار أينشتاين، فإن القدرة على صياغة السؤال غالبًا ما تكون أكثر أهمية من حلها... القدرة على خلق أسئلة جديدة، والقدرة على خلق احتمالات جديدة، والقدرة على النظر إلى المشاكل القديمة من زاوية جديدة تتطلّب مخيلة خصبة، وهي إشارة ممتازة للتقدم العلمي.

ومن الوارد جدًا أننا لن نجد إجابات لأسئلتنا في حياتنا، وربما نعتقد أننا وجدنا الإجابة الصحيحة وقد نكون مخطئين، وسيأتي شخص آخر يشكك في أجوبتنا ويطرح أسئلة جديدة، فنجد أن نيوتن صحّح فيزياء أرسطو، ثم صحّح أينشتاين جاذبية نيوتن، ثم صحّح فيرنر هايزنبيرغ يقينية أينشتاين. إن طرح الأسئلة والتشكيك في المسلمات هما أهم علامات الفضول. لذلك نجد أن الأسئلة عادة ما تكون مسؤولة عن التقدم البشري وتطور التكنولوجيا، وهذه الأسئلة تأتي إجاباتها إما في شكل رواية أو اكتشاف طبي أو رسمة أو أداة تقنية متقدمة.

كبشر، نحن نميل لمنح لقب العبقرية لأولئك الأفراد الذين يأتون بمنطق من رحم الفوضى، فبإمكانهم التعامل مع عشوائية الحياة وأن يخلقوا من قلبها الفوضوي بنية تضيء للبقية الدرب. لكن قبل أن يدركوا ما هي الفوضى وما هو المنطق، كان هناك فضول حرك رغبتهم في التساؤل وفهم غموض تلك الفوضى.

لذا كان من المهم معرفة الفضول وتعريفه وتصنيفه، لأنه سيقدم لنا مدخلًا مهمًا لفهم العبقرية كتعريف وكمفهوم.

* * *

كل البشر فضوليون، وتشير الدراسات إلى أن نسبة وراثة الفضول واكتسابه هي متساوية (50/50)، بمعنى أنه لو لم يرث المرء التركيبة الجينية المُحفزة للفضول، فإنه يظل قادرًا على اكتسابه من محيطه. ونبدأ عادة برؤية آثار هذه الجينات في سن الرابعة، حيث يبدأ استكشاف العالم حوله بعين فضولية بريئة.

كما أشرنا سابقًا، عامل رجال الدين وفلاسفة الماضي الفضول كطُفيل يجلب لعناتٍ على مبتغيه (آدم وحواء، زوجة لوط، بروميثيوس، باندورا، ومقولات الإنجيل والقديس أوغسطين)، ثم رأينا فلاسفة التنوير يعيدون تعريفه على استحياء (رينيه ديكارت وتوماس هوب وإيمانويل كانط).

في عام 1899م، تغيرت الصورة وانتقل الفضول من خانة الموبقات إلى قائمة المحاسن. فنقرأ وصف الفضول على يد لعالم النفس الأمريكي وليام جيمس "حافز للوصول لمعرفة أسمى". وأشار كذلك إلى أنه من وجهة نظر تطويرية داروينية فإن الفضول نشأ ليحرض الكائنات الحية على الاستكشاف بيئاتهم. ولعل هذا التعريف كان بداية التحقيق العلمي في شؤون الفضول، إذ نجد بعده سيلًا من الأبحاث العلمية التي حاولت فهم ذلك الدافع.

وفي عام 1915م، نجد سيجموند فرويد يكتب: إن الفضول هو "العطش المعرفي". ولكن هذه التعاريف بالكاد تخدش سطح المفهوم، وليست كافية لفهم طبيعة الفضول وأهميته.

السؤال الأهم هو: ما هو مصدر الفضول؟

عندما نواجه بعض الحقائق التي قد تناقض ما نعرفه أو ما نتخيله أو نتوقعه أو يتعارض مع أحكامنا المسبقة، تنشأ حينها فجوة معرفية، وتضعنا هذه الفجوة في حالة بغيضة وكريهة. في هذه الحالة تتحرك دوافعنا الداخلية للتحقيق والبحث عن إجابات جديدة من شأنها أن تمحو (أو تقلل من) حالة اللايقينية والشعور بالجهل. وفقًا لهذا الرأي، فإن الفضول والسلوك الاستكشافي لا يمثلان أهدافًا في حدّ ذاتهما. بل هما الوسيلة التي نحاول من خلالها تقليل الإحساس بعدم الارتياح الذي تسببه عدم اليقين والارتباك. ووفقًا لرأي العالم النفسي جورج لوينشتاين من جامعة كارنيجي ميلون، فإن الفضول هو "الحرمان المعرفي المُستحث الذي ينشأ من إدراك وجود فجوة في المعرفة والفهم". ببساطة، توافقًا مع نظرية فجوة المعلومات، يشبه الفضول محاولة خدش حكة ذهنية أو فكرية.

يقودنا النص أعلاه لفهم مبدئي لحالة تعرف باسم "الفجوة المعلوماتية". وبطبيعة الحال، فإن الرغبة في محو تلك الفجوة المعلوماتية هي الرغبة في تقليل مستوى اللايقين، وهذا هو السبب الرئيسي وراء الفضول.

وقد تناول عدد من الباحثين في علم النفس وفي علم الأعصاب في السنوات الأخيرة نظرية الفجوة المعلوماتية باهتمام أكبر. على سبيل المثال، أثبتت الدراسات أنه عندما يخوض الأشخاص تجربة غير اعتيادية أو مفاجئة أو مُعقدة، فإن تلك الظروف تضخم حالة الاهتمام بشكل ملحوظ. وقد أظهرت بعض هذه الأبحاث أن الرغبة في التحقيق دامت فقط حتى آمن الأفراد أنهم قد توصلوا (من خلال الوصول والحصول على معلومات جديدة) إلى إجابات تمحو حالة عدم اليقين. يقول لوينشتاين كذلك أن حجم الفجوة التي يشعر بها الناس تعتمد على تقييمهم لعمق معرفتهم الذاتية ومستوى المعلومات المكتسبة والتي تقلل من حالة اللايقين.

فضول القنفذ وفضول الثعلب

من المثير للاهتمام أنه عند دراسة الفضول أن نكتشف أن الفضول (مثل الذكاء) نوعان. ولعل سبر أغواره يساعدنا على فهم ما يجعل المرء مفاهيميًّا أو تجريبيًّا. حتى نتمكن من الوصول إلى فهم أعمق لهذين النوعين،

فإن علينا الاطلاع على أعمال وأبحاث عالم النفس البريطاني الكندي دانيال بيرلاين. فهو يعرف الفضول بتعريف مقارب لتعريف الفجوة المعلوماتية: رد فعل للمحفزات الجديدة التي تولد مشاعر الاهتمام أو اليقين. هذه المشاعر الداخلية تحفز المرء لاستكشاف تلك المحفزات الجديدة من أجل الحصول على معلومات جديدة.

تكمن أهمية عمل بيرلاين في أنه قدم لنا طريقة تمكننا من التمييز بين فضول الفطريين وفضول الحساسين، وكان ذلك في تصنيفه الفضول إلى صنفين: الأول هو ما سماه بالفضول المعرفي، والثاني ما سماه باسم الفضول الإدراكي، والفرق في النوعين هو مصدر المحفّز الذي يولد الفجوة المعلوماتية أو حالة اللايقين.

الفضول الإدراكي، كما يعرَّفه بيرلاين، هو الفضول الذي ينبت في الظروف الجديدة أو المُتطرفة، أي إذا ما واجهنا عناصر جديدة أو غامضة أو محيرة، كما أنه يحفز السلوك الاستكشافي (تخيل إحساس أليس عندما رأت أرنبًا يجري ليتوقف أمامها فجأة ويخرج ساعة من جيبه ثم هرع مسرعًا يركض لينزل من جحرٍ إلى قلب الأرض، ولما لحقت به سقطت في جُحر عميق إلى عالم خيالي فانتازي تسكنه مخلوقات غريبة).

ويخبرنا بيرلاين أن الوجه الآخر من عملة الفضول هو الفضول المعرفي، وهو الرغبة في المعرفة ("الشهية للمعرفة" كما قال كانط). هذا الفضول هو المحرك الرئيسي لجميع البحوث العلمية والتحقيقات الفلسفية، وهي رغبة لفهم النظريات العلمية والأفكار التجريدية والمعضلات المفاهيمية والثغرات المعرفية. ويخبرنا بيرلاين أن الفضول المعرفي يهدف إلى اكتساب معلومات قد تمحي الشك القائم حولها، ما يقود الفضولي لطرح الأسئلة أو اختبار الفرضيات من أجل اكتساب تلك المعرفة. (تخيل شعور الدكتور يوهان فاوست عندما بدأ سعيه لاكتشاف الجوهر الحقيقي للحياة. فتنقل بين اللاهوت والرياضيات والكيمياء، حتى اكتشف طريقة لاستدعاء سفير لوسيفر وقايض روحه معه ليحصل على كنوز المعرفة).

على حد علمنا، فإن العلم لم يربط بين مفاهيم بيرلاين عن الفضول ومفاهيم جالنسون عن العبقرية (أو حتى الذكاء السائل والذكاء البلوري، رغم أن بإمكاننا القول أن المرء يحتاج ذكاء سائلا لمعالجة مسائل الفضول المعرفي، بينما يتطلب حل مسائل الفضول الإدراكي ذكاءً بلوريًّا بحيث يجمع المرء أكبر عدد من الأدلة الحسية حتى يصل إلى إجابات كافية، وما زلنا لا نعرف إذا حدث تقاطع لدى شخص بين الذكاء البلوري والفضول المعرفي، أو الحالة الأخرى، إذا تقاطع لدى شخص بين الذكاء السائل والفضول الإدراكي).

إن تصنيف بيرلاين لعناصر الفضول (الرغبة في المعرفة ومحفزات الاستكشاف) يتوافق مع ما وصفه جالنسون لنوعي العبقرية (المفاهيمي الذي يتعامل مع النظريات والأفكار، والتجريبي الذي يتعامل مع المحفزات البيئية حوله).

لنطلع على بعض الأمثلة حتى نفهم الفئتين بصورة أعمق.

مصدر فضول أينشتاين كان معرفيًّا بحتًا، إذ يقول "المخيلة أكثر أهمية من الحقائق" وتجلّى ذلك بوضوح من خلال أعماله التجريدية النظرية (وهو ما يتوافق مع مفهومنا للذكاء السائل). فعندما كان مراهقًا، تساءل أينشتاين عن كيف سيبدو له الكون إذا سافر على دراجة بسرعة الضوء، وقضى العشر سنوات التالية يحاول الإجابة عن هذا السؤال.

أما داروين فقد كان النقيض. بعكس أينشتاين، لم يتمتع داروين بمخيلة خصبة أو القدرة على تطوير أفكار نظرية تجريدية، وقد كان مدركًا لذلك إذ كتب في سيرته الذاتية: "قدرتي على تتبع الأفكار المُجردة محدود للغاية؛ وبالتالي لم يكن بإمكاني النجاح مع الميتافيزيقيا أو الرياضيات" لذلك التفت داروين إلى الطبيعة لتزويده بالأدلة والمعرفة (وهو ما يتوافق مع مفهومنا للذكاء المتبلور)، فقد اشتهر عنه منذ طفولته أنه كان مُهتمًا بجمع الخنافس وعددٍ من الكائنات الحية الطليقة، تطور ذلك الشغف في حياته كنتيجة للقائه بعددٍ من الأكاديميين في مجال العلوم الطبيعية. وينسب داروين فضلًا كبيرًا لقدرته على الصبر في تتبع الحقائق فيقول "أعتقد أني تفوقت من بين الرجال في ملاحظة الأشياء التي تفلت من الانتباه بسهولة، وفي التأمل فيها بعناية". وينسب فضلًا خاصًّا لرحلة البيجل في عام 1836م. قرب نهاية تلك الرحلة، دوّن داروين ما يقارب ألفين وخمسمائة ورقة، وجمع أكثر من ألف وخمسمائة فصيلة، وكذلك جمع أربعة آلاف عينة عظمية أو جلدية لحيوانات، وقد كرس حياته لدراسة ما تعلمه (أو بالأحرى اكتشفه) في تلك الرحلة.

الحلقة المفقودة

إن الذكاء والفضول هما متطلبان بيولوجيان (ومكتسبان) رئيسيان في بنية أي عبقري، وهناك عدة عوامل بيئية تؤثر في إمكانية تفعيل هاتين الثروتين، وربما زيادة مستواهما لدى الشخص. لكن إذا كنا جميعًا نملك درجات متفاوتة من الذكاء والفضول، لماذا نجد البعض يستجيب لمشاكل الحياة بينما يهملها الآخرون؟ عندما بلغ سندهارتا (الذي أصبح لاحقًا بوذا) التاسعة من عمره سمح له والده بالخروج من قصره للاحتفال بعيد الزراعة السنوي، وقد أتاح له ذلك فرصة مشاهدة كفاح الفلاحين وجهدهم في العمل وهو أمر لم

يعتد رؤيته في القصر، حيث يعيش الجميع في سعادة ورغد. حينذاك تحرك فضوله وبدأت تساؤلاته. وقد لاحظ أبوه ما أصابه من يأس فأمر له بالمزيد من المحظيات الحسناوات ليصرف فكره عن ذلك. وأمره بعدم تجاوز حدود القصر بعد ذلك، إلا أن بوذا عصى الأمر مرتين متتاليتين، وتوطد في صدره ما ابتغاه وهجر القصر بعدها ليبدأ رحلة البشارة والتنوير. بالتأكيد لعب الفضول عاملًا مهمًّا في قرار بوذا ليستكشف العالم خارج عالمه، لكن هناك عاملًا داخليًّا حيويًّا كان بإمكانه أن يدفن فضوله ورؤيته ويمنع تفاقمهما. ذلك العامل هو القبولية، وما نعنيه بالقبولية هنا هو عدم رفض فكرة أو مبدأ دون تفحصه واختباره، وعدم تجاهل ذلك الفضول لأسباب غير مقنعة. لو كان البوذا شخصًا متحفظًا، فذلك يعني أنه يرفض، إلى درجة ما، التجديد وما هو جديد. لكن البوذا كان شخصًا قبوليًّا، فهو كان مستعدًّا للتعرف على ما هو جديد، وإذا رأى فيها حسنًا اتبعه، وإذا رأى فيه بأسًا تفاداه ببساطة. كل مجدد في تاريخ البشرية هو بالضرورة شخص قبولي.

إن الإبداع (وبالتالي العبقرية) بحاجة للذكاء والفضول لاستكشاف ما هو جديد أو لرفض المسلمات ثم العمل بهما، لكن القبولية هي المظلة التي تسمح للفضول بالتنفس، وتسمح للشخص الذكي بتتبع فضوله حتى لو كان يخالف مسلماته.

* * *

حتى نفهم القبولية أكثر، يجب أن نتعرف إلى أحد مبادئ علم النفس: نظرية "عناصر الشخصية الخمسة الكبرى"، وهي دراسة الصفات المشتركة والمتفاوتة بين البشر، وتحديد ميول الأفراد من خلالها. وقد بدأ العلماء تدارسها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وهذا العمل هو نتيجة تراكم عدة نظريات على مدى عدة عقود. وتوصل العلماء في البداية إلى وجود ستة عشر سمة شخصية تتشاركها البشرية. ثم تلاهم جيل ارتأى علماؤه أن السمات الست عشرة كثيرة ولا تمدنا بصورة واضحة حول الشخصية، وبعد عدة دراسات والمزيد من البيانات تمكنوا من ربط عناصر جديدة ودمجها واختزالها إلى خمس سمات أساسية بدلًا من الست عشرة سمة. وتلك السمات الخمس هي:

- العُصابية (مضادها الاستقرار العاطفي)،
- الاجتماعية (مضادها الانطواء)،

- القبولية (مضادها التزمت)،
- الانضباط (مضادها التوهان)،
- الوداعة (مضادها التمرد) [16].

العنصر الذي يسمح للفضول بالتحليق والتعمق (وكنتيجة يقود لخلق الإبداع) هو "القبولية" (سابقًا عُرفت بأسماء مثل "الثقافة" و"التفكير" و"العقلية الإبداعية")، وهي تقيس درجة فضول الشخص ورغبته بالاكتشاف، واستعداده لسماع الجديد والغريب (سواء كانت تجارب وأنشطة، أو أفكارًا ومفاهيم)، ومدى تقديره للفن والإبداع. والشخص الذي يتحلى بهذا العنصر لديه حس فضولي وعلى الأرجح تفكير إبداعي، ولديه قابلية لتقبل التغيير، وتكون مُخيلته نشيطة. وعادة ما يختبر علماء النفس فضول المرء وقبوليته بإخضاعه للاختبار الشهير: "التفكير التشعبي". وأحد أشهر أمثلة هذا النوع من التفكير هو المثال التالي: "اكتب قائمة بكل الاستعمالات المُمكنة لقطعة قرميد في ثلاث دقائق".

وكلما تعددت وتنوعت الإجابات، كانت دلالة على قدرة الفرد الإبداعية. أسئلة التفكير التشعبي لها إجابات متعددة ومختلفة، وهي ليست محددة أو محدودة، كما أنه لا توجد إجابة صحيحة إنما فقط فريدة، وبالإمكان إطلاق العنان للمخيلة لتقديم أكبر قدر من الأجوبة المختلفة. ويتم تقييم الإجابة بناء على ثلاثة مؤشرات: الطلاقة والأصالة والمرونة. الطلاقة هي العدد الإجمالي للإجابات المُقدمة. أما الأصالة فتشير إلى جودة وفرادة الإجابات الصحيحة، أما المرونة فتمثل تنوع الفئات المفاهيمية في الإجابات.

يتنبأ عنصر القبولية بطريقة تعامل المرء مع الأفكار الجديدة، فأولئك الأقرب للانفتاح تكون حياتهم خلاقة وإنتاجية (سواء في الفنون أو العلوم)، فهم يستمعون إلى أسئلة فضولهم ويتجاوبون معها حتى لو خالفت مسلماتهم الشخصية وما آمن به السابقون، أما أولئك الذين يكونون في الطرف الآخر من المعادلة، فأولئك متحفظون يتوجسون، ويعاملون فضولهم بحذر، وذلك لا يعني أن أيًّا من الطرفين إيجابي أو سلبي، إنما هي طريقة علمية نستخدمها لمعرفة ما يجمع بين الفنانين والعلماء وما يجعلهم مختلفين عن البقية.

وقد أجمعت عدة دراسات على قوة العلاقة بين الذكاء والفضول والإبداع وعنصر القبولية سواء الفنون البصرية، والأدب، والحرف، والعروض،

والموسيقى، والرياضيات/العلوم والموسيقى (بعكس باقي عناصر الشخصية الأربعة).

* * *

لقد اقترح رايموند كاتل (عالم النفس الذي عَرَّفَنَا عَلَى نَوْعَيْ الذكاء) أن الصفات الشخصية لديها القدرة على التأثير في الشخص لتنمية رغبته في استكشاف علوم جديدة (لم تكن السمات الخمس معروفة آنذاك)، وبالتحديد على الذكاء المتبلور. وجدت شريحة أخرى من العلماء علاقة إيجابية (وإن كانت ضعيفة) بين الذكاء المتبلور وأبعاد القبولية في الخيال، الجمال، الأفكار والقيم. أما قبول التجارب الجديدة فله علاقة قوية بالذكاء المتبلور. وفي الوقت نفسه، يعد وجود عنصر القبولية للخبرات والأفكار الجديدة لدى الفرد مُؤشرًا ممتازًا على وجود الذكاء السائل، والعكس صحيح، فالإنسان الذكي عادة ما يكون لديه فضول يدفعه لاكتشاف أفكار وخبرات جديدة. وذلك يقودنا إلى الاستنتاج أن المرء الذي يتحلى بذكاء عالٍ وشخصية قبولية لديه شخصية ناجحة، إذ أن معظم الخبرات التي يخوضها ينجح فيها بفضل ذكائه. وبإمكاننا تخيل العكس كذلك، فلو كان ذكاء المرء لا يؤهله للنجاح في استكشاف التجارب والأفكار الجديدة، وإذا تكررت حالة الفشل عدة مرات، فإن المرء على الأرجح سيتجنب التجارب والأفكار الجديدة حتى لا يواتيه شعور بالغباء.

* * *

كما أشرنا سابقًا، كل أولئك الفلاسفة والعلماء والمفكرين الذين ناقشوا الفرق بين العبقري المفاهيمي والعبقري التجريبي تحدثوا فقط عن سلوكياتهم وأسلوبهم الفكري والفرق بين إنجازاتهم، ولم نجد أحدًا يسعى لفهم العوامل التي تقود المرء ليكون مفاهيميًّا أو تجريبيًّا، وقد سعينا في الصفحات السابقة للبحث عن علاقة قد تروي فضولنا.

لكن الرحلة لا تنتهي هنا، فربما كان الذكاء والفضول هما الصفتان الرئيسيتان لفهم سلوك العباقرة، إلا أنهما غاية في الحساسية، ونرى أفرادًا كثيرين حولنا لا يستثمرون في تينك الصفتين، وذلك يدفعنا للتساؤل عن سبب ذلك. في الصفحات التالية من الكتاب سنحاول معرفة السبب.

الباب الثالث

رحلة العبقري

"سيكون الأمر ذاته على الدوام: القصة دائمًا ما تكون واحدة، مختلفة في ظاهرها إلا أنها ثابتة في جوهرها، وتكون دائمًا مصحوبة بتجربة لم نعرفها أو نعبر عنها بعد بشكل حاسم".

عالم الميثولوجيا جوزيف كامبل

كتاب "البطل ذو الألف وجه"

مبدأ آنا كارنينا

منحتنا الروايات الكلاسيكية على مر القرون افتتاحيات فريدة جدًّا لدرجة أنها حظيت بشهرة تقارب شهرة العمل نفسه. فعندما يسمع أحدنا مقولة "مَاتَت الْيَوْم أُمِّي، أَوْ رُبَّمَا مَاتَت يَوْم أَمْسِ..." فسيعرف فورًا أنَّها السطر الافتتاحي لرواية "الغريب" للكاتب الفرنسي الجزائري ألبير كامو. مقولة أخرى حازت على الشهرة نفسها في كلماتها الأولى من رواية "موبي ديك" العظيمة: "سمُّوني إسماعيل". وقد يُصاب القارئ بامتعاض عند قراءة السطور الافتتاحية التالية: "لوليتا يا ضوء حياتي... أيتها النار المتوقدة في عروقي... لوليتا يا خطيئتيي... يا من تهزجت روحي باسمك..." إذا ما علم أن كاتب هذه الأسطر (الشخصية الرئيسية في الرواية) هو عجوز في الخمسين من عمره وقد كتبها لفتاة في الثانية عشرة من عمرها!

لكن تظل السطور التي افتتح بها المؤلف الروسي ليو تولستوي روايته الخالدة "آنا كارنينا" من أهمها: "جميع الأُسر السعيدة تتشابه، لكن كل أسرة تعيسة هي تعيسة على طريقتها الخاصة".

يبدأ تولستوي عمله الملحمي بهذه السطور ليصف التمزُّق الروحي في العائلات والشخصيات المعقدة التي ظهرت لنا بين صفحات روايته. وهي قصة تلك الزوجة المكلومة المندفعة بعواطفها حتى الجنون، وهي ذاتها أم شابة مُتقدة بالحنان ومشاعرها الجياشة، والتي ألقت بنفسها تحت عجلات القطار، منهية بذلك بحركة رمزية مأساة ضياعها وتشتت روحها.

قام العديد من العلماء من شتَّى المجالات بدراسة هذه الأسطر وافرة المعاني وعلاقتها بالرواية، وتوصلوا إلى ما يقصده المؤلف الروسي، وهو أنَّ هنالك متطلَّبات واضحة (وشبه محصورة) لسعادة أي عائلة، مثل العاطفة المتبادلة وصحة أفرادها ووضعها الاقتصادي وأمانها الاجتماعي والسياسي، والاتفاق على الأمور المالية، وتربية الأطفال، والدين والأرحام، بينما تفتقر العائلات الشقية إلى عامل واحد (أو أكثر) من هذه العوامل، لذلك تختلف

العائلات الشقية بسبب تعدُّد أسباب الشقاء. وهذا يعني بالضرورة أن السعادة هي مهمَّة صعبة وتتطلب الكثير من الجهد، وعوامل متعددة. والأهم من ذلك: بعض تلك العوامل تحت تصرفنا، وبعضها خارج قدرتنا.

إن عمق معاني هذه الافتتاحية جعلها تتجاوز الإطار الأدبي الذي ولدت منه إلى مناهج أخرى مثل علم الإحصاء وعلم الإجتماع. وكان أحد أوائل أولئك الذين طوعوا مبدأ آنا كارنينا لشرح نظرياتهم هو المؤلف جارد دايموند في كتابه "أَسْلِحَة، جَراثِيم وَفُولاذ" ويستخدمها لنقاش أسباب فشل تهجين الحيوانات. بل إنه يطور نسخته الخاصة من افتتاحية تولستوي: "جميع الحيوانات القابلة للتدجين تتشابه، أما كل الحيوانات غير القابلة للتدجين، فكل منها غير قابل للتدجين بطريقته الخاصة". وكما وضع تولستوي شروطًا لنجاح الزواج، يضع دايموند شروطًا لنجاح عملية تهجين الحيوان وعن ذلك يقول: "يأتي الجواب من مبدأ آنا كارنينا، فكي يتم التدجين على المرشح من الحيوانات البرية أن يمتلك مميزات مختلفة، لو نقصت واحدة منها لقضي بالإخفاق على جهود التدجين، تمامًا مثلما يقضي النقص على الزواج السعيد".

* * *

في هذا الباب، سنناقش ونشرح رحلة العبقرية في إطار كارنيني. وبذلك نعني أن نتعرف إلى تلك الأعمدة التي يقف عليها معمار العبقري. فكما رأينا سابقًا، تضاربت التعاريف والمسميات حول العبقرية، وقد خصّصنا بعض الوقت لنفي الخرافات والمسلّمات.

في الفصول السابقة، قمنا بدراسة العوامل الموروثة ودور البيئة في التأثير عليها (الذكاء والفضول والقبولية). أما في هذا الجزء من الكتاب، سندرس العوامل المهمة لحماية هذه الهبات الجينية، بينما في نفس الوقت سننظر في تلك العوامل التي تمكن من المرء من التفوق حتى لو لم تكن هباته الجينية متميزة أو استثنائية. سنفعل ذلك من خلال دراسة البيئة التي ينشأ فيها أولئك الذين اصطلحنا على تسميتهم العباقرة والبحث عن أنماط مشتركة بينهم في تلك الشروط التي يجب أن يستوفيها المرء ليصبح عبقريًّا.

وهذا يذكِّرنا بما فعله المؤلِّف الموسوعي جوزيف كامبل في كتابه الكلاسيكي: "البطل ذو الألف الوجه (رحلة البطل)". حيث كشف لنا عن البنية التحتية لكل قصَّة وأسطورة للأبطال عبر التاريخ (من شمال الأرض إلى جنوبها ومن غربها إلى شرقها، في المجتمعات البدائية أو المدنية) وتقصَّى تلك الأساسيات التي تناقش رحلة البطل، والخيوط المحيطة بأساطير الأبطال ليكتشف أنها تُنسج من النَّسيج ذاته!

لقد خط لنا كامبل الخطوات التي خطاها أولئك الأبطال (سواءً كان ذلك البطل أسطوريًّا مثل جلجامش أو هرقل أو سيزيف أو رمزًا دينيًّا مثل بوذا ومِثرا أو يسوع) وذكر أنَّه سواءً كان البطل كوميديًّا أو تراجيديًّا أو إغريقيًّا أو بربريًّا أو ملحدًا أو مؤمنًا فإنَّ الملامح الجوهرية لمغامرته قد تتباين قليلًا لكن في نهاية المطاف تسلك طريقًا واحدًا. حيث وصف كامبل ذلك بالنَّواة الموحَّدة لرحلة البطل وكتب عنها: "يترك البطل عالم الحياة اليومية ويفتّش عن مجال المعجزة ما فوق الطبيعية، فإذا ما تغلّب على قوى هائلة وأحرز نصرًا حاسمًا عاد من رحلته المليئة بالأسرار ليزود بني البشر من جنسه بالنعم والبركات".

وأثناء تصوُّرنا للبطل يأتي في مخيلتنا بعضلات متنافرة وشغفٍ بركاني وعنفوان متفجر، ما يجعله يقتحم المخاطر بصدره العاري ويذبح الوحش لينقذ شعبه! فنرى جلجامش ملكًا ظالمًا فتخلّق الإله المقاتل الصنديد أنكيدو لمعاداته. لكن بعد نزال ينتصر به جلجامش يصبحا صديقين في رحلة البحث عن الخلود ليدرك بنهاية المطاف أن الخلود بالأعمال لا بالأعمار. أو نرى بروميثيوس وهو يسرق النار من جبل الأوليمب ويعطي للبشر قبسًا منها رغم تحذير الآلهة. أو أوزوريس الإله الفرعوني المغدور وهو يعود من الموت لينتقم من أخيه ست ويعتلي العرش.

إلا أننا خلال مطالعتنا لسردنا لقصص العباقرة، نعلم أن هذا النوع من السرد المختزل لا يخبرنا بالقصة كاملة، بل هو مُضلِّل كذلك. وقد رأينا معنى مضار السرد الرومانسي الذي يشابه النَّصَّ المختزل الذي كتبه كامبل أعلاه.

على سبيل المثال، تظلُّ قصَّة النازح الألماني ألبرت أينشتاين حتى يومنا الحاضر من أهمِّ المصادر الملهمة لمن تعثرت سُبلهم أو دروبهم في الحياة. واستمرَّ منبعًا لكثير من النقاشات والجدل خلال حياته وبعد مماته. إن الشهرة التي اكتسبها أينشتاين كعبقري القرن العشرين تتخطَّى المعتاد، ففي يومنا وعصرنا أصبح اسمه مرادفًا للعبقرية. مجرد ذكر اسمه أو رؤية صورته تلهمنا أفكارًا عديدة عن النبوغ والعبقرية، بل إنَّه صار دارجًا في حواراتنا أن نصف شخصًا نابغًا في العلوم بأنَّه "أينشتاين" مثلما نصف شاعرًا بأنه "الفرزدق" أو رسامًا بأنَّه "دافنشي" أو كاتبًا بأنه "شكسبير". كما أصبحت أقواله شائعة ومتداولة، وصرنا نطبعها على القمصان ونزيِّن بها مكاتبنا. وأصبحنا مُولعين بتفاصيل حياته الصغيرة مثل شرود ذهنه وإبحاره في مركبه الصغير وعدم ارتداء جورب وشعره المبعثر وعزفه على الكمان.

لنقرأ قصته كما يرويها المؤلف سعد سعود في كتابه "كيف أصبحوا عظماء": **"لم يبدأ ألبرت أينشتاين بالكلام حتى سن الرابعة [17]، ولم يبدأ تعلُّم القراءة إلا في سن السابعة، وعندما استشار والده ناظر المدرسة بخصوص العمل المستقبلي الذي عليه توجيه ابنه له، قال له الناظر: لا تهتم، فلن يفلح هذا الغلام في شيء! بل تمَّ طرده من المدرسة بعد أن وصفه أساتذته أنَّه من بطيئي التعلم.**

> **ولما كان عمره 18 عامًا رسب في اختبار القبول لكلية الهندسة لأنَّه لم يُظهر أي موهبة كما قال من اختبره. ومع ذلك أكمل تعليمه في سويسرا بدراسة استمرَّت أربع سنوات في الفيزياء والرياضيات، ثمَّ حاول أن يجد عملًا في التدريس. ولكنَّه لم يجد من يوظفه، ولذلك عمل موظفًا في مكتب براءة الاختراع السويسري، وأثناء عمله هناك حصل على الدكتوراه من جامعة زيورخ. وتمضي الأيام لينشر أينشتاين عشرة بحوث علمية كاملة، ولم يكن قد تجاوز السادسة والعشرين! [18].**
>
> **كما حصل على أثمن جائزة علمية، فحصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1921 م، وذلك بعد تفسيره لنتائج تجارب التأثير الكهروضوئي. وفي عام 1956م عُرضت عليه رئاسة إسرائيل بعد وفاة رئيسها السابق وايزمان.**
>
> **أَوَلا زلتم تعتبرون أينشتاين من بطيئي التعلُّم؟ أم أنَّكم أنتم من كنتم بطيئي التعلُّم؟".**

كان والده هيرمان أينشتاين رجل أعمال مفلس اضطرَّ أن يهاجر مع أهله من ألمانيا إلى إيطاليا حيث عانوا مع أبسط الحقوق الإنسانية. ثمَّ هاجر أينشتاين المراهق إلى سويسرا حتَّى واصل تعليمه وملاحقة حلمه في أن ينتمي إلى مؤسَّسة أكاديمية وعلمية، لكن آماله تحطَّمت بعدما تمَّ رفضه. وكتب لعائلته أنهَّ تمنى لو لم يولد حتى لا تُحرَج عائلته من فشله. وبعد وفاة والده غرق الشاب في حزن عميق مؤمنًا أن والده مات معتقدًا أنَّ ابنه كان فاشلًا. وقد لاحقه هذا الشبح حتى عندما تغيرت الأمور في عشريناته وكتب أهم أوراقه العلمية والتي غيرت وجه الفيزياء، إذ قال عن نفسه إثر حصوله على شهادة الدكتوراه أنه "لم يتوقع أحد أن أكون الدَّجاجة التي تبيض ذهبًا!".

آمل أن يعلم القارئ الآن (بعد أن اطّلع على الحجج التي وردت في جزء من معضلة السرد) أنه لا يجوز لنا قراءة قصص العباقرة المختزلة، وأن علينا التحقيق في تفاصيلها أكثر حتى نتحرّى صدقها. إن السطور أعلاه لقصة أينشتاين نموذج من ترسبات العقل الرومانسي ورغبتنا في إسقاط فكرة الشهيد على العبقري، وذلك ما حذرنا منه نيتشه، وتتوافق مع نموذج أركتايب المخلص (الرفض، التكفير، الصلب، ثم الانتصار).

لقد اختزلنا قصص العباقرة. لكن الحقيقة أن قصصهم أكثر تعقيدًا مما نعتقد، وأن هذا النوع من الاختزال والتحوير في السرد له عواقب وخيمة على فهمنا لهم، فأصبحنا نؤمن أن مصدر العبقرية هو "شعاع مُبارك يُوحى من السماء" كما أشار نيتشه مبكرًا. لكن عند التحقيق في قصص العباقرة، نكتشف مثلًا أن ألبرت أينشتاين لم يكن طالبًا فاشلًا في المدرسة، بل كان متفوقًا، وقد سخر هو نفسه من هذا الشائعة منذ أن كان حيًّا يرزق يمارس التدريس في جامعة برنستون. للأسف تستمر شائعة كون أينشتاين طالبًا فاشلًا حتى يومنا الحاضر. من المفارقات المضحكة أنَّه في عام 1935م، عندما كان أينشتاين محاضرًا في جامعة برنستون أتاه أحد زملائه بمقال عنوانه: "أعظم الرياضيين يرسب في الرياضيات"، فضحك أينشتاين قائلًا: "لم أرسب قط في الرياضيات، وقد أتقنت حساب التفاضل والتكامل قبل أن أبلغ سن الخامسة عشرة". لكننا نفضل أن نعتقد أنه مثل المخلصين الذين يغشاهم إلهام سماوي يغير حالهم وينير عقولهم ودربهم. بل إنه عبر حياته، وبسبل مختلفة، استفاد كثيرًا من حظ وفير وفرص متنوعة لم تتح لغيره، أو كما أشار الروائي فيتزجيرالد: هي مزايا أُتيحت للبعض لكنها لم تتح لكل الناس، وسنتعمق في دراسة هذا النوع من المزايا بعد قليل.

* * *

لنعاود قراءة نص جوزيف كامبل عن البطل والذي ذكرناه قبل قليل. إنه نصٌّ مختزل وباطل، وفي كتابه المهم "البطل ذو الألف وجه" يخبرنا كامبل أن قصص الأبطال (سواء كانت متخيَّلة أو حقيقيةً) هي أكثر تعقيدًا مما نعتقد. فبعد أن طوَّع أدوات الفلسفة والتَّحليل النفسي وعلم الأسطورة المقارن، قام بتفكيك القصص الأسطورية ليصل إلى النَّسيج الذي حيكت منه جميع قصص الأبطال. هذه العناصر موجودة بدرجات متفاوتة في قصة أي بطل، مما يجعلنا ندرك أنَّ جوزيف كامبل قدَّم لنا قصَّة إنسانية واحدة متكرِّرة عبر الزمان والمكان.

ومثلما أدرك كامبل أن رحلة البطل هي أكثر تعقيدًا من أن تُختزل بشكل سطحي وساذج، علينا أن ندرك كذلك أن قصص العباقرة لا يمكن اختزالها كذلك.

* * *

في الصفحات القادمة، سنتعرف إلى تلك العوامل التي تتشاركها سير العبقرية، وربما يكون الوصف الأفضل والأكثر تحديدًا هو أن نقول: رحلة الفضول والذكاء. فكما أشرنا سابقًا، إن هذين العاملين هما أهم سمتين

للعباقرة، إلا أنهما بدون عامل القبولية، فإنهما لن يبحرا بالمرء إلى استكشاف عوالم جديدة. فلولا الفضول، لما أتى الشغف. وأولئك الذين كرّسوا حياتهم لشغف معين، هم في الحقيقة بدأوا حياتهم بالسعي للإجابة على الأسئلة التي أثارت فضولهم أو التعبير عنها، وأولئك الذين نجحوا في مسعاهم أو قاربوا أصبحوا خالدين في وعي الذاكرة البشرية. ولولا الذكاء، لعانى المرء مع فضوله.

إلا أن الفضول والذكاء هما عنصران بشريان حساسان ورهيفان، وبدون رعايتهما بالطريقة الصحيحة، فإنه لن يفيد المرء كثيرًا أن يكون لديه أعلى معدل ذكاء بشري، وسنفهم أسباب ذلك. أما إذا لم تحصل إحدى هاتين السمتين على الرعاية الكافية، فقد يفقدهما المرء، وإذا حاول إحياء إحداهما أو كلتيهما، فإنه سيعاني في سبيل ذلك، كما سنرى في القصص القادمة. ومن خلال دراسة هذه القصص، نكتشف أن الفضول يمر بثلاث مراحل مهمة حتى يأتي المرء بإنجازات عظيمة:

- ما قبل الشغف (أو ميلاد الفضول): يختص هذا الجزء بنقاش العوامل النفسية المهمة لبنية الفضول وحمايته.

- تطوير الشغف (أو مجتمع الفضول): في هذا الجزء، نناقش تخصص المرء في فضوله والتوسع فيه، والدوائر المجتمعية التي يحتاجها لإنجاز ذلك.

- إتقان الشغف (أو نضوج الفضول): يخبرنا هذا الجزء عن الجهد (أو الاستثمار) المطلوب من المرء لإتقان حرفته والإبداع فيها.

تهدف الفصول المقبلة إلى تأكيد أن جميع العباقرة يتشابهون في دربهم، لكن كل شخص فشل في الوصول للعبقرية، فإنه فشل بطريقته الخاصَّة. لكن هذا التحذير ليس كافيًا، إذ وجب علينا الإشارة، قبل خوض هذه الرحلة، إلى أنه ليس كل من تحلّى بهذه الخصائص والمزايا والسمات فإنه سيكتب له أن يكون عبقريًّا. فكما أشرنا سابقًا، إن اللقب يُمنح، ولا يُكتسب، لكنه يُمنح فقط بعد أن يكون المرء قد خاض ما يجب خوضه وعانى ما يجب معاناته، وقد لخص العهد الجديد هذه الحقيقة في الآية التي كتبها القِدِّيس مَتَى: "لأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُخَتارونَ".

الجزء الأول

ما قبل الشغف

السراب (أو العقبة الأولى)

"أولادكم ليسوا لكم.

أولادكم أبناء الحياة المشتاقة إلى نفسها،

بكم يأتون إلى العالم، ولكن ليس منكم.

ومع أنهم يعيشون معكم، فهم ليسوا ملكًا لكم.

أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبّتكم،

ولكنكم لا تستطيعون غرس بذور أفكاركم فيهم، لأن لهم أفكارًا خاصّة بهم".

جبران خليل جبران

كتاب "النبي"، 1923

الاكتفاء الذاتي

في أحد أعماله الأدبية الأقل شهرة، يكتب الأديب المصري نجيب محفوظ في عام 1948م رواية نفسية (كما وصفها المؤلف نفسه) باسم "السراب". فيها، تعاني الشخصية الرئيسية، كامل رؤبة لاظ، من مشاكل نفسية بدأت منذ طفولته، أو لحظة طلاق أبيه من أمه وهجره لهما، فنشأ كامل في كنف أمه بدلًا من أبٍ وأم، فكانت مسؤولية التربية بالكامل على عاتق أمه التي أصابتها بارانويا من طليقها، الذي كان سكيرًا عربيدًا وثريًّا وقد أثّر بشقيقي كامل (مدحت وراضية) وأبعدهما عن الأم وكامل ليعيشا معه نظرًا لتجاوزهما سن التاسعة وهي السن القانونية التي يحق فيها للأب ضم أبنائه إليه، فلم يعرفهما كامل حتى نضج وكبر (ربما تكون كلمة "نضج" غير مناسبة كما سنرى بعد قليل)، وهذه الحقيقة (أنه قد يحوز الأب الوصاية على كامل بعد سن التاسعة) أثارت رعبًا وهلعًا في صدر أمه فحرصت على حمايته في

مشاعره وأفكاره ودائرته الاجتماعية، فكانت له الأم بمثابة الأب والصديق والمعلم والطبيب والمحامي والوكيل. وعى كامل على الدنيا ليجد نفسه في بيت جده لأمه والذي كان أميرلاي سابقًا في الجيش المصري. ذعر أمه عليه عزل كامل عن العالم، فقد تكفلت بكمال المهام وأغدقت عليه الكثير من العناية والحرص والاهتمام، وأفرطت في تدليله حتى نشأ خجولًا ومعزولًا عن الآخرين بشكل لافت للنظر، ينشأ ذلك في نفس الابن كرهًا وذعرًا لكل ما هو حوله، ونرى ذلك في كراهيته للتعليم والدراسة، ومع ذلك يستمر فيهما بإلحاح من جده الذي لطالما حلم برؤيته ضابطًا بالجيش المصري مثلما كان هو. تدور الأحداث كي يبقى كامل بمعجزة مع أمه حتى ينهي دراسة البكالوريا بعد معاناة شديدة.

وسرعان ما يدق الحب أبواب قلبه فيغرم بفتاة يراها على رصيف المحطة ويتبعها بنظراته شهرًا تلو شهر دون أن يملك الجرأة الكافية للتحدث معها، وكيف لا وهو الطفل المدلل الذي ظل طوال عمره في المنزل لخوف أمه عليه، ولم يختلط بالناس وسرعان ما انتقل من ظل أمه وجده إلى عالم آخر تستحوذ فيه حبيبته على لب عقله وكيانه وتملأ عليه الدنيا كلها. إلا أن القارئ يتنبأ بالمشاكل التي سيخوضها الابن عاطفيًّا، فقد كان يتشارك أمه السرير حتى سن الخامسة والعشرين.

من خلال حياة كامل رؤبة لاظ، يظهر لنا نجيب محفوظ الشرخ النفسي الذي يصيب المرء وذكاءه وطموحه وحياته إذا ما تلقى هذا النوع من الضرر النفسي (الطريق إلى الجحيم تحفه النوايا الحسنة)، فحينها يصيبه شلل عميق يعوقه عن التقدم والتفوق والنجاح ويبقيه متقهقرًا ضعيفًا خاملًا يعجز عن مواجهة العالم ومواكبته.

قد يكون نجيب محفوظ يصف خليطًا بين حالتين نفسيتين يصفهما عالم النفس سيجموند فرويد، الأولى باسم "عقدة أوديب" (تقابلها "عقدة إليكترا" لدى البنات) والثانية باسم "عقدة الخصيان". وكلاهما يصف ما يصيب ذهن الابن إذ يظلُّ رهينة مخاوف التربية المبكرة، فيعجز عن تجاوز ذاكرة الطفولة المبكرة وارتباطاتها (أو عقباتها) العاطفية. وفي الغالب إن تجاوز تلك العقبة صعب جدًّا. وقد يظل المرء حبيسًا لها، وتظل هذه الذات أسيرة جدران الطفولة، تُعيقه عن الانطلاق في الحياة، فكل طفل يحتاج إذن والده ليعبر إلى بوابة الرجولة، ويخبرنا فرويد أنه في عقدة الخِصاء، يحرس الأب والأم (وخشية العقوبة) بوابة النضج والبلوغ، وإذا فشل الطفل بتجاوزها، فإنه يظل رهين تلك المرحلة ذهنيًّا أو/و عاطفيًّا.

هذا النوع من هيمنة الوالدين (أو أحدهما) قد يسبِّب شللًا يعيق تقدُّم الطفل ويصعِّب خروجه من جلباب أبيه. بل إنَّ علماء النفس نظروا في سلوك أولئك البالغين الذين عانوا من طفولة مُحبطة، واتَّضح لهم أن الطفل الذي مرَّ بطفولة قاسية كبر ليصبح بليدًا ومُستسلمًا واتكاليًّا، قابعًا في ذيل القافلة تتلاعب به أمواج العالم دون أي مقاومة منه، بينما لاحظوا أن الطفل الذي عاش طفولة سعيدة ومحفِّزة فإنه يصبح فردًا مستقلًّا ومتحكمًا في أمور حياته ومجرياتها. في طيات هذا الفصل، سنتعرف معًا إلى حالات تاريخية حيث فقد الأطفال فيها ذلك الإحساس بالاستقلال والأمان، ما ترك بالغ الأثر في أنفسهم (لكن بدرجات متفاوتة كما سنرى) وجعلهم يتقوقعون ويغرقون في بحر من الاكتئاب والتعاسة وخصيان قريحتهم. إن هذا الإخصاء النفسي له أُسس وأصول في علم النفس حيث شدَّد الأدب النفسي على محورية هذه العلاقة بين الطفل وعائلته وأثرها على نشأته ومستقبله. ومن خلال أمثلة كثيرة، نستنتج أن الطفل الذي حُرم من نشأة مستتبَّة ومُطمئنة يُبتلى بشخصية قلقة ومرتبكة.

ناقش العالم والفيلسوف إرنست بيكر هذه العواقب في كتابه المهم "إنكار الموت" فذكر فيه أن الطفل المحظوظ بنشأة ممتازة صحيًّا وعاطفيًّا يحظى بإحساس مُبكِّر بأهمية ذاته ويشعر بالقوة والأمان ولا يخشى الوحدة، كما أنه يستطيع التحكُّم في قلقه وذعره بشكل أفضل. والعكس صحيح للطفل الذي حُرم من هذا النوع المحفِّز من التربية.

تولِّد عناصر التربية الصحية عند توفرها إحساسًا يُعرف باسم "الاكتفاء الذاتي"، وهي الثقة التي يحتاجها المرء ليكون مُعتدًّا بذاته ولمواجهة الحياة. أو بمعنى آخر، هي الفاصل بين أن يكون المرء مُستقلًّا منجزًا أو اتكاليًّا خانعًا. فالطفل الذي تكون دواخله هادئة وناضجة ومطمئنة لأنه حصل على حب ودعم وتقبل أمه وأبيه في سنواته الأولى، ينمو باكتفاء ذاتي وطمأنينة في أفكاره وعواطفه واحترامه لذاته وعلاقته بالآخرين. كَمَا يَرِثُ إِحْسَاسًا طَاغِيًا بِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِكُلِّ مَا هُوَ جَيِّدٌ في حياته وتجعل شخصيته قوية وتُنبت فيه إحساسًا بأنه محبوب ومثير للاهتمام، بل سيؤمن كذلك أنه فريدٌ من نوعه ومختلف عن باقي العالم، وأن أفكاره وآراءه تستحق أن تُسمع وأن تؤخذ في عين الاعتبار. وفي المقابل يقف أولئك الذين حُرموا من طفولة مطمئنة، فإنهم مهما كانوا محظوظين أو مُرَّفهين ماديًّا ستظل ذاتهم العاطفية والنفسية مُضطربة. ولطالما شدَّد سيجموند فرويد على أهمية مراحل الطفولة الأولى وعلاقة الطفل بوالديه، وكتب أن آثارها على المرء تكون "عامة ودائمة". وقصد بذلك أن حياة الشخص المستقبلية تتأثر كثيرًا بالفترة التي قضاها كطفل اتكالي،

فإذا استمرت لفترة طويلة فإن الشخص سيصبح ضعيفًا عاجزًا عن مواجهة أعباء الحياة.

يخبرنا الفيلسوف النمساوي جان أميري قصة قاتمة. كشاب عانى ويلات التعذيب في المعسكرات النازية فهو يكتب:

> **"أي شخص تعرض للتعذيب يظل معذبًا... أي شخص عانى ويلات العذاب يصعب عليه التصالح مع العالم... يفقد المعذب أمله في الإنسانية مع أول صفعة، ثم يتحطَّم مع العذاب. ذلك الأمل لا يعود مطلقًا".**

إن ما يجب استقراؤه في كلمات جان هو وجوب التفرقة بين العذاب الجسدي والعذاب النفسي، فالجسد يتعافى، لكن النفس تظل معطوبة ويفقد المرء السكينة الداخلية، وبغض النظر عن السن، فإن تلك المعاناة ترافقنا في حياتنا، وبينما ينجو القليل من آثارها، فإنها تترسب لدى الكثير. بإمكاننا تخيل أثرها على الطفل الصغير، ولعل أهمية تلك السنين المحورية هي التي دعت ليو تولستوي إلى وصفها بكتابة العبارة التالية: "حياتي منذ سن الخامسة إلى الآن بسيطة، لكن الحياة من الميلاد إلى سن الخامسة كانت عصيبة".

* * *

ومن أعراض فقدان الاكتفاء الذاتي أن يضطر المرء لتطوير ما سماه الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر بـ "الشخصية المزيفة" حيث ينسلخ المرء عن ذاته لينسجم مع باقي المجتمع. يخبرنا هايدغر أن هذه النفس تجعلنا نخون ذاتنا، نتناساها وننكرها، وكل ذلك يجعلنا عاجزين عن اكتشاف معنى الحياة. وما يجعلنا نستخدم كلمة "مزيفة" هنا هو أن المرء يُصبح شخصًا آخر وتتلاشى ذاته ويأتي بأفعال لا تُمثله من استنساخ غيره ليواكب المجتمع الذي يود أن ينتمي إليه. فيضطر حينها لتقبل (أو تزييف قبول) شروط ذلك المجتمع وأحكامه ليندمج فيه، إذ سيراقب أفعال أفراده ويقلد طريقة عيشهم وتفكيرهم، فيصبحون هم عشيرته ويعتبرهم مصدرًا تشريعيًّا له. وهذا يحوِّل حياته إلى سلسلة من المقارنات، وينتهي به الحال إلى الالتحاق بوظيفة لا ترضيه نفسيًّا أو معنويًّا وتجعل تفكيره ينحصر في أدائه الوظيفي والمال الذي جمعه، وفي فخامة بيته وفراهة سيارته وتقليد ما يُعرض على التلفاز أو ما رأى أقرانه عليه وتركيزه على الجوانب المادية. ومع أن هذا كله قد يساهم لحصوله على قبول أفراد مجتمعه بعد ترويضه واستنساخه ليكون صورة طبق الأصل عنهم، إلَّا أنه يخسر مخيلته وذاته المتفرِّدة.

ومن المفارقات المؤسفة أن هذا السلوك الذي يجتهد البالغون في تحقيقه والوصول إليه هو نفس السلوك الذي يُجبَر عليه الطفل في سنواته

الأولى. فهو ينمو وينضج في مجتمع بعادات وتقاليد لم يُخيَّر في اتباعها، إذ لم يكن لديه مشيئة وقت ميلاده في اسمه ولقبه وجنسيته ودينه. فهي معطيات فُرضت عليه ويُتوقَّع منه بعدها أن يكون فخورًا بحسبه ونسبه، وأن يكون وطنيًّا وتقيًّا! وبينما يقضي البعض حياته مقاومًا لتلك المسلَّمات، يخضع لها البعض الآخر ويستسلم لها وينصهر في قِدرها.

قد يكون الوصول إلى الاكتفاء الذاتي صعب المنال، وقد يؤدي فقدانها إلى عرقلة أذكى شخص في العالم وتشتيته عن تطويع عقله الذكي وفضوله المتوقد لخدمة البشرية (كما سنرى بعد قليل). يُعتبر تجاوز العبقري لذاته الطفولية والآثار التي تركتها عليه خطوة محورية في رحلته. ويتراوح الإيمان بالذات بين عبقري وآخر، ولذلك فوائد كثيرة وعواقب أكثر، لكننا سنتعرف على حالاتٍ فقد فيها أشخاص إيمانهم الكامل بذاتهم.

التفكير: السريع والبطيء

المرء لا يولد بكمية اكتفاء ذاتي محددة، فهناك أسباب خارجة عن سيطرتنا وعلمنا وإرادتنا تقودنا كأفراد لأن نكون في أحد المعسكرين (مُطمئنين أو مُزعزعين) أو بينهما.

ولكننا نجد في السرد الرومانسي إيمانًا مختلفًا تمامًا، حيث نجد تركيزًا مضلِّلًا على جوانب وإهمالًا لجوانب أخرى، وذلك يدفعنا لنؤمن بأن العبقري مثل الرسل والأبطال الأسطوريين، وأن آلهةً أو قوى خارقة ستساعده وتجيره من مصاعب الحياة، فأصبحنا نؤمن أن عبقرية العبقري وذكاءه سينقذانه من كلِّ المصاعب التي ستواجهه في حياته مهما كانت. لكن الحقيقة عكس ذلك.

يهدف هذا الفصل إلى التحقيق في قوة وأهمية الاكتفاء الذاتي وإلى أي مدى يمكِّن المرء أو يعيقه عبر تحليل أثره على عدة أشخاص من عدة خلفيات ونواحٍ، والتي سنستكشف بعضها في هذا الفصل.

وقد تكون قصة شراكة اثنين من أهم عباقرة علم النفس دانيال كانمان وعاموس تفيرسكي هي أفضل قصة لتوضيح الفرق بين الحالتين.

بدأت الشراكة بين العالمين في نهاية الستينيات واستمرت حتى وفاة تفيرسكي في عام 1996م. وقد غيرت هذه الشراكة عالم علم النفس ومجاله وفهم طرق تفكير الإنسان في محاور متعددة مثل الطب والسياسة، كما كوَّنت اللبنة الأساسية لما يُعرف اليوم باسم الاقتصاد السلوكي.

شملت تلك الأبحاث الكثير من مجالات التفكير البشري مثل: ما هي الآلية التي تتبعها عقولنا وقت إصدار الأحكام واتخاذ القرارات؟ وكيف يُشخِّص الأطباء والخبراء ومن سواهم؟ وماهيَّة الآلية التي تحكم انحيازاتنا ومشاعرنا وانطباعاتنا؟ وقد لخص دانيال كانمان أفكار الأبحاث التي امتدَّت لعقود في كتاب مهم باسم "التفكير: السريع والبطيء".

ولكن لا يعنينا هنا إنجازاتهما أو نظرياتهما أو الجوائز التي حصدوها، إنما يهمنا شخصياتهما وخلفياتهما ونفسياتهما.

لنبدأ بالعالم عاموس تفيرسكي الذي كانت أبحاثه تميل إلى العلوم النظرية والتَّجريدية. لقد كان على درجة عالية من الذكاء ما جعل أصدقاءه من علماء النفس يطورون - مزاحًا - مقياس ذكاء باسم "اختبار ذكاء تفيرسكي"، وهو اختبار يقيس مستوى ذكائك حسب سرعة إدراكك بأنَّ عاموس تفيرسكي أذكى منك! يقول أحد المقربين إليه: "... كان بإمكانه مناقشة عالم فيزياء في الشارع، وبعد الحديث معه لثلاثين دقيقة ودون معرفة أي شيء عن علم الفيزياء، كان عاموس يفاجئ الفيزيائي المخضرم بمعلومة فيزيائية جديدة تمامًا عليه!" ولعل هذه علامة على تدفق ذكائه السائل.

كتب دانيال كانمان عن شخصيَّة صديقه:

> **"كان عاموس تفيرسكي نجمًا صاعدًا في مجال بحوث اتخاذ القرار بل كان كذلك في أي شيء يقوم به - ... كان كثيرون ممن يعرفون عاموس يرون أنه أذكى شخص صادفوه في حياتهم. كان ألمعيًّا بليغًا ويتمتَّع بشخصية كاريزمية. كما كانت ذاكرته مذهلة واستثنائية في إلقاء النكات بشكل يخدم وجهة نظره. لم يكن ثمة وقت ممل على الإطلاق في ظل وجوده".**

أما دانيال كانمان (أو داني كما يناديه أصدقاؤه)، فقد اشتهر بذكائه وخياله الجامح وكونه موسوعي المعرفة مثل شريكه تفيرسكي، بل كان يبهر طلّابه بأن يحاضرهم منهجًا كاملا دون الاستعانة بكتب أو مذكرات، وخلال حياته حصد الكثير من الجوائز والمناصب الفخريَّة، بل وقد أثنى عليه الرئيس الأمريكي باراك أوباما. فيما عدا ذلك كان الشريكان متناقضين. فبينما كان تفيرسكي مرحًا منطلقًا اجتماعيًّا، كان كانمان صامتًا وكئيبًا وانطوائيًّا، مما جعل الكثيرين من حولهما يشكِّكون في جدوى شراكتهما وإمكانية استمراريَّة صداقتهما، بل وحكموا عليها بالفشل بحكم أنّ كل واحد منهما كان عكس الآخر. ومع أن كليهما كانا ذكيين بشكل استثنائي، إلَّا أن شخصيتيهما كانت على النقيض: فبينما كانت سمة تفيرسكي الشهيرة هي ثقته بنفسه، كانت سمة كانمان هي التشكيك في ذاته، وقد كان ذلك سبب تعاسته في حياته. وهناك مشاهدات كثيرة من حياة هذا الرجل التي تدلنا على ذلك.

فحين قرر داني أن يلتحق ببرنامج الدكتوراه، كانت جامعة هارفارد هي الخيار الأنسب لقدراته ومستواه، والتي كانت ولا تزال معقلًا لألمع العقول في مجال علم النفس. ورغم نبوغه بين أقرانه في المدرسة والجامعة والدراسات العليا، إلا أن كانمان آمن أنه ليس ذكيًّا أو مؤهلًا بما فيه الكفاية لينضم لتلك النخبة، فلم يقدم لجامعة هارفارد وانتهى به المطاف في جامعة بيركلي.

تتجلى نقطة مهمة هنا، وهي أن كانمان آمن أنه غير مؤهل ليلتحق بجامعة هارفارد. وقد يفسِّر الأعراض الجانبية التي قد تحصل جراء فقدان الطمأنينة في سنوات الطفولة الأولى مهما كان أولئك الأفراد شديدي الذكاء. ففي عام 2002، بعد ست سنوات من وفاة تفيرسكي، ربح كانمان جائزة نوبل بالشراكة [19] في العلوم الاقتصادية (رغم أنه عالم نفس)، وأخبر كانمان العالم وقتها أنه يشعر أن هذه الجائزة هي بالشراكة مع صديقه المتوفي والذي عمل معه قرابة ثلاثة عقود من الزمان. بل إنه شارك العالم حينها السؤال الذي كان يمزقه طيلة حياته: "لم أتساءل أبدًا إذا ما كان العمل يستحق الترشيح، إنما إذا كنت أنا مستحقًّا له". وكذلك بعدها بسنوات عندما تسلم دكتوراه فخرية من جامعة هولندية قال: "عندما تعيش عمرًا طويلًا، ترى المستحيل يصبح واقعًا" وكأنه يعترف للعالم بأنه لم يؤمن بأحقيته للحصول على هذا التكريم!

كتب المؤلف مايكل لويس الذي تتبّع وأَرَّخَ شراكة وصداقة العالمين عن مأساة دانيال كانمان قائلًا:

> **"من الأمور المثيرة للفضول في شك دانيال كانمان في نفسه هو تشكيكه في ذاكرته. لقد حاضر فصولًا دراسية كاملة من ذاكرته مباشرة وبدون مُذكرات... لكن عند سؤاله عن أحداث ماضيه (الخاص)، كان يردد أنه لا يثق في ذاكرته... يبدو أن تشكيكه في ذاكرته كان امتدادًا طبيعيًّا لتشكيكه المستمر في ذاته.**
>
> **قال أحد طلابه السابقين عنه: التشكيك في ذاتِه كان سِمته. وربما كان ذلك مفيدًا جدًّا له، لأن الشك جعله يتعمق أكثر وأكثر وأكثر".**

إن قراءة مقتطفات من حيوات عاموس تفيرسكي ودانيال كانمان تخبرنا أن الإثنين كانا فضوليين وكذلك يتمتعان بمعدل ذكاء عالٍ (وربما أن تفيرسكي اعتمد على الذكاء السائل بينما اعتمد كانمان على ذكائه البلوري). لكننا بحاجة لمعرفة دور الطمأنينة في صياغة شخصيتيهما، ومحاولة معرفة أثرها في سلوكهما الإبداعي.

لنبدأ بطفولة تفيرسكي.

أمه كانت ناشطة شغوفة بالقضايا الإنسانية وقد كرست لها حياتها، وهو أمرٌ يلاحظ بكثرة في حيوات أولئك الذين تركوا بصمتهم على صفحات التاريخ، إذا يلعب أحد الوالدين (أو كلاهما) دورًا أكثر من التربية، فنشاطهما سواء كان داخل البيت أو خارجه يصبح مصدر إلهام للطفل أو الطفلة. أما والده فقد تخلى عن الهيبة والنفوذ والثروة التي ترافق مهنة الطب البشري ليختار أن يتبع شغفه في الطب البيطري. وقد كان لقراره هذا (أن يمارس ما يحب بدلًا مما يرضي الآخرين) أثر كبير على ابنه لاحقًا، فقد كان بمثابة مصدر إلهام محسوس ومباشر على أهمية تتبع الشغف. كما كان كذلك شغوفًا بتحليل الأشخاص وما يتفوهون به، وهو ما أصبح وظيفة ابنه وشغف حياته لاحقًا.

باختصار، لقد كانت طفولة تفيرسكي سعيدة وبيئته مُلهمة مما رفع سقف طموحاته وثقته بنفسه. وقد تذكرنا كثيرًا بطفولة أينشتاين.

لنستعرض الآن طفولة كانمان.

نشأ دانيال في عائلة ناجحة اقتصاديًّا فقد كان أبوه رئيس أبحاث في مصنع كيميائي، إلا أن البيئة العائلية كانت صعبة. ورغم حبه لوالده، إلا أنَّه نظر إليه كشخص ضعيف، قال دانيال: "لم يكن شخصًا قويًّا". أما عن أمه، يقول أحد أصدقائه: "لم يكن بيتهم سعيدًا. كانت أمه امرأة لاذعة جعلت أخته تهرب في أول فرصة سنحت لها". وصف أحد الأصدقاء نفسية كانمان بأنها محطَّمة، فغالبًا ما شعر بأنَّه منبوذ، بل إن شخصيته تشابه شخصية لاجئ بلا جذور. وما يزيد الأمر سوءًا أن داني كان بالفعل لاجئًا! فقد نشأ كطفل في فرنسا المحتلة من النازيين، واضطرَّ للهجرة مع أهله عدة مرات هربًا من بطشهم. وهذا يتوافق مع ما كتبه الفيلسوف إرنست بيكر في معرض حديثه عن أسباب الكآبة:

> **"... الأشخاص الذين عانوا من تجارب سيئة في مقتبل حياتهم ينتهي بهم الحال إلى أن يعيشوا حياتهم مليئة بالقلق من الموت... فإذا كانت مكونات شخصيتك بائسة أو كانت لديك تجارب سلبية سابقة فمن المتوقع أنك ستصبح متشائمًا".**

هل شعر دانيال كانمان بالطمأنينة؟ يصعب تصوُّر ذلك، فطفولته الصعبة عرقلت شعوره بالأمان مما ترك أثرًا لا يُمحى طيلة حياته.

من المهم جدًّا أن نظهر زيف هذا الاعتقاد الراسخ لدينا، ذلك الإيمان أن الصفات الشخصية (مثل الذكاء والإصرار والحيلة) هي العامل الأهم في عبقرية الشخص وأنه سيكفيه أي مشقات في رحلته. وقد يكون جزءًا كبيرًا منه وراثة جينية، ولكن في أغلب الحالات لا يلعب الذكاء وحده أي دور تأثيري.

أذكى رجل في العالم

إن قصة وليام جيمس سيديس، الذي كان يعد أذكى طفلٍ في عصره، هي مثال مهم لفهم العلاقة بين الذكاء والأمان الداخلي. ينتمي وليام سيديس إلى شريحة من الأطفال المعروفين باسم الطفل الأعجوبة (Child Prodigy). وهي الشريحة ذاتها التي ينتمي إليها عباقرة لويس تيرمان، إذ نجد الطفل يجيد حل مسائل الرياضيات المعقدة في سن الرابعة، أو يحفظ ويردد مسرحيات شكسبير كاملة في سن الخامسة، كما أن بعضهم يتقن معزوفات موتسارت وبيتهوفن وباخ في سن السادسة!

وُلد وليام سيديس في مدينة نيويورك في القرن الثامن عشر واشتهر منذ طفولته بأنه أذكى طفل في الولايات المتحدة الأمريكية. علَّم نفسه اللغة اللاتينية في سن الرابعة، ولما بلغ السادسة أتقن ثماني لغات نطقًا وكتابة. وبين السادسة والثامنة كتب أربعة كتب وألَّف لغة تعرف باسم (Vendergood). كان والده بوريس سيديس مهاجرًا أوكرانيًّا وعالم نفس وطبيبًا وفيلسوفًا. رفض الأب التعليم التقليدي رفضًا قاطعا وبدأ تعليم ابنه في المنزل. وكان التعليم الذي حباه به في سن مبكرة نادرًا وفريدًا ومميزًا عن أقرانه وجعله يتقدم عليهم. انتسب وليام سيديس هارفارد الطبية في سن الحادية عشرة وتخرج منها بعمر السادسة عشرة. لو أن فريق لويس تيرمان التقى به في طفولته لضمه بالتأكيد إلى مجموعة عباقرته!

عند قبوله في جامعة هارفارد، ألقى محاضرة لمدة ساعتين لجمعية الرياضيات، وغادرها الجميع مؤمنين أن وليام سيديس سيغير مستقبل الرياضيات.

لكن ذلك لم يحدث. لم يتجرأ سيديس أن يسرق النار.

بعد تخرجه من جامعة هارفارد، أصبح سيديس غريب الأطوار، ورفض أن يعمل في أي مجال شعر أنه لا يوازي قدراته الذهنية. ورغم فطنته وذكائه كطفل، عجز أن يخترع أو يصنع أو يطور أي منتج أو فكرة جديرة بعقله العظيم.

وفي سن السادسة والأربعين، توفي وليام سيديس، وحيدًا، فقيرًا، بائسًا وعاطلًا.

لقد تعرقل سيديس على حواف العقبة الأولى، وتأصَّلت أسباب ذلك في طفولته وماضيه.

حتى نفهم سبب تعرقل حياة هذا الشاب النابغة، قد يفيدنا أن نسترجع ما قرأناه عن شخصية كامل في رواية الأديب نجيب محفوظ "السراب"، والذي رغم كونه ذكيًّا ألمعيًّا، إلا أنه فشل في كل درب من دروب حياته.

عند قراءة تفاصيل حياة سيدس، فإننا نجد خطوطًا متشاركة مع حياة كامل. فبرغم استثمار والده في قدراته الذهنية والمعرفية إلا أنه خذله في التنمية النفسية. فجعله ذلك اتكاليًّا، وهذا العجز أنشأه مضطربًا ومتزعزعًا. لقد فشل سيديس الأب وزوجته في تنمية حس المسؤولية والاعتماد على الذات في شخصية ابنهما، ما جعله يعتمد عليهما في توجيه أمور حياته. فكان والده مُمثله ووكيله ومُحاميه طوال طفولته ومراهقته. بل يقال إنه حتى في مراهقته كان يعجز عن أداء مهام عادية مثل ارتداء الملابس وتناول الطعام لوحده، ولم يضطر لخوض أي نزاع في حياته اليومية أو الدفاع عن نفسه. وفي قصة مشهورة، خلال التحضير لدراسته العليا في جامعة هارفارد، هدده أحد الطلاب بالاعتداء عليه. وبدلًا من مواجهة هذه المشكلة بنفسه كأي شاب في السابعة عشرة من عمره ترك الأمر لوالديه اللذين قاما بنقله من جامعة هارفارد إلى جامعة أخرى في مدينة هيوستن بولاية تكساس! ولهذا النوع من التربية عواقب وخيمة (ويجوز أن نقول تراكمية) على نفسية الطفل تجعله عاجزًا عن مواجهة العالم الخارجي لوحده.

نقتبس من إرنست بيكر، المفكر وعالم النفس الأمريكي، الذي تحدث عن سلبيات الاتكالية والاعتمادية وعواقبها على الشخصية: "الفن في التربية هو أن يكون الوالدان موجودين دون أن يكونا موجودين، حتى يتمكن الطفل من تطوير ذاته". وفرَّق بيكر بين الطفل الذي يتعرف إلى العالم بينما يراقبه والداه من بعيد، وذلك الذي يتعرف إلى العالم من خلال شروطهما، وفي هذا اتفق مجموعة من المفكرين، منهم الفيلسوف الدنماركي سورين كيركجارد الذي اقتبس منه إرنست بيكر ومن أعماله بإسهاب، كذلك أعمال الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو والفيلسوف الأمريكي جون ديوي.

والأسوأ من ذلك أن والديه عاملا ابنهما كقطعة أثاث ثمينة يتفاخران بها في أوساط مدينة نيويورك المجتمعية.

لطالما حذَّرنا علم النفس من هذا النوع من الاستغلال الذي يركز فيه الوالدان على جانب مادي أو نفعي ويهملان الجانب العاطفي. كتب عالم

النفس الأهم ميهاي تشكسنتميهاي نصًّا يصف فيه معاناة الأطفال من هذه الناحية:

> **"عندما يتعلَّم الأطفال الموسيقى، يكون تركيز الأهل على الأداء فقط مع إهمال ما يشعر به الطفل. فالوالدان اللذان يجبران ابنهما على التفوق في عزف الكمان عادة لا يهتمون إذا ما كان ابنهما يستمتع بالتجربة أو لا، فهما يريدان لابنهما أن يكون محط الأنظار، وأن يفوز بجوائز، وأن يقف على مسارح كبيرة. ولكن كل ذلك يؤدي إلى عكس ما تحققه الموسيقى فتنقلب من متعة وفن إلى مصدر ضغط شديد وأمراض نفسية".**

يوضِّح لنا تشكسنتميهاي في أحد أعماله الأسباب النفسية والاجتماعية التي تتيح للمرء سبل التفوق أو تقوده إلى الفشل كما في حالة وليام سيديس الذكي، فكتب أن المحيط الذي يمكِّن الطفل من التعامل مع العالم الخارجي ينمِّي فيه خمس صفات مهمة وهي:

- الوضوح وشفافيَّة الهدف: أن يعرف الطفل ماذا يتوقع منه أبواه، فهما يطرحان الأهداف ويوفران التوجيه وردود الفعل اللازمة.

- محور الاهتمام: أن يؤمن الطفل بأن والديه يهتمان بما يمارسه وبما يقدِّمه من أفكار وآراء في الوقت الحاضر.

- الخيار: أن يعلم الطفل أن بإمكانه اختيار مجالات أخرى غير ما اقترحه الأبوان، طالما أنه يتفهم تبعات ذلك الاختيار.

- الالتزام: أن يكون الطفل في حالة تركيز على اهتماماته وأهدافه وأفعاله دون تشتت أو ضياع.

- روح التحدي: أن يرفع الأبوان معيار الصعوبة في المهام المقدَّمة للطفل بما يناسب إمكانياته حتى يتحدى نفسه بشكل دائم.

تكون نفسية الطفل هشّة في تلك المرحلة المُبكرة، لذلك يعد هذا النوع من التربية مهم جدًّا في غرس بذرة سلوك ناجح بآثار عميقة. فهو لا يمحو الاتكالية فحسب، إنما يُعبِّد الطريق لحياة متفوقة وطموحة، ويزيل عنها الغموض والتخبط ليعرف الابن بوضوح ماذا تتطلَّب الحياة منه، بل ويمتلك الأدوات التي تمكنه من السيطرة عليها. وهي أدوات حرم منها سيديس الطفل.

يحرص الآباء الواعون على تنمية هذه الأدوات في شخصية أطفالهم. فعلى سبيل المثال: يخبرنا علماء النفس في دراستهم لتربية الأطفال المتفوقين أنهم وجدوا حالات حيث مرض هؤلاء الأطفال ما جعلهم يتوقفون عن التمرين، وعندما عادوا إلى التمرين بعد المرض تدهور أداؤهم ولم يكونوا على نفس المستوى. وبحكم سنهم الصغير، أصابهم الإحباط، واعترفوا لآبائهم برغبتهم بالاعتزال. كانت الإجابة من الآباء هي: "بإمكانك التوقف فقط عندما تعود إلى مستواك السابق نفسه". هذه الخدعة كانت تفي بالغرض! فما أن يبدأ الطفل بالتدريب ويعود إلى مستواه السابق حتى يثق بقدراته في التطور والتفوق. هكذا زرعوا الإصرار في أبنائهم.

لماذا كانت هذه العوامل النفسية مهمة في نشأة العبقري؟ ببساطة لأنها تراكمية عبر الزمن. أي أن الصفات الشخصية مثل: الإصرار والمثابرة والتركيز تنمو مع مرور الزمن (بل إنها عوامل رئيسية في تنمية الذكاء البلوري)، وعلى المدى الطويل تقود الشخص إلى التفوق (وربما العبقرية).

كما لاحظ تشكسنتميهاي في دراساته أن العائلات التي تدعم أطفالها تشحذ قدراتهم الدراسية. بل إنها تجعلهم يستمتعون بالدراسة كذلك. ومن المعروف أن الدراسة أو التدريب في مجال مُعين قد تكون متعبة أو مملة فهي ليست مرحة وممتعة بل تتطلب عزلة وتركيز لساعات طويلة. وهذه الممارسات قد تكون صعبة خاصة للأطفال الذين يفضلون قضاء وقتهم في اللعب أو مع الأصدقاء أو مشاهدة التلفاز. وإذا فشلوا في تعلُّم تلك المهارة، فعلى الأرجح سينتهي بهم الحال أن يكونوا عرضة للتشتت والإحساس بالضياع.

العبقري الذي صار

كان هناك طفل أعجوبة آخر بنفس ذكاء سيديس باسم نوربرت فينر، تتشابه قصة فينر مع قصة سيديس بل وتتقاطع في عدة محاور. كلاهما ولدا في نفس الفترة، ومثل عائلة سيديس، كانت عائلة فينر مهاجرة من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وكلاهما وُلدا لعائلة ناجحة حريصة على التعليم. بل إنه في الوقت الذي كان فيه وليام سيديس ينهي شهادة البكالوريوس في جامعة هارفارد، كان نوربرت فينر المُراهق يحضِّر درجة الدكتوراه. يعتبر وينر منشئ علم التحكم الآلي (أو السبرانية)، ولذلك آثار على مجالات مختلفة مثل الهندسة، والتحكم في النظم، وعلوم الكمبيوتر، والبيولوجيا، وعلم الأعصاب، والفلسفة، وتنظيم المجتمع.

لكن على عكس سيديس، كانت حياة فينر سعيدة وناجحة.

يخبرنا عالم النفس مايكل هيو أنه خلال دراستنا لأثر الأبوين على ابنهما، يجب علينا أن نسأل: لأي درجة نجحت جهود تجهيز الابن بأدوات ذهنية؟

في كلتا الحالتين (سيديس وفينر) توفقت جهود الأبوين في التعليم. فكما رأينا، كلا الطفلين تفوقا في مرحلة عمرية مبكرة. لكن هيو يطرح سؤالًا ثانيًا هو الأهم في سياق العقبة الأولى: هل حرص الأبوان على تجهيز ابنهما بمهارات حياتية (وهي المهارات التي تتيح له سُبل النجاح في التعامل مع متطلبات الحياة، وأن يعيش سعيدًا)؟ من الواضح هنا أن مايكل هيو يريد لفت انتباهنا لما قاله عالم النفس ميهاي تشكسنتميهاي عن متطلبات الحياة الناجحة للأطفال، وكما قرأنا سابقًا حُرم وليام سيديس الصغير من تلك المهارات والمشاعر.

لكن ماذا عن نوربرت فينر؟

كان أبوه ليو فينر عالم لغة يجيد عدة لغات ومُهتمًا بالترجمة والرياضيات. وكان مدرسًا بالإضافة إلى ذلك كله. وفي سيرته الذاتية يذكر نوربرت وداعة شخصية أبيه في أوقات التدريس، لكن كان ذلك يتغير جذريًّا عند أول خطأ يرتكبه ابنه، ووصفه أنه حينها يصبح متعطِّشًا للدم! ورغم كونه صارمًا في تدريس ابنه، إلا أنه كان مدركًا لأهمية تنمية مشاعره كذلك. بل كانت هناك عاطفة ومودة بينهما لا بد أنها كانت مفقودة في علاقة وليام سيديس بوالده. ورغم خوف نوربرت من شخصية والده إلا أنه تمكن من تقديره ومحبته لأنه كان عطوفًا معه ومتفهمًا لمشاعره. يصف نوربرت حادثة قبل اختبارات الدكتوراه في جامعة هارفارد، حيث كان والده يصاحبه دائمًا في المشي صباحًا ليحسِّن حالته الجسدية ويعزز شجاعة ابنه، وعن ذلك كتب: "كان يسألني عن اختباراتي القادمة وكان يتأكد بأنني أفهم تلك الأسئلة جيدًا وكيفية الإجابة عليها". أما الجو في المنزل فهو شبيه بذلك الذي نشأ فيه عاموس تفيرسكي. فأمه كانت تقرأ له دائما الكتب وبذلك منحت نار فضوله جذوة متقدة فبدأ قراءة الكثير من الكتب في سن مبكرة. وعندما أراد المزيد وفَّر له والده الكتب من مكتبة جامعة هارفارد ومن مكتبة بوسطن العامة.

فائدة أخرى منحه إياها والده، وهي أنه كان يسكن في حي مثقف، فالجيران كانوا معلمين، وكذلك أصدقاء والده، وبذلك عاش نوربرت طفولة مليئة بالنقاشات البناءة والحوارات المُثرية.

بل إنه بعد أن أنهى درجة الدكتوراه، قام والده بالتواصل مع الفيلسوف الشهير برتراند راسل (والذي حصل على جائزة نوبل لاحقًا، وسنتحدث في تفاصيل هذه القصة لاحقا)، وطلب منه أن يكون مرشدًا لابنه!

ها هو نوربرت يصف مشاعره تجاه والده:

"لقد كان مثاليًّا... بالنسبة إليّ، كفتى مقبل على الحياة، كان نبيلًا وملهمًا، وشاعرًا في جوهره...

معلمي كان في نفس الوقت بطلي".

موسيقى نيتشه (أو ميلاد الفضول) "الذين شوهدوا وهم يرقصون كانوا معتوهين في نظر الذين لم يستطيعوا سماع الموسيقى".

الفيلسوف فريدريك نيتشه

بوصلة أينشتاين

خلال صفحات هذا الكتاب، تمت مناقشة حقيقة أن المرء لا يُولد شغوفًا أو يُمنح موهبة وقت ميلاده تحدِّد مستقبله وتجعله عظيمًا. فلطالما خُيِّل لنا أن النحات وُلد بإزميل في يده، والموسيقار وُلد بكمان على صدره، والشَّاعر وُلِد بقلم بين أنامله. ومن خلال قراءة الأمثلة التي تم ذكرها سابقًا وما سيأتي ذكره لاحقًا، سيكون باستطاعتنا التخلص من عقدة "المختار" الذي مسّته الآلهة ومنحته مستقبلًا باهرًا بمجرد ولادته!

ونجد رواسب لذلك في قصص العباقرة. ذكرت والدة بيكاسو ماريا أنَّ أول كلمة نطقها ابنها كطفل كانت الكلمة الإسبانية piz, piz (اختصار كلمة lapiz والتي تعني في اللغة الإسبانية مُرسام)، بينما نجدها في قصة موتسارت حين لقبه والده بلقب "معجزة سالزبورغ". ولا نزال نجد البعض يصفون أنفسهم أنهم وُلدوا عباقرة أو قادة أو فنانين إلخ. بينما يخبرنا آخرون أن الإلهام يزورهم فجأة فيوحي لهم فكرة تُغير نهج العالم. وفي ذلك تمجيدٌ مبالغٌ فيه للذات، وكأن الشخص يطلب منا قبول الهبة السماوية التي زُرعت فيه، هذه القصص وغيرها الكثير قد تمنحنا انطباعًا بأن العبقري وُلد بتركيبة جينية جعلته يملك المعرفة والموهبة التي مكَّنته من التفوق في مجاله، وخاصة مع وجود فلاسفة (من أمثال جان جاك روسو) وعلماء (من أمثال فرانسيس غالتون) الذين حاولوا تثبيت هذه الفكرة عبر العصور.

لكن نداء العباقرة مُكتسب، ولا يولد به المرء، ففي مرحلة معيَّنة من حياة المرء يتطور لديه اهتمام بحرفة ما. فيكرِّس وقته وطاقته الذهنية

والنفسية للتفوق فيها. ومن منطلق هذا المفهوم، تصبح مسؤولية المرء هي التزامه بذلك الاهتمام حتى يتطور فيخلق شغفًا من العدم أو من الأدوات الموجودة حوله، وليس اكتشافه أو البحث عنه كما هو شائع في هذه الأيام.

لنأخذ قصة ألبرت أينشتاين كمثال لنتعرَّف إلى ميلاد فضوله، وجدنا أن اهتمامه بالعلوم الطبيعية قد بدأ في بيته. تعرَّف ألبرت أينشتاين إلى شغفه في سن الخامسة عندما بدأ أهله تدريسه في المنزل. وكانت البوصلة التي منحه إياها والده هي إحدى مصادر الإلهام التي أوقدت فضوله لدراسة العلوم الطبيعية. فقد قضى ساعات طويلة في تلك السن المبكِّرة محاولًا فهم سبب اتجاه إبرة البوصلة إلى الشمال دائمًا.

ذكر المؤلف رولاند كلارك في سيرة ألبرت أينشتاين هذه القصة قائلًا: "عندما كان طفلًا في الخامسة من عمره، مرض مرضًا ألزمه السرير فأهداه أبوه بوصلة صغيرة. وكان أينشتاين في حالة ذهول من الإبرة الحديديَّة التي كانت تشير دائمًا إلى الاتجاه نفسه مهما اختلف وضعها الجغرافي". وبعد سنوات طويلة، كتب ألبرت أينشتاين عن تلك البوصلة: "لقد تركت أثرًا عميقًا وخالدًا في نفسي. فأصبحت أثق بأنَّ هناك معنى خفيًّا خلف كل شيء".

وفي هذه المرحلة من حياته، بدأ أينشتاين في تطوير سُلَّمه الذهني عبر التحديَّات التي كان يلامسها في بيئته الخصبة. فنجده في سن الحادية عشرة يناقش العم جاكوب في نظرية فيثاغورس. ويقرأ في سن الثانية عشرة كتاب "علم الهندسة المقدسة الصغير" حيث تعرَّف من خلاله إلى أعمال إقليدس، ثمَّ قضى السنوات الأربع التالية مُتبحِّرًا في علوم الهندسة والحساب.

في تلك الفترة تعرَّفت عائلة أينشتاين إلى طالب طب بولندي يدعى ماكس تالمود. كان فقيرًا لدرجة أنَّ عائلة أينشتاين استضافته على طاولة العشاء كل يوم ثلاثاء لمدة ست سنوات. وأجمع كثيرٌ من المؤرخين بأن ماكس كان أحد أهمِّ الأشخاص الذين طوروا قدرات ألبرت أينشتاين الذهنية.

وكتب الباحث دودلي هيرشباك عن تلك الفترة: "استثمر تالمود كل طاقاته في تحليل الأمور التي أثارت اهتمام ألبرت". ثم كتب أنَّ هذا التفاعل "نمَّى في ألبرت رغبة نهمة لتعليم ذاته الأمور التي كان سيتعلمها بعد سنين طوال في المدرسة". ولحسن حظ ألبرت الصغير، كان ماكس تالمود يُحضر كُتبًا كل أسبوع ويخوض معه في نقاشاتٍ علمية.

كان أثر تلك الحوارات والتحديات والقراءات عميقًا جدًّا على سلوك وتفكير ألبرت أينشتاين المراهق. وترك هذا التفاعل أثرًا مهمًّا على شخصية

العبقري. فالشخص الذي نشأ في بيئات مماثلة يطوِّر شغفًا وتحفيزًا داخليًّا، فيكتسب صفات أساسية للنجاح، مثل الإصرار والالتزام والرغبة في الإنجاز.

لقد سمع أينشتاين موسيقى شغفه مبكرًا في عمره (عندما أهداه والده البوصلة على الأرجح)، وقد هيّأته قدراته الذهنية إلى استقبال ذلك الإلهام، وطور فيه اهتمامًا وشغفًا حافظ عليه في طفولته ومراهقته وما بعد ذلك.

كل عبقري تعرف إلى موسيقاه الخاصة في مرحلة من مراحل حياته، وتلك الموسيقى جعلته فريدًا شغوفًا ويكرس حياته للرقص لأصداء تلك الموسيقى، حتى لو عجز غيره عن سماع الموسيقى وتقدير الفضول.

وعند الاطِّلاع على العديد من القصص الأخرى نجد نقاطًا متشابهة، فعلى سبيل المثال في سيرة تشارلز داروين، يتَّضح لنا أن الموسيقى غُرست مبكرًا في حياته، ففي سن العاشرة، نمَّى داروين الصغير شغفًا لجمع الفراشات والخنافس، وكانت لديه دائرة من الأصدقاء الذين شاركوه نفس الشغف ورقصوا لنفس الموسيقى. حتى خلال أسفاره كطفل، كان يلاحظ أن بعض الحشرات في مدينته لا توجد في مدن أخرى، وكان يتساءل عن سبب ذلك. وينسب الكثير من المؤرخين فضل شغفه إلى عائلته عامةً وأمه سوزانا داروين خاصةً في توجيهه وتعليمه في سن مبكِّرة.

بل إن هناك قصة تماثل قصة ألبرت أينشتاين والبوصلة التي أهداه إياها والده! إذ يروي أحد معارفه العلماء والذي كان أيضًا زميلًا له في المدرسة قصة داروين عندما كان تلميذًا، حيث كان يجلب معه نبتة من حديقة المنزل إلى الفصل، وعندما أظهر زملاؤه استغرابهم، أخبرهم أن أمه كانت تعلمه طريقة استنباط اسم زهرة بالتدقيق فيها.

أما أبوه الدكتور روبرت داروين فكان مفكرًا جريئًا في طرحه بين معاصريه.

كان تشارلز الابن الرابع في عائلته، وعن ذلك يكتب أحد المؤرخين أن إخوته الأكبر سنًا كانوا بمثابة "معلميه الأوائل"، وهو ما يتوافق مع ملاحظة عالمة النفس كاثرين كوكس مايلز بعد دراسة شريحة مكونة من 300 عبقري، إذ توصلت إلى أنَّ العبقري لا يتأثر فقط بوالديه، بل بأشقائه الأكبر منه كذلك.

يتَّضح أن مثل هذا الفضول والتوجيه العائلي المكثَّف هما اللبنة الرئيسية في خلق العبقري، فإذا أتت في سن مبكرة كان لها أعظم الأثر في ذهن الطفل. وحتى نفهم هذا الأثر التراكمي أكثر، لندرس المشروع الطموح الذي قام به عالم النفس بنجامين بلوم (السابق ذكره) في بداية الثمانينيات،

والذي بدأ بالسؤال: ما هو العامل المشترك الذي سنجده في خلفية الأشخاص الذين تفوقوا بشكل استثنائي؟ من الملاحظ عبر طرح هذا السؤال أن هدف بلوم كان مختلفًا عن هدف لويس تيرمان. لم يبحث بلوم عن: "خلق المرء عبقريا" (أو بالأحرى: خُلق المرء بموسيقى) إنما عن "صناعة العبقري" (أو بالأحرى: متى سمعوا الموسيقى؟). ويرتكز هذا المنظور على نقطة مهمة: فبينما اعتقد تيرمان أن العبقرية هي حق ميلاد (إما أن تُولد به أو تُحرم منه)، آمن بلوم بأن التفوق هو صفة مكتسبة وقرر التعرُّف إلى العوامل التي أوجدت تلك البيئة الخصبة والتي سمحت بنمو أولئك العباقرة وجعلتهم يصلون إلى ما وصلوا إليه من إنجازات وتأثير.

للإجابة على استفساراته، اختار بلوم وفريقه 120 شخصًا فذًّا وصلوا إلى مكانة عالمية في مجالهم لدراسة طفولتهم بحثًا عن أنماط مشتركة. كان من ضمن هذه المجموعة المتفوقة عازفو بيانو، وسبَّاحون أولمبيون، وأبطال تنس، وباحثو رياضيات، وباحثو علم الأعصاب، ونحَّاتون.

كانت هناك معايير خاصة لاصطفاء تلك الفئة المميزة وهي كالتالي:

- أن يكون الفرد قد شارك في مسابقات عالمية.
- أن يكون الفرد قد حصل على جائزة أو زمالة في برنامج تنافسي.
- أن يكون الفرد من الأشخاص الذين يكثر الاستشهاد بهم والاقتباس منهم.
- أن يحصل الفرد على توصيات من رؤساء أقسام الجامعات المتميزة في الولايات المتحدة الأمريكية.
- في حالة السبَّاحين، تم اختيار الذين مثَّلوا الولايات المتحدة الأمريكية في الدورات الأولمبية.
- في حالة محترفي التنس، تم اختيار الذين وصلوا إلى أعلى عشرة مراكز عالميًّا.

بعد اختيار تلك الفئة، قام بنجامين بلوم وفريقه بإجراء المقابلات مع أولئك المتفوقين وأولياء أمورهم بل وحتى مدرِّبيهم ومعلميهم! وبالفعل وجد

الباحثون أنماطًا مشتركة بين الـ 120 شخصًا.

توصَّل بلوم في دراساته إلى أن أهم عاملين في صناعة المتفوق هما [20]: الأول: أن تعزز العائلة للطفل العوامل الشخصية اللازمة للنجاح، وهي ما تم تناولها بالتفصيل في فصل السراب.

الثاني: أن تقوم العائلة بتعريف الطفل إلى مجال الشغف وتمكينه من اكتساب المهارات اللازمة للبدء والتفوق فيه.

لاحظ بلوم أنه في المرحلة الأولى يتعرف الطفل إلى المجال الذي سيتفوَّق فيه بطريقة مرِحة وبشكل ترفيهي، فهو ينجذب إلى المجال من خلال اللعب والاستكشاف أولًا. فعلى سبيل المثال: امتلك تايجر وودز أول مضرب غولف وهو لم يتجاوز السنتين من عمره، لكنه لم يحمله على محمل الجد، بل كان مجرَّد أداة ترفيهية بالنسبة إليه، ولم يستخدمها للتدريب إلَّا بعد سنوات عديدة. فما يمارسه الأبوان هنا هو اللعب مع الطفل على مستواه كطفل، لكن ذلك يقود الطفل تدريجيًّا إلى الغاية الحقيقية لتلك الأداة الترفيهية وهي خلق الفضول (ولا نقصد خلق الفضول كسمة جينية، فذلك كما رأينا مبكرًا سمة بشرية مُتشاركة، إنما نقصد توجيه المرء إلى اهتمام معين).

في ذلك العمر تكون دوافع الطفل خارجية بالكامل، أي أنه ليس مدفوعا بشغف داخلي أو ما شابه، بل هدفه الأهم هو أن يُبهر والديه وأن يكون محطَّ الأنظار. ومن ثم ينتقل الابن إلى مرحلة تالية، حيث تتغير الأمور من ترفيه إلى تمرُّس. عادة يتجاوز الطفل في هذه المرحلة مستوى المهارات التي يستطيع الوالدان منحه إياها، فهم في الغالب ليسوا محترفين، ولذلك يقوم الوالدان آنذاك بتكلفة مدرب متخصص في تطوير مهارات الابن في لعب كرة التنس أو تطوير مهارات الابنة في العزف على البيانو. يكتب أحد الباحثين في ذلك: "علينا أن لا نقلِّل من شأن التضحيات التي يقوم بها الوالدان في بذل الوقت والجهد والمال من أجل توفير التدريب الأفضل والفرص التنافسية المميزة لأبنائهم في تلك الفترة".

في حالات كثيرة نجد أن الأب قضى فترةً في ذلك المجال وأحبه، لكن لسبب أو لآخر لم يستطع الاستمرار فيه. وعن ذلك كتب عالم النفس البريطاني مايكل هيو في كتابه "شرح العبقرية" في فصل بعنوان "صناعة العبقرية": "كل هؤلاء الآباء يتشابهون في السبل التي خاضوها - والتي قد يعتقد البعض أنها متطرفة - حتى يستثمروا في مستقبل أبنائهم. قد تختلف الدوافع، ولكن غالبًا ما تعود في قصص كثيرة إلى اعتقاد الأب أو الأم بأنهما حُرما من فرص النجاح في مسيرتهما لأسباب كثيرة قد يكون أحدها أنهما كانا

مهاجرَين ولم يستطيعا تحقيق طموحاتهما وبدء مسيرة احترافية في البلد الجديد. لذلك تجدهما يبذلان قُصارى جهدهما لمنح أبنائهما تلك الفرص التي حُرموا منها".

وهذا يدعم ما ظهر في دراسة بلوم في نقاشاته مع آباء الأطفال الذين درسهم. حيث وجد أنَّ أحد الوالدين (أو كليهما) قد قام بالفعل بممارسة هواية معينة (عزف الكمان، قراءة الشعر، رياضة التنس..). وربما كانت هذه الهواية نشاطًا مرحًا يجتمع فيه أفراد العائلة للترفيه في عطلة نهاية الأسبوع. بل إنه عندما تواصل مع المتفوقين وأولياء أمورهم، تردَّدت كثيرًا عبارة "لقد كانت هذه الهواية عادة في بيتنا".

وهذا النَّمط يظهر بصورة واضحة في قصة العبقري أحمد زويل أيضًا، العالم المصري الحاصل على جائزة نوبل في الكيمياء عام 1999م. لم يحظَ حسن زويل (والد أحمد زويل) بتعليم جامعي رسمي رغم شغفه بالعلم ورغبته العارمة في إكمال تعليمه ومحاولاته العديدة من أجل الوصول إلى ذلك. ولكن كوالد أينشتاين لم يتحقق له ذلك. ولم يكن بسبب تقصير أو فشل منه، إنَّما بسبب ظروف بلاده في ذلك الوقت. فالتعليم كان محصورًا بأعيان البلد وخاصَّتهم قبل عام 1952م. لكن كل هذا تغير بعد ثورة الضباط الأحرار بقيادة الرئيس جمال عبدالناصر. فأصبح الالتحاق بالجامعة حقًّا للجميع. وترك ذلك أعظم الأثر على أحمد زويل ابن العشر سنوات آنذاك، ما جعله يكتب خطابًا موجَّهًا للرئيس يشكره فيه [21].

في حالات أخرى قد يحترف أحد الوالدين تلك الهواية، وبطريقة ما ينقلها إلى الابن في سن مبكرة. بل قد يكون الطفل قد تمرَّس فيها لسنوات طويلة منذ الصغر، لدرجة أنه عندما تظهر موهبته علنًا في سن السادسة أو الثامنة، يفترض الجميع أن الخالق غرس فيه تلك الموهبة في سن مبكرة! يجب التنويه بأن هؤلاء لا ينتمون إلى فئة "الأطفال الأعجوبة" مثل وليام سيديس ونوربرت فينز والذين قرأوا "الحرب والسلام" وحلوا مسائل في التفاضل والتكامل قبل سن الخامسة، فهم طوَّروا نبوغهم واكتسبوا مهاراتهم بالتدريب في كنف الوالد قبل أن يراهم العالم. ولذلك فوائد تراكمية تتنامى لدى الطفل سواء على الصعيد النفسي أو الفكري بل إنه يتقدم تقدمًا ملحوظًا على أقرانه وأولئك الذين في عمره. وقد أشار إلى هذا النوع من النصيب مؤلف رواية جاتسبي العظيم حين كتب: "في سنوات صباي الغض أسدى إليّ أبي نصيحة ما زالت تدور في ذهني حتى الآن.

قال لي أبي: كلما شعرت برغبة في انتقاد أحد، تذكَّر أن المزايا التي أتيحت لك لم تُتح لكل الناس".

ويبدو أن علماء الاجتماع أوجدوا اسمًا لهذا النوع من المزايا، حيث تعرف هذه الظاهرة باسم "أثر ماثيو" (أو أثر منّى) المستوحى من إنجيل القديس ماثيو، حيث تنص الآية: "لأَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطَى فَيَزْدَادُ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ".

كتبت عالمة الاجتماع هاريت زُكرمان عن هذه الظاهرة بأن الفوائد تتراكم لدى الشخص إذا ما توفرت لديه مصادر وعلوم وعطايا تتيح له أن يتطور بسرعة في مجاله. عادة لا يلاحظ أفراد هذه الفئة هذا الأثر وأهميته فقد أتى في طريقهم بصورة طبيعية لدرجة أنهم ظنوا أنه مثل الهواء والماء: متاح للجميع. وعلى الأغلب يتحدث أفراد هذه الفئة بأنهم "صنعوا أنفسهم بأنفسهم" أو بأنهم "عصاميون" أو تفوقوا في سن مبكرة في الحياة. ولعل هذا ما قاد بيكاسو ليقول مقولته الشهيرة: "عندما كنت طفلا، قالت لي أمي: (إذا أصبحت جنديا، فستكون جنرالًا. إذا أصبحت راهبًا، فسوف ينتهي بك الأمر إلى البابا) وبدلًا من ذلك، أصبحت رسامًا، وأصبحت بيكاسو". إن مثل هذه المقولات يدلنا على نوع الإيمان الذي تحلى به بيكاسو وأشباهه. فهو لم يسمع الموسيقى في سن مبكرة فحسب، إنما كان يرقص على إيقاعها بثقة وخُيلاء. فأمثاله يعزون عظمتهم وعبقريتهم إلى ذاتهم، وأنها أتت منهم وإليهم. ونحن هنا لا ننفي أنهم قد اجتهدوا وعملوا بجهد، إلا أن ذكر مثل هذه العبارات يمثل دليلًا قويًّا على أنهم لا يدركون أهمية هذه الهبات والعطاءات التي مُنحت لهم واستفادوا منها.

لكن زُكرمان ذكرت ملاحظة أخرى مهمة جدًّا وهي أن حصول المرء على هذه المزايا المعرفية في سن مبكرة تمكّنه من تطوير ذاته مبكرًا بشكل يجعله يلفت انتباه العالم إليه بطريقة لا تتسنّى لأقرانه، وحينها يؤمن العالم أن ذلك الشخص عصامي أو مجتهد وأن غيره كسول أو أقل عزيمة. وبالتأكيد يلعب الذكاء العالي دورًا محوريًّا في هذه العقلية، فكلما زاد ذكاء المرء الفضولي، فإن ذلك يقود لتراكم معرفي مبكر، مما يشحن حينها وهم العبقري المتفرد العصامي. بل إن حظ المحظوظ يتزايد بينما يتلاشى حظ الشقي لأن العالم يركز انتباهه على ذلك النابغة ويكرس له مصادر وأدوات لا تُتاح لأقرانه (وسنرى ذلك بوضوح في باب "طور الشغف")، وبإمكاننا تخيل الفوائد النفسية لمثل هذا التفرد المبكر (والعكس صحيح). كتبت زُكرمان بأن الأشخاص الذين حصلوا على موارد علمية لم تتح للكثير غيرهم يظهرون للعالم كأصحاب مواهب فريدة. ولذلك يمنحهم العالم مزايا ومميزات مثل التوجيه والإرشاد المبكِّر وفرصة الحصول على مصادر خاصة ومثل حضور اجتماعات ومحاضرات وانتدابات وبعثات حصرية غير متاحة لغيرهم، إلخ...

والعكس صحيح لأولئك الذين لم يكونوا محظوظين بما فيه الكفاية ليحظوا بتلك المصادر. كما أن الفوائد المتراكمة على المدى الطويل تفيد الحاصل عليها وتتسبب بتعثُّر الذي حُرم منها.

ولنأخذ قصة الموسيقار الشهير موتسارت مثالًا على هذه الحالة. كان والده ليوبولد موتسارت عازفًا ومعلمًا للموسيقى، درَّب طلابًا كثيرين منهم ماريا موتسارات، شقيقة ولفجانج موتسارت الكبرى. بل إنَّه كتب كتابًا بعنوان "أطروحة أساسيات عزف الكمان"، إلا أنه مع ذلك لم يصل إلى المكانة المرموقة التي طمح إليها، فاستثمر تلك المعرفة في تدريس ابنه باحترافية منذ أن كان عمره ثلاث سنوات!

نفس النمط يكاد ينطبق بحذافيره على موسيقاريين معاصرين لموتسارت هما: يوهان باخ ولودفيغ بيتهوفن. (سننظر بعد قليل إلى حالة بيتهوفن التي قد تبدو للوهلة الأولى مشابهة لحالة موتسارت مع أنها تختلف جذريًّا عنه).

ونجد هذا النمط في قصة فيلسوف بريطانيا الأهم جون ستيوارت مل، أحد أكثر الفلاسفة تأثيرًا في القرن التاسع عشر. حيث كان له أثر عظيم على النظريات الاجتماعية، والعلوم السياسية، والاقتصاد السياسي. بدأ جون في دراسة اللغة الإغريقية في سن الثالثة، واللاتينية في سن الثامنة، وقرأ أعمال هيرودوت وإقليدس وأفلاطون كاملة. وكان مطلعًا نهمًا على التاريخ الإنجليزي، كما درس الفيزياء والحساب والفلك. بل إنّ إدارة مدرسته عينته معلِّمًا لأقرانه في سن الثامنة! ورغم كل تلك الإنجازات إلَّا أنه عانى من إحباط وكآبة في سن العشرين، وفي مذكِّراته اعلن لومه والده الذي حرمه من طفولته لأنَّه أجبره على دراسة كل ما تم ذكره أعلاه!

ووالده هو الفيلسوف والاقتصادي والمؤرِّخ الإسكتلندي جايمس ستيوارت ميل، مؤلِّف كتاب تاريخ بريطانيا الهندية، والذي أخضع ابنه جون لنشأة تربوية صارمة. فقام بتدريسه في المنزل لدرجة منعه من الانخراط مع أقرانه في عمره، وفقَّهه في مواضيع وعلوم لا يطَّلع عليها المرء إلا في العشرينات أو الثلاثينات من عمره. كل هذا لأنه أراد أن يخلفه عبقري يكمل أعماله بعد وفاته.

مثل هذه النشأة صعبة قد لا تكون متاحة لمن هم بنفس ذكاء وطموح بيكاسو وموتسارت وستيوارت ميل، مما سيجعلهم يتعثّرون ويظهرون بطيئين مقارنة بهم. كما أننا لا نقصد فقط تلك المميزات التي تترك أثرها على مهارة العبقري أو حرفته، بل حتى تلك التي تترك أثرها على نفسيته وعاطفته بشكل

قد يساهم (أو يعيق) مسيرته. بل إن أحد المختصين ذكر أن مثل هذه الفوائد تحفز المرء للعمل أكثر، فهو يؤمن أن العالم من حوله مهتم به وبإنجازاته، مما سيجعله يكرس وقتًا أكثر لحرفته. وقد يصل الشخص إلى مرحلة تبدأ فيها المؤسسات أو الجامعات في التهافت عليه واستقطابه لما سيجلبه من شرف وسمعة حسنة إلى ذلك المكان.

العفوي والحساس، مرة أخرى

لنراجع الآن ما تم ذكره عن العباقرة الحساسين والعفويين، والدَّروس التي تعلمناها في أهمية تجاوز العقبة وميلاد الفضول. غالبًا ما نجد أن أعمال الكُتَّاب الذين يقتبسون أبحاث دَيفيد جالنسون (بل حتى أبحاثه هو نفسه) تناقش العباقرة من وجهة نظر واحدة، وهي العلاقة بين السن والإبداع. ولكن لم يسبق أن استثمر أي باحث وقته - على حد علمنا - لفهم سبب كون المرء أحدهما.

لنستشهد بالأمثلة التي بنى عليها جالنسون دراسته. فهو عندما وصف التجريبيين استخدم الرسام الفرنسي بول سيزان وعندما وصف المفاهيميين تحدَّث عن بابلو بيكاسو.

وسنلاحظ إذا درسنا خلفية بيكاسو وقارنَّاها بخلفية عاموس تفيرسكي، فسنجد عوامل كثيرة متشابهة بينهما. حيث حظي كلاهما بوالدين طموحين ومحترفين.

نشأ بيكاسو في بيت والده دون جوزيه بلاسكو، الذي لم يكن رسامًا فحسب، بل بروفيسور فنون في مدرسة الفنون، وأمين متحف محلي كذلك. بدأ بلاسكو في تدريب ابنه الرسم في سن السابعة. وعندما أصبح بيكاسو في الثالثة عشرة من عمره، تمكن والده من إقناع الإداريين في مدرسة الفنون التي كان يعمل فيها باختبار بيكاسو اختبارًا خاصًّا بالمراحل المتقدمة. وفعلًا نجح فيه، مما جعل والده يستأجر له غرفة صغيرة حتى يمارس فيها بيكاسو فنه. وفي سن السادسة عشرة أرسله عمه إلى أكاديمية مشهورة باسم Real Academia de Bellas Artes de San Fernando، وهي أكاديمية تخرَّجت منها أسماء كبيرة في ساحة الرسم الأوروبي، وتعدُّ أحد أهم المحافل الفنية آنذاك. لفت بيكاسو أنظار العالم بتقليده رسمة رافييل في سن السابعة عشرة ونضجت عبقريته الفنية أكثر في منتصف العشرينات. وبالتحديد في سن السادسة والعشرين عندما قدَّم أحد أهم أعماله "Les Demoiselles

d'Avignon". بعد اطلاعنا على دراسة بنجامين بلوم، بإمكاننا تفهم أهمية هذا النوع من التربية.

لندرس الآن الخلفية التي أتى منها الوجه الآخر من العملة: حياة المبتكرين التجريبيين.

حياة سيزان كانت مختلفة تمامًا عن حياة بيكاسو. الموسيقى أتت متأخرة إليه مقارنة ببيكاسو، وكانت بداية اهتمامه بالرسم عندما كان عمره ثماني عشرة سنة (أي أن بيكاسو سبقه في المجال بما يزيد على عقد من الزمان!) حيث انتسب إلى معهد البلدية للرسم في إيكس. ولكن والده المستبد، والذي امتلك مصرفًا في قرية إيكس الفرنسية، أجبره في سن العشرين على ترك الرسم والانتساب إلى كلية المحاماة. واختلف سيزان مع والده كي يسمح له أن يكرس وقته للرسم وسافر إلى باريس حيث نسق له صديقه الكاتب إيميل زولا أمور معيشته في باريس (بل إنه في رسالة حاول أن يقنع الشاب صعب المراس بالقدوم إلى باريس وكتب له بالتفصيل كيف سيقضي يومه وكم يحتاج من المال في اليوم!) [22]. إلَّا أن تجربته هناك باءت بالفشل، إذ عاش على نفقة محدودة ورفضه مجتمع باريس الفني وهزأ بأعماله. عاد بعدها إلى مدينته محبطًا وعمل في مصرف أبيه. إلا أنه استمر في التنقُّل بين إيكس وباريس وزيارة متاحفها لمدة عشر سنوات ليحصل على الإلهام اللازم ليثري حواسه ويطور أسلوبه.

بعد التعمُّق في تلك القصص، نرى أن الفرق المحوري بين العبقري العفوي والعبقري الحساس هو أن العفوي نشأ في بيئة مكّنته نفسيًّا من الاستماع إلى الموسيقي والرقص على وقعها، كما حصّنته باكتفاء ذاتي مُطمئن إلى عالم يُنصت إليه وينفِّذ مطالبه، مما جعله يحصل على خبرات وصفات شخصية مهمة جدًّا ساهمت في تكوينه كعبقري. بينما وُلد العبقري الحساس في بيئة لم تؤهله للمجال ولم تجهزه نفسيًّا. بل وربما أعاقت شخصية الطفل وولّدت شللًا في اكتفائه الذاتي.

من الخطأ أن نعتقد أن العباقرة الحساسين متأخرون لأنهم بدؤوا متأخرين. ففي بعض الأحيان تكون بدايتهم مبكرة، ويأتي النداء مبكرًا، إلَّا أن عجزهم عن تحقيق الاكتفاء الذاتي يعيق خطواتهم على درب العبقرية.

بل يبدو أن عالم النفس تشكسنتميهاي لاحظ هذا قبل أن يبدأ جالنسون دراسته على الفنَّانين التجريبيين والمفاهيميين، فقال: "العلاقة بين البيئة

العائلية والإنجازات الإبداعية تبدو غامضة. فمن ناحية، نجد أن الدعم النفسي مهم وضروري جدًّا. ولكن من الناحية الأخرى نجد أن المراحل المبكِّرة لبعض العباقرة العظام مليئة بالألم والصدمات النفسية...

> **يبدو أن الرضا عن النفس أو العمل صعب المنال لدى المبدعين ذوي الطفولة الصعبة. ورغم أن هذا النوع من الطفولة يؤدي إلى إنجازات إبداعية، إلا أنَّه لا يؤدِّي إلى الاكتفاء الذاتي عند الكبر. أظهرت دراساتنا للمراهقين الموهوبين أن الطلاب الذي كانوا من خلفية عائلية "معقدة" والتي وفَّرت لهم الدعم النفسي والتحفيزي أكثر إقبالًا على التحديات في مجالهم الفني، ويستمتعون بعملهم وتطوير مهاراتهم...".**

وهذا ما يبدو جليًّا في حياة الأيقونة الموسيقية بيتهوفن. سنكتشف أن بداياته شبيهة (بل تكاد تكون مطابقة) بمعاصره موتسارت. فقد كان ابن موسيقار وحفيد موسيقار. بدأ والده تدريبه في سن الخامسة، ومارس العزف بلا انقطاع منذ ذلك الوقت. لكن عكس موتسارت الذي قدَّم إلينا أهم معزوفاته في سن العشرين، قدَّم بيتهوفن أعظم معزوفاته في العقد السادس من حياته، (وهو في ذلك يشابه سيزان وداروين)!

لماذا كان هناك فرق شاسع بين نُضج موتسارت ونُضج بيتهوفن رغم أنهما تجاوبا مع النداء في مرحلة مبكرة من حياتهما؟

الإجابة تعود إلى عنصر مهم: الاكتفاء الذاتي.

لقد كان والد بيتهوفن مدمنًا على الخمر، ولم يكن رحيمًا أثناء تدريبه لابنه. ورغم حب أمه لابنها وتعلقه بها، إلا أنها لم تتمكَّن من حمايته من قسوة والده. فقد كان بيتهوفن يعاني من الأرق في مرحلة مبكرة ويبكي خوفًا أثناء التدريب لأن والده كان يجره من سريره إلى البيانو في أوقات متأخرة من الليل. فقد كان والده يغار من والد موتسارت وإنجازات ابنه وحاول أن يُظهِر ابنه للعامة بنفس الصورة. ويُجمع بعض المؤرخون أن بيتهوفن ظل متشكِّكًا طيلة حياته متسائلًا إذا ما كان والده فخورًا بإنجازاته الموسيقية. يبدو أن طمأنينته كانت مضطربة لدرجة أن سنوات من التدريب لم تمكِّنه من النضج الموسيقي.

وعند الاطلاع على حياته فبإمكاننا أن نرى أن المعاناة كانت جزءا لا يتجزأ من حياة هذا العبقري. انتقل إلى مدينة فيينا وهو في التاسعة عشرة من عمره ليتدرَّب على يد أفضل المعلمين في العاصمة النمساوية. وفي ذلك الوقت توفيت أمه وفقد بيتهوفن الشخص الذي أحبه. ومع وفاة أمه، ازداد والده سوءًا وأسرف في الشرب وتبذير أموال الأسرة، مما جعل بيتهوفن يكرِّس وقته للاعتناء بأمور عائلته بدلًا من التدرب والتعلم.

عندما قارب بيتهوفن سن الثلاثين فقد سمعه، واضطرَّ حينها للاستماع إلى الموسيقى عن طريق قطعة حديدية يضع طرفها بين أسنانه والطرف الآخر على البيانو ليشعر باهتزازات كل مفتاح [23].

معجزة بيتهوفن الحقيقية ليست المعزوفات التي كتبها وخلب بها ألباب الناس، إنما المعجزة الحقيقية هي قدرته على تخطي تلك التحديات والمصاعب والطفولة القبيحة ليكتب لنا موسيقى جميلة.

كهف أفلاطون (أو فضيلة التمرد)

"إن الإنسان مُخيّر في ما يعلم مُسيّر في ما لا يعلم.. أي أنه يزداد حرية كلما ازداد علمًا".

العلّامة أبو حامد الغزالي

أن تعيش مُسيّرًا

قبل 2400 عام، في الجزء السابع من كتاب "الجمهورية"، يحكي لنا أفلاطون حوارًا يدور بين معلمه الأريب سقراط وأخي أفلاطون الأكبر غلوكون ويدور موضوع حوارهما حول ناس مسجونين منذ القدم في الكهف، ولا يعرفون أي شيء عن العالم الخارجي. وفقًا لأفلاطون، تهدف هذه القصة لمعرفة أثر التعليم علينا من عدمه. لأننا كلنا كبشر، بدأنا مغلولين في ذلك الكهف، وتمكّن بعضنا من الخروج من ذلك الكهف، بينما يظل البعض مكبلين إلى نهاية حياتهم في الكهف، لا يعرفون الشمس، إنما انعكاس ضوء النار فقط، ولا يعرفون الأشياء في الحياة، إنما انعكاس ظلالها على الجدار فقط. لنقرأ مقتطفات من الحوار حتى نعرف أكثر عن طبيعة أهل الكهف:

سقراط: تصوَّر طائفة من الناس تعيش في كهف سفلي مستطيل، يدخله النور من باب في طوله، وقد سجن فيه أولئك الأقوام منذ نعومة أظفارهم، والسلاسل في أعناقهم وأرجلهم، فاضطرتهم إلى الجمود والنظر إلى الأمام فقط لحيلولة الأغلال دون التفاتهم. ثم تصوَّر أن وراءهم نارًا ملتهبة في مواضع أعلى من موقعهم، وأن بينهم وبينها دكّة عليها جدار منخفض كسياج المشعوذين الذي ينصبونه تجاه مشاهديهم، وعليه: يجرون ألعابهم المدهشة.

غلوكون: إنها حقًّا لصورة عجيبة، تصف نوعًا غريبًا من السجناء.

سقراط: وتصوَّر أناسًا يمشون وراء ذلك الجدار، حاملين تماثيل بشرية وحيوانية مصنوعة من حجارة وأخشاب ضخمة من كل أنواع الأواني مرفوعة فوق الجدار... والآن أسألك: هل تظن أن أولئك السجناء يقدرون أن يروا بعضهم بعضًا، أو يرون شيئًا سوى الظلال التي أحدثها اللهيب وراءهم؟

غلوكون: وكيف يمكنهم خلاف ذلك ما داموا عاجزين طوال حياتهم عن تحريك رؤوسهم...؟

سقراط: ولو أنهم تمكَّنوا من المحادثة، أفلا تظن أنهم كانوا يسمون الأشياء التي يرونها تمرُّ أمامهم؟

غلوكون: يسمُّونها بلا شك.

سقراط: ولو ردَّ الجدار تجاههم الصدى كلما فتح أحد المارة فاه أفتظن أن السجناءُ يحسبون المتكلم إلا تلك الظلال التي يرونها على الجدار؟

غلوكون: من كل بد إنهم يعزون الكلام إليها.

سقراط: فاليقينيَّات الوحيدة عندهم هي ظلال الأدوات المصنوعة.

غلوكون: لا شك في أن أشخاصًا كهؤلاء يحسبونها كذلك.

سقراط: فلتتأمل الآن ما الذي سيحدث إذا رفعنا عنهم قيودهم وشفيناهم من جهلهم. فلنفرض أننا أطلقنا سراح واحد من هؤلاء السجناء، وأرغمناه على أن ينهض فجأة، ويدير رأسه، ويسير رافعًا عينيه نحو النور. عندئذ سيعاني آلامًا حادة ويضايقه التوهج، وسوف ينبهر إلى حد يعجز معه عن رؤية الأشياء التي كان يرى ظلالها من قبل. فما الذي تظنه سيقول إذا أنبأه أحد بأن ما كان يراه من قبل وهم باطل، وأن رؤيته الآن أدق، لأنه أقرب إلى الحقيقة، ومتجه صوب أشياء أكثر حقيقة؟ ولنفرض أننا أريناه مختلف الأشياء التي تمر أمامه، ودفعناه تحت إلحاح أسئلتنا إلى أن يذكر ما هي. ألا تظنه سيشعر بالحيرة، ويعتقد أن الأشياء التي كان يراها من قبل أقرب من الحقيقة من تلك التي نريها له الآن؟

غلوكون: إنها ستبدو أقرب كثيرًا إلى الحقيقة.

سقراط: وإن أرغمناه على أن ينظر إلى نفس الضوء المنبعث من النار، ألا تظن أن عينيه ستؤلمانه، وإنه سيحاول الهرب والعودة إلى الأشياء التي يمكنه رؤيتها بسهولة، والتي يظن أنها أوضح بالفعل من تلك التي نريه إياها الآن؟

غلوكون: أعتقد ذلك.

سقراط: فلتتصور أيضًا ماذا يحدث لو عاد صاحبنا واحتل مكانه القديم في الكهف، أن تنطفئ عيناه من الظلمة حين يعود فجأة من الشمس؟ فإذا كان عليه أن يحكم على هذه الظلال من جديد، وأن يناقش السجناء الذين لم يتحرروا من أغلالهم قط، في الوقت الذي تكون عيناه فيه ما زالتا معتمتين زائغتين، وقبل أن تعتادا الظلمة، وهو أمر يحتاج إلى بعض الوقت، ألن يسخروا منه ويقولوا إنه لم يصعد إلى أعلى إلا لكي يفسد أبصارهم وأن الصعود أمر لا يستحق منا عناء التفكير فيه؟ فإذا ما حاول أن يحررهم من أغلالهم، ويقودهم إلى أعلى واستطاعوا أن يضعوا أيديهم عليه، ألن يجهزوا عليه بالفعل؟

غلوكون: أجل بالتأكيد".

إن لقصة كهف أفلاطون ترجمات ورمزيات كثيرة، لكن في ما يخص هذا الكتاب سنركز على ما قد يجوز لنا تسميته "البرمجة الموروثة"، وهي فكرة مريعة، فهي أحد معوِّقات التقدم الفكري للشخص والتي تجهض تطوره، والشطر الأخير من حوار سقراط وغلوكون يصف لنا خطر هذه البرمجة والعواقب الوخيمة للعيش في قيود إطار مجتمعي منغلق. فالانتماء إلى إطار فكري معين ورفض ما دونه يقود إلى الانقياد الأعمى خلف العديد من الأفكار والعادات التي ربَّما كانت صالحة لوقت ومكان معين (وربما لم تكن صالحة حتى في وقتها!) أي حين عاش القوم داخل الكهف، ولكن حين واتتهم فرصة الخروج من الكهف، أي حين تنقشع الظلال بانتهاء صلاحيَّة الأفكار (الدعوة للخروج من الكهف). لكن كما وضح سقراط في قصته المُعقّدة، فإن أولئك الذين واتتهم فرصة الخروج منه يرفضون ذلك، لأن ذلك يخالف ما عاشوا عليه وعرفوه وألفوه (أو الإطار الفكري كما سماه الدكتور علي الوردي)، ولقد حذَّر السابقون من التشبُّث بأفكار السابقين وتقديسها ومحاربة التجديد بقولهم: "لَا تُكْرِهُوا أَوْلَادَكُمْ عَلَى آثَارِكُمْ، فَإِنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ لِزَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِكُمْ" وربما لهذا السبب نجد هذه المقولة المأثورة متكرِّرة عبر الحقبات والحضارات والقارات [24]. فكل جيل عانى من موروثات الأجيال السابقة الثقافية والدينية والفكرية، لكن الشلل الفكري يبدأ عندما يُصرُّ ورثة ذلك الفكر على إحيائه بعد أوانه والتعايش معه رغم اهترائه، وبذلك يخلق المجتمع نُسخًا من نفسه جراء الإصرار على الالتزام بالمناهج السابقة. وهذا قد يجعله شبيهًا ببحيرة لا تجدِّد مياهها، فتتعفَّن مع الوقت وتتطاير حولها الحشرات.

من الأمثلة التي تثبت أهمية التخلُّص من براثن التقاليد وأعراف المجتمع البالية هو وضع المرأة الهندية والنساء في القرى الهندية والقوانين التي بهتت حقوقها لفترة طويلة. إن قائمة حقوق المرأة المُضطهدة في تلك القرى تطول: حيث يحقُّ للزوج منع زوجته وابنته من العمل والتعليم والرعاية الطبية، كما يحق له أن يُشبع امرأته ضربًا إذا شكَّ أنها تخونه. ويصل الأمر في بعض القرى إلى إحراق الأرملة! حيث يتمُّ حرق المرأة الأرملة وهي على قيد الحياة مع جثة زوجها. ورغم أن الحكومة كانت مدركة لهذه التعدِّيات وحاولت حلها بشتَّى السبل (مثل أن تخصِّص راتبًا للنساء وأن تقوم بالعديد من الحملات التوعوية) إلَّا أنها جميعها باءت بالفشل.

ففي دراسة أجراها العالمان روبرت جونسون وإيميلي أوستر اتضح أنه خلال فترة الحمل في القرى الهندية، يُجهض الوالدان الجنين إذا اكتشفا بأنَّه أنثى، أما إذا كان الوالدان فقيرين ولا يستطيعان تحمل تكلفة زيارة

المستشفى للكشف على جنس الجنين، فإنهما يوظفان خدمة الدايات (أو الولّادات) لخنق الطفلة مقابل دولارين ونصف بعد الولادة.

هناك حالة في علم النفس قد تفسر السلوك أعلاه ويطلق عليه مسمَّى العجز المكتسب أو "Learned Helplessness" والمقصود به هو أن المعاناة بذاتها لا تقودك إلى فقدان الأمل، إنَّما المعاناة التي تعتقد أنك لا تستطيع التغلب عليها هي التي تقودك إلى فقدان الأمل. وما يقود المرء إلى هذه الحالة أو العجز ينتج عن "أسلوب التفسير" عند بعض الأشخاص. أسلوب التفسير هو حديث الذات الذي يخوضه المرء مع نفسه بعد وقوع مشكلة أو حادثة، أي أنها وجهة نظرهم للأحداث السلبية وطريقتهم في تفسيرها. فالأشخاص الذين يستسلمون بسرعة (حتى في مواقف بإمكانهم حلها)، ينظرون إلى الأحداث السيئة على أنَّها دائمة ومطلقة (يشكك المرء في قدرته على التغير للأفضل) وأن مصدرها الشخص نفسه (اللوم الذاتي الدائم) وأنها عامة (تعميم الفشل على كل المستقبل في مُختلف الدروب). هذه القناعات الثلاث التي يُحدِّث بها المرء نفسه بعد أي تجربة سلبية تقود إلى الإحباط، والاكتئاب، والأسوأ من ذلك كله أنَّها تقود إلى تقبُّل الأمر الواقع دون محاولة تغييره أو تحسينه.

بعد كل ذلك، هل حقًّا من المفاجئ أن يرفض المرء (خاصة إذا كان فقيرًا أو مستضعفًا) ترك الأعراف والتقاليد الآمنة واتباع المعرفة التي قد تخالف المسلمات والوضع الراهن وتكون خطيرة؟

لقد فقد ذلك الشخص إيمانه وأمله في العالم، والأسوأ أنه طور إيمانًا جديدًا بأن هكذا يجب أن تكون الأمور. فأصبح من الأسهل عليه أن يستسلم ويكون عاجزًا على أن يقاوم ويحارب السائد في المجتمع.

وهذا ما كانت عليه المرأة القروية الهندية، والتي آمنت أن الحياة لا تأتي بأي صورة أخرى عدا ما هي عليه حاليًّا، حتى لو كان ذلك على حساب صحتها وسلامتها. فعلى سبيل المثال: سُئل المواطن الهندي في مسح ميداني صحِّي على مستوى الهند إذا ما كان من حقه ضرب زوجته في ظل ظروف معينة. أجاب 51% من الرجال "نعم"، ولكن الأدهى والأمر أنَّه عندما سُئلت النساء نفس السؤال (أي إذا ما كانت تؤمن بحق زوجها في ضربها) أجاب ما نسبته 54% من النساء "نعم".

لقد كان الحال ميؤوسًا منه.

لكن لحسن الحظ ظهر تغيير إيجابي في حالة المرأة الهندية. لاحظ روبرت جونسون وإيميلي أوستر تغيُّر تفكير الهنديات في مطلع القرن الحادي والعشرين، حيث أصبحن يرفضن تجاوزات واضطهادات الرجال. وبين عامي 2001م و2006م استرددن الكثير من حقوقهن الإنسانية وبدأت النساء بالانضمام إلى القوى العاملة، وأصبحت العائلات ترسل فتياتها إلى المدارس. وقد جاء التغيير من مصدر غير متوقع.

ولم يكن مصدر التغيير المفاجئ حملة حكومية أخرى أو وعظًا دينيًّا أو تعليمًا أفضل كما قد يتبادر إلى الذهن. إنما كان اختراعًا صغيرًا (وقديمًا حاليًّا وآنذاك!) لكنَّه لم يصل إلى تلك القرى حتى وقت متأخر. ذلك الاختراع هو التلفزيون!

حاولت الحكومة في إحدى المبادرات دعم تلك القرى عبر تمديد الكهرباء من أجل تحسين الأوضاع المعيشية. ومع الكهرباء أتى البث الفضائي والأقمار الصناعية.

كتب أحد الباحثين في الدراسة:

> **"بين عامي 2001 و2006م تمكَّن ما يزيد على 150 مليون منزل هندي من مشاهدة التلفاز للمرة الأولى. أصبحت مواضيع الحديث في تلك القرى فجأة تتمحور حول المسلسلات الدرامية والبرامج الترفيهية، والأخبار من المدن الكبرى في الهند ومن أنحاء العالم...**
>
> **أتاح التلفزيون لتلك القرى مشاهدة العالم الخارجي الحقيقي لأول مرة".**

أن تعيش مُخيّرًا

لقد كانت المعرفة عنصرًا أساسيًّا في تغيّيَر حياة المرأة الهندية وساعدها على التمرد. ومن الوارد جدًّا أن لدينا الكثير من أصحاب المعرفة والأذكياء الذين يؤهلهم ذكاؤهم لتغيير العالم، إلا أنهم لا يقومون بذلك لأنهم لا يعرفون البدائل، أو لإيمانهم بأنهم عالقون في عجزهم لسبب أو لآخر. وكما رأينا سابقًا، مجرَّد فقدان الأمان الأبوي قد يشل مستقبل الطفل.

نستطيع من خلال قراءاتنا السابقة أن نستنتج أنّ بإمكان الذكي الذي يتحلى باكتفاء ذاتي كافٍ أن يتمرد على مجتمعه بدلًا من أن يبرِّر النظم والأعراف السائدة. وبسبب ذلك، يقوم العبقري بتكريس نفسه في خدمة المعرفة، وتحديدًا في المجالات التي يهتم بها.

عند الحديث مع الأطفال، نتعرّف إلى طموحهم وأحلامهم الجامحة، ولعلنا كبالغين نعي أن واقع الحياة الذي قد لا يكون كبيرًا كأحلامهم. فنحن ندرك أنه في نهاية المطاف سيضطرون للاستجابة لاحتياجات سوق العمل عند الالتحاق بالجامعة بدلًا من الاستجابة لأحلامهم. وإذا رأينا الفتى يشذ عن ذلك التخصص المحمود أو التحق بتخصص "لا مستقبل له"، يدفعنا حس المسؤولية إلى توجيه الفتى إلى "التخصّص الصحيح".

يحدث وأد الأحلام هذا بشكل دائم ومتكرر عندما يضطر الفرد للخضوع إلى تعريف المجتمع للنجاح بدلًا من تعريفه الخاص. فقط لأنَّه عجز عن الهرب من ذلك الإطار أو مجابهته، مما يفقده صوته الداخلي.

ولكننا نلاحظ من خلال قراءة سير العباقرة أن الموسيقى التي يسمعونها هي التي تقودهم إلى النَّهم المعرفي. إلا أن أولئك الأشخاص بحاجة لأمان داخلي لحماية تلك الموسيقى، واتباعها، بل والتمرد على المسلمات إذا تطلب الأمر ذلك.

ذلك لأن الإلهام الحقيقي هو الذي يخض واقعنا ويفتح أعيننا على آفاق جديدة، ويعيد تعريف أولوياتنا ويدفعنا لاستكشاف مدارك جديدة. ولكن علينا أيضًا ملاحظة أن الإلهام ينمو في بيئة مُتفتحة ومُتقبلة وخصبة. فالمعرفة والابتكار والقريحة الخلّاقة لا تنضج في عقول مُنغلقة بل في العقول المُتقبلة.

وذلك يتوافق مع أحد أفضل التعاريف لمصطلح العبقرية والذي قدمه لنا الدكتور العراقي علي الوردي في كتابه "خوارق اللاشعور (أو أسرار الشخصية الناجحة)" وقد وضعه لنا مستندًا إلى تعاريف ثلاثة فلاسفة، وهم الألماني آرثر شوبنهاور، والفرنسي هنري برجسون والإنجليزي آرنولد توينبي.

ويذكر الوردي أن الثلاثة اتفقوا في تعريفهم للعبقرية أنها "خروج عن الذات وانغمار في عالم أسمى وأوسع" ما يشير إليه هذا التعريف هو أن العبقري ثوري متمرِّد رافض للمُسَلَّمَات. فهو يرفض الالتزام بما يلتزم به باقي أفراد المجتمع. ولعل هذا هو أحد أهم أسباب شُحّ العباقرة بيننا اليوم. فكون المرء عبقريًّا يتطلب شجاعة للشذوذ عن المجتمع وشجاعة أكثر للدفاع عن فكرة قد تُرفض. فالمرء يميل للتوافق مع مجتمعه لا مخالفته. ويكتب الوردي عن شوبنهاور أنه يرى الإنسان العادي غير مكترث بالمعرفة، وأنها في نظره تسير خاضعةً لإرادة الحياة، بينما في نظر العبقري، المعرفة هي التي تُسيِّر الحياة. ولهذا وجب على العبقري أن يكون منشقًّا وربما ثوريًّا. لكن عليه أن يعلم أن هناك عواقب لذلك وأن المجتمع سيعاقبه على ذلك بأسواط استيائه.

أما أولئك الذين يخضعون للبرمجة المجتمعية، فعلى الأرجح سيصبحون مجرد نسخة "ناجحة" حسب تعريف النجاح في ذلك المجتمع.

كتب المفكر الأمريكي رالف والدو إمرسون مقالةً ذكر فيها:

> **"إن أكبر فضل نعزوه إلى موسى وأفلاطون وملتون هو أنهم أهملوا التقاليد كل الإهمال... ولم ينطقوا بما دار في خلد الناس، بل بما دار في خلدهم...**
>
> **لكننا اليوم قطيع لا يقيم الإنسان منَّا لإنسانيته وزنًا، ولم يتعلم أن يلزم داره ويتواصل مع بحره الداخلي، بل اعتاد أن يتوجَّه شطر الخارج، ويطلب كأس الماء من أوعية الآخرين، مع أننا يجب أن نسير في طريق الفكر وحدنا".**

ولعل الاكتفاء الذاتي يلعب دورًا محوريًّا هنا، فالطفل الذي ينشأ نشأة قوية يتمكَّن من أن يتساءل ويناقش الأمور ويعيد تقييمها كذلك. فهو يعلم أنَّ والديه (بل والعالم بأكمله) يقف في صفِّه ويؤمن بحقه في أن يكون فريدًا وأن يُنشئ منظوره الخاص عن العالم من حوله. أما إذا كانت نشأة الطفل ضعيفة وبائسة وتخلو من دعم الأبوين، فإنه لا يثق في نفسه بما فيه الكفاية. وهذا يعيدنا إلى عقدة الخصاء التي تجعل الطفل يعيش في خوف دائم من أن يفقد رجولته. فالذين نشأوا هكذا يكونون مهزوزين مضطربين، وليس بإمكانهم الاكتفاء بتقديرهم الذاتي بل يتطلَّعون دائمًا إلى تقبُّل الآخرين لهم. فهم ينظرون فقط حيث يسمح لهم المجتمع بالنظر، ويتجنَّبون لفت الأنظار لشخصيتهم "الصغيرة". ولأن فكرة التمرُّد أو التفرُّد ترعبهم، فهم يدفنون أي نداء لا يتناسب مع البرمجة المجتمعية. كتب إمرسون أن المجتمعات تتآمر على فردية المرء وعقلانيته:

> **"إن المجتمع هو شركة برأسمال مشترك، يتفق فيها الأعضاء على أنَّه من أجل ضمان العيش الأفضل، على كل مساهم التخلِّي عن حريته كفرد. فالفضيلة المطلوبة هنا هي الامتثال، والاعتماد على النفس هو نقيض ذلك. فهي لا تحب الحقائق والمبدعين، إنما تمجد الأسماء والعادات".**

وفي ذلك المجتمع تكون غاية الأفراد أن يعيشوا بأمان في ذاك الإطار المجتمعي، وعلى الأرجح يأملون أن يمنحوا أبناءهم نسخة كربونية من حياتهم، وهذا ما قد يفسِّر توارث العائلات التخصّص نفسه أو الاحتراف ذاته وكأنه دين أو قانون. فنجد عائلة من "الأطباء" أو "المهندسين" أو "المحامين"، وأي شاذ عن صراطهم يُنظر إليه ككيان غريب معقَّد وصعب الفهم.

قد نعتبر النص السابق سوداويًّا، ونحاول إقناع ذواتنا بأن الشخص لا بد أن يتخلَّص من هذه الالتزامات القسرية عند نضوجه واشتداد عوده. ولكن الأدلة تثبت لنا صعوبة التَّخلص من تلك الشوائب والاضطرابات الداخلية في

بعض الأحيان، خاصة إذا ما احتفت بها وشجَّعتها البرمجة المجتمعية. إن هذا الخنوع هو مضاد الأنفس العظيمة، وذلك بالنسبة إليه مثل انشغال المرء بظله على الجدار بدلًا من البحث عن مصدر الضوء.

أما النظام التعليمي فإنه يزيد الطين بلّة.

لقد فضل الكثير من المجتمعات أن ينتج النظام التعليمي أشخاصًا مكررين، فهو مبنيّ على فكرة التقليد والتكرار واستنساخ الخبرات، بل إننا في المدرسة نتعلم أن هناك إجابة واحدة لكل شيء، والمعلم التقليدي في الفصل الدراسي التقليدي يمثل تلك السلطة التي تجيز الإجابة أو ترفضها. هنا ينحرف تفكير الطالب من البحث عن الإجابة الصحيحة إلى البحث عن الإجابة المناسبة التي ترضي المدرس. وهذا النوع من السلوك يجعلنا نهمل فرديتنا وفضولنا. لعل هذا ما قصده أينشتاين عندما قال: "إنها معجزة! أن ينجو الفضول من التعليم الرسمي". فأنت ببساطة إذا حاولت خلق تعاريفك وأجوبتك الخاصة، فإنك على الأرجح تحيد عن الإجابة الصحيحة التي تحدد درجتك ومُعدلك بين أقرانك. أي أنه كلما التزم الفرد بآلية نظام التعليم أكثر، خسر تمرده وفضوله وفرديته وأصالته أكثر، وأصبح جيدًا في التقليد وإتقان ما يتم تلقينه إياه فقط.

هناك الكثير من الأفراد الذين تخلَّوا عن فضولهم واهتماماتهم للتركيز على المتطلبات الدراسية أو الوظيفية، وبذلك انزلقوا إلى فخ النفس المزيفة أو الإيمان الباطل. لأنه في واقعنا الحالي، هذا ما تحتاجه لتحصل على وظيفة وتعيش حياة مقبولة مقارنة بوضع أقرانك. وفي أحيان كثير يجبر الأفراد أنفسهم على التركيز على دراستهم ووظيفتهم وتجاهل فضولهم وشغفهم. ثم مع مرور الوقت والعمر نصل إلى تلك المرحلة التي نضطر فيها لدفن اهتمامنا وفضولنا تمامًا بسبب زيادة عدد أفراد عائلتنا وارتفاع مناصبنا الوظيفية وزيادة مسؤولياتنا. فلا يصبح لدينا الكثير من الوقت لنضيِّعه في التركيز على شغفنا! وهذا قد يقودنا إلى نوع من الإحباط والكآبة.

قد يكون المرء محظوظًا ويعمل في وظيفة تتوافق مع شغفه، لكنه في نهاية اليوم سيضطر للعمل بحسب متطلبات رب العمل واستيفاء متطلبات النجاح بالطريقة المحدّدة له مسبقًا. وستكون المساحة المعطاة لقريحته الخلَّاقة محصورة بين متطلبات ساعات العمل وإطار العمل المطلوب ومسؤوليات العائلة.

ولعلّ ذلك ما دفع الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور إلى أن يقول:

"... الذي يحلم بعرفان الجميل من جانب معاصريه ينبغي له أن يضيِّق من خطاه لتحاذي خطاهم. لكن الأشياء العظيمة لا تتحقق أبدًا بتلك الطريقة...

والتواضع قد يكون سمة يبتهج لها الناس في أصحاب العقول العظيمة. إلا أنها، للأسف، سمة تتناقض تمامًا مع وجود العبقرية أصلًا. فالتواضع، إذا ما اتصف به العبقري، سيرغمه بالضرورة على إعطاء الأسبقية لأفكار السواد الأعظم من الناس وآراء الكثرة الساحقة منهم ومناهجها وأساليبها... ويضطر تبعًا لذلك... أن يكتم أنفاس فكره الأصيل حتى يفسح المجال أمام ضجيج الملايين الحاشدة، ويفقد بذلك القدرة على كل إبداع... بينما الأعمال الأصيلة ذات التفرد لا يمكن الإتيان بها إلا حيثما كان المفكر أو الفنان منصرفًا عن آراء معاصريه ومعتقداتهم ومباهجهم، منكبًّا على عمله في هدوء، غير مبالٍ بانتقاداتهم".

لذلك يجب أن يتقبّل العبقري أن تجد فكرته الكثير من المعارضة وعليه أن يكون متصالحًا مع فكرته. فهو يجب أن يكون متمردًا قادرًا على تحمل النقد لأنه سيواجه الكثير من المعارضات لوجهة نظره. بل إن نيكولا مكيافيللي حذر من ذلك لما كتب في كتابه "الأمير":

"ويجب أن ندرك أنه لا يوجد أصعب من بدء نظام لتسيير الأمور وتنفيذه. لأن من يريد الإصلاح لا بد له من أعداء وهم جميع من كانوا يستفيدون من النظام القديم، وهناك من يؤيدونه بفتور... ويرجع هذا الفتور إلى أن الناس لا يؤمنون بالجديد إلا بعد أن يجرّبوه فعلًا".

* * *

يجب هنا التفريق بين الابتكار الذي يحسن الوضع الراهن والابتكار المُتمرد الذي يغير الوضع الراهن، وكما ذكرنا سابقًا سيكون مجمل حديثنا عن تلك التي تخلق سوقًا جديدًا وتدفن سوقًا قديمًا من خلال تطوير جذري يغير المعايير بشكل كامل (سواء كان ذلك في مجال العلم أو الطب أو التقنية أو الفن، إلخ...). أي أن الابتكار الراديكالي في جوهره هو ثورة وتمرد على الوضع الراهن. فعلى سبيل المثال، ألغت موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية والمجانية الحاجة لشراء موسوعة بريتانيكا Encyclopedia Britannica التي طورتها مايكروسوفت خلال عشر سنوات! وهناك أمثلة كثيرة ومشابهة في عالمنا الحديث مثل الهواتف الخلوية والحواسيب المحمولة، والأجهزة الطبية، وطرق التنقل والسكن.

يأتي التمرد في صورتين. الأولى، التي حدثنا عنها مكيافيللي، في التمرد على الأفكار والنهج السابق والخروج عنه (مثل ما قرأنا في قصة المرأة الهندية)، والثانية في أن يتحلى المرء بالشجاعة ليواجه عواقب التمرد. ففي معظم الأحيان، أن تكون لديك فكرة جديدة معناها أنك ستزعج أحدهم، ولا بد

أن تكون متصالحًا مع تلك الفكرة (أو الحقيقة)، وقد لخصها البرفسور جوردان بيترسون حين قال: "القدرة على التفكير قائمة على المخاطرة في أنك قد تسيء للناس". فالعديد من الأفراد مثل تشارلز داروين، ونيكولا تسلا، وسيجموند فرويد وغيرهم، علموا أن أفكارهم لن تلقى قبولًا، لكن ذلك لم يمنعهم من مواصلة البحث. فالخوف من التمرد أو من الفشل قد يشل أفكارنا الجيدة، مثل ما حدث في حالة كوبرنيكوس حيث أخفى حقيقة أبحاثه لمدة 22 سنة! كما مزق سيزان رسوماته لأنه كان قلقًا من أن العالم لن يرحب بها.

لا مفر للعباقرة وأصحاب الأفكار الجديدة من أن يكونوا مُتمردين فكريًّا ونفسيًّا، فأفكارهم تشذ عن المعتاد ولا تنسجم مع أفكار العامة، وهذا ما يجعلها تغيِّر حياتنا. ولعل الخضوع والانصياع للمتطلبات الاجتماعية هما أحد أهم المعوقات التي تواجه البشرية اليوم. فالمرء يُفضل أن يمارس ما لا يهواه لاستيفاء القبول الاجتماعي أو الحصول على دخل أعلى. ومن الملاحظ أن المجتمعات كوَّنت نظامًا أو مقياسًا لتعريف النجاح لديها عبر السنين. وبالتأكيد يختلف هذا التعريف من مجتمع إلى آخر بحسب الخلفية الدينية والتاريخية والاقتصادية والسياسية. فقد تُعتبر ناجحًا في أحد المجتمعات بمجرد امتلاكك قطيعًا من المواشي، بينما عليك أن تمتلك لقبًا وظيفيًّا مميزًا وشقة واسعة وسيارة فارهة وأن تسافر في الإجازة السنوية لتكون ناجحًا في مجتمعات أخرى! وقد يُقاس نجاحك أو قبولك في المجتمع بمدى التزامك بالتعليمات الدينية، وفي مجتمعات أخرى لن تُعد ناجحًا حتى تسعى جاهدًا في ارتقاء السلم الوظيفي كاليابان مثلًا.

ونذكر هنا قول الفيلسوف اليوناني أرسطو: "هناك طريقة واحدة فقط لتتجنَّب الانتقادات. لا تفعل شيئًا ولا تقل شيئًا ولا تصبح شيئًا!".

الجزء الثاني

طور الشغف

القبيلة (أو الفضوليون) "بالإمكان القول إن القبائل (وليس المال أو المصانع) هي التي ستغيِّر العالم، وهي التي ستغيِّر السياسة. فهي الوحيدة القادرة على أن تنظِّم مجموعة كبيرة من النَّاس، ليس عبر إجبارهم في أن يقوموا بشيء خارج عن إرادتهم ولكن لأنهم أرادوا أن ينتموا إلى مجموعة".

المؤلف سيث جودين،

كتاب "قبائل"، عام 2008م

فضاء الإبداع

ماذا لو وُلد شخصٌ طموح في بيئة تقتل الطموح وتخلو من التشجيع والتحفيز؟ تصوِّر لنا بعض الكتب (وكذلك أفلام هوليود) العبقري كشخص وحيد يعمل في معمله أو مكتبه وهو غارق بين أوراقه دون أن يهتم بأحداث العالم أو بالملذات التي يسعى إليها أقرانه، وكأن ذكاءه سيكفيه العالم! لكن التدقيق في سيرته يخبرنا قصصًا مختلفة.

فماذا لو وُلد العبقري دون أن ينتمي إلى قبيلة ترعى شغفه وتعتني به؟ هل سيكون هذا نهاية مطاف أحلامه؟

حتى نفهم هدف السطر السابق، علينا أن نطلع على أفكار ستيفن جونسون، مؤلف كتاب "من أين تأتي الأفكار الجيدة؟" حين قال: "أمضيت وقتًا طويلًا في التّفكير بالمقاهي... لأنّني كنت بصدد البحث للإجابة عن سُؤال ما هو مصدر الأفكار الجيّدة. ما هي البيئات التي تقود إلى مُستويات غير مسبوقة من الابتكار، إلى مُستويات غير مسبوقة من الإبداع؟ ما هو نوع البيئة؟ ما هو فضاء الإبداع؟... دور المقاهي كان حاسما لِتَطوّر وانتشار بعض أعظم الإنجازات الفكريّة لخمسمائة سنة الماضية، وهي ما نسمّيه الآن فلسفة التّنوير.. الذي

جعل من المقاهي على هذه الدّرجة من الأهميّة هو هندسة المكان. كان مكانًا يجمع أناسًا من خلفيّات متنوّعة، مجالات اختصاص مختلفة، ومشتركة. كان مكانًا يمكن أن تتوالد فيه الأفكار...".

بإمكاننا التفكير في كلمات ستيفن جونسون من منظورين. الأول هو النظر في أمثلة مباشرة وشائعة من المقاهي حيث يلتقى أشخاصٌ يتشاركون فضولًا مُعينًا ويتناقشون ويتناظرون في المواضيع التي تثير فضولهم وتبادلوا خبراتهم فيها [25].

لعل أشهر مثال على ذلك هو المقهى الباريسي الشهير: مقهى "غربوا".

في أواخر القرن التاسع عشر، كان هذا المقهى محطة مناقشات بين الفنانين والكتاب وعشاق الفن البوهيميين. وكان الفنان الرائد في هذه الجلسات إدوارد مانيه، وعادة ما انضمت إليه شخصيات مهمة في ساحة الفن الفرنسية، مثل: الروائي إميل زولا، والرسام فريدريك بازيل، والناقد الفني لويس إدموند دورانتي، والرسام هنري فانتين - لاتور، والفنان إدغار ديجاس، والرسام كلود مونيه، والرسام بيير - أوغست رينوار والرسام ألفريد سيسلي. كذلك انضم إليهم الرسامون المهمون بول سيزان وكاميل بيسارو (بعد سنوات، أصبح سيزان يصف نفسه أنه تلميذ بيسارو). وكانوا يجتمعون في المقهى عادة أيام الخميس والأحد. بالإضافة إلى النقاشات العامة عن السياسة والحالة الفنية والمجتمعية آنذاك، كان هؤلاء الفنانون المغمورون (آنذاك) يمارسون الرسم مع بعض، ويرسمون بعضهم بعضًا، ويدعمون بعضهم الآخر عاطفيًّا ومعنويًّا وماديًّا. فبرغم أن أعمالهم اليوم تغطي جدران أهم المتاحف حول العالم، إلا أنهم آنذاك كانوا مهمشين لدى المجتمع الفني الباريسي، ولم يشترِ سماسرة الفن أعمالهم، بل إنهم كانوا فقراء فقرًا مدقعًا (كان سيزان لا يصافح الناس بعض الأحيان لأنه لم يستحم لعدة أيام فتصبح رائحته شنيعة ويداه ملطختين بالألوان. أما رينوار فلم يملك مالًا كافيًا لشراء طابع بريدي لرسائله، لكن ذلك لم يمنعه من إحضار الخبز لصديقه مونيه الذي كان يتضور جوعًا)، إلا أن جهودهم كوفئت إذ أنهم أسسوا ما نعرفه اليوم بالمدرسة الانطباعية، والتي رفضها المجتمع الفني الباريسي حينها ورفض تعليق تلك اللوحات في متاحفها.

لعل أقرب نسخة مشابهة لمقهى "غربوا" في العالم العربي هو مقهى الفيشاوي الواقع في حي الأزهر في مدينة القاهرة بمصر. وقد حصل المقهى على شهرته بفضل الأديب المصري العالمي نجيب محفوظ، إذ كان مقهى الفيشاوي مقهاه المفضل، حيث شهد المقهى الكثير من المسوّدات الأولى

لرواياته، وكان بمثابة فضاء حي يلتقي فيه أصدقاؤه ومعشر الكتاب والفنانين. من أشهر رواد المقهى جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش وسميحة أيوب وكمال الشناوي وعزت العلايلي وفاروق الفيشاوي.

وبدراسة قصة النازح الألماني ألبرت أينشتاين، نجد مجمعًا مشابهًا، فبعد تخرُّجه من معهد ETH Zurich عام 1900م، كان يظنُّ أنَّه سيعمل فيها كمساعد مدرِّس، لكنه لم يحصل على تلك الفرصة بعد أن رفضت الجامعة طلبه. كان غاضبًا ومحبطًا إلَّا أنَّه عمل مدرسًا خصوصيًّا للرياضيات والفيزياء. لكن حتى خلال فترة بحثه عن عمل، لم يتوقف أينشتاين أبدًا عن كتابة بحوث علمية. وقام بتأسيس نادي أكاديمية أولمبياد في مدينة برن السويسرية مع اثنين من أصدقائه، ولمدة سنتين ونصف، كانوا يجتمعون عدة مرَّات في الأسبوع في مقهى متروبول لمناقشة كتب فلسفية وفيزيائية وأخلاقية ومنطقية (أحدهم، شاب باسم مارسيل جروسمان، أخبر والديه حينها أن صديقه سيكون له شأن عظيم!) ودخّنوا الغليون وشربوا القهوة المثلجة.

هذا النوع من المساحات العفوية تعد فسحة آمنة ومريحة لأصحاب الأفكار الحرة إذ أنها تسمح للأفكار بالتوالد والتحسن وتتيح للمفكرين نقاش أفكارهم وتبادلها. وكان ذلك يتم بعيدًا عن المساحات التي تقيد الفضول وتكبت الشغف (مثل المباني الأكاديمية الصارمة وغرف الاجتماعات الباردة والتي ترتع في وحل البيروقراطية) وهذا النوع من الفضاء المباشر الذي يتيح لأفراده تبادل الأفكار وتنفس هواء الابتكار والإبداع، هو فضاء يهندس بعناية.

لكن هناك فضاءً من نوع آخر، وهو فضاء عفوي، ويكون على نطاق أوسع من المساحات المغلقة (رغم أنها أثبتت فعاليتها). فعندما ندرس بعض الحضارات والدول، نكتشف أنهم أنشأوا مساحات حرة مكنت كثيرين من تطوير مهارة معينة (ليس بالضرورة إبداعية).

ودائمًا ما يثير ذلك فضولنا ودهشتنا، فكيف لشريحة كبيرة متناثرة في دولة معينة أن تتفوق في صنعة معينة؟

يحصل كثيرًا أن ننظر إلى مجتمع ما وننبهر من تفوّق أفراده في صنعة معينة (سواء كانت فكرية أو جسدية). فمن المتعارف عليه مثلًا تفوق الكينيين كعدَّائين.

يكتب الصحفي البريطاني ماثيو سعيد (هو نفسه بطلٌ في رياضة تنس الطاولة وأحرز عدة ألقاب عالمية): "بحسب ما هو مُوثّق، فإن ظاهرة تفوق العدَّائين الكينيين في سباق الـ 800 متر مذهلة... فمنذ عام 1968م، حصلوا على ثلاث وخمسين ميدالية في الألعاب الأولمبية، منها سبع عشرة ميدالية ذهبية. بالإضافة إلى أن العدَّائين الكينيين حصدوا اثنتي عشرة بطولة من أصل أربع عشرة بين عامي 1986م و2000م".

هل هناك طفرة جينية تجعل العدائين الكينيين متفوقين؟

قبل طرح الإجابة، لندرس حالة أخرى أيضًا.

يشتهر الموريتانيون (المعروفون باسم الشناقطة [26]) بسمعة غريبة في العالم الإسلامي، حيث عُرف عنهم قدرتهم المذهلة على الحفظ والاستحضار. أطفالهم يحفظون القرآن الكريم في سن مبكرة. وعندما سُئل الطفل الموريتاني العلَّامة محمد فاضل [27] متى بدأ حفظ القرآن الكريم، أجاب بأنه بدأه في السادسة، وختمه في الثامنة. ولا يعتبر العلَّامة حالة استثنائية أو معجزة بين أقرانه، فالكثير من أبناء بلده ينجزون الإنجاز نفسه وفي السن المبكرة نفسها.

كتب محمود بن محمد المختار الشنقيطي في بحث بعنوان "لماذا الشناقطة يحفظون؟": "كثيرون أولئك الذين يتدرونني بهذا السؤال حين يضمني وإياهم مجلس، فيدور الحديث حول مسألة الحفظ باعتبارها من أهم قضايا طلب العلم الشرعي، فيسألونني عن أسباب ظاهرة قوة الحفظ عند قومي، ولماذا كانت أهم سمة في علماء الشناقطة - الذين رحلوا إلى المشرق واتصلوا بالأوساط العلمية - القوَّة الفذّة والقدرة الفائقة على استحضار النصوص؟".

الجواب على كل هذه الحالات السابقة له علاقة تكاد تكون ضئيلة بالجينات، وعلاقة أوطد بالبيئة المحيطة. وما نعنيه هنا بالبيئة هو معنى يتجاوز المنطقة الجغرافية أو طبيعتها، إنما نتحدث عن نوعية البيئة المحفِّزة لتفوق العبقري.

إذًا، ماذا عن تفوق العدَّائين الكينيين؟

يعود الفضل في تفوقهم للبيئة التي نشأوا فيها، وبالتحديد الطبيعة الجغرافية، حيث يركض الأطفال يوميًّا من البيت إلى المدرسة والنهر

والمزرعة. ففي ذلك الجزء من العالم تُقضى كل الحوائج بالركض. بل قدَّرت دراسة بأنَّهم يركضون في اليوم قرابة العشرين كيلومترًا. بل حسبها الصحفي ماثيو سعيد بأنَّهم يركضون ما يقارب تسعين ساعة في الأسبوع، وخمس مائة ساعة في السنة! وفي الوقت الذين يصلون فيه إلى منتصف المراهقة، يكونون قد حصلوا على ما يزيد على ستة آلاف ساعة ركض! ولأن جغرافية المناطق التي يقطنونها تتميز بأنها عالية الارتفاع، فهي تساهم في تطوير بنيتهم الجسدية أكثر، فالركض في المرتفعات يزيد من قدرة تحمل العدَّاء لأن الهواء الضئيل يجبر الجسد على إنتاج خلايا دم حمراء أكثر مما يزيد بدوره من معدل العزم والتحمل. وهذا عامل يحاول معظم الرياضين إضافته إلى تمرينهم.

أما أسباب تفوق الشناقطة فهي مشابهة جدًّا. كتب محمود بن محمد المختار الشنقيطي في بحثه الذي أشرنا إليه سابقا، حيث يصف فيه زيارته لبعض المدن والقرى الموريتانية، وذكر كثيرًا من مآثرهم في الحفظ والتفوق الذهني. وفي فصل بعنوان: "طرق الحفظ لدى الشناقطة"، وصف فيها عدَّة طرق للحفظ، منها التعليم الزُّمَري، قائلًا: "هي دراسة جماعية يشترك فيها مجموعة من الطلبة متقاربي المستويات يقع اختيارهم على متن واحد يدرسونه معًا، حصةً حصةً، يتعاونون على تكراره واستظهار معانيه، يتحاجّون فيه، وينشِّط بعضهم بعضًا على المواصلة والاستمرار ومدافعة السآمة والملل".

ووصف طريقة أخرى حيث يصب الطلبة تركيزهم على بداية الحفظ والمراجعة المستمرة للمحفوظ: "عدد تكرار الطالب المتوسط للقدر المراد حفظه من مائة مرة إلى ألف مرة... فيجلس طالب العلم يكرر لوحه بصوت مرتفع في الصباح ثم يعود إليه بعد الظهر ثم بعد المغرب، ثم من الغد يبدأ بمراجعته وتسميعه قبل أن يبدأ في درس جديد".

هل لاحظت كمية الجهد المجتمعي في هذا النهج؟

فأن تكون متفوقًا في الركض، أو حفظ المتون في سن مبكرة، يعتمد بشكل ضئيل على طفرة جينية أو ملكة طبيعية، ويستفيد بشكل رئيسي من بيئة مجتمعية تُلهم الشخص في سن مبكرة ليعمل بجد واجتهاد على شغفه، وتوفر له سبل التدريب والتعليم التي تتيح له التفوق في ذلك العمر المبكر.

وهذا يتوافق مع ما كتبه ديفيد جالنسون عن تلك العلاقات: "تقريبًا، كل الفنانين الناجحين في بداية مسيرتهم الفنية طوروا فنهم بمرافقة فنانين آخرين من جيلهم نفسه".

النجاح يُولَد النَّجاح والشغف يُولَد الشغف.

لماذا هذه الفكرة مهمة؟ إلى جانب تشارك النصائح والخبرات والتي تحسن الأداء والمعرفة، أحد أهم الجوانب المهمة في هذا المسار هو العامل البشري. فربما حُرم بعضنا من الاكتفاء الذاتي، الذي تناولناه، لسبب أو لآخر، وقد يساهم أقرانك في تحسينه حتى يصل المرء إلى نقطة تقدير الذات واحترامها والإيمان بالنفس. بعضنا الآخر قد لا يملك دافعًا قويًّا للالتزام بالشغف والاحتفاظ بتلك الجذوة مشتعلة. وقد تنطفئ تلك الجذوة، ليس كسلًا وتقاعسًا، إنما لأن الطريق إلى الشغف طويل ووعر وصعب. فقد يكون الشخص وُلد في عائلة مُثبطة حطمت مجاديف أحلامه. وقد يكون خائفًا أو غير قادرٍ على التشبُّث بأحلامه لوقت طويل. فمنبع الإصرار وقوته يختلف لكل شخص، فقد يتكوَّن الإصرار بسبب الظروف الاقتصادية التي تجبر المرء على المكافحة للعيش. وقد تكون نتيجة ولادة الشخص في عائلة شجَّعته على التطبُّع بالإصرار (كما أثبتت دراسة عالم النفس بنجامين بلوم على الأطفال العباقرة، وأثر الأبوين عليهم). وبينما قد ينجح البعض في تطوير حس إصرار داخلي يقودهم إلى أهدافهم، إلا أن الآخرين قد يكونون من أصحاب الهمم الضعيفة لأسباب كثيرة قد يتخللها التخاذل أو التسويف اللذين يؤديان إلى عرقلة إصراره وتطوره.

من جاور السعيد

يناقش الأدب النفسي نظرية العاطفة الاجتماعية الانتقائية (Socioemotional Selectivity Theory)، والتي تنص على أنه كلما نضج الشخص، فإن حرصه على وقته ينضج كذلك. ويأتي ذلك في مسارين مختلفين. الأول في اختياره لعلاقاته الاجتماعية (حيث يفضل المرء قضاء وقته مع الأشخاص المقربين إليه أكثر) والثاني في أهدافه المستقبلية (سواءً كان ذلك في المعرفة التي يريد اكتسابها وتطويرها، أو الوظيفة التي يسعى إليها، أو علاقاته الاجتماعية الجديدة).

تكتب عالمة النفس لارا كارستينون (مُطورة النظرية): "تعتبر نظرية العاطفة الاجتماعية الانتقائية أن الأفراد ذوي الأهداف المستقبلية والأهداف الاجتماعية يستفيدون من شبكات اجتماعية مختلفة. تنمو الأهداف المستقبلية (مثل تنمية المعرفة وتطوير الذات) في الشبكات الاجتماعية التي تفتح المجال لانضمام العديد من الأعضاء الجدد. فهم يمكِّنون الأفراد من الحصول على المعلومات وتكوين شبكة معارف اجتماعية جديدة ومفيدة".

وعندما نناقش الفضول والشغف علينا تطبيق دروس نظرية العاطفة الاجتماعية الانتقائية حتى نتمكن من التخصّص في مجال معين وتطويره. وذلك يجعلنا انتقائيين في اختيار أولئك الذين نقضي وقتنا معهم وحريصين في تنظيم وقتنا. فحتى نتمكن من التعمق في الدراسة مثلًا علينا تكريس وقت أكثر في قراءة الكتب بدلًا من الألعاب الإلكترونية، وحتى نتمكن من تحسين صحتنا، علينا ممارسة المزيد من الرياضة على أرض الواقع بدلًا من مشاهدتها على التلفاز. وقد تصبح عطلة نهاية الأسبوع فرصة لاستكشاف شغفنا بدلًا من قضائها مع العائلة والأصدقاء. إذًا سنضطر إلى التضحية في مرات عديدة من أجل الموازنة بين الوقت واهتماماتنا المختلفة المترتبة على الشغف. ولأن بذل هذا المقدار من الوقت صعب جدًّا ومتعب، فمن المتوقع أن يفضِّل الكثير إهمال شغفهم نظرًا لما يتطلبه من تضحيات.

لكن الانتماء إلى مجتمع أو "قبيلة" يغير ذلك. تتحدث عالمة النفس أنجيلا دوكورث عن أهمية البيئة، وتُعرِّفها بأنها منظومة العادات والقيم التي تعيش وفقها مجموعة من الناس، أي أنها لا تتعلق بمجموعة من الناس الذين يتشاركون نفس المنطقة الجغرافية، إنما بالحالة العقلية والنفسية التي يعيش بها ويتشاركها مجموعة من الناس [28]. كتب أحد الرسامين عن أهمية هذا النوع من البيئات: "يهمني كثيرًا التواصل مع مجموعة من الرسامين الذين تتوافق أفكارهم معي، فالإلهام لا يأتي من فراغ. لقد عملنا على أفكارنا من خلال مناقشة التفاصيل. لن يفيدني كثيرًا أن أعزل نفسي في الريف، فالمرء يعتمد على محيطه. لذلك فإن التعامل مع فنانين آخرين يهمني كثيرًا، فقد زوَّدني بالحصيلة المعرفية التي احتجتها...

كانت هناك لحظات نادرة واستثنائية حينما كنا نعمل معا ونكوِّن مجتمعًا عفويًّا...".

للأسف في الكثير من الحالات نغفل عن أهمية هذا النوع من التواصل المحوري عندما نتدارس تطور حياة العبقري.

قد توحي النصوص أعلاه بأن القبيلة يجب أن تكون مجتمعًا كاملًا أو مدرسة متخصصة. ولكن في الواقع قد تكون القبيلة بعض الأحيان مقتصرة على شخصين يكملان بعضهما، مثل حالة الآنسة ماري كوري البولندية والتي حصلت على جائزتي نوبل، في الفيزياء (عام 1903م) ثم الكيمياء (عام 1911م). فقد حصلت على الجائزة الأولى بالتشارك مع شريك حياتها وزوجها بيار كوري لاكتشافهما عنصري البولونيوم والراديوم بعد قرابة عقدين من الزمن والبحوث المشتركة، إذ التقت به خلال دراستها في السوربون سنة 1894م،

حيث كان يعمل بالتدريس في مدرسة الفيزياء والكيمياء الصناعية في باريس وكانت ماريا قد بدأت عملها العلمي في باريس بأبحاث حول خواص أنواع الفولاذ المختلفة المغناطيسية. وكان الفضول المشترك لماريا وبيار بالمغناطيسية هو ما جمعهما سويًّا. وبإمكاننا رؤية شراكة مشابهة بين العالمين جيمس واتسون وفرانسيس كريك حيث أنتجت شراكتهما اكتشاف الحمض النووي (DNA) بعد سنتي عمل.

وربما يكون العالم تشارلز داروين هو أقرب صورة نجدها لذلك العالم المنعزل (يطابق نموذج "نظرية البطل" الذي أشرنا إليه سابقا، أي العبقري الذي يصل إلى اختراعاته واكتشافاته وحيدًا في معزل عن البقية)، إلا أنه في الواقع وظف البريد والرسائل للتواصل مع علماء آخرين وكوَّن قبيلته الخاصة بالتواصل معهم من خلال فن الرسالة (علاقة بريدية)، وبذلك تمكّن من نقاش أفكاره خارج جدران منزله ومدينته ودولته. ويوثق عنه أنه كتب ألفًا وخمسمائة رسالة في سنة واحدة فقط (أي بمعدل أربع رسائل في اليوم)، بل إنه تبادل ما يقارب الـ 40 رسالة مع واحد منهم فقط!

وحين تنتمي إلى مجتمع أو قبيلة حيث يتوافق الشغف، ستكون هناك منافسة حامية الوطيس بينك وبين أفراده، حيث سترى الجميع يضحون بوقتهم كما تضحي أنت بوقتك، ويعانون كما تعاني أنت، وستشهد تطورهم كما ترجو أن تتطور أنت. فهذه المنافسة صحية وتقدِّم لنا نسخة إيجابية من ضغط الأقران فذلك المجتمع سيصون جذوة فضولك ويطور إصرارك والتزامك. وعندما يعمل الجميع لغاية متشابهة ونحصل على التوجيه والتعليم الكافي لتطوير فضولنا أكثر، سنمتلك أهم خاصية إيجابية تقدِّمها لنا القبيلة تجاه شغفنا، وهي خاصية الاستدامة.

للإبداع ثلاث تاءات

اكتشف العلم الحديث أن تأثير البيئة ليس محصورًا فقط بتطورات ميكانيكية (مثل الذاكرة لدى الشناقطة والتطور الجسدي لدى الكينيين)، بل إنه ذو أثر كبير في تطوير الإبداع والقدرات الذهنية (سواء في العلوم أو الفنون) وروح الابتكار. حيث أثبتت أبحاث بروفيسور العلوم السياسية رونالد أنجلهارت من جامعة ميتشيجان أنَّ من الممكن التنبؤ بالبيئات التي تمكّن روح الإبداع والازدهار. وذكر أن هذا النوع من البيئات المحفزة موجودة في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأوروبية التي تتقبَّل "الآخر"، حيث يكون

الأشخاص فيها من جنسيات وأعراق مختلفة، مع وجود الاحترام بين الجميع والمساواة بين الرجال والنساء في ذلك المجتمع.

كما يذكر البروفيسور وعالم الاقتصاد ريتشارد فلوريدا من جامعة تورنتو أن مثل هذه المناطق الجغرافية تحتضن الإبداع وتصقله وتحتفي بالمبدعين. وقد استثمر وقتًا طويلًا في دراسة ما سمَّاه بالشريحة الإبداعية، وهي الشريحة نفسها التي وصفها رونالد أنجلهارت. وفي سعيه للتعرُّف أكثر على صفات هذه الشريحة، وعبر دراسة البيئات الإبداعية والخاملة، اكتشف فلوريدا أن هناك ثلاثة عوامل تدلُّنا على ما إذا كانت القبيلة تصقل الإبداع، أو لا تتفاعل معه، أو ترفضه، وعن ذلك كتب: "**المفتاح لفهم الاقتصاد الجغرافي الجديد للإبداع وأثره الإيجابي على المخرجات الاقتصادية هو ما أسميه بـ Ts3 وهي: التكنولوجيا (Technology)، التميز (Talent) والتقبُّل (Tolerance)**".

كتب فلوريدا عن العامل الأول: "التكنولوجيا في مجمل صورها، من اختراعات جديدة مثل البرامج والروبوتات والتقنيات الحيوية، إلى التطورات في نظم التصميم والعمليات، تجعل الاقتصاد والمجتمعات أكثر فعَّالية وإنتاجية". هذا المنظور ليس محصورًا بعصرنا، بل إن عديدًا من اقتصاديي الحقبات السابقة، مثل كارل ماركس وجوزيف شومبيتر، آمنوا بأهمية التكنولوجيا.

أما عن التميز: فقد أجمع الاقتصاديون على أن المحرِّك الرئيسي لأي تطور مجتمعي هو أفراده المتميزون بمواهب فريدة وتعليم جيد وروح طموحة وريادية. ويشير فلوريدا إلى أن هذا النوع من المساحات يجذب المبدعين.

أما نقطة التقبُّل، فقد ناقشنا نسختها المصغرة الفردية سابقًا حين تحدثنا عن أهمية التقبل كصفة شخصية تمكّن المرء من تفعيل فضوله وذكائه. أما هذا النوع من التقبل على مستوى أكبر، إذ يؤمن الكاتب أن السبيل إلى تنمية الاقتصاد (بالإضافة إلى التكنولوجيا والأفراد المميزين) هو البيئة ذات الجنسيات والخلفيات والاهتمامات والهوايات المتنوعة، فهي بيئة تتيح للمرء التعبير عن ذاته بحرية (سواءً كان ذلك في الفن أو العلم أو الدين أو أي مجال آخر) وهذا ما يدعم نقطةً سبق أن تحدّثنا عنها، وهي أنَّ المبدع إذا لم يكن متمردًا على المجتمع من حوله، فإنه لن يستطيع التعبير عن ذاته، وستظل أفكاره حبيسة عقله. لكن هجرته إلى "قبيلة" مُتّقدة وشغوفة قد تمكِّنه من ذلك. لذلك نلاحظ أن الشركات إذا أرادت النجاح فإن عليها التركيز على بناء مناخ ملائم وآمن يحتوي كل تلك الاختلافات الثقافية، والسماح بخلق منطقة خصبة لتوالد الأفكار من خلال هذا التفاعل. حيث تحتفي تلك البيئة بمناهج

مختلفة وطرق فكرية جديدة عن الطرق التقليدية والتي عادة لا تقود إلى الإبداع المنشود. تخيل مثلًا أن تعمل مع موظف ترفض جنسيته أو لون بشرته أو ديانته أو منظوره السياسي؟ أو أن تكون في شركة أو مجتمع حيث هناك تحزّبات ضد الوافدين أو رفض للجنس الآخر؟ ما سيحدث حينها أنه عندما تستقطب الشركة أو المجتمع أفرادًا متميزين، فإنهم لن يظلوا في تلك البيئة لفترة طويلة لأنَّ أفرادها سيوصدون أبواب عقولهم ضد سيل الأفكار والإبداع وسيحرصون على إبقاء السبل والمناهج التقليدية.

ذكر فلوريدا كذلك في نظريته أن المجتمع المتنوع الذي يتقبل الغير هو مجتمع يحتضن الإبداع لأن من ضروريات الإبداع تقبل الجديد. وتقبل الغير (سواءً كان جنسًا أو جنسية أو عرقًا أو أفكارًا مختلفة) هو دلالة قوية وإيجابية على استعداد المرء للإقبال على تجارب خلَّاقة وتعلم مهارات جديدة وإعادة تقييم المُسَلَّمَات المتوارثة، وربما رفضها. كتب ريتشارد فلوريدا عن ذلك: "تتولَّد الأفكار الجديدة بكفاءة عندما تكون البيئة متقبِّلة لأساليب ذهنية مختلفة". ونحن نحتاج للأفكار الجديدة حتى نُنتج أفكارًا إبداعية. فالبيئات التي ترفض الأفكار الجديدة هي كالنَّهر الراكد، لا يتجدد ماؤه وتترسَّب الشوائب فيه.

كلما كانت البيئة متقدمة تكنولوجيًّا وتحتضن أفرادًا متميزين وتتقبَّل الأفكار الجديدة، كانت أكثر إبداعًا! وذلك الإبداع سيلهم أفراده بطريقة متسارعة (سواءً كانت واعية أو غير واعية)، حيث ستشتعل شرارة الشغف في سن مبكِّرة، وستكون فترة احتضان الحدس البطيء أسرع، وسيكون الشخص محاطًا بمجتمع يقوده إلى الاستثمار في ميوله في سن مبكرة.

فعلى سبيل المثال، تقبُّل المجتمع للمهاجرين مهمٌّ جدًّا. ولو لم يوجد ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية لكنَّا خسرنا شركات كبيرة مثل جوجل (Google)، فأحد مؤسسيها هو سيرجي براين [29] الذي هاجر مع عائلته هربًا من الاتحاد السوفياتي. وربما لم نكن لنعرف هوتميل (Hotmail) الشهير لأن مؤسسه صابر باتيا [30] أتى من بانجلور الهندية. أمَّا مؤسس ياهو (Yahoo) بيير مراد أميديار فهو إيراني الأصل، فرنسي المولد وقد أسَّس شركته في الولايات المتحدة الأمريكية. وتذكر عالمة الاجتماع هاريت زُكرمان أن زيادة عدد المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية ساهم في تقدم العلم في أمريكا وكذلك في عدد جوائز نوبل التي حصلت عليها. فمن ضمن 105 جوائز

نوبل، حصد المهاجرون على 31 منها، وذلك يعني أنهم قاموا بإجراء البحوث التي فازت بالجائزة على أرض الولايات المتحدة الأمريكية [31].

وهناك أمثلة من حقبات مختلفة على بيئات احتضنت الإبداع مثل عصر النهضة الإيطالية التي منحتنا فنانين مثل ليوناردو، دوناتيلو، مايكل أنجلو ورفائيل في نفس الفترة! ولم تكن مصادفة أن دولتين شقيقتين مثل النمسا وألمانيا قدَّمتا للعالم موسيقيِّين ما زلنا نتغنّى بهم وهم موتسارت وبيتهوفن في الحقبة نفسها. في عام 1969م، احتضنت جدران جامعة يوتاه أضخم الأسماء التي هيمنت لاحقًا على ما يُعرف باسم وادي السيليكون (أو Silicon Valley) أحد أهم عوامل الثورة المعلوماتية. من ضمن تلك الأسماء: جيم كلارك مؤسس Silicon Graphics وNetscape وجون وارنوك أحد مؤسسي Adobe وإد كاتموبل أحد مؤسِّسي شركة Pixar التي منحتنا أفلام مثل Toy Story وBugs Life.

لنطبِّق الآن نظرية التاءات الثلاث على بيئات مصغرة مثل معهد ماساتشوستس للتقنية (MIT) وجامعة هارفارد. سنكتشف أن التكنولوجيا متقدمة جدًّا وهذا طبيعي. فهذه الجامعات تتسلَّم دعمًا ماديًّا ضخمًا يمكِّنها من احتضان واستحداث أفضل أنواع التكنولوجيا. أما في ما يخص التميُّز، فإن معايير نظام القبول عالية جدًّا، ولا تعتمد على التفوق الأكاديمي فحسب، بل على التميُّز في مجالات مختلفة مثل القيادة والريادة والتطوع والفنون والإنجازات الرياضية.

ماذا عن التقبُّل؟

يحتضن معهد ماساتشوستس للتقنية (والذي تخرج منه 90 حاملًا لجائزة نوبل) ما يقارب 11,300 طالب (سنة 2018) ويتراوحون بين طلَّاب درجة البكالوريوس والدراسات العليا. من هؤلاء الطلاب، يوجد ما يقارب 3,700 طالب من أصول غير قوقازية، مثل الأمريكيين الأفارقة، الهسبانيين والأمريكيين الآسيويين وغيرهم. أمَّا في جامعة هارفارد العريقة (والتي تخرج منها 160 حاملًا لجائزة نوبل) فإن الوافدين يمثلون 51% من طلاب الجامعة.

هل هناك عجب في أن هاتين الجامعتين أنتجتا بيئات إبداعية خرَّجت عددًا كبيرًا من حاملي جائزة نوبل الذين يُشار إليهم بالبنان؟ بالتأكيد لا. فهاتان البيئتان أصبحتا بيئتين مسرِّعتين للإلهام والتفوق والإبداع عبر الأخذ بالاعتبار الكثير من الأسباب والعوامل التي جعلت هذين المكانين متميزين ومنتجين.

{... مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} (أو المرشد) "خطر لي، على غرار ما حظي به دانتي من مرشدين لأسفاره، كفرجيليو، وستاتشيوس، وبياتريشي، والقديس برنان، أن أتخذ من دانتي نفسه مرشدًا لأسفاري، وأن أترك تساؤلاته تقود تساؤلاتي".

ألبرتو مانغويل

كتاب "الفضول"

دانتي وڤرجيل

توصَّل المؤرخ جوزيف كامبل من خلال دراسته كما ذكرنا سابقًا إلى أن الأبطال الأسطوريين لهم أركتايب (النموذج الموحد) من حيث المبدأ. سواءً كان ذلك البطل شرقيًّا أو غربيًّا، صغيرًا أو كبيرًا، ذكرًا أو أنثى، مُؤمنًا أو مُلحدًا. فبداية القصة واحدة، حيث تكون روح البطل متقدة ومتشوقة لغاية يجهلها دون أن يأخذها على محمل الجد لأن في حياته أولويات أخرى. ثم تبدأ هذه الرغبة الخفية في الاستيلاء على عقل العبقري فتؤرقه وتصبح شغله الشاغل. ثم تبدأ مغامرة البطل الأسطوري إثر نداء داخلي أو خارجي، وربما إثر "مصادفة" [32]! وتكون ردة فعل البطل لهذا النداء في بادئ الأمر الرفض. وقد يكون ذلك بسبب خوف أو تحقير لهذه المهمة أو أي سبب آخر، فنرى البطل الإغريقي أخيل يتجنب أن يحارب مع الجيش الإغريقي المتجه إلى طروادة لاستعادة الأميرة وحفظ كرامة شعبه.

تهدف القصص الأسطورية إلى تحويل البطل من إنسان عادي من بيئة عادية محدودة العلم والمعرفة إلى إنسان أسطوري ذي إنجازات وملاحم. وحتى يتحقق ذلك لا بد له من عون خارجي (عادةً ما يكون خارقًا أو ميتافيزيقًا) يظهر فجأة ليقدِّم للبطل العون والرشاد في رحلته التي سيخوضها. قد يكون

ذلك المرشد ساحرًا أو امرأة عجوزًا أو يأتي على هيئة مبعوث الشيطان كما في تراجيديا فاوست. وفي ملحمته إلى جهنم بحثًا عن بياتريتشا، يستعين دانتي في الكوميديا الإلهية بالشاعر ڤرجيل الذي يرشده إلى الطريق الصحيح عبر دوائر جهنم التسع. أما في رحلة سيدهارتا فهو يقابل بوذا نفسه ثم يقابل صاحب القارب على النهر ثم الغاوية في القرية. كلٌّ منهم أرشده بما احتاج إليه في مختلف مراحل تطوره ليصبح البطل الأسطوري في النهاية (إذا بحثنا عن أمثلة حديثة سنجد غاندالف الرمادي في سلسلة سيد الخواتم، يودا في سلسلة حرب النجوم، مورفيوس في سلسلة ذا مايتريكس).

مهمة المُرشد هي توجيه البطل عبر رحلته ومنحه الطاقة النفسية والعاطفية التي يحتاجها. ونرى دور المرشد في عديد من القصص بدءًا بقصص الأنبياء إلى جميع القصص الخيالية والبطولية في شرق الأرض ومغربها.

كتب كامبل عن المرشد: "إن ظهور مثل هذا المُعين هو نموذجي في الأسطورة بالنسبة للبطل الذي اتبع النداء".

ويكتب المؤلف كريستوفر فوغلر في كتابه "رحلة الكاتب": "يمنح المعلمون الأبطال الحافز والإلهام والإرشاد والتدريب والهدايا لهذه الرحلة. يسترشد كل بطل بشيء، والقصة التي لا تعترف بفضل هذه الطاقة غير مكتملة".

ويبدو أن ما ينطبق في عالم الأسطورة والخيال ينطبق في عالم الواقع، إذ نجد دور المرشدين مهمًّا ومحوريًّا في حياة العبقري. كتبت عالمة الاجتماع والمؤرخة هاريت زكرمان: "يشكِّل الحائزون على جائزة نوبل في العلوم نخبة وظيفية وليست وراثية، ولكن عددًا كبيرًا من الفائزين بالجائزة والبالغ عددهم 313 ممن تم تكريمهم بين عامي 1901 و1976م كانوا بالفعل مرتبطين ببعضهم البعض. لكن القليل منهم كان مرتبطًا من خلال قرابة عائلية أو زواج، فقد ارتبط عدد كبير منهم بتلك الروابط الاجتماعية التي تربط المرشد بالمتدرب. وبالتالي هناك قدر كبير من الترابط في النخبة العلمية العليا، ولكنها في المقام الأول تنوع اجتماعي وليس صلة رحم".

* * *

من المهم التفريق بين دور الأبوين ودور المرشد في حياة العبقري.

فلعل أهم مرحلة في دور الأبوين هي إعداد الابن نفسيًّا لتخطِّي العقبة الأولى وألا يتيه في السراب. أما دور المرشد فيركز عادة على إنارة درب المتدرب ومساعدته في فهم حرفته وإعانته بإزالة أي عقبة قد تواجهه. وفي

بعض الأحيان، كما سنقرأ بعد قليل، منحه توصيات احترافية وربما فتح أبواب اجتماعية أو اقتصادية لم تكن متاحة له سابقًا. وهنا يتسنّى له رؤية معلمه المخضرم في العالم الحقيقي: فيرى كيف يفكر وكيف يتفاعل ويتعرَّف على معايير العمل والاحترافية لديه وكيفية تدبر الأفكار والتعامل معها. وهنا تكمن أهمية المرشد: فالمعرفة في حرفة معينة متاحة للجميع، لكن القدرة على احتواء الشباب وإلهامهم قد تفوقها أهمية.

في دراسته لـ 120 شخصًا متفوقًا في مجالاتهم، لاحظ بلوم وجود مرشد في كل مرحلة من مراحل ارتقاء المُتدرب، وخاصة بعد أن يكون الأب قد علَّم ابنه كل ما في جعبته. ففي هذه النقطة يقوم الوالدان باتخاذ قرار الاستمرار في الاستثمار في موهبة الابن، لأن الاستثمار مُكلف جدًّا وعادة ما يتطلب دعم العائلة المعنوي والعاطفي والمادي. في الوقت نفسه يخطو الطفل خطواته الأولى عبر العقبة الأولى، فيبدأ في الاعتماد على نفسه بنسبة أكثر وعلى أبويه بنسبة أقل. فيكتشف مصادر أخرى للمعلومات كأن يبحث في المكتبة أو يسأل الأصدقاء.

لكن هذه المصادر لا ترتقي إلى المستوى الذي يحتاجه الطفل في هذه المرحلة. فيقوم الأب بإيجاد شخص يساعد ابنه ويوجهه عند إحساسه بالإحباط أو التيه ويكون له مرشدًا يقوده إلى هدفه.

ربما كان من المستحيل أن ينتقي الأبوان الصفات التي يورثونها أطفالَهم، والعكس كذلك صحيح. فالطفل لا يختار أبويه ولا الصفات التي سيحصل عليها. لكن يستطيع الأهل بالتأكيد البحث والاجتهاد في اختيار مرشد وموجِّه لطفلهم!

ويصف بلوم دور المرشد في كل مرحلة من تلك المراحل. في المرحلة الأولى (والتي اصطلح على تسميتها بالمرحلة الرومانسية) يصف دور المدرس بأنه حنون وأنه شبيه بأب آخر (أو أم ثانية)، وفي هذه المرحلة لا يكون المرشد ذا مرتبة عالية في تخصصه، ولا يحتل بالضرورة مرتبة مرموقة بين أقرانه، بل إنه يحتضن الطلاب ويجيد توجيهم ويجعلهم شغوفين بالتخصص أكثر مما يبقي جذوة الفضول فيهم مشتعلة. في المرحلة التالية (والتي اصطلح على تسميتها بمرحلة الإتقان) يصبح المرشد أكثر جدية وصرامة، وعادة ما تكون سيرته الذاتية مليئة بالإنجازات، عكس الشريحة السابقة. ودوره هنا هو مساعدة المتدرب في إتقان المهارات المطلوبة، لكن ليس بالحنان والعاطفة، إنما بالتحديات ودفع الذات. أما في المرحلة الأخيرة (والتي اصطلح على تسميتها بمرحلة الدمج) فإن المرشد يكون الأفضل في مجاله، ويكون ذلك باعتراف أقرانه والجهات المهتمة بذاك التخصص. وهذا المرشد شغوف جدًّا بتخصّصه،

وعادة ما يعاني المتدربون من ذلك الشغف لأن المرشد لن يرضى بأقل من الكمال.

هذا الجزء من الكتاب يهتم بالشريحة الأخيرة من المرشدين.

* * *

عندما تتبَّعت عالمة الاجتماع هاريت زُكرمان حياة رابحي جائزة نوبل الأمريكيين منذ عام 1907م وحتى عام 1972م اكتشفت من خلال هذه الدراسة ظاهرة مذهلة تتكرر بينهم.

ناقشت هاريت في كتابها هذه الظاهرة في فصل بعنوان "الروابط الاجتماعية بين المعلمين والمتدربين" ونقتبس منه هذا النص: "... من المذهل أن ما يزيد على نصف الأمريكيين الذين حصدوا جائزة نوبل (48 من أصل 92) حتى 1972م قد عملوا إما كطلاب جامعة، أو طلاب دراسات عليا أو مساعدين لرابحي جائزة نوبل أكبر سنًّا".

بل إنها وجدت العديد من الحالات التي عمل فيها الحاصل المستقبلي على جائزة نوبل مع أكثر من فائز بها (اثنان وفي بعض الحالات ثلاثة)، وعلى أثر ذلك تذكر هاريت نمطًا مهمًّا: العلماء الذين تتلمذوا على يد عالم فائز بجائزة نوبل عادة ما يحصدون جائزة نوبل ثلاث سنوات أبكر من أقرانهم الذين تتلمذوا على يد عالم سيحصل على جائزة نوبل في المستقبل، بل إنهم يسبقون أقرانهم الذين لم يحصلوا على هذا النوع من التدريب مع فائز بجائزة نوبل بسبع سنوات! وأكَّدت على أهمية العلماء الذين حصلوا على جائزة نوبل وعن دورهم في تجهيز الحاصلين المستقبليين.

لنأخذ إرنست رذرفورد عالم الفيزياء البريطاني المعروف بـ "أبو الفيزياء النووية" كمثال. فقد قام بدور المرشد لما يزيد على سبعة عشر متدربًا من مختلف الجنسيات وبالفعل حصلوا على جائزة نوبل! أما إيرين جوليو - كوري التي حصلت على جائزة نوبل لعام 1935م بالشراكة مع زوجها، فقد كانت تسير على خطى أمها السابق ذكرها ماري كوري والتي حصلت أيضًا على جائزتي نوبل وكانت إحداها بالشراكة مع زوجها. فحالما حصلت إيرين على الشهادة الثانوية سنة 1918م التحقت بوالدتها في معهد الراديوم وأصبحت مساعدتها.

ونعيد هنا قصة الطفل الأعجوبة نوربرت فينر (التي ذكرناها في فصل السراب). فقد تواصل والده مع الفيلسوف برتراند راسل [33] العظيم وكتب له

رسالة محاولًا إقناعه بأن يكون مرشدًا لابنه في رحلته إلى أوروبا! لنقرأ المقتطف التالي من رسالته الطويلة: "الزميل القدير،

سيحصل ابني نوربرت فينر هذا الأسبوع على شهادة الدكتوراه من جامعة هارفارد في رسالة بعنوان (دراسة مقارنة في علم الجبر النسبي لشرودر ووايتهيد وراسل)...

سوف يقضي السنة بالكامل في أوروبا ويتمنى أن يحصل على شرف الدراسة بين يديك في جامعة ترينتي للجزء الأول من العام الدراسي. في حال كان ابني في كامبريدج في سبتمبر أو بداية أكتوبر هل سيتمكن من التتلمذ بين يديك أو الحصول على الإرشاد منك؟ ماذا عليه أن يفعل حتى يحصل على هذا الشرف؟".

وبإمكاننا تقدير أهمية هذه الرسالة إذا علمنا أن برتراند راسل ذكرها في سيرته الذاتية!

وإذا قرأنا سيرة أحمد زويل، سنكتشف أنه درس الفيزياء الرياضية على يد البروفيسور بوب شريفر، وهو نفسه حصل على جائزة نوبل بالمناصفة عام 1972م، خلال إعداده للدراسات العليا. ووصفه زويل بأنه: "كان أستاذًا ملهمًا بدرجة لا تصدق". وفي نفس تلك الفترة، كان زويل يخالط مجموعة من العلماء الذين حصدوا جائزة نوبل لعام 2000م وهم آلن هيجر وآلن مكديار وهيديكي شيراكاوا.

وما ينطبق على عالم العلوم ينطبق كذلك على عالم الفن. علَّق عالم الاقتصاد دايفيد جالنسون (الذي حدثنا مبكرًا عن المفاهيميين والتجريبيين) على هذا الأمر بالتالي: "... عملت الأعلام المهمة في مرحلة مُبكرة مع مرشد ساهم بنفسه في المجال. وينطبق المبدأ نفسه على الفنانين فالقليل من الرسامين المعاصرين دربوا أنفسهم بأنفسهم، بل وفي مرحلة محورية مبكرة من احترافهم تتلمذوا بشكل رسمي أو غير رسمي على يدي فنان مُخضرم وناجح. ولم ينحصر دور هذا الفنان المخضرم على المعرفة والتقنية فحسب، إنما تجاوز ذلك ليكون ملهمًا للفنان الشاب ومشجعًا له".

كما نجد أمثلة مشابهة في قصص عباقرة آخرين مثل موتسارت الذي قابل الموسيقار الشهير جوناثان باخ وتأثر به كثيرًا. ومن أهمية تلك العلاقة بين المرشد ومبتغيه نجد ورقة علمية باسم "تأثير يوهان كريستيان باخ على تطوير أسلوب موتسارت"، وكتب الباحثون عن اللقاء بين الموسيقار الشاب والموسيقار المخضرم في بحث علمي: "حدث ذلك في رحلة موتسارت إلى لندن والتي امتدت من أبريل 23، 1764م إلى يوليو 1، 1765م وكانت هذه الخمسة عشر شهرًا هي أطول زيارة قضاها في رحلته الأوروبية. ولما كان موتسارت في لندن، تكفل باخ بأمور عائلته... وساعد في ترتيب الإقامة له

وتجهيز جدول حفلاته الموسيقية. وبذلك، أصبح لدى موتسارت فرصة عظيمة ليتعرف إلى باخ وفنانين آخرين في لندن. ورغم وفرة الأساليب الموسيقية والعازفين في لندن في وقت زيارة موتسارت، إلا أن باخ كان أكثرهم أثرًا على موتسارت في تلك الفترة".

قضى موتسارت خمسة عشر شهرًا تحت إرشاد وتوجيه أحد أعظم أيقونات الموسيقى في التاريخ البشري! بل إن أحد مؤرخي الموسيقى يقول إن بصمة باخ على موتسارت تتجاوز بصمة أبيه. وعلاوة على ذلك حصل موتسارت على فرصة ليقابل مُدرب باخ نفسه بيدر مارتيني الذي علمه بعض التقنيات التي علمها لباخ.

وماذا عن ألبرت أينشتاين؟ من كان المرشد الذي رافقه ووجّهه في دروب العبقرية؟

لقد كان ذلك المرشد هو السيد جوست وينتيلر.

انتقل أينشتاين المراهق إلى مدينة أورورا في سن السادسة عشرة بعد أن رفض معهد زيورخ للفنون قبوله. وكان ذلك من حسن حظ الشاب أنه عند التحاقه بمعهد آخر، شاءت الظروف أن يسكن مع عائلة السيد جوست وينتيلر، أحد مدرسي ذلك المعهد.

يصف النص التالي من جريدة النيويورك تايمز بدايات تلك المرحلة: "بدأ فصل الخريف الدراسي، لذلك انتقل ألبرت بسرعة إلى مدينة أورورا... نسقت ماريا (أخت ألبرت) له أن يسكن مع عائلة السيد جوست وينتيلر، الذي درّس التاريخ والفلسفة في المدرسة...".

كان السيد جوست وينتيلر هو المرشد الذي ثبّت وعزّز خطوات ألبرت نحو نجاحه. فبالإضافة إلى كونه معلمًا في التاريخ والفلسفة، كان أيضًا مهتمًا بعلم الطيور واللغويات وشاعرًا ذا آراء سياسية أثَّرت كثيرًا في المراهق ألبرت الذي كتب رسالة لأخته ماريا يصف ذلك الأثر: "دائما ما أتفكر في وجهة نظر أبي وينتيلر وقدرته التنبؤية الدقيقة في أحداث الساحة السياسية". كان أثر السيد جوست وينتيلر عظيمًا جدًّا في الفترة التي قضاها أينشتاين الشاب في ذلك البيت لدرجة أن المؤرخ دودلي يعتقد بأنه هو الذي ألهم أينشتاين في التخصص كمدرس بدلًا من مهندس جامعة ETH Zurich[34].

إذًا نستنتج أن دور المرشدين مثل ماكس تالمود (تحدثنا عن دوره في إحياء الموسيقى في نفس أينشتاين المراهق) والسيد جوست وينتيلر لا

ينحصر في مساعدة الشخص في حل مشاكله فقط، بل في تعليمه سبلًا جديدة في حل المشاكل وكيفية استكشاف الحياة.

وفي جامعة كامبريدج، حيث درس فيها تشارلز داروين، كان يُلقَّب بـ "الشاب الذي يمشي مع هنسلو!" إشارةً إلى مرشده عالم النبات البروفيسور جون هنسلو.

علم داروين بسمعة هذا العالم لأول مرة في عام 1823م. وخلال سنة داروين الأولى في كامبريدج واظب على حضور محاضرات هنسلو جميعها وانضم كذلك إلى بعض الرحلات التي نسقها هنسلو. وقد يكون من المؤسف أنه بحلول الوقت الذي تقرَّب فيه داروين من هنسلو لم تبقَ له سوى سنة على إتمام دراسته الجامعية. لكن رغم تلك الفترة القصيرة فإن تلك المعرفة أفادت الطالب الجامعي المتعطش للعلوم الطبيعية كثيرًا. ولاحظ هنسلو فيه ذلك التعطش، بل وآمن أنه سيكون من أحد الشباب الواعدين الذين سيغيرون وجه العلوم الطبيعية.

بناء على هذه الملاحظة قام هنسلو بتوصية داروين لمشروع سيغير حياة الشاب وسيغير هذا العلم كما نعرفه وهو رحلة بحرية على سفينة "بيجل" التابعة لأسطول جلالتها.

كان هنسلو عالمًا فذًّا حكيمًا وصديقًا لداروين وقام بإرشاده وتوجيهه، وقد لعب دورًا محوريًّا في مسيرة داروين العلمية المبكرة، وترك أثرًا كبيرًا عليه لدرجة أنهم تبادلوا 40 رسالة بعد التخرج! بل إن هنسلو استمر في تقديم الفرص لداروين حتى بعد التخرج، ففي عام 1836م وبعد عودته من رحلته البحرية، سأل داروين مرشده أن يرشحه للحصول على عضوية الجمعية الجيولوجية في لندن (London Geological Society).

كتب داروين في عام 1861م على فراش موته لأحد أقارب هنسلو: "أجزم تمامًا أنه لم يمشِ على وجه الأرض رجل أفضل منه".

يعتبر السلم السريع للنجاح من أهم الفوائد التي يقدِّمها المرشد لطالبه، فهو يفتح له أبوابًا كثيرة، سواءً كانت علمية أو معرفية أو اجتماعية أو تخصصية. بل إن هاريت تخبرنا أنه نادرًا ما يدرس الحاصل المستقبلي على جائزة نوبل لدى معلم ضعيف أو غير مؤهل.

تكتب هاريت: "إن الفائزين بجائزة نوبل الذين خاضوا عملية التنشئة الاجتماعية الصارمة مع النخبة غالبًا ما تظهر عليهم الثقة بالنفس بشكل أكثر

من السابق... كما أنهم قادرون على التعامل مع الفشل بل وتحويله إلى نجاح في بعض الأحيان...".

قد يعترينا إحساس بالحزن بعد الاطلاع على سير العباقرة وحالهم بعد حصولهم على مرشد. فكيف ليكون حال وليام سيديس والشريحة الثالثة من عباقرة لويس تيرمان لو كان لديهم مرشد يقودهم؟ هل كانت ستتغير الأمور؟ وإلى أي درجة كان سيتغير مستقبلهم؟

في سبيل الرغيف (أو الراعي) "أيها الأمير! أنت ما أنت عليه بسبب صدفة الميلاد. أما أنا فوصلت إلى ما وصلت إليه بجهودي! سيكون هناك العديد من الأمراء.. لكن لن يكون هناك سوى بيتهوفن واحد فقط".

بيتهوفن يخاطب الأمير كارل ليشنوفسكى

مايكل أنجلو ولورينزو مديتشي

اصطلح الرومان على المصطلح راعي (Patron من كلمة Patronus) لوصف شخص يكون عادة رجلًا قويًّا ذا سلطة يحمي بها "رعيته". وعلينا أن نشير هنا إلى أن كلمة "رعية" لا تعني المتعارف عليه وهو الشعب بشكل عام أو الشريحة العظمى من الناس، أو الشخص الذي يهتم بقطيع من الأغنام. إنما كانت ترمز - في ذلك العصر - إلى أولئك الفنانين الذين يزورهم جني أو وفد من الجن كما ذكرنا في مقدمة الكتاب.

ويبدو أن هذه الكلمة اكتسبت هذا المنظور في عصر النهضة، والتي تعد فترةً ثورية للعلوم والفنون، بل إنها السبب الرئيسي الذي خلق عصر النهضة. حيث وُلدت فيها مراكز فنية طورت كثيرًا من الابتكارات والمذاهب الفنية، ويعود الفضل في هذا التقدُّم إلى العلاقة التي تأسَّست بين الفنانين والرعاة.

يعزو عدد من المؤرخين هذه الثورة الفنية في إيطاليا إلى عدة أسباب. منها الاستقرار السياسي وتطور الحياة الحضارية، ما جعلها عنصرًا محوريًّا في نشر الأبحاث العلمية والإبداعات الفنيَّة. كل تلك الأسباب قادت إلى نشأة مراكز فنية ذات آراء وتوجهات مختلفة مما ساهم في استقلال مذاهب إيطاليا الفنية عن باقي أوروبا. لكن السبب الأساسي الذي ترك أكبر الأثر (وهو الذي يهمنا في سياق هذا الفصل) هو تطور التجارة كون إيطاليا آنذاك تتميز بموقع ساحلي تجاري فتح أبوابها للعالم والسلع المهمة مثل الزجاج والملح والبهارات. من حسنات تطور الحالة الاقتصادية هو أنّ إيطاليا حينها وضعت

اللبنة الأولى للنظام المصرفي المعاصر كما نعرفه اليوم، وذلك ساهم كثيرًا في تطور الفن، حيث صار في مقدرة الرعاة إبرام عقودٍ وشراكات لدعم الفنانين وتوفير الدعم المالي لهم عن بعد وفي مدن مختلفة (عن طريق المصارف). ففي تلك العصور تمتع الفنانون برعاية مالية من أسر أوروبية ثرية، أما فقراء تلك الفترة فلم يحصلوا على مثل ذلك الامتياز، فممارسة الفن والأدب كان صعب المنال وباهظ الثمن. ومن أشهر تلك الأسر هي أسرة ميديتشي وتشيجي وفوج والتي لا تزال آثار الفنانين الذين رعتهم مشهودة في إيطاليا - ومدينة فلورنسا بالتحديد - حتى يومنا الحاضر.

ومن أشهر قصص الرعايات التي أثمرت فنًّا (ولعلها بدأت علاقة الرعاية) هي قصة لورينزو مديتشي عام 1489م [35]. كان لورينزو يتجول خارج قصره في يومٍ ما، عندما وجد مراهقًا يعمل على قطعة رخام وينحت منها إلها رومانيا بدقة مذهلة! قرر لورينزو احتضانه ونشأت بينهما علاقة تكافلية، حيث أغدق عليه المال ووفَّر له الأدوات والمدرسين حتى أصبح ذلك المراهق أحد أشهر الفنانين عبر العصور. ذلك الشاب لم يكن سوى مايكل أنجلو! تلك الرعاية الكريمة وقصص أخرى شبيهة بها هي التي أعطت المجال لأولئك الفنانين حتى يتفرغوا لعملهم وحرفتهم، كما أتاحت لهم كذلك حرية التنقل والسفر بين المدن ليتشرَّبوا الإلهام من مصادر أخرى. فأصبح بإمكان الفنان استلام الدعم المالي الذي يحتاجه عن طريق عقد أثناء العمل من مرسمه الخاص! وهو أمر لم يكن متاحًا للفنانين في العصور السابقة. بل إن الكنائس والكاتدرائيات تنافست للحصول على أجمل الأيقونات الفنية والدينية، ما جعل البابوات يصبحون كذلك رعاة للفنانين. بل لا نزال نراها في عصرنا الحاضر على مقياس أكبر دون أن نربط تلك الرعاية بأهمية تقدم الفن والعلوم والابتكار. فنرى كراسي وأبحاثًا علمية ومكتبات جامعية تُبنى بفضل تبرعات رجال أعمال أثرياء الذين غالبًا ما يكونون ممن تخرج من تلك الجامعة نفسها! وعادة ما تسمى تلك المباني بأسمائهم، فيترك دعمهم السخي بصمة لا تُنسى على مر التاريخ.

ومن المؤسف أن كثيرًا من الناس يغفلون عن هذه الحقيقة أو لا يعلمون بأنها مستمرة إلى يومنا الحاضر بل قد يصل الأمر بهم إلى إنكارها! ويعود سبب ذلك - كما ذكرنا سابقًا - إلى تقديس العباقرة والاعتقاد السائد بأن العبقري المتفرد المستقل سيحصل على التقدير والمال بالاعتماد على فنه فقط. لكن قراءاتنا في سير الفنانين والعلماء والمبتكرين تثبت خطأ هذا الاعتقاد في أغلب الحالات.

وقد لمَّحنا لهذه الحقيقة مبكرًا عندما ذكرنا في بداية الكتاب قصة عالم الموسيقى الأمريكي نيل زالسو الذي كاد أن يُطرد بسبب ملاحظاته التي أثارت استياء الجمهور النمساوي عن كون موتسارت بشرًا عاديًّا. يواصل البروفيسور نيل حربه على المنظور الرومانسي في الورقة البحثية نفسها حيث كتب عن معاناة موتسارت المادية: "في منتصف العقد 1780م... عاش موتسارت في حي فخم وارتدى الملابس الأنيقة وكان لديه خادم خاص... لكن في نهاية ذلك العقد تدهور اقتصاد البلاد عندما تورطت النمسا في حربٍ حمقاء مع تركيا. اضطر ذلك الكثير من رعاة موتسارت النبلاء إلى أن يقاتلوا من أجل بلادهم أو أن يختبئوا في قصورهم الريفية بعيدًا عن هذا الصدام. أُغلقت آنذاك المسارح وتم تسريح الكثير من العازفين وتلاشت الحياة الموسيقية في فيينا. وكما هو متوقع، عانى دخل موتسارت... تراكمت الديون عليه ولم يتمكن من دفعها إلا بعد اقتراض الأموال من أخيه وأصدقائه...

لماذا يؤمن الكثير من الذين كتبوا عن سيرة حياة موتسارت أنه عزف الموسيقى مندفعا بأسباب داخلية وليس حاجته لدفع الإيجار؟ الإجابة بسيطة: لأنهم لا زالوا ينظرون إلى موتسارت بعين رومانسية.

فالناس لا يستطيعون تقبل حقيقة أن المجتمعات أساءت معاملة "المبدعين العباقرة" من أمثال موتسارت إلى درجة اضطراره إلى ممارسة الدعارة الفنية ليتمكن من العيش. حيث اضطر أن يعرض سلعته الموسيقية في أزقة السوق الموسيقي بحثًا عن شارٍ لها".

هذه بالطبع هي إحدى أكبر المشكلات عند التعامل مع العباقرة، وهي وضعهم على منصة لا يستطيع باقي البشر الوصول إليها لدواعٍ تقديسية. ولكن الواقع مختلف تمامًا عن تلك النظرة الرومانسية جدًّا.

يحدثنا المؤلف سكوت بيركن في كتابه "خرافات الابتكار" عن ثمانية تحديات تواجه أي ابتكار ومبتكر، ووضع الحصول على التمويل والدعم المالي ثالثها. وذكر أنه يجب على المبتكر في أحيان كثيرة أن يجد ممولًا يعمل معه أو يروج له ابتكاره. ولكن لكي يحصل المبتكر على ذلك الدعم عليه أن يظهر مصداقيته عبر المرور بتحديين:

- التحدي الأول: إيجاد فكرة (قد تكون تحديًا شخصيًّا أو نتيجة تفكير وتحليل لوضع معين أو حتى مصادفة).

- التحدي الثاني: تطوير حل (يكون ذلك عادة عن طريق بدء العمل حيث يكتشف المبتكر الكثير من التحديات التي تواجهه خلال رحلته والتي لا يمكن تخيلها على ورقة وقلم).

والآن بعد أن قدَّمنا ألوانًا مختلفة من العباقرة (سواء كانوا مطبوعين أو متكلفين، عفويين أو حساسين، مفاهيميين أو تجريبيين) في مجالات متعددة مثل الفن والعلم والابتكار، علينا أن نضع دائمًا في عين الاعتبار عدَّة حقائق. أولًا: أنهم بشر مثلنا يقعون تحت طائلة المتطلبات والمحفزات الاقتصادية. ثانيًا: قراءاتنا لسيرهم وحدها ليست كافية، فعلينا أن نوسِّع أفق بحثنا قليلًا ليشمل عائلاتهم والشخصيات التي تركت أثرها فيهم. وثالثًا: أن العبقري في حاجة ماسَّة إلى الدعم حتى يتفرغ لحرفته.

فأن يجد الفنانون والحالمون من العباقرة دخلًا يكفي حاجتهم، وفي بعض الأحيان حاجة أهلهم، هي مأساة يواجهونها في كل زمان ومكان.

تحدث الروائي فرانز كافكا عن هذه المعضلة الأبدية فأبدى كرهه لحقيقة أن قريحته الروائية كانت ثانوية بعد وظيفته التي سماها Brotberuf، والتي تعني في اللغة الألمانية الرغيف اليومي.

وكما رأينا، نجد أن بعض العباقرة محظوظون، فهم يولدون في عائلة ثرية تمكنهم من التجريب والابتكار، بينما أقرانهم من الأقل حظًا تكون أولوياتهم هي تأمين الاحتياجات المعيشية لأنفسهم وأهاليهم. لنطَّلع على عدة أمثلة على ذلك. كان العالم روبرت أوبنهايمر (الذي قاد مشروع القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية) سليل عائلة تملك مصنع ملابس، فكانوا أثرياء إلى درجة أنهم عاشوا في أحد أغلى أحياء مدينة نيويورك آنذاك. وكان لديهم سيارة وسائق في وقت لم يكن فيه هذا الأمر شائعًا أو مقدورًا عليه. بل أن روبرت كان يسافر إلى أوروبا كل صيف مع عائلته، وهذا الدعم هو الذي جعله يستثمر ذكاءه ويغيِّر العالم.

كما استفاد الرسام بول سيزان من ثروة أبيه وتمكن من السفر بين مدينته إيكس وباريس بالرغم من محاولات أبيه لأن يوظفه في مصرفه، إلا أن سيزان صرف النظر عن ذلك ما جعله يركِّز على احتراف الرسم دون إشغال نفسه بوظيفة مملَّة تكسبه رغيفه اليومي.

أما بيتهوفن فكان لديه قائمة طويلة من الرعاة! حيث أغدق عليه النُبلاء أموالهم بِسخاء فكانَ يُقدِّم لهم عُروضًا خاصَّة ويمنحهم نُسخًا حصرية من مؤلَّفاتِه التي لم ينشرها بعد. وكانَ كارل ليشنوفسكي وجوزيف فرانز فون لوبكويتز مِن بينِ أولئك الداعمين وكانا يصرِفان له راتِبًا سنويًّا.

ولربما كان أكبر الداعمين لبيتهوفن هو الأرشيدوق رودولف، الابن الأصغر لليوبولِد الثاني (ثاني ملوك بلجيكا). وقد بدأ بدراسة البيانو على يد

بيتهوفِن في أوائل القرن التاسع عشر وأصبحا صديقين واستمرا كذلك حتى عام 1824م. أهداه بيتهوفِن خلال تلك السنوات أربع عشرة معزوفة مختلفة! رفض بيتهوفن منصبًا في المسرح الملكي في خريف 1808م ولكنه تلقَّى عرضًا براتبٍ مُغرٍ من شقيق نابليون بونابرت ملك فستفالن جيروم بونابرت ليعمل عازفًا في البلاط الملكي في كاسل. ولكي يقنعه جوزيف لوبكويتز بالبقاء في فيينا، اتفق معه على دفِع راتِبٍ يصل إلى 4,000 فلورين سنويًّا. لكنه توقَّف عن ذلك في سبتمبر 1811م. ومنذ ذلك الوقت لم يحصل بيتهوفن على رعاية من أحد واضطر إلى الاعتماد على معاش بسيط من مبيعات مؤلفاته.

ذلك نوع من التشتيت يجعل التدريب صعبًا، فكي يتفوق المرء عليه أن يمنح شغفه تركيزًا كاملًا. فعلى المرء - وغالبًا في سن مبكرة - التركيز على هدفه وتحسين العيوب، وقد يصعب تحقيق ذلك إذا كان هناك مصدر تشتيت آخر مثل الوظيفة أو الاعتناء بعائلة.

أدرك ألفرد نوبل أهمية تفرغ العلماء لحرفهم، لذلك كان أحد أسباب خلق جائزته الشهيرة هو أن تمنح العلماء القدرة المالية حتى لا يضطروا لتشتيت أنفسهم بالبحث عن مصدر دخل. ويُقتبس عنه أنه قال: "هذا الاستقلال المادي الكامل يضمن لأولئك الذين أثبتوا من خلال أعمالهم السابقة قدرتهم على تقديم إنجازات إضافية من تكريس أنفسهم تمامًا للبحث".

ونجد اليوم مؤسسة ماك - آرثر تدعم المبدعين، وقد منحت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من 4 مليارات دولار منذ إنشائها في عام 1978م على يد جون وكاثرين ماك - آرثر في مدينة شيكاغو، وتعد واحدة من أكبر عشر مؤسسات خيرية خاصة وقد قامت المؤسسة بتقديم حوالى 230 مليون دولار سنويا في شكل منح وقروض منخفضة الفائدة في الولايات المتحدة وما يقرب من 60 بلد آخر. ولديها صندوق خاص يعرف باسم "منح العبقرية" وتقدم المنح في مختلف المجالات من الفنون إلى العلوم ومن علم المناعة إلى فن الأوبرا.

ويثبت بابلو بيكاسو حاجة الإبداع الماسة للتفرغ التام، فاستطاع عبر ثراء والده استئجار مرسم خاص يمارس فيه هوايته دون أن يقلق من نقص المادة أو حاجته إلى توفيره عبر الالتزام بوظيفة أو ما شابهها. وهذا ما ساهم في تطوير مهاراته لدرجة أن أحد المهتمين بالفنون في باريس عرض عليه راتب مائتين وخمسين فرنك وهو لا يزال في سن العشرين!

أما ستيف وزنياك، فرغم مساهمته في تطوير الكمبيوتر Apple I الأصلي، وبدئه شركة مع ستيف جوبز في عام 1976م، إلا أنه استمر في العمل بدوام كامل في وظيفته الهندسية في شركة Hewlett-Packard حتى عام

1977م. ومن المهم هنا نفي تلك الأسطورة التي تنسب الفضل في ابتكارات أبل واختراعاتها إلى ستيف جوبز! إذ يروي ستيف وزنياك قصة شهيرة، حيث قابل والده فرانسيس - جيري وزنياك شريك ابنه ستيف جوبز، والذي نظر إلى ستيف جوبز وأخبره أنه لا يستحق أي شيء، نظرًا لأنه لم ينتج شيئًا، الأمر الذي جعل الدموع تنزل من عيني جوبز. بل إنه هدد ابنه أنه سيخلع الشراكة بينه وشريكه إذا كانت مناصفة (50\50) وأصر أن ابنه يستحق كل النصيب.

ويحدث أن يُصاب بعض العباقرة بالإحباط عند عدم توفر المال الكافي الذي يتيح لهم التركيز على إبداعاتهم بحرية، كما حصل مع أينشتاين عندما فشل في الحصول على وظيفة بعد تخرجه. ففي رسالة ما ذكر بأنه قد يستسلم ويتخلَّى عن حلمه ليصبح رجل مبيعات من أجل الحصول على أجر. كما ذكر أحمد زويل في سيرته الذاتية كيف تكبدت عائلته تكاليف تعليمه بصدر رحب، وكيف أنه كان محظوظًا أن أحد أقاربه احتضنه في منزله ليخفف عليه أعباء تكاليف السكن. بل وعندما قرَّر استئناف الدراسة في جامعة بنسلفانيا في فيلادلفيا في عام 1969م حصل على إعفاء كامل من رسوم الدراسة وقدَّمت له الجامعة راتبًا سنويًّا ومنحة دراسية صيفية. وعلى الرغم من أن الشاب أحمد زويل حصل على هذه المميزات بفضل ذكائه وإنجازاته كطالب، إلا أنه من المؤكد أن حياته كانت ستختلف تمامًا دون هذا الدعم المالي الذي ترك أثرًا كبيرًا في مسيرته الدراسية والعلمية ومنحه أهم فرصة في حياته. ومن المؤكد أن هؤلاء الأشخاص لم يحصلوا على ذلك الدعم كله إلا لأنهم لفتوا الانتباه في مجالهم وغالبًا في سن مبكرة، فهم ليسوا كسالى أو متنصِّلين من المسؤولية. ومع ذلك علينا أن لا ننسى أهمية ذلك الدعم المالي والرعاة الذين عبدوا لهم الطريق كي يتمكنوا من التركيز على حرفتهم. ونجد الشاعر والت ويتمان يحصل على خمسة عشر دولارًا شهريًّا (مبلغ جيد في القرن التاسع عشر) من صديقه الطبيب وير ميتشل لمدة سنتين.

وبالطبع هناك حالات أخرى لعباقرة لم يجدوا راعيًا في صفهم لسبب أو لآخر وعانوا في التفرُّغ لحرفتهم وفنهم.

نذكر منهم الكاتب والفيلسوف الإيرلندي المهم جورج برنارد شو، والذي ترك العمل في شركة أديسون للهاتف ليكرس وقته للكتابة، ما جعله يعيش على دخل ضئيل ساهمت فيه والدته دعمًا له. ورغم أن قصيدة الأرض اليَباب للشاعر تي. إس. إليوت تعد واحدة من أهم قصائد القرن العشرين، إلا أنه بعد نشرها في عام 1922، أبقى إليوت على عمله في بنك لندن حتى عام 1925م، رافضًا فكرة ترك ذلك الأمان. وعندما ترك المنصب في نهاية المطاف، أمضى الأربعين سنة التالية للعمل في دار نشر لتوفير الاستقرار في

حياته، وكتابة الشعر على الجانب. أما روائي الرعب الأهم ستيفن كينج فقد عمل مدرسًا وحارسًا وعاملًا في محطة بنزين لمدة سبع سنوات بعد كتابة قصته الأولى "كاري"، ثم استقال فقط بعد عام من نشرها.

أما قائد شعراء المهجر جبران خليل جبران فقد ظل تحت نفقة السيدة ماري غاسك التي التقى بها في معرض رسوماته الأول في مدينة بوسطن. وائتمنها خليل على تحفه الفنية بعد وفاته في نيويورك، بل إنها كانت المسؤولة عن تحقيق وصيته، وهي رغبته في أن يُدفن في لبنان، وقامت بذلك على نفقتها الخاصة.

اضطر المؤلف البريطاني الشهير جورج أورويل إلى العيش فقيرًا عند كتابته "متشرد في باريس ولندن" حتى يحاكي تلك الظروف الصعبة كتجربة شخصية ويكتب عنها بقلم المجرب. عمل حينها في وظائف مختلفة، كمدرس لغة إنجليزية ونادل في حانة ومترجم حتى يكسب رزقه. ولكنه لم يذكر في تلك المذكرات أنه كان في بعض الأحيان يستلم إعانات مادية من عمته التي تسكن أيضا في باريس!

ولعل سيرة الأيقونة الأمريكية الشهيرة إدجار آلان بو تمثل أول قصص مآسي العباقرة بدون الرعاة. فقد كان أول كاتب أمريكي معروف يحاول كسب لقمة العيش من خلال الكتابة وحدها لكنه عجز عن ذلك (ساهم في تدهور أحواله إدمانه للخمر والقمار)، وقد حاول بعض الأصدقاء مساعدته وأعطوه الأموال التي يحتاج إليها. ورغم أن أعماله الأدبية حققت له نجاحًا وشهرةً متواضعة إلا أنه ظل حبيس ديونه واستمر في كتابة الشعر والقصص. أدى ذلك إلى حياة صعبة ماليًّا ومهنيًّا، فكان على درجة من الفقر جعلته يتحايل على القطط حتى تدفئ قدمي زوجته المريضة لأنه لم يمتلك غطاءً في بيته! عاش حياته بائسًا كسكير مجهول ومات كذلك وحيدًا. فقد واجه العديد من المآسي التي نغفل عنها في الماضي بينما نحتفي بأعماله العظيمة اليوم. وقد تكون حياته مختلفة لو أنه وجد ذلك الراعي الذي يدعمه أو وُلد في عائلة ثرية تُعينه.

الجزء الثالث

تحقيق الشغف

مخ العبقري (أو المراس) "الشغف لا يرتبط بالنشوة بل يعتمد اعتمادًا كليًّا على الصبر. فهو ليس إحساسًا جميلًا بل هو القدرة على التحمل... ومصدر كلمة الشغف في اللغة اللاتينية... هو أن تعاني".

الروائي مارك دانيليويسكي

رواية "بيت الأوراق"

تشريح مخ أينشتاين

في شهر فبراير من عام 1933م، تيقن ألبرت أينشتاين أنه لن يتمكن من العودة إلى ألمانيا مرة أخرى، إذ أن هيمنة الحزب النازي في بلاده بدأت تتسع بعنف بقيادة أدولف هتلر. وقد علم حين كان في أحد أسفاره، أن النازيين داهموا كوخه وتمت مصادرة ممتلكاته الخاصة، ومن ضمنها قاربه العزيز. لاحقًا قاموا بتحويل كوخه إلى مخيم للشباب النازي وتم بيع جميع ممتلكاته. وقد ازدادت الأمور سوءًا لأن الحزب الديكتاتوري سنّ قانونًا يمنع العلماء اليهود من العمل في أي مناصب رسمية. وما زاد الطين بلة أن جوزيف غوبلز، وزير الإعلام النازي، صنف أعمال أينشتاين من ضمن أعمال المثقفين اليهود والتي يجب أن تحرق. بل إن إحدى المجلات النازية وضعت اسمه ضمن قائمة الهاربين الذين "لم يُشنقوا بعد"، وعرضت مكافأة بقيمة خمسة آلاف دولار لمن يسلم رأسه. كل تلك الأسباب، وغيرها الكثير، دفعت ألبرت أينشتاين للتخلي عن جواز سفره الألماني والهجرة إلى أمريكا، حيث كانت سمعته قد سبقته، إذ أنه زارها سابقًا عدة مرات، وفي إحداها كان هناك بصفته أستاذ زائر، وقد ترك بصمة لا تُمحى في تلك الزيارات، فقد نظر إليه الناس كأسطورة تحروا زيارته. وكانت الدعوات تنهال عليه من كل حدب وصوب، ورحبت به الولايات المتحدة الأمريكية أوسع ترحيب، وبالتحديد في معهد الدراسات المتقدمة بجامعة برنستون في نيويورك، حيث قبل منصبا كمعيد مقيم، وعاش كمواطن هناك حتى وفاته.

كان لدى الجميع سؤال واحد عن هذا العبقري وهو: ما الذي جعله عبقريًّا؟ وهل لديه صفات جينيَّة مكَّنته من التفوُّق في مجاله دون الآخرين؟ لا ننسى أنه عاش في الفترة التي تلت فترة فرانسيس غالتون، ألفرد بينيه، ولويس تيرمان، والفترة التي تلت السيكوجونومي والفرينولوجي والكريانمتري، والتي آمن روادها أنه بالإمكان اكتشاف عبقرية المرء بدراسة معالمه الجسدية.

ورغم رفض العلم القاطع لكل ذلك، إلا أنه يبدو أن لتلك الأفكار رواسب لم يتخلص منها العالم. وكأن أينشتاين علم بذلك، فكانت وصيَّته أن يُحرق جسده بعد وفاته، وأن يبعثر رماده في نهر خشية أن يصبح مثواه الأخير مزارًا أو أن يُستغلَّ جسده أو أن يقدِّسه بعضهم!

وكأنه تنبَّأ بما سيحدث! فوصيته لم تتحقَّق وبقِّي جزءٌ وحيد من جسده دون أن يُحرق في حادثة غريبة جدًّا.

تمَّ تشريح جسد ألبرت أينشتاين ذي الست وسبعين سنة على يدِ الطبيب الشَّرعي توماس إس. هارفي في مختبر بجامعة برينستون بعد سبع ساعات ونصف من وفاته في الثامن عشر من شهر أبريل، 1955م كإجراء روتيني لمعرفة سبب الوفاة. ولكن خلال تشريح الجثَّة، ارتكبت جريمة خدمت العلم كثيرًا رغم كونها غير أخلاقية أو قانونية. فعندما أنهى هارفي التشريح وخاط جسد أينشتاين على الطاولة الحديدية، أخفى عن عائلة أينشتاين وزملائه حقيقة أنَّه أبقى مخ العبقري محنّطًا خارجه!

في الصباح التَّالي، وفي إحدى محاضرات مدرسة برينستون، أرادت إحدى الطَّالبات أن تكون أول من ينشر الخبر وقالت أن ألبرت أينشتاين مات. وشاءت الأقدار أن يكون من ضمن الحضور طالب يدعى ناثان هارفي، والذي صرَّح فورًا: "حصل والدي على مخه!".

حينها انتشر خبر جريمة توماس مثل النَّار في الهشيم، وأثارت ذعر أسرة المتوفي، بل حاول ابنه هانز أينشتاين التواصل مع هارفي لاستعادته بلا فائدة حيث رفض هارفي مبرِّرًا أن ما فعله كان من أجل العلم، وأن أينشتاين كان سيوافق على ذلك! ولأن هانز كان جاهلًا بحقوقه القانونية لم يتابع القضية، واستطاع هارفي الاحتفاظ بمخِّ العبقري لأربعة عقود.

كان وزن مخ أينشتاين 1,230 جرامًا، وتم تصويره وحقنه بما يلزم للحصول على عينات قابلة للمعاينة، ثم تم تشريح المخ إلى 240 شريحة ميكروسكوبية، كل واحدة بعرض 1 سنتيمتر.

سعى العالم خلفه لمعرفة النتائج والحصول على الجواب لسؤال ما إذا كان سر العبقرية في إحدى تلك الشرائح، كانت الصحافة تطارده لمعرفة المزيد عن عقل العبقري، لكنَّه نجح في تجنُّبهم. بل إن الجيش الأمريكي استدعاه إلى واشنطن دي. سي. ليقابل فريق علم الأمراض إلَّا أنه لم يقبل التعامل معهم. ورغم رفضه في البداية لمشاركة تلك التُّحفة الثَّمينة، إلا أنَّه أعاره لزملائه في جامعة بنسلفانيا، وبعد أن أنهوا الدِّراسة، جمع هارفي العينات ووضعها في جرَّتي حلوى، ثمَّ خبَّأهما بحرص في سيارته الفورد وأبقاهما بمنأى عن العالم لعدة عقود!

انتهى المطاف بهذا الكنز في مُتحف موتر في مدينة فيلاديلفيا بولاية بنسلفانيا، حيث يتم عرض 46 عينَّة من مخِّ العالم ألبرت أينشتاين تصحبها 14 صورة توضيحية. وبعد هذه المطاردة الملحمية والجريمة الأخلاقية، ماذا كانت النتيجة التي أظهرها تشريح مخ العبقري؟

لم تُظهر سوى المتوقَّع: تركيبة مخ العبقري تختلف عن مخ الآخرين. فقد أظهرت ورقة بحث بريطانية صدرت عام 1999م أن المنطقة المعروفة باسم الفصيص الجداري السفلي (أو Inferior Parietal Lobule) وهي المنطقة التي تحتضن الخلايا الرمادية المسؤولة عن عمليات مثل الحسابات الرياضية واللغة، كانت في مخ ألبرت أينشتاين أضخم بنسبة 15٪ من المخ العادي.

إذًا، هل كانت تلك المنطقة في مخ ألبرت أينشتاين هي المسؤولة عن ذكائه الفذ؟ هل تعطي هذه الحقيقة وزنًا لنظرية غالتون وأن العبقرية بحق هي هبة الميلاد؟ هل سيكشف لنا التبحّر في سيرته المزيد عن خصائص مخه الاستثنائي؟

اللعبة الملكية (الجزء الأول) نُشرت رواية "اللعبة الملكية" عام 1941م، وهي رواية للكاتب النمساوي ستيفان زفايج. في سبعين صفحة دسمة، يتلو علينا زفايج خبر فتى صغير اسمه كزنتوفيك، ابن بحار يوغسلافي، فارغ الدماغ، حتى إنه لا يستطيع كتابة جملة واحدة دون خطأ، لكنه وبشكل محيّر برع في الشطرنج من سن الثانية عشرة، بدأ بهزيمة أبناء قريته، ثم المدينة، وحين بلغ العشرين كان قد أصبح بطلًا للعالم. يحدث أن يكون على متن سفينة متجهة إلى ريو، وبينما يجتمع الناس لتحديه، وهو يسحقهم واحدًا واحدًا حتى يقابل نده أخيرا: السيد «ب» الناجي لتوه من زنزانة صغيرة، في سجنٍ نازي، ليس فيها سوى طاولة ومرحاض وسرير وكوّة صغيرة. وبعد أن نجا من تلك الغرفة وهرب من براثن النازية، شاءت الصدفة أن يلتقي ببطل العالم في الشطرنج على متن السفينة، وهو الذي لم يلمس اللعبة أصلًا إلا في خياله منذ خمسة

وعشرين عاما. وكانت المفاجأة أن يهزم السيد «ب» بطل العالم. إلا أنه انسحب من الجولة الثانية لأسباب لم يفهمها الجمهور حوله.

لقد كتب زفايج قصة الشطرنج أبان الحرب العالمية الثانية، ويحمل العمل في مضمونه رمزيات سردية تصور العالم الغارق في الحروب دون أن تتورط في جولاتها مباشرة، أبطالها جنود من خشب بدون حول أو قوة وتسير إلى حتفها في صراع قوتين تحاول كل واحدة إثبات سطوتها، كتبها زفايج بعد أن اتخَّذ قراره بالانتحار احتجاجًا على الحرب العالمية الثانية التي رأى بوادرها تعصف بالقارة المنهكة وبلدانها. إلا أنه بين طيات صفحاتها، يخبرنا زفايج بأسلوب بارع كيف توصل السيد «ب» إلى قدرته المذهلة ليهزم بطل العالم كزنتوفيك، وهي إحدى الحالات المذهلة حيث يسبق الأديب بقلمه العالم في معمله، فقد سطّر لنا زفايج في أربعينيات القرن العشرين ما توصل إليه العلم في أواخر القرن العشرين.

حتى نفهم القصة، علينا التعرف إلى فرع حديث من فروع علم النفس، وهو علمٌ طوره عالم النفس السويدي السابق ذكره أندرِس أريكسون ونبغ فيه. ويعرف هذا العلم باسم علم الخبرة.

لعلنا نستطيع أن نصف هذا العلم أنه شرح في أصول علمية ما ذكره نيتشه في كتابه "إنسان مفرط في إنسانيته": "إنَّ نشاط العبقري لا يبدو في جوهره شيئًا مختلفًا، بل إن كل ما يفعله العبقري هو تعلُّم كيفية وضع الأحجار ثم كيفية البناء مع البحث المستمر عن أدوات أفضل ليعمل بها... لا تحدثوني عن المواهب الطبيعية أو عن المواهب الفطرية! إذ يمكننا أن نذكر، في كل المجالات، عظماء كانت موهبتهم ضعيفة".

فإريكسون لا يعير الموهبة الطبيعية الكثير من الاهتمام وشدد على أهمية تعلم وضع الأحجار.

* * *

حتى نتمكن من تقدير وفهم الصعوبة التي يخوضها المرء ليصل إلى مرحلة التفوق، علينا أن نتعرف إلى الدراسة التي أجراها أندرِس أريكسون مع زملائه عام 1987م في كلية الموسيقى التابعة لجامعة برلين للفنون أو "The Universität der Künste Berlin"، وهي كذلك تابعة لمعهد ألماني باسم ماكس بلانك. يذكر أريكسون أن هذه الكلية احتضنت عيارا متميزا من المعلمين والطلاب، وكذلك ذكر أنه من بين جدران هذه الكلية تخرَّجت أسماء عظيمة وبزغ نجمها لتصبح أروع وأهم الأسماء في عالم الموسيقى، سواء كعازفي

كمان، أو بيانو أو ملحنين أو في مجال موسيقي آخر، وعادة ما تهيمن هذه الأسماء على ساحة الموسيقى الألمانية والعالمية. إن هذه الكلية هي بحق مثال على أهمية القبيلة والمرشد في أروع صورة.

إلا أنه بعد تحقيق بسيط، اكتشف أريكسون أن ذلك لم يشمل جميع الطلبة المدرجين في فصولها، رغم أنهم خاضوا نفس الاختبارات وحصلوا على نفس التدريب! وهذا ما جعل أريكسون يرغب في فهم العوامل التي صنعت الفرق.

هل كانت جيناتية؟ تحفيزية؟ أم كمية التدريب؟

قام أريكسون وزملاؤه بتصميم خطة لدراسة سبب هذا التفاوت وفهمه، وطلب من معلمي المعهد إعداد ثلاث قوائم، وقرر أريكسون وفريقه التركيز على عازفي الكمان. كانت القائمة الأولى هي أولئك الطلبة الذين يتوقعون لهم شأنًا كبيرًا وشهرة عالمية في مستقبل عزف الكمان. وتم اختيار عشرة طلاب من المتوقع أن يكونوا نجوم المستقبل: ثلاثة ذكور وسبع إناث. أما في القائمة الثانية فقد تم اختيار شريحة أخرى متميزة لكنها لم تصل إلى درجة التفوق. ولتكون الشرائح متطابقة، تم اختيار ثلاثة ذكور وسبع إناث من نفس الفئة العمرية. أما للقائمة الأخيرة، فقد تم اختيار عشرة عازفي كمان بالتركيبة نفسها لكنهم متوسطو الأداء ويرجح أن يكونوا معلمي موسيقى في المستقبل.

وبعد دراسته لسلوكياتهم عن قرب، توصل أريكسون وفريقه للاستنتاج التالي: "لا يمكن امتلاك المهارة في سنة أو سنتين من التدريب. الجدير بالذكر أن الطلاب الذين اخترناهم كانوا قد مارسوا العزف لمدة عقد من الزمان (متوسط العمر عند بدء التدريب كان الثامنة)... هؤلاء يبدأون بطريقة منظمة ودروس مركزة بشكل باكرٍ في حياتهم. بالإضافة إلى زيارة معلم موسيقى مرة في الأسبوع. يُقيمُ المُعَلِّمُ الأَدَاءَ المُوسِيقِيَّ للطالب خلال تلك الزيارات ويكتب له هدفًا أو هدفين ليحققها الطالب بشكل سريع، ثم إنه يحدد لهم دراسة بعض المهارات التقنيات التي يستطيع الطالب المتحمس ممارستها في وقته الخاص خلال ذلك الأسبوع قبل الزيارة التالية.

ولأن معظم الطلاب يقضون الوقت نفسه مع المعلم - ساعة - فإن الفارق الحقيقي والوحيد بين أداء الطلاب كان التدريب الذي يقومون به لوحدهم. فالطلاب الجادون... الذين تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والخامسة عشرة... كانوا يقضون قرابة الخمس عشرة ساعة من التدريب المركز أسبوع، وكانوا خلالها يمارسون التدريبات التي حددها لهم المعلم حتى يتقنوا مهارات معينة".

وذلك يتوافق مع ما كتبه عالم النفس مايكل هيو: "أجرى جون هايس تحقيقًا درس فيه إنجازات ستة وسبعين موسيقارًا معروفًا. استنتج منه أن جميعهم تطلّبوا وقتًا طويلًا ليصلوا إلى قمة الأداء. كما توصَّل إلى أن ثلاثة وسبعين من ستة وسبعين موسيقارًا لم يأتوا بشيء يُذكر قبل السنة العاشرة من مسيرتهم الموسيقية". وذكر أيضًا أن التفوق في الشطرنج يتطلب فترة مشابهة، وأشار أن الحالات الثلاث الاستثنائية (من ضمنهم بوبي فيشر) تطلبت تسع سنين لتتفوق بشكل مميز. وهذا ما يتوافق أيضًا مع دراسة بنجامين بلوم في دراسته للـ 120 متفوقًا التي أشرنا إليها سابقًا.

قام أريكسون وفريقه باستجواب الطلاب الثلاثين عن كل تفاصيل حياتهم وتاريخهم الموسيقي، فسألهم متى بدؤوا التدريب وكيف كانوا يتدربون بل طلب منهم كتابة مذكرات يومية لمدة أسبوع! ذكر الكثير منهم أهمية النوم في تحسين الأداء، كما اتفق معظمهم بأن التدريب لم يكن مسليًّا أو ممتعًا بتاتًا وأن التطور كان صعبًا جدًّا وشبيهًا بالأعمال الشاقة.

لكن الاختلاف الذي لاحظه أريكسون وزملاؤه هو فرق عدد ساعات التدريب بين الشرائح الثلاث. لنقرأ ملاحظاته عن ذلك: "لقد وجدنا أن فترة التدريب للعازفين الذين ينتمون إلى المجموعة المتفوقة يفوق فترة تدريب المجموعة الجيدة... كما تدربت المجموعتان بشكل انفرادي لساعات أكثر من المجموعة الثالثة التي يتوقع أن يصبح أفرادها مُدرّسي موسيقى. فعندما بلغوا الثامنة عشرة من عمرهم، أصبح مجموع الساعات التدريبية لمدرسي الموسيقى المستقبليين يصل إلى 3,420 ساعة تقريبًا ووصلت ساعات عزف الكمان للشريحة الجيدة ما متوسطه 5,301 ساعة عزف بينما جمع طلاب الشريحة الأفضل ما متوسطه 7,410 ساعة! إذًا لم يتكاسل أحد منهم، فحتى الطلاب ذوو الإنجازات المتواضعة تدربوا لآلاف من الساعات".

الملفت للانتباه في دراسة أريكسون بأن جميع هؤلاء العازفين لم يكونوا متفوقين أو موهوبين بالفطرة أو أنهم ينتمون إلى تلك الشريحة التي أشرنا إليها سابقا باسم "الطفل الأعجوبة". بل تفوقوا ووصلوا إلى درجة الإتقان بسبب آلاف الساعات التي قضوها في التدريب التطويري القاسي وبسبب حصولهم على الكثير من النصائح والتوجيهات من مدرسين مختصين في العزف بدون استثناء. موتسارت نفسه أحد أعظم الموسيقيين في التاريخ لم يكن استثناءً لتلك القاعدة! كما وجد أريكسون هذا النمط متكررًا في مجالات مختلفة مثل العلوم والفنون والرياضة.

ماذا عن ألبرت أينشتاين؟

لقد قرأنا مبكرًا أنه سمع الموسيقى التي شدته إلى العلوم الطبيعية مبكرًا في حياته، منذ أن منحه والده البوصلة حين كان في سن الخامسة، إلى نقاشاته العلمية والفلسفية العميقة مع عمه جايكوب والطبيب ماكس تالمود وأخيرًا في نادي أكاديمية أولمبياد مع صديقه. وفي سن السادسة عشرة، حاول تخيل أنه يقود دراجته بجانب إشعاع ضوء، وهذا النوع يشير إلى ذكاء سائل حيوي وربما متميز! بإمكاننا النظر إلى كل ذلك كتمهيد لما سيحدث لاحقًا في حياته. في عام 1902م، بعد عجزه عن الالتحاق بمنصب مساعد مدرس في إحدى الجامعات، تمكن بمساعدة صديقه مارسيل الحصول على وظيفة، وكان ذلك بمساعدة من أبيه الذي ربطته صداقة بمدير مكتب توثيق براءة الاختراعات السويسرية في مدينة برن. كانت وظيفته تتطلَّب أن يدرس النماذج التي يقدِّمها المخترعون السويسريون للحكومة السويسرية، وكان عليه قراءة تلك النماذج وتفنيدها وتحليل المعلومات والنظريات المكتوبة فيها.

وقد مارس أينشتاين هذا النوع من التفكير التحليلي والمعقّد لمدة ثماني ساعات في اليوم لستَّة أيام في الأسبوع ولمدَّة سبع سنوات!

هل بإمكانك تصور أثر هذه الوظيفة على ذهن ألبرت أينشتاين؟

أن يحظى إنسان مهتم بالعلوم بهذا النَّوع من الوظائف الملهمة هو أشبه بأن يحظى شاعر صغير بمنزل يجاور منزل شكسبير، أو أن يكتشف رسامًا ناشئًا بأن جاره هو بيكاسو!

يقول عالم الفيزياء ميتشيو كاكو، في كتابه: "فيزياء المستحيل": "لقد كان يحلِّل براءات الاختراع المقدَّمة على طاولته بسرعة ثم يقضي ساعات في تأمُّل معضلات الفيزياء التي أرَّقته منذ طفولته". وكتب عن أهمية هذه الساعات على تفكير أينشتاين بأن: "هذا الكم من المعلومات شحذ قدرات ألبرت الفيزيائية. ألبرت نفسه يصف تلك الفترة بأنها (معبد ذهني) سمحت له بتطوير أروع أفكاره".

وفي سنة 1905م، شارك أينشتاين العالم مجموعة من البحوث والتي تعد أروع بنات أفكاره بالتأكيد!

لكنه لم يقطف ثمرة أعماله ويحصد جائزة نوبل إلا في عام 1925م، أي بعد 23 سنة من بدأه العمل في ذلك المكتب.

هذا النوع من التدريب المركز والذي يقود إلى نتائج عظيمة هو محوري في رحلة أي خبير أجاد حرفته، وكل عبقري وضع بصمته على العالم.

منح العلم الحديث هذا النوع من التعلم والبناء اسم: "المراس".

* * *

بدأ جُلَّ ما نعرفه عن المِرَاسُ في الحادي عشر من يوليو عام 1978م في معمل علم النفس بجامعة كارنجي ميلين العريقة. حيث اجتمع ثلاثة أشخاص وهم الباحثان أندرِس أريكسون ووليام تشايس، وطالب جامعي باسم ستيفين فالون [36] من أجل اكتشاف حدود ذاكرتنا كبشر وهو الحد الأقصى لعدد المعلومات الذي يمكننا استذكاره في وقت معين وقصير.

يعود مصدر إلهام التجربة إلى ورقة علمية قديمة كُتبت عام 1929م قرأها أندرِس أريكسون الشاب. وصفت هذه الورقة تجربة أجراها باحثان يرغبان في اكتشاف حدود الذاكرة فقاما بتجربة على طالبين لمدة أربعة أشهر. كانت التجربة تقوم على أن يقرأ الباحثان رقما كل ثانية وبعد نهاية الأرقام يعيد الطالب تكرارها بنفس الترتيب الذي سمعه. في البداية كان هناك حد لسقف ذاكرة الطالبين: الأول كان يكرر أول تسعة أرقام ببساطة، والثاني كان يصل إلى الرقم الحادي عشر. ومع التدريب خلال الأربع الأشهر التالية أبدى الطالبان تجاوبًا مبهرًا وبدء عدد الخانات يتصاعد.

كان أريكسون يريد تكرار التجربة حتى يعرف السقف الذي تصل إليه ذاكرتنا. وكان فالون مرشحا ممتازا لخوض هذه التجربة، فذاكرته كانت عادية إذ كان يحفظ سبعة أرقام (وهو متوسط الذاكرة البشرية).

لكن أريكسون أخفى معلومة مهمة عن فالون، وهي أن الباحثين في الورقة العلمية التي قرأها أوقفوا التجربة لأنهم اعتقدوا أنهم وصلوا بالفعل إلى سقف الذاكرة البشرية (إحدى عشرة خانة) لكن أريكسون لم يكن يريد أن يؤثر هذا الاكتشاف على ستيفين فالون وتوقعاته فأبقى تلك المعلومة سرًّا.

واظب ثلاثتهم على الاجتماع ساعة في اليوم من ثلاث إلى خمس أيام في الأسبوع. بدأ أريكسون بقراءة خانة في الثانية إلى أن وصل إلى سبع خانات، وحين تمكن ستيفين من ترديد السبع خانات بالترتيب الصحيح، انتقلوا إلى ثماني خانات وهكذا. وبعد ساعات من التدريب تمكن ستيف من كسر السقف السابق وتخطى الخمس عشرة خانة بل وصل إلى عشرين خانة.

لكن التدريب كان ينهكه باستمرار.

وفي أحد الأيام عندما كان أريكسون يقرأ الأرقام عليه، كان فالون يتصبب عرقًا ويتنفس بشكل متقطع خلال قراءته، وأخذ يضرب براحة يديه على الطاولة باستمرار! وعندما أنهى قراءة الخانات كلها وتأكد أريكسون من صحة الترتيب سمع ثلاثتهم طرقات عنيفة على باب المعمل. كان حارس الأمن متأهبًا بعد أن أبلغه أحدهم عن صراخ عنيف في المعمل!

كيف تطورت مقدرة ذهن ستيفين فالون من حفظ سبع خانات إلى حفظ عشرين خانة؟ والسؤال الأهم: هل عشرون خانة هي سقف البشرية؟

باستطاعتنا الإجابة على هذا السؤال بأن إنجاز فالون كان بفضل التدريب. وهذا قد يعني أن سقف الذاكرة البشرية يتخطّى العشرين خانة. لقد كان التدريب منهكًا لفالون، بل ذكر أريكسون أن فالون أراد أن يترك التدريب بعد الأسبوع الأول، لكنه ظل يعود إلى معمل أريكسون وتشايس باستمرار. ويعود ذلك إلى أنه لاحظ التقدم! فمع التدريب بدأت ذاكرته تتسع لعدد أكبر من الأرقام. كما أنه اكتشف طريقة (سنناقشها بعد قليل بشكل مفصَّل) تمكنه من التطور بشكل مذهل.

في نهاية فترة تدريب فالون التي استغرقت سنتين وصل عدد الساعات التي تدرب فيها إلى 250 ساعة. قد نتساءل هنا عن عدد الخانات التي تمكن ستيفين من حفظها وخاصة أن سقف التوقعات كان 15 خانة فقط. لقد تمكن ستيفين من تخزين 80 خانة في ذاكرته القصيرة المدى.

اللعبة الملكية (الجزء الثاني) لنتعمق الآن في مخ ستيفين حتى نفهم سر تفوق ذاكرته، لأن فهمنا لذلك هو مفتاح فهمنا لآلية عمل عقول المتفوقين في المجالات الأخرى. وفقا لأريكسون لم تظهر الدراسات الإشعاعية لعقل ستيف أي تغييرات في بنيته العقلية. وذلك لأن الفضل في تفوق ستيف لم يكن بسبب تغيرات في حجم ذاكرته أو تشكيلة أعصابه، لكن بسبب استراتيجية مكّنته من تكوين نمط يحفظ به الأرقام بنجاح. تعرف هذه الاستراتيجية باسم الاستذكار الهيكلي (Retrieval Structure)، وهي الفاصل بين أن تكون متفوقا وأن تكون متوسط الأداء.

وحتى نفهم دور هذه الاستراتيجية أكثر، لندرس تجربة أخرى قام بها عالم نفس هولندي باسم أدريان دي. جروت في أربعينات القرن العشرين. وكان السؤال الذي دفعه لهذه التجربة هو: ماذا يميز عقول محترفي الشطرنج عن عقول الهواة؟

صمَّم أدريان تجربة ذكية تسمح له بالإجابة هذا السؤال. حيث قام بالاطلاع على تاريخ اللعبة واختيار عدة أوضاع لقطع الشطرنج على اللوح بشكل لا تبقى فيه سوى خطوة واحدة صحيحة للفوز. وكانت تلك الخطوة صعبة الاكتشاف. ثم قدَّمها لهواة ومتفوقين في لعبة الشطرنج وطلب منهم أن ينطقوا أفكارهم بدلًا من أن يخططوا حركتهم القادمة بصمت. وكان ما اكتشفه في تلك التجربة مذهلًا!

كان الهواة يدرسون لوح الشطرنج كما يحاول السائح استقراء خريطة جديدة لمعرفة مسالك المدينة واكتشاف الخطوة المناسبة. فكانوا يناقشون أنفسهم بصوت عالٍ وبحرص محاولين تخمين الخطوات الصائبة وعواقب تلك الخطوات. أما المتفوقون فكان سلوكهم مختلفًا تمامًا. كانوا ينظرون إلى لوح الشطرنج كخريطة يعرفون كل تضاريسها، لم يشغلوا تفكيرهم في استكشاف مسالك جديدة أو التفكير في خطوات محتملة. كان ينظرون إلى لوح الشطرنج ويحددون الخطوة التالية مباشرة، وكانت هي الخطوة الصحيحة!

ببساطة كان الهواة يفكرون بينما كان المتفوقون يتفاعلون. ومع أن حدسهم كان أسرع وخطوة الفوز بديهية لهم أكثر إلا أن ذلك لا يعني أنها موهبة فطرية.

علينا أن نفهم خبرة المحترفين حتى نفهم سرعة الحدس والبديهة لديهم. فقد لاحظ العالم أدريان عدة عوامل مختلفة بين الهواة والمتفوقين، كان أحدها حركة العين. حيث كان المحترفون ينظرون إلى حواف اللوح مما يثبت أن نظرتهم كانت تشمل اللوح بالكامل وليس فقط مسار كل قطعة على حدة، بالإضافة إلى أن أعينهم كانت تركز على قطع معينة وهي القطع المهمة. هذه الدقة والنظرة الشمولية والذاكرة الاستثنائية والمُخضرمة التي أصبحوا يمتلكونها كانت نتيجة عدد كبير من تحديات الشطرنج التي درسوها أو مارسوها (مثل السيد «ب» في رواية ستيفان زفايج: اللعبة الملكية). وحالما ينظرون إلى اللوح تسترجع ذاكرتهم تحديات سابقة ويسقطونها على اللوح الحالي.

كما أثبتت دراسات لاحقة أن محترفي الشطرنج يستطيعون حفظ توزيع القطع على اللوح لأسابيع وأشهر وسنوات كذلك بعد نهاية اللعبة! بل إنه كلما أضافوا تحديات جديدة إلى ذاكرتهم حفظوا خططًا أكثر. ولذلك نشعر بأن ما يأتون به بديهي، لكنه في الحقيقة نتاج سنوات من المراس والممارسة والحفظ حتى تكونت لديهم تلك الذاكرة التي أصبحت خبرة.

فالذاكرة هي أساس خبرة المتفوق ومن خلالها نستطيع تذكر الأمور التي مارسناها في حياتنا لتكوين تلك الخبرة. فكل شخص لديه ذاكرة متفوقة في تخصص معين. كتب أريكسون عن الذاكرة بأنها: "كم هائل من المعرفة والاستذكار المبني على الأنماط، وتراكم آليات تخطيط على مدار سنين من التجارب في المجال".

ومن هذه المعرفة يستطيع الخبير بناء عالم منطقي يمكنه من التفوق، ودون ذلك المنطق لن يختلف الخبير عن الهاوي.

قام عالما النفس كريستوفر تشابريس ودانيال سيمونز من جامعة هارفارد باختبار ذاكرة لاعب الشطرنج الدولي باتريك وولف للتأكد من طريقة عمل ذاكرته وأهمية دور المنطق والأنماط في الذاكرة.

كانت طريقة التجربة هي وضع لوح شطرنج فارغ وبجانبه قطع الشطرنج (عددها 22 قطعة) بدون ترتيب معين، ثم يناوله أحد العالمين بطاقة عليها توزيع قطع الشطرنج من منافسة حقيقية ويسمحون له بدراستها لمدة خمس ثوان فقط. كانت مهمة باتريك هي توزيع قطع الشطرنج على اللوح كما رآها على البطاقة.

انظر إلى الصور التوضيحية لمعرفة نتيجته: التجربة الأولى:

الترتيب الأصلي (كما على البطاقة)

التجربة الأولى:

ترتيب باتريك وولف بعد مطالعة البطاقة لمدة

خمس ثوان

من أصل 22 قطعة، أخطأ وولف في موقعي قطعتين فقط! وعندما استفسر العالمان عن سبب خطئه شرح لهم أن تلكما القطعتين لا تؤثران في مسار المباراة، فلم يلقِ لهما بالًا.

هذه النتيجة مذهلة. بل أن العالمين كرَّرا التجربة معه أربع مرات أخرى ونجح في جميعها. أي أنها لم تكن ضربة حظ.

لكن الأمور تغيرت عندما ناوله أحد العالمين بطاقة لوح شطرنج بترتيب مُختلق عشوائي دون أن تكون تابعة لأي منطق. بدأ الخبير بترتيبها بعد مطالعته لها لمدة خمس ثوان على اللوح الحقيقي أمامه.

طالع الصور التوضيحية لمعرفة إنجازه: التجربة الثانية:

الترتيب الأصلي (كما على البطاقة)

التجربة الثانية:

ترتيب باتريك وولف بعد مطالعة البطاقة لمدة

خمس ثوان

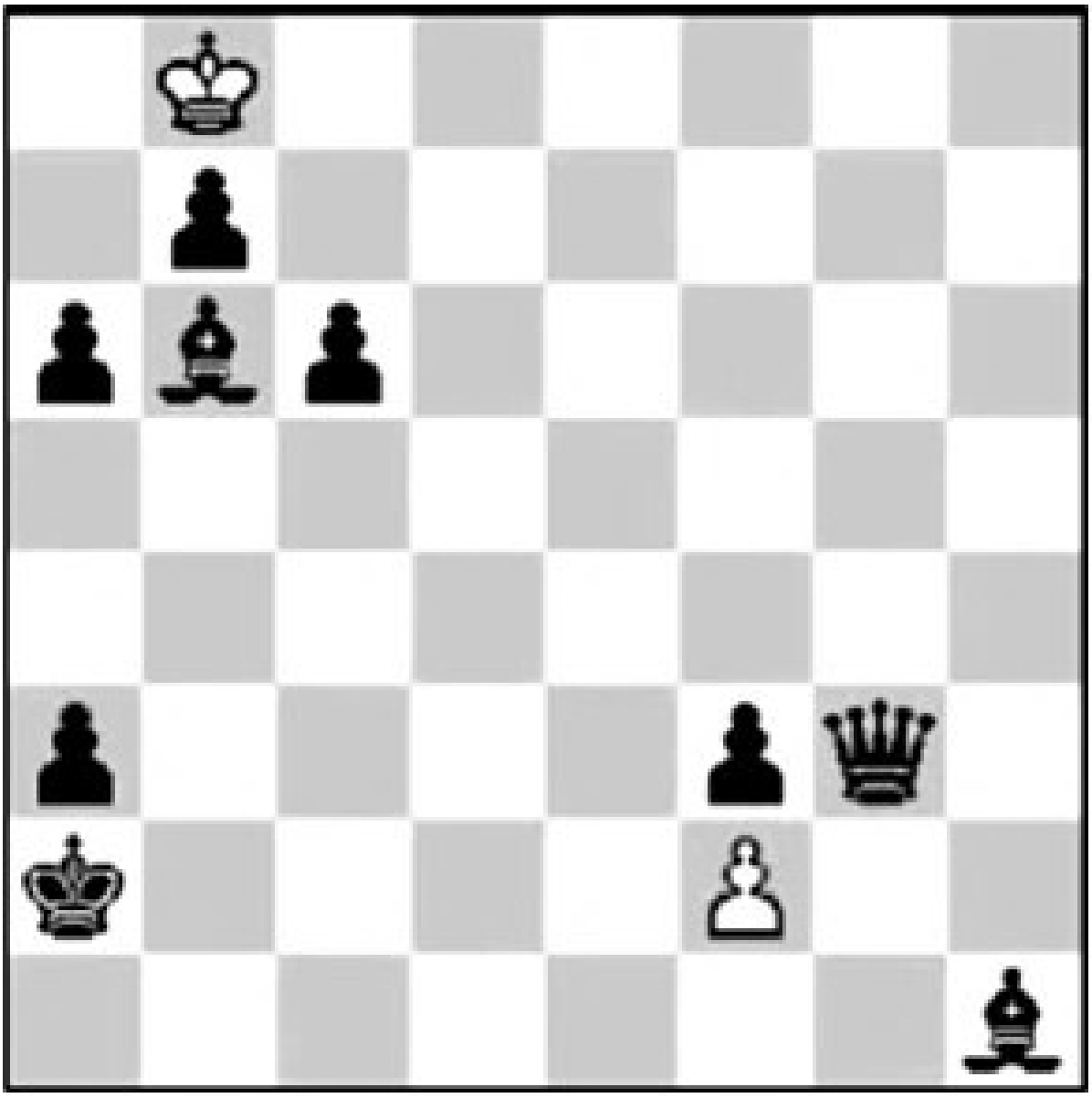

يتدهور أداء ذاكرتنا في حال غياب المنطق. انظر إلى أداء وولف بعد أن فقد الخريطة الذهنية التي تمكنه من فهم عالم الشطرنج.

كان هذا سر تفوق السيد «ب» على خصمه الشاب كزنتوفيك في رواية زفايج. فعندما كان السيد «ب» في السجن النازي، كان بمتناوله كتاب عن قواعد لعبة الشطرنج، ورسومات لمئة وخمسين مباراة لأفذاذ اللعبة، حفظها في ثلاثة أشهر، وأعاد المباراة الواحدة في خياله عشرات المرات، ثم بدأ يابتكار خصمه الداخلي، وأخذ يباري نفسه، وفي لحظة من لحظات الهوس أصيب بنوبة مدمرة، نقل على إثرها إلى المستشفى، وهناك أنقذه تقرير الطبيب من العودة إلى السجن وخرج إلى العالم. يكتب زفايج على لسان

بطل روايته: "تسمّر كزنتوفيك المحترف في مكانه من بداية المباراة حتى نهايتها، وعيناه تحدقان إلى رقعة الشطرنج، لا يرفعهما أبدا. كان يبدو أن التفكير يتطلب منه بذل مجهود جسدي، يزيد في شد جميع أعضائه. في حين كان السيد «ب» يجلس بكل ارتياح، وكانت حركاته عفوية ولينة. إنه يمثل الولع بالفنون في أعلى تجلياته، لم يكن يرى في اللعبة إلا وسيلة للمتعة، وكان يقدم لنا شروحًا لحركاته بتهكم، ويشعل سيجارة بحركة لا مبالية، ولم يكن ينظر إلى رقعة الشطرنج إلا قبل أن يلعب حركته بدقيقة واحدة".

لقد طور السيد «ب» أسلوبًا وأنماطًا في ذاكرته مكّنه من سحق غريمه بدون تعب. من المذهل أنه في الوقت الذي كان يتغنى فيه العالم بأهمية الجينات ومعدل الذكاء ودورهما في التفوق، نظر زفايج إلى التفوق بطريقة مختلفة وقد كانت صحيحة، والأكثر إبهارًا أن ما كتبه يتوافق مع ما أثبته العلم الحديث بعد عقود من الزمن.

* * *

من هنا يأتي تفسير سبب تفوق فالون، الاستذكار الهيكلي مكّنه من خلق منطق، والذي بدوره مكّنه من حفظ الأرقام، وكان مصدر ذلك المنطق هو خبرة استعارها من مجال مختلف: الركض. فلما كان يسمع الرقم 35942 كان يقسمه إلى ثلاث ساعات تسع وخمسين دقيقة واثنين وأربعين ثانية (3.59.42) أي كمن كان يركض في ماراثون! لقد وجد طريقة ذكية ليجعل هناك قيمة للأرقام بدلا من أن تكون مجرد أرقام عشوائية. وهذا الرابط الاستراتيجي هو الذي مكّنه من حفظ الأرقام بتفوق.

لكن الأداء تغير (أو تدهور) عندما فقد فالون القدرة على الهيكلة. فلما طلب إريكسون منه (بعد تفوقه مع الأرقام) أن يحفظ ترتيبًا عشوائيًّا للأحرف الإنجليزية كان أداؤه لا يختلف عن الشخص العادي، لأن ذاكرته لا تملك ذاكرة استرجاعية لهذا النوع من الخانات، كما حدث مع باتريك وولف. فمتفوقو الشطرنج لن يختلف أداؤهم كثيرًا عن الهواة إذا ما كان ترتيب اللوح عشوائيًّا لأن خبرتهم لا تملك ذاكرة تقارن بها ذلك الترتيب العشوائي. لقد فقدوا ذلك السياق.

لعل المثال التالي يوضح الفكرة أكثر. تخيل أن تقابل شخصًا اسمه "فارس"، بينما في نفس الوقت تعرف شخصًا آخر يمارس الفروسية، أي أنه "فارس" كذلك. لكن الشخص الذي سيترك صورة ذهنية أقوى ستكون هي الشخص الذي يمارس الفروسية. لماذا؟ لأن سياقه يرتبط بأنماط بصرية غنية، فصورة الفارس ثرية في عقولنا. فنحن نتخيله في رداء الفروسية بتلك الخوذة

المميزة في المضمار مع حصانه وكل تلك الصفات التي عادة ما نقرنها مع الفارس. لكن إذا كان اسم الشخص فارس فهناك الكثير ممن يشاركونه الاسم نفسه فهو مجرد شخص بالنسبة لنا وقد يكون مدرسًا أو مهندسًا أو محاسبًا. لكن لأننا لن نعرف الكثير عنه أول مرة نقابله لن تكون هناك الكثير من الروابط التي تذكرنا به، وعلى الأرجح سننساه بعد ذلك اللقاء!

وهذا ما يصنع الفارق بين الهاوي والمتفوق، فالأنماط الارتباطية في مجال معين أثرى في ذاكرته وبدونها يصبح الفارس مجرد فارس. وهذا ما يجعل المِرَاسُ محصورًا. فهو مبني على خبرة وسياق، ومصدرهما محصور في ما تمرّسنا عليه.

أُسس المراس

يخبرنا علم التفوق أن المِرَاس يتمحور حول عدة عناصر، وحتى نفهمها علينا إعادة النظر في بعض التعاريف التي قد تكون شائعة بيننا على الرغم من أنها خاطئة. فأولئك الذين لا يصلون إلى أعلى المراتب كان تدريبهم لمجرد الممارسة والمحافظة على مستوى معين، أو كما سماه أريكسون بالتدريب العفوي (Naïve practice) حيث يتدرب المرء بتكرار وعشوائية لكن بدون أجندة تطويرية. فقد أثبتت عدة دراسات أن المرء حين يصل إلى مستوى مقبول من التمكن فإن ساعات وسنوات التدريب لن تضيف إلى مهاراته الكثير على الأرجح لأن تفكيره عندها يصبح آليًّا وغير مبتكرًا، وهذا قد يتسبب بوصوله إلى سقف وهمي يصدّه عن المتابعة. وسنجد حالات مشابهة لدى ممارسي الرياضة والموسيقى والفنون، حيث الوصول إلى مستوى مرضٍ يقتل الإبداع والسعي الجاد نحو التطور. وذلك لأن التدريب الذي يقودنا إلى هذا النوع من التفوق ليس أي نوع من التدريب. يكتب أريكسون عن المراس: "يدفعنا المراس خارج منطقة الراحة بشكل متواصل، ويتطلب من الطالب أن يتدرب باستمرار متخطيًا قدراته الراهنة. وذلك يتطلب بذل أقصى جهد ممكن، وهذا ليس أمرًا ممتعًا".

بإمكاننا أن نسمع مكيافيللي يكرر نفس النصيحة قبل أريكسون بقرون عندما نصح الأمير بإتقان فنون الحرب: "ينبغي للأمير ألا تكون له غاية أو فكرة سوى الحرب، ونظامها وطرق تنظيمها، وألا يتخذ لدراسته موضوعًا آخر سواه. فهذا هو الفن الوحيد اللازم لمن يتولى القيادة. ولذلك يجب أن لا ينسى الأمير فن الحرب، وألا يفارق ذهنه. وخلال أوقات السلم عليه أن يدمن تعلم الحرفة...".

وبإمكاننا أن نستخدم علم الحرب كمجاز للفكرة التي يحترفها العبقري ويكرس لها حياته. كما يبدو أن هناك توافقًا بين أفكاره وأفكار الألماني آرثر شوبنهاور، والفرنسي هنري برجسون والإنجليزي آرنولد توينبي، والذين أكدُّوا على أهمية تكريس الذات لتلك الغاية.

نلاحظ أيضًا كثيرًا من الأشخاص الذين قضوا آلاف الساعات في مجال معين دون أي تقدم يذكر، فقد نرى بعضهم في المسبح أو في المكتب يمارسون نفس العمل لسنوات بمستوى القدرة ذاته وقد يكون في هذا شيء من التناقض مع ما تم ذكره سابقًا. وسبب ذلك أنهم يمارسون ذلك النوع من التدريب العفوي والذي لا يؤدي إلى نتائج على المدى البعيد.

إذًا، ما هي العوامل التي يحتاجها المرء ليتقن المراس؟

يذكر أريكسون عوامل تحكم المِرَاسُ، وهي عناصر قرأناها بطريقة أو بأخرى في قصص العباقرة والمتفوقين في عدة نقاط:

- اكتساب مهارة معينة وتطويرها وإتقانها وغالبًا ما يحدث ذلك تحت إشراف مُعلم أو مدرب يجيد ذلك التخصص.

- المِرَاسُ بالضرورة يدفع المرء خارج منطقة الراحة لأن الإتقان يتطلب من المرء أن يتخطى قدراته الحالية، ومع أنه منهك إلا أنه ضروري. كما أن إتقان المرء لمهارة معينة ستجعله يحاول اكتساب مهارة أخرى أو يبدأ في تطوير مهارة سابقة لتتناسب مع قدرته النهائية التي وصل إليها.

- المراس يتطلب هدفًا واضحًا ورؤية واضحة للهدف ولا يراعي الأهداف مُبهمة المعالم. بل إنه في العادة نجد المعلم يساعد الشخص على توضيح معالم الهدف أكثر مما يعينه على الوصول إليه بشكل أسرع وأكثر إتقانًا.

- المِرَاسُ مدروس. وهذا يعني بأنه يتطلب التركيز التام على الهدف من التدريب.

- المراجعة الدقيقة والبناءة. تأتي المراجعة في بداية التدريب من المدرس أو المدرب، لكن المتدرب يطور مع مرور الوقت قدرته على مراقبة ومراجعة أدائه.

- يتطلب المراس مراجعة الأداء والتعرف إلى نقاط الضعف والعمل عليها بغرض تحسين المهارة والأداء.

يفسِّر أريكسون أهمية هذا المراس بأنه يدفعك دائمًا إلى ارتكاب الأخطاء التي ستعلمك دروسًا لم تكن لتدركها سابقًا لولا معرفتك بتلك الأخطاء وعملك على تصحيحها والتعلم منها، فالتدريب دون تصحيح عديم الفائدة ولا يعد مراسًا. كما لاحظ بأن المخ يعيد توجيه بعض الأعصاب لخدمة التدريب والهدف الذي يسعى إليه المرء من الممارسة حتى لو كانت تلك المجموعة من الأعصاب قائمة على مهام أخرى. ويتدخل هنا أحد أهم عوامل المراس: المراجعة والتحسين. فالذين يقومون بأداء العمل ذاته لسنوات دون مقارنته بمستواهم السابق أو مراجعة أدائهم ومراقبة نقاط الضعف والتغلّب عليها، يبقى مستواهم ثابتًا رغم عدد الساعات المبذولة فيه. تأتي هنا أهمية المرشد/ المدرب/ المُوجّه. وهو الشخص الذي سنجده في قصة كل متفوق كما ذكرنا قبل قليل.

قد يبدو للوهلة الأولى أن هذا النوع من التدريب والخبرة لا يقود إلى العبقرية. فالوصول إلى التفوق يتطلب فترات طويلة من المِرَاسُ الممل والمؤلم والطويل، أما العبقرية فتبدو عكس ذلك: جذابة وعفوية وبلا جهد وكأنها جزء من تركيبتنا، وذلك يتوافق مع الاعتقاد الشائع بأن العبقري يُولد ولا يُصنع. ولكن كما رأينا مرارًا وتكرارًا: العبقرية هي عملية متعبة ومنهكة ومؤلمة.

ولعله من الموائم هنا الختام باقتباس من بحث صدر في عام 1973م. أصدر الباحثان وليام تشايس وهربرت سايمون ورقة علمية عن مهارات الشطرنج، يناقشان فيها طريقة التفوق في الشطرنج. بل إنهما افتتحا البحث بهذه الجملة: **"في هذا البحث وبعد وصف الظاهرة، نود أن نروي قصة جهد استمر عشر سنوات للوصول إلى هذه الحقائق الفريدة من نوعها... لا يوجد خبراء وليدي اللحظة في الشطرنج... لا يبدو أن هناك سجلًّا لأي حالة (بما في ذلك بوبي فيشر) وصل فيها أي شخص إلى مستوى الإتقان في أقل من عشر سنوات من الممارسة والتدريب والانشغال الشديد باللعبة. وقد استنتجنا أن المتقن للعبة الشطرنج أمضى ما يقارب 10,000 إلى 50,000 ساعة يحدق إلى مواقع قطع الشطرنج"** [37].

المخ الذي يتغير

كيف تفيدنا النصوص أعلاه في فهم حجم مخ ألبرت أينشتاين؟ إنَّها لا توضِّح لنا لماذا كان الفصيص الجداري السفلي الخاص به أكبر من ذلك الذي عند أقرانه. في الواقع قد يستحيل علينا معرفة الأسباب التي قادت إلى ذلك التضخم.

ويؤمن الكاتب والتر إيزاكسون، مؤلِّف سيرة ألبرت أينشتاين، بأنَّه قد يستحيل معرفة إجابة هذا السؤال. وكتب عن مقارنة مخ ألبرت أينشتاين مع أمخاخ شريحة علماء رياضيات آخرين: "إحدى مشاكل هذه الدراسة أن مخه البالغ 76 عامًا قورن بأحد عشر مُخًّا لعلماء آخرين ممَّن توفُّوا في سن الرابعة والستين، ومع ذلك لم يكن هناك عباقرة آخرون في تلك العيِّنة لتحديد ما إذا كان هذا الاكتشاف يتواءم مع نمط معين. وكانت هناك أيضًا مشكلة أخرى جوهرية: فمع عدم القدرة على تعقُّب الأثر الذي يتركه تطوُّر المخ مع الأثر الذي يتركه طول العمر، أصبح من غير الواضح أي الصفات تسبَّبت في التمتُّع بقدر أكبر من الذكاء، وأيُّها التي يُمكن أن تكون - بدلًا من ذلك - محصِّلة السنين التي استخدم فيها أجزاء معينة من المخ".

في الواقع إنَّ ملاحظة إيزاكسون مهمَّة جدًّا. فمعظمنا ينسب العبقرية لطفرة جينية حدثت في الرحم، وبعد قراءتنا للصفحات السابقة، سنُقدِّر دور البيئة التي عاش فيها ألبرت الصغير مثلًا وكل الحوارات العلمية التي خاضها في سن مبكِّرة مما سمح لجيناته بالتفاعل والتطوُّر عبر السنين. ولكن ما زال هناك سؤال آخر: هل كانت جينات هذا العبقري الخارقة في داخله تنتظر دور البيئة ببساطة لتُطلق عنانها؟ في الواقع لا توجد أدلة على ذلك. فشريحة الأطفال الأعجوبة تظهر أن هؤلاء الأطفال يقومون بتصرُّفات خارقة مثل أن يقرؤوا أعمال شكسبير في سنِّ الثَّانية، ويحلُّوا أصعب المعادلات الرياضية في سنِّ الثَّالثة، بل إن أحدهم اخترع لغةً قبل عيد ميلاده الثَّامن! هؤلاء الأفراد بالفعل وُلدوا بجينات خارقة وفي بيئة مكَّنتهم من تفعيل تلك الجينات في صالحهم. الافتراض المنطقي هنا، أنَّ هذه ميزة وُلد بها ألبرت أينشتاين، ومكَّنته من استيعاب وإنجاز كل ما ذُكر أعلاه بسهولة. لكن مع ذلك، لا يوجد أي دليل في طفولة أينشتاين على أنَّه كان طفلًا أعجوبة.

في السطور التالية، سنحاول محاولة أخيرة لمعرفة سبب تضخُّم الفصيص الجداري السفلي ولكن هذه المرَّة من خلال مجهر علم الأعصاب. ولكي نصل إلى فهم أعمق لهذه النقطة، علينا أن نذكر سائقي سيارات الأجرة في مدينة لندن.

* * *

من المعروف أن القيادة في شوارع لندن تجربة معقَّدة وكابوسية. وسبب ذلك أنَّه على مدار 1,500 سنة تراكمت حضارات مثل الرومان، والفايكنج، والساكسون، والنورمان في مكان واحد. فجعلت لندن أشبه بغابة عمرانية حديثة. ومن المتوقَّع أن لا نلاحظ ذلك أو نعتبره أمرًا عاديًّا، فنحن نركب سيارة الأجرة ونخبر السائق بوجهتنا ثم ننخرط في أمور كثيرة كأن نقرأ الجريدة أو نتحدَّث على الهاتف الخلوي أو ببساطة نحدِّق سارحين إلى جمال المدينة. وهذا كلُّه يعني أنَّنا لن نلاحظ الطُّرق المعقَّدة التي يقودنا السائق من خلالها. ولك أن تتخيَّل قيادة سيارتك عبر ما يقارب 25 ألف شارع مرتبط دون نمط واضح وفجأة يقطع طريقك تمثال أو حديقة أو سوق أو حتى منزل!

في الواقع، أن يكون المرء سائق سيارة أجرة في لندن هو أشدُّ تعقيدًا مما نتصور (خاصة في عصر ما قبل الـ GPS)، فهو بحاجة إلى شهادة ليكون مؤهلًا لقيادة سيارة الأجرة. وكي يحصل المرشَّح على تلك الشهادة يجب عليه أن يتخطى اختبارًا يُعرف بين سائقي سيارات الأجرة بـ "المعرفة"، وهي إجادة التنقل بين شوارع تلك المدينة واختصاراتها، ومعرفة متى تكون الشوارع مزدحمة وكيفية تجنُّبها. أضف إلى ذلك معرفة مناطق تجمُّع وتكدس السياح، والفعاليات الموجودة وأثر الطقس على الطرق.

إن سمعة سائقي سيارات الأجرة في لندن تكاد تكون أسطورية لدرجة أنَّها أصبحت مصدر تفاخر، وتستخدمها بعض القنوات السياحية كنوع من الترويج والتسويق.

وفي مقابلة مع شخص عمل سائق سيارة أجرة في مدينة برايتون البريطانية، ذكر أنَّ التجهيز لاختبار المعرفة لتلك المدينة تطلَّب تسعة أشهر فقط، بينما التجهيز لاختبار لندن يتطلَّب أربع سنوات!

أثار هذا الموضوع فضول عالمة الأعصاب الإيرلندية إلينور ماغواير التي أجرت إحدى أشهر الدراسات في مجال العقل والقدرات الذهنية، والتي أتاحت لنا إلقاء نظرة على خفايا المُخ.

كان محور تركيز الدراسة هو منطقة في المخ معروفة باسم الحُصَين الخلفي، وهو الجزء المسؤول في مخِّنا عن الذاكرة التصويرية المكانية أو الحيزية، وقامت ماغواير بفحص ذلك الجزء في أمخاخ سائقي الأجرة بأشعَّة الرنين المغناطيسي وما اكتشفته كان مذهلًا! فعند مقارنة مخ سائقي سيارات الأجرة المتفوقين والسائقين الأقل خبرة، اكتشفت أن الحُصَيِّن الخلفي أكبر عند المتفوقين، مثل ما كانت الحال في مخِّ ألبرت أينشتاين وأمخاخ علماء

رياضيات. وهذا يجعلنا نتساءل، هل يدلّنا هذا على أنَّ سائقي الأجرة المتفوقين لديهم ميزة جينية على أقرانهم الأقل خبرة؟ أم أنَّنا نولد بأحجام حُصَين خلفي متفاوتة؟

في الواقع نعم. لقد وُلدنا بأحجام حُصَين خلفي متفاوتة. لكن ماغواير كانت تبحث عن إجابة لسؤال آخر: هل تنمو تلك المنطقة، أما أنها تظل على ما كانت عليه وقت الميلاد؟

قامت بدراسة شريحة مكوَّنة من تسعة وسبعين مرشَّحًا لاختبار المعرفة قبل أن يقوموا بالدراسة والتجهيز له، فأظهرت أشعَّة الرنين المغناطيسي أن أحجام الحُصَين الخلفي متفاوتة، لكن متقاربة جدًّا.

وبعد أربع سنين، تتبَّعت ماغواير أولئك المرشحين وقارنت بين حجم الحُصَين الخلفي للذين نجحوا في اختبار المعرفة وحصلوا على الرخصة (واحد وأربعين سائقًا) مع أولئك الذين لم ينجحوا أو لم يواصلوا (ثمانية وثلاثين شخصًا).

كان الفرق واضحًا ومذهلًا بينهما. إذ اتضح أنَّ التدريب في شوارع لندن لمدَّة أربع سنوات تسبب في تضخُّم الحُصَين الخلفي لدى السائقين المُرخَّصين، بينما لم يظهر أي تغيير يذكر لدى أولئك الذين توقفوا عن التدريب.

إذًا كلما زادت سنوات التدريب والخبرة، سيزداد حجم الحُصَين الخلفي. بعد هذه الدراسة كتبت إلينور ماغواير: "تقودنا الأدلَّة إلى أنَّ التغييرات في الخلايا الرمادية في الحُصَين الخلفي مُكتسبة!".

ما تخبرنا به نتيجة هذه الدراسة أنَّ بعض أجزاء مخ الإنسان تشابه سائر عضلات الجسم. فكلما درَّبتها أكثر، ازداد حجمها. وكما أنَّ الأمر صحيح في حالة الحُصَين الخلفي، فهو صحيح أيضًا في حالة الفصيص الجداري السفلي.

كتب أندرِس أريكسون عن مخرجات الباحثين الذين شرحوا مخ أينشتاين: "اكتشف الباحثون الذين درسوا حجم ذلك الجزء من المخ لدى المتفوقين في الرياضيات وغير المتفوقين فيها، أنَّه كلَّما احترف شخص ما دراسة الرياضيات، زاد عدد الخلايا الرمادية في الفص الأيمن للجدار السفلي. وهذا يقودنا للاستنتاج أنَّ الزيادة في حجم المخ ماهي إلَّا نتيجة لقضاء فترات مطوَّلة في العمل على الرياضيات، وليست شيئًا يُخلق المرء به".

وبعيدًا عن الجينات والتَّلافيف المخية، يطرح والتر إيزاكسون وجهة نظر بالغة الأهمية: "إنَّ أي محاولة للتوصل إلى فهم صحيح لخيال أينشتاين وبصيرته لن تأتي من البحث والتفتيش في تجاويف مخه! فالسؤال الذي ينبغي أن يُطرح هو كيف كان يعمل عقله". أما التفسير الذي قدَّمه أينشتاين نفسه في هذا الشأن، فهو أنَّ معظم إنجازاته الفكرية ترجع إلى فضوله، وكما قال في أيامه الأخيرة: "لستُ موهوبًا، إنَّما أنا فضولي متحمِّس".

أن تكون ملولًا (أو الإبداع) "ما هي المهمة الأصعب في العالم؟

التفكُّر".

رالف والدو إمرسون،

مقالة "الفكر"

فهرنهايت العبقرية

هناك سؤال مهم لا يجيب عنه فصل المراس: هل يعني التفوق في مجال معين، وتجميع آلاف الساعات من المراس والتجهيز، أن المرء سيكون مبدعًا في مجاله؟

إن ما يشير إليه السؤال: هناك فرق بين الإتقان والإبداع، فبينما يتطلب الإتقان الالتزام بالمراس، يتطلب الإبداع التجديد المتمرد. فكما أشرنا سابقًا، أطفال اليوم يعزفون موسيقى موتسارت وبيتهوفن وباخ قبل سن العاشرة بمنتهى الروعة والكمال، لكن ذلك لا يعني بالضرورة أنهم سيأتون بمعزوفات موسيقية تخلب الألباب وتدمع لها الأعين. إن أحد أهم أعمدة الإبداع (والعبقرية كذلك) هو الإتيان بالجديد الذي يرتقي بالمنظومة الفكرية (وفي حالة العبقرية: يغيرها)، ولعلنا نجد تشابهًا في ما نقصده مع تعريف الدكتور علي الوردي للنجاح حين كتب: "... النجاح الذي نقصده هو الذي يستفيد منه الفرد والمجتمع معًا. وهذا هو النجاح الذي يبقى أثره على مرور الأجيال. إنه نجاح المخترع والمكتشف والعالم والباحث والمعلم والطبيب والمهندس والمحامي والقائد والزعيم والخطيب، وغيرهم من أولئك الذين يضيفون إلى تراث الحضارة البشرية كل يوم شيئًا جديدًا".

ويجب الإقرار كذلك أن بعض المجالات قد تكون حديثة فيصعب تغييرها من المحاولة الأولى، لكن ذلك لا يمنع أن يحاول المرء ويقدم أي مساهمة إبداعية، والتي قد يكون من شأنها أن تُعبد الدرب لغيره. وصف أحد الكتاب

أولئك الذين يجيدون حرفة معينة بدون إبداع بأنهم جزء من قطيع ممتاز (سواء كان ذلك في الموسيقى، في العلوم، في الرسم أو الكتابة، إلخ.)، وذلك القطيع لا يفكر لذاته، إنما هو بحاجة إلى توجيه مُقنّن، لذلك أشرنا مُبكرًا في رحلة العبقري إلى أهمية التمرد، فبدونه يصبح المتمرس نسخة أخرى من غيره، ولا يقدم ما هو جديد.

بل إن هناك زاوية أخرى لا بد أن نشير إليها: إن خضوع المرء لإبداع موجه مُقنّن يجعله محصورًا، فهو لا يقوده لإنجاز رؤيته الإبداعية، بل يقوده لإنتاج ما يطلبه السوق منه، فهو يخسر صوته الداخلي لتحقيق مطالب خارجية. إنه لا يبني القصر وإنما يحتمي بظله. لماذا؟ لأن التفكير حينها يصبح مقتصرًا على التطبيق، وليس الرؤية أو الفكرة، فالتفكير يتم بالنيابة عنه، وتصبح مهمة المبدع هي خلق الشيء الجميل، وليس الشي الثوري. وقد يكون هؤلاء الأفراد ذوي ذكاء متميز، فنجدهم يحصدون أعلى الدرجات في المدارس والجامعات وتتراكم لديهم شهادات كثيرة. وفي عالم الشركات يسعى الكثير منهم للبحث عن وظيفة آمنة تحدد لهم إطار الإبداع الذي يجب أن يتفوقوا فيه (قد يكون ذلك في أقسام البحث والتطوير، أو تطوير علامات تجارية جديدة، أو في الكتابة الإبداعية، أو إخراج الأفلام، إلخ.)، هذا النوع من الإبداع محصور، وبينما قد يكون مفيدًا لتطوير المهارة واكتشاف أنواع جديدة من الإبداع، إلا أن العمل في هذا النوع من الشركات عادة ما يؤطر الفكر ويقيده، فيبدع المرء حيث يؤمر أن يبدع، ليس حيث يريد أن يبدع، فنجد الطبيب يمارس مهنته في علاج مرضاه بدلا من البحث عن سبل جديدة تقيهم من المرض أساسًا. يصبح هم المحامين الذين يدافعون عن عملائهم بدون البحث عن آليات جديدة تغير طريقة القانون، بينما يصبح هم المدرسين الاستمرار في تلقين طلابهم ما تحتويه الكتب دون البحث في ما إذا كان ما يلقنونه صحيحًا. لقد مات الفضول لدى هؤلاء.

تشير عالمة النفس إلين وينر إلى هذا النوع من الإبداع بالإبداع الثانوي (في اللغة الإنجليزية، تكتب إلين: Little-C)، وهو ذلك النوع من الإبداع الذي لا يحدث ثورات أو تغيرات ملحوظة. أي أنهم لم يخلقوا منظومة فكرية جديدة، أو يطوروا المنظومة السابقة. أما أولئك القادرون على الاستفادة من ذكائهم، مراسهم وإبداعهم، فأولئك هم الذين يحدثون ضجة ويغيرون طريقة تفكيرنا. وتشير إلين إلى هذا النوع من الإبداع بالإبداع الرئيسي (باللغة الإنجليزية: Big-C). وهذه الملحوظة لا تقلل من شأن الخبراء، فالمجتمع بحاجة إليهم، إنما تشير إلى الفرق الكبير والمهم بين الخبير وبين المبدع والعبقري (طبعًا لا يخفى علينا أن المبدع هو في نفس الوقت خبير في مجاله، فيجب على المرء

إتقان المجال الذي يسعى لتغييره). فبدون الفضول والتمرد، يصبح المرء مقيدًا مغلولًا بدون مخيلة أو طموح. ولعل هذا ما دعا الفيلسوف جورج برنارد شو لأن يقول عبارته المهمة: "يُكيِّف الرجل العقلاني نفسه مع العالم، بينما يصرُّ غير العقلاني في أن يكيِّف العالم وفقًا له! لذلك بالطبع يعتمد كلُّ تقدم على الرجل غير العقلاني!".

* * *

قد يكون الرجل متمردًا وغير عقلاني، لكن هل يضمن ذلك الإبداع؟

إن المسألة أكثر تعقيدًا من ذلك. فالإبداع لا يولد بين ليلة وضحاها (مثل ما وضحنا في فصل معضلة الإلهام.)، وهناك عوامل لا بد أن يخوضها المرء ليصل إلى تلك المرحلة. وحتى نفهم تلك العوامل، يجب أن نطّلع على سؤال مهم طرحته الصحفية مانوش زمردي في كتابها الحديث "ملول ومتألِّق": "هل يوجد رابط بين ضحالة إبداعي وعدم قدرتي على الملل؟".

وحتى نقدر أهمية سؤالها، علينا أولًا نفرق بين حالتين عادة ما نخلط بينهما: أن يكون المرء في حالة ملل أو في حالة خمول.

فلنبدأ بالخمول.

قد يكون أفضل عمل أدبي أوصل فكرة الخمول وخطره هي الرواية المهمة فهرنهايت 451 للروائي الأمريكي راي برادبري. في هذا العمل المهم، يتخيل المؤلف مجتمعًا مستقبليًّا سوداويًّا (يندرج العمل تحت أدب الديستوبيا)، وهذه عادة شائعة بين الكتاب: تخيل عالمٍ لا يوجد، والمؤلفون يفعلون ذلك لأسباب عديدة: ليضيئوا الدرب لنا، ليشجّعونا على التقدم، لخلق الفضول وإشعال المخيلة، لكن برادبري يكتب هنا ليحذرنا. فهو يسأل سؤالًا مهمًّا: ماذا لو استمر الوضع كذلك...؟ ودافع سؤاله هو تحذيرنا من نظام شمولي يقوم بغزو العالم في المستقبل ويجعل التلفزيون دعاية سياسية له ويقوم بحرق الكتب. بطل الرواية هو رجل الإطفاء "جي مونتاج" وكان مؤمنًا بفلسفة مهيمنة: "كان النظام واضحًا، ويفهمه الجميع. الكتب يجب أن تحترق، وكذلك البيوت التي تخبئ الكتب". جي مونتاج رجل مطافئ، كانت مهمته أن يشعل النيران بدلًا من إخمادها. كان مونتاج يستمتع بوظيفته التي ظل يعمل بها لعشر سنوات، كان واثقًا من المتعة التي يستشعرها وهو ينطلق في مهمة في منتصف الليل، أو يرى صفحات الكتب تأكلها النيران. كان مؤمنا بأهمية وظيفته حتى التقى بفتاة في السابعة عشرة من عمرها حكت له عن ماضٍ عاش الناس فيه يقرأون الكتب بإطمئنان. ثم التقى بأستاذ جامعي حكى له عن

مستقبل سوف يفكر فيه الناس ويتأملون. كل ذلك أثار ربكة في روح جي مونتاج.

إن دافع برادبري لكتابة هذه الفكرة لم يكن رغبة في خلق تحفة أدبية تصف عالمًا مُتخيّلًا فحسب، إنما كذلك توثيقه لذعره من احتمالية ميلاد عالم بليد قد يصبح حقيقة إذا ما استمر ذاك النظام. فما كتبه برادبري ما كان إلا رد فعل لما أتى به السيناتور الأمريكي جوزيف مكارثي وذلك في بداية الخمسينيات أثناء فترة الحرب الباردة والمطاردات والاتهامات التي طالت العديد من الأدباء والكتاب والسياسيين في الولايات المتحدة الأمريكية وأقصت الكثير منهم بتهمة الانتماء للشيوعية أو التحالف معها.

بالفعل، أثارت الرواية الفوضى المطلوبة، وأحدثت الثورة التي تمناها برادبري، فقد ناقش الناس عمله، وذكروا مخاطر الحجب والحظر والتحكم في الأفكار ودور الحكومة في كل ذلك.

إلا أن السيناتور مكارثي لم يكن مصدر ذعر برادبري الوحيد، فهو حين كتابة العمل، بداية خمسينيات القرن العشرين، كان شاهدًا على غزوٍ من نوع آخر، لم يكن غزوًا للساحات السياسية، إنما في ساحة آمنة: لقد غزا جهاز التلفاز غرف المعيشة، والذي استبدل بالراديو قبله، وأصبح قلب العائلة التي تجمهرت أمامه كل مساء بعد عناء يومٍ طويلٍ ومجهد، وشاهدوه ساكتين ذاهلين. لا بد أن برادبري فكر أنه إذا استمر هذا الحال، فلن يتلفت الناس إلى الكتب. لقد حاول برادبري أن يحذرنا من الخمول. فهو لم يكن يحذرنا فقط من عواقب هجرة الكتب، إنما من عواقب هجرة التأمل والتفكير وأحلام اليقظة. لا عجب إذًا إذا كان أحد أسماء التلفاز "الصندوق الأحمق".

وهنا يأتي مربط الفرس بين ذبول العقل البشري الذي تنبأ به وتذمر منه برادبري بسبب هجرة الكتب، "أو هجرة الفكر"، والسؤال الذي طرحته الصحفية مانوش زمردي في بداية هذا الجزء (التساؤل عن وجود رابط بين الضحالة الإبداعية وعدم القدرة على الملل): لقد هجرنا الملل وهربنا إلى الخمول وذبول العقل البشري.

وقد يكون مستغربًا ربط الإبداع بالملل، فهو إحساس نسعى بكل قوانا البشرية إلى أن نتجنبه، بل إن آرثر شوبنهاور كتب أن عدوا السعادة هما الألم والملل (ثم أشار إلى أننا نخشى الملل أكثر). ووفقًا لعالمة النفس ساندي مان، فإن ثاني شعور يتجنبه البشر (بعد الغضب) هو الملل. فعند إحساسنا بالملل نهرب إلى وسيلة ترفيهية مثل مشاهدة فيلم أو قراءة كتاب أو ممارسة رياضة، وكان ذلك يساعدنا لحظيًّا على تجنب الملل. لكن الألفية الأخيرة

قدمت لنا مهربًا جديدًا من الملل: الأجهزة الذكية وشبكات التواصل الاجتماعي.

تلفت مانوش انتباهنا إلى حقيقة مقلقة: "إذا لم تجرّب الحياة أبدًا بدون إنترنت فأنت لن تجرب الشعور بالملل مطلقًا. وقد يكون هناك عواقب وخيمة لهذا الأمر. وجد باحثون في جامعة كاليفورنيا الجنوبية، وهم يدرسون المراهقين المستخدمين لوسائل التواصل الاجتماعي خلال أحاديثهم مع أصدقائهم أو أداء واجباتهم المنزلية لمدة سنتين، أنهم أقل إبداعًا وخيالًا حيال مستقبلهم الشخصي وحول قدرتهم على حل المشاكل الاجتماعية، مثل العنف في مناطقهم. نحن بحاجة حقيقية لأن يكون الجيل القادم قادرًا على التركيز على بعض الأمور الكبيرة: تغير المناخ، والتفاوت الاقتصادي، الاختلافات الثقافية الهائلة".

بل إن عالمة أعصاب ونفس باسم ماري هيلين يانغ أجرت تجربة اجتماعية مثيرة للاهتمام والقلق على مجموعة من المراهقين (في سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة). وتتبعت استخدامهم للشبكات الاجتماعية، خصوصًا خلال قيامهم بمهام أخرى مثل أداء الواجبات المدرسية. بعد سنتين، قامت ماري وفريقها بإجراء عدة اختبارات على هذه المجموعة، وطلبت منهم تخيل حلول لمشاكل في عالمنا (مثل حلول للعنف في أحيائهم)، وراقبت رد فعلهم لقصص واقعية، وأخيرا طلبت منهم تخيل أين سيكونون بعد سنة من الآن، وكذلك بعد عشر سنين. وعن النتائج كتبت: "توجد علاقة ملحوظة بين أولئك الذين استخدموا الشبكات الاجتماعية خلال القيام بمهام أخرى [مثل أداء الواجبات المدرسة] فقد أظهرت النتائج أنهم يعانون من مستويات تعاطف ضعيفة مع القصص الواقعية. كما أن مخيلتهم كانت ضحلة حين سألناهم عن المستقبل وكذلك حين طلبنا منهم توفير حلول لمشاكل العالم".

وقد يزداد قلقنا إذا قرأنا مقالًا في جريدة النيويورك تايمز بعنوان "مدارس وادي السيليكون بدون حوسبة" والذي يذكر حقيقة أن مهندسين وإداريين تنفيذيين كثيرين يعملون في شركات وادي السيليكون (مثل جوجل وياهو وأبل وإي - باي) يرسلون أبناءهم وبناتهم إلى مدرسة في لوس ألتوس باسم والدورف، والذي يميز هذه المدرسة أنها بدون تكنولوجيا، بل إن كل الأنشطة التي تمارس في تلك المدرسة ترتكز على الطبيعة، مثل الحياكة وصناعة الدمى والأثاث، وسياسة المدرسة ألا يتعامل الأطفال مع التكنولوجيا قبل سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة. ومنبع هذه السياسة هو أن التكنولوجيا في تلك السنين تضعف القدرة الفنية والإبداعية وتعيق العادات

الصحية الجسدية والقدرة على التحكم بالذات. هذا المقال كتب في عام 2011م، بإمكاننا أن نتخيل إلى أي حد تدهورت الأمور الآن.

إلا أن هذه المعضلة لها أبعاد أكبر وأعمق مما قد نتوقع، إذ أن لها أثرًا محسوسًا ومهمًّا في تركيبتنا العصبية البيولوجية.

عبر العصور، أدرك الفنانون أهمية الملل (أو الضجر كما وصفه البعض الآخر)، فنجد ليو تولستوي يصفه أنه "هو الرغبة بأن يكون لنا رغبات نعيش من أجلها" وتكتب المؤلفة سوزان سونتاج: "الملل مهم لحياة الشخص المبدع، فهو يقودها ويوجهها ويتحكم بها". بينما يرى الفيلسوف الأمريكي روبرت بيرسج: "دائما ما يسبق الإبداع فترة من الملل". أما الآن فقد آن الأوان للعلماء والمصممين والاقتصاديين لإدراك أهمية الملل.. فقد أثبتت الأبحاث الحديثة في مجال الملل أن أولئك الملولين هم المبدعون. ونجد أن ذلك يرتبط ارتباطًا وثيقًا بأحلام اليقظة لأنها تقود لتفعيل الوضع الافتراضي في مخنا، فهي حالة تجعلنا نربط بين الأفكار المختلفة وتمكننا من حل أصعب مشكلاتنا ونقوم بعمل أمر يسمّى "تخطيط السيرة الذاتية". وتخبرنا مانوش زمردي بعد أن قضت فترة في دراسة العلاقة بين الملل وأحلام اليقظة: "عندما تسرح عقولنا، فإن جزءًا من ذهننا والذي يعرف باسم "الوضع الافتراضي" يصبح نشيطًا، وهذا هو الجزء المسؤول عن حل المشاكل وخلق أفضل الأفكار لدينا، وننخرط في ما يعرف باسم "التخطيط الذاتي"، وهو ما يساعدنا على فهم عالمنا وحياتنا ويحدد لنا أهدافًا مستقبلية".

يحدثنا عالم الأعصاب ماركوس رايكل عن حالتين للمخ، الأولى سماها شبكة الانتباه التنفيذي وهي المسؤولة عن وعينا الراهن والحاضر وكيف نرى العالم في هذه اللحظة، مثل تناول وجبة، أو قيادة السيارة، أو إجابة عن أسئلة اختبار. ثم يصف ماركوس الحالة الثانية التي يعيشها المخ حين يسرح أو يمل، وهي ما سماها شبكة الوضع الافتراضي (وهو مصطلح استلهمه من وضعية أجهزة العالم الرقمي حين تكون في حالة عدم الاستخدام).

إن الوضع الافتراضي يحدث خلف الكواليس ويتيح للأفكار النضج وينشط المخيلة. ربما لهذا السبب يُعرف الوضع الافتراضي كذلك باسم "شبكة المخيلة". لكننا الآن أصبحنا نهرب من الملل إلى الخمول والانشغال. لقد بدأنا نخسر أحلام اليقظة، وهي الحالة الذهنية التي تمكننا من خلق روابط ذهنية وخلق حلول جديدة لمشاكلنا، والتي عادة ما نسميها "حلول إبداعية". وسبب بعدنا عن أحلام اليقظة هو أن عقولنا أصبحت تتجنب الملل، وإذا تجنبنا الملل، فإننا نحرم المخ من القدرة على القيام بعجائب ذهنية (رغم أننا قد نبدو سارحين وتائهين). تخبرنا الباحثة ساندي مان المتخصّصة في أحاسيس الملل:

"حينما يصيبنا الملل... يحفز ذلك الإبداع، فعندما تغوص في أحلام اليقظة وتسمح لعقلك بالتفكّر، فأنت تتيح للعقل التفكير في منطقة ما وراء الوعي قليلًا، نوعًا ما في اللاوعي، وذلك يخلق ارتباطات مختلفة في العقل".

حتى نصل إلى الوضع الافتراضي، فإننا بحاجة للملل، وحتى نصل إلى الملل، فإننا بحاجة للسماح لعقولنا بالسرحان حتى نعايش أحلام اليقظة، وحينها ندخل إلى مناطق في الذاكرة والمخيلة والاحتمالات التي عادة ما نكون مشغولين بالتفكير بها أو لا نكرس لها الوقت الكافي.

لماذا تهمنا أحلام اليقظة؟ بعكس الإيمان الشائع، عندما نسرح، فإن عقولنا لا تكون خاملة، بل إنها تقوم بالكثير من التفكير، وعنها يكتب عالم الأعصاب جوناثان سمولوود: "علميًّا، أحلام اليقظة هي ظاهرة مثيرة للاهتمام لأنها تصف القدرة التي تخلق الفكر بطريقة نقية بدل أن يكون التفكير مجرد تجاوب مع أحداث العالم الخارجي...".

يذكر سمولوود مثالًا بسيطًا على أهمية هذا النوع من التأمل: تخيّلْ (أو بالأحرى تذكر) وضعًا كنت في منتصف حوارٍ حادٍّ ومُحتدٍّ، حين يسيطر الغضب والأدرينالين على مشاعرك. خلال هذه اللحظات، من الصعب عليك أن تركز على النقاط الصحيحة والتي يجب ذكرها، ولعل وجود الشخص الآخر (الذي يمثل الطرف الآخر من الحوار) يعيق تلك العملية أكثر. لكن في اليوم التالي، حين تستحم أو حين تقود سيارتك، فإنك تعيد التفكير في الموقف، وما كان عليك قوله أو فعله. وهذا النوع من التأمل في الأحداث الشخصية مهم جدا ويمنحنا أبعادًا جديدة لم نفكر بها سابقًا. ويدعونا كذلك للتفكير بالطريقة نفسها في ذكريات أخرى لأمور قرأناها أو خبرات عايشناها وكيف أن التأمل فيها والسماح لعقولنا أن تحلم أحلام يقظة فيها سيبني لنا جسورًا جديدة تقودنا إلى الإبداع وخلق الأفكار الجيدة.

إلا أن سمولوود يحذرنا من الإفراط كذلك في الغوص في أحلام اليقظة، وأنه قد يمنعنا من التقدم في حياتنا وإنجاز ما يجب إنجازه.

في المهجر

أن تكون عبقريًّا فإن ذلك يتطلب بالضرورة تفعيل الفضول وتجاوز المعتاد والتمرد على الفكر الراهن حتى تخرج من منطقة الراحة وترى المسلّمات والواقع بشكل آخر، أو كما كتب الروائي الفرنسي مارسيل بروست: "لا تتمثل القدرة على الاكتشاف حينما نجد أراضي جديدة، إنما عندما ننظر بأعين جديدة".

تسمى هذه المقدرة في الدوائر العلمية بـ Vu Ja De (تنطق فو - زا - داي)، ومبدأ Vu Ja De هو نقيض Deja vu (الإحساس بأننا رأينا شيئًا من قبل). فبينما Deja vu هي صيغة الماضي، Vu Ja De هي الصيغة المضارعة للفضول والتجديد والرغبة الاستكشافية للأفكار الجديدة.

ذكر البروفيسور روبرت سوتون من جامعة ستانفورد أن أحد أهم العباقرة الذين وظفوا Vu Ja De كآلية عمل لخلق الأفكار الجيدة هو وليام جوي المعروف باسم بيل جوي. يُعد بيل جوي على قدر من العبقرية لدرجة أنه يُسمَّى بأذكى رجل في وادي السيليكون (رغم أنه يسكن في ولاية مختلفة) وأنه بمثابة أديسون للإنترنت (رغم أن أديسون كان مخترعًا فاشلًا). فقد شارك في تأسيس شركة Sun Microsystems في بداية الثمانينيات، والتي تعد إحدى أهم شركات التقنية في العالم. وساهم في تصميم البرنامج التشغيلي UNIX والشرائح الإلكترونية التي تستخدمها معالجات الحاسبات الآلية، وله عدد من المساهمات الأخرى التي جعلت استخدامنا للإنترنت ممكنًا.

لكن أكثر ما اشتهر به بيل جوي بين زملائه هو قدرته على ابتكار أفكار جديدة لحل مشاكل تقنية بطرق يعجز أن يراها غيره. ويذكر سوتون أن هذه السمات رافقت جوي منذ أيام تحضير الدكتوراه: "يبحث معظم طلاب الدكتوراه عن أفضل المعدات، خاصة في المجالات التقنية مثل علوم الحاسب الآلي. لكن على عكسهم، يقول جوي: "ذهبت إلى جامعة بيركلي بدلًا من جامعة ستانفورد أو كال - تيك لأن معاملهم تحتوي على أسوأ الأجهزة بين الجامعات الثلاث. لقد علمت بأنها ستجبرني على أن أكون أكثر ابتكارًا"".

آمن بيل جوي أن من أهم السبل للارتقاء الفكري والبحث عن الأفكار الجيدة لن ينتج بالتفكير بالطرق الاعتيادية، بل يحدث ذلك خارج منطقة الراحة الذهنية.

كتب روبرت سوتون أن Vu Ja De هي المقدرة على تجديد الآراء والبصيرة وإعادة النظر في المسلَّمات، بل حتى التفكير في الإيجابيات كسلبيات والسلبيات كإيجابيات.

كما أشرنا مبكرًا، فإنه عند دراسة سلوك المرء المنخرط في المجال الإبداعي، يجب أن يكون المرء متقبلًا للأفكار الجديدة (ليس بمعنى قبولها على الفور، إنما القدرة للاستماع إليها وتقييمها وعدم صرف النظر عنها لمجرد أنها لا تتماشى مع أفكاره المسبقة).

كتب عن ذلك الباحثان جيفري لي - بيان ولين فان ديان في ورقة علمية: "يجب أن يكون الأفراد المتمردون مجبولين على التغيير، ومستعدين للتضحية بحالة الاستقرار والعلاقات الشخصية، على الأقل على المدى القصير... يتطلب السلوك التمردي أن يوسِّع الأفراد مقدرتهم في التعبير عن آرائهم وتقديم ما لديهم من اقتراحات. يشعر أولئك المنضبطون بالمسؤولية ويستثمرون الجهد اللازم. تكون لدى أولئك الواعين رغبة عالية بالإنجاز ويخوضون محادثات عن أفكار قد تحسن الوضع. لذلك عليهم أن يكونوا مُصرِّين في الحديث عنها حتى يتأكدوا من أن أفكارهم مفهومة".

ويوافقهما بروفيسور جامعة بنسلفانيا الباحث في أمور المبدعين آدم غرانت: "أثبتت البحوث التي درست أمور المبدعين أنَّهم عادة ما يتنقلون إلى مدن جديدة أكثر من أقرانهم في مرحلة الطفولة وذلك يمنحهم فرصة التعرف على ثقافات وقيم جديدة، وهذا يزيد من مرونتهم وسرعة تأقلمهم".

يضطر العبقري في الكثير من الحالات إلى ترك بلده بحثًا عن قبيلة إبداعية. ولنأخذ أحمد زويل مثالًا على ذلك. فقد كان في هجرة دائمة ابتداءً من خروجه من المدينة الصغيرة دسوق التي ترعرع فيها إلى الإسكندرية حيث أتم تعليمه الجامعي وحصل على شهادة الماجستير. ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية كي يوسِّع إطاره الفكري والمعرفي في جامعة بنسلفانيا وحصل على شهادة الدكتوراه. كيف سيكون مستقبله لو ظل في مدينة دسوق محدودًا بطموح بيئته الصغيرة وخاصة في عصر ما قبل الإنترنت؟ من الصعب التكهن بذلك. لربما انتهى به الحال إلى ممارسة ما يمارسه أهل المدينة، كأن يكون تاجرًا أو مدرس كيمياء! وكانت هذه أرقى الدرجات التي سيصل إليها، لكن طموحه ورغبته المعرفية مكّناه من هجرة إطاره الفكري والجغرافي وبذلك حفر اسمه في التاريخ.

لنناقش الآن السؤال المهم الذي يطرح نفسه هنا، وهو لماذا نتفادى البيئات الجديدة (سواءً كانت جامعة جديدة، شركة جديدة، أو مدينة جديدة)؟ نتفاداها ببساطة لأننا نذهب إلى بيئة جديدة تجبرنا على خوض الكثير من التغييرات. حيث سنضطر إلى تعلم الكثير والتكيف مع قوانين اجتماعية جديدة علينا، مثل معرفة ما ينبغي تجنبه، والعادات التي ينبغي أن نكتسبها أو نغيرها، بالإضافة إلى تقبل الأفكار التي نرفضها عادةً والتعامل معها. إذًا نرى أن أولئك الأفراد الذين يؤمنون بأن "الخروج من الدار يقلل من المقدار" هم في الواقع يرفضون تغيير ما وجدوا عليه آباءهم ويؤمنون بأن كل جديد مكروه.

علينا أن نذكر أن دوافع المرء للهجرة لم تكن بالضرورة في سبيل المعرفة. فالكثير منهم هاجر بحثًا عن حياة كريمة، أو فرص وظيفية، أو هربًا

من مأساة اقتصادية أو سياسية. فعلى سبيل المثال هاجر عالم النفس الهنغاري ميهاي تشكسنتميهاي (الذي تعرفنا إلى بعض أعماله مبكرًا) مع أهله في سن صغيرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فرارًا من بطش هتلر في أوروبا. تمكن تشكسنتميهاي من التأقلم في البلد الجديد وخلق هوية جديدة مكّنته من تلقي المعرفة والعلوم بإطار مختلف، ما جعله أحد أهم أعلام علم النفس الحديث في العالم.

تنطبق الفكرة نفسها على شعراء المهجر، وهي رابطة الأدباء التي انتمى إليها الأديب اللبناني الشهير جبران خليل جبران، وضمت نخبة من ألمع العقول العربية، مثل نعمة الله الحاج وأمين الريحاني وإيليا أبو ماضي وميخائيل نعيمة، الذين أطلقوا على أنفسهم آنذاك لقب "الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية". وتعود بداية شعراء المهجر إلى القرن التاسع عشر، فقد كانت إسبانيا هي المكان الحاضن للأقليات الفارة من البلدان العربية مثل لبنان أو سوريا هربًا من ظلم الأتراك، وطلبًا للرزق أيضًا، كما كان يحلم بعض الشبان المهاجرين بمزيد من الحرية لتحقيق آمالهم وطموحاتهم عن طريق الاستفادة من الفكر المستنير والخيال الخصب. حيث كان هؤلاء المثقفون رافضين لسياسة الأتراك الظّالمة والمستبدة وطامعين بالحرية والاكتفاء والاستقلالية.

ولكننا نقرأ في بعض سير العباقرة بأنهم عاشوا حياتهم في مسقط رأسهم مثل العالمين مايكل فاراداي وتشارلز داروين اللذين بقيا في لندن. وقد يخالف هذا ما قرأناه أعلاه، لكن يجب أن نأخذ في عين الاعتبار أن هناك عوامل كثيرة أثّرت في إطارهم الفكري، من ضمنها أنهم عاشوا في لندن التي كانت آنذاك (ولا تزال) بيئة متغيرة ومتقلبة ومتجددة دائمًا. فقد احتضنت في تلك الفترة الكثير من المفكرين مثل جون لوك وجون ميلتون وفرانسيس بيكون. كما تحتضن جامعات عريقة ومؤسسات علمية حديثة وديانات وجنسيات مختلفة! أي أن هذه المدينة أشبه بقارة تضج بالحياة، والعيش فيها يمنح المرء تجربة عالمية على مستوى محلي. لكن ما كان ليفيد العبقريين كل ذلك لو ظلّا رهينة إطار فكري رجعي يرفض التقدم ويعتقد أن من ترك دياره قل مقداره. إذًا وُلد تشارلز داروين في بيئة متجددة ونشطة تتحدى أفكاره دائمًا.

وبذلك نستنتج أن هناك شروطًا يجب أن تنطبق على الهجرة لتكون بناءة. ففي دراسة قادها البروفيسور فريدريك جودارت أثبت أن العمل في المهجر يؤثر على القريحة الإبداعية أكثر من مجرد السكن في المهجر. حيث توصَّل في دراسته التي ركزت بشكل رئيسي على مصممي الملابس بأن أكثر

المصممين إبداعًا هم أولئك الذين عملوا في ثلاث دول مختلفة على الأقل. هل هذا يضمن أن يمتلك أي شخص استوفى هذا الرقم قريحة مبدعة خلاقة؟

ليس بالضرورة. فقد ذكر جودارت ثلاثة أبعاد تتنبأ بفعالية الهجرة أو عدمها.

البعد الأول هو سعة التجربة (Breadth of Experience). فعند دراسة الأفراد المبدعين الذين قضوا وقتًا في المهجر، وجد جودارت وفريقه أنهم تمكنوا من التعامل مع مشكلة معينة بعدة حلول، حيث أن سعة تجربته سمحت له بإيجاد حل جديد وفريد لمشكلة معينة بسبب دراسته لطرق وسبل مختلفة في البلاد التي هاجر إليها. كما أن اندماجه في شبكة ثقافات مُتنوعة ومُحترفة ستمكِّنه من استيعاب المعلومات واستثمارها بطرق مُبتكرة. هذا النوع من التفاعل المعلوماتي يخلق جُسورًا تتواصل عبرها الأفكار الجديدة، بل إنها تطور مقدرة المرء للإقبال على المخاطرة وتطور حسه السياسي والاستراتيجي.

هذه كلها عوامل مهمة تساعد قريحة المرء الخلاقة والابتكارية. لكن جودارت يحذرنا من أن الإفراط في التوسع قد يقود المرء إلى نتائج سلبية. فعندما يعمل المرء في بلدين مختلفين ستكون إبداعاته وابتكاراته ممتازة بينما لو عمل في ست دول مختلفة فقد ينهكه ذلك ويحبط قريحته الإبداعية.

البعد الثاني الذي يقود إلى تجربة خلاقة في المهجر هو عمق التجربة (Depth of the Experience)، وهذا العامل يتعلق بعدد السنين التي يقضيها المرء في المهجر بشكل احترافي. فكلما تعمق في بيئة احترافية مختلفة اكتسب أدواتٍ ابتكارية وإبداعية أكثر. وضَّح جودارت في دراسته بأن عمق التجربة يعطي المرء فرصة ومحفزًا نفسيًّا ليتأقلم ويستوعب البيئة الجديدة. فلن يكتسب المرء الأدوات التي تسمح له بتبادل ثقافي كافٍ والتعلم على التأقلم والاستفادة من التعامل مع جماهير مختلفة إذا ما كانت التجربة سطحية. ولكن في الوقت نفسه يجب أن نعلم أن التجربة في المهجر ستبقى مفيدة طالما كانت جديدة ومحفزة.

البعد الثالث والأخير هو البعد الثقافي بين البيئة الأم والبيئة الجديدة (Cultural Distance) والذي يتنبأ بمدى إثراء تجربة المهاجر من عدمها وأثرها على التأقلم النفسي مع البيئة الجديدة. ما يعنيه ذلك أن تقارب أو تباعد الثقافتين (الأم والحاضنة) له أثر كبير على القريحة الخلاقة. حيث يساهم

تعرض الفرد لأفكار جديدة بتوليد عقلية خلاقة تتيح له الاستفادة من هذه الأفكار وترجمتها إلى تجربة واقعية عملية، بل إن التجربة قد تمكن الشخص من تشكيل حلول تتناسب مع عديد من الثقافات والخلفيات المتغايرة. وضرب جودارت مثالًا على ذلك بأن هجرة شخص ما من الولايات المتحدة الأمريكية إلى دولة مجاورة مثل كندا لن تترك أثرًا كبيرًا كما لو كانت هجرته إلى كوريا أو اليابان.

رغم ذلك، يحذِّر جودارت من المسافة الثقافية الشاسعة بين البلد الأصلي وبلد المهجر. وقد آمن بأن ذلك يعيق التجربة الابتكارية والاستنباطية حيث سيوضع الشخص في مآزق حضارية وثقافية وسياسية ولغوية واجتماعية في آن. وقد يكون ذلك مدعاة للضغط والإجهاد لأن الهجرة تترك أثرًا نفسيًّا كما تترك أثرًا معرفيًّا.

وبالرغم من أن عصر الإنترنت واليوتيوب والجامعات الإلكترونية (مثل Coursera وأكاديمية خان) تتيح لنا أن نكون حاضرين فكريًّا في أماكن لا نستطيع أن نكون فيها جسديًّا، إلا أن ذلك ليس كافيًا لاكتساب ما يلزم من الصفات المحورية مثل الإصرار والالتزام والقدرة على التأقلم مع التحديات والتغييرات.

وبعد ذلك كله لا ننسى أن هجرة المرء إلى مكان جديد لا تضمن له ذلك التفوق الذي يقود إلى العبقرية. فقد يهمل أولوياته ويتلاشى سبب هجرته من ذاكرته، فيهمل أهدافه ويقنع بالقليل دون أن يبذل قصارى جهده للوصول إلى ذلك الشغف الذي استولى على روحه.

كثيرًا ما نلاحظ أن أولئك الذين هاجروا وتركوا إطارهم التقليدي يتطبَّعون بالهوية الحديثة ويلبسون طباع البلاد المستضيفة إلى درجة هجرهم للهوية القديمة بشكل تام. وعادة ما يكون ذلك نتيجة الهجرة من بلاد ضعيفة إلى أخرى قوية. وحذَّر ابن خلدون من ذلك في مقدمته الشهيرة حين كتب: "المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده...

> **ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه، في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله. وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائمًا، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم. وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر لأنهم الغالبون لهم، حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا**

التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة [38] فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء... وتأمل في هذا سر قولهم: العامة على دين الملك، فإنه من بابه، إذ الملك غالب لمن تحت يده، والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه، اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم...".

وقد أظهرت أبحاث جودارت أن الأشخاص الذين ينصهرون تمامًا في بلاد المهجر تذوب هويتهم في البيئة الجديدة مما يفقدهم أثر التجربة الأجنبية على الإبداع.

ويذكرنا هذا المنظور بكلمات الدكتور عبدالوهاب المسيري في مقاله (أسئلة الهوية) عندما كتب: "أقترح أن ننظر إلى الهوية باعتبارها صورة مجازية لا جوهرًا صلبًا ثابتًا، وأطرح فكرة الإنسانية المشتركة بدلًا من فكرة الإنسانية الواحدة التي يطرحونها في الغرب. فالإنسانية المشتركة تذهب إلى أن كل البشر داخلهم إمكانيات لا تتحقق إلا داخل الزمان والمكان، وهي في تحققها تكتسب قسمات وهوية محددة! فالإمكانية الإنسانية الكامنة حينما تتحقق في الزمان والمكان الصينيين، فإنها تثمر الإنسان الصيني والإنسانية الصينية، وإن تحققت فى الزمان والمكان الغربيَين، أثمرت الإنسان الغربي والإنسانية الغربية. وتحقق الإمكانية ليس أمرًا حتميًّا، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن أن يرقى فوق إنسانيته ويمكن أن يهبط دونها.

وثمة علاقة بين الهوية والإبداع، فالإنسان الذي لا هوية له لا يمكنه أن يبدع، لأن الإنسان لا يبدع إلا إذا نظر إلى العالم بمنظاره هو وليس بمنظار الآخرين، لأنه لو نظر بمنظار الآخرين، أي لو فقد هويته، وأصبح عقله في أذنيه، فإنه سيكرر ما يقولونه ويصبح تابعًا لهم، كل همه أن يقلدهم أو أن يلحق بهم، ويبدع داخل إطارهم، بحيث يتحقق إبداعه من داخل تشكيلهم الحضاري...".

نشوء الفكرة

إن الأفكار، مثل الجنس البشري، تخضع لعملية تطور معقدة. حتى نفهم معنى هذه الجملة، يجوز لنا أن نستفيد هنا من النظرية الداروينية لتطور الأجناس الحية، نقتبس من العالم دين سيمونتون حين لخص تلك المراحل كما يلي:

- يخضع أي جيل حي لتقلبات أو متغيرات تلقائية طبيعية.

- تتأثر هذه السمات المتغيرة بعوامل حيوية موروثة (أي أن الوالدين يورثان نسلهما بعض تلك السمات).

- وجود بعض السمات في نسل معين تمكّنه من التأقلم مع المحيط البيئي بشكل أفضل من أقرانه.

- تتفوق المقدرة التناسلية لأي فصيلة على مقدرة البيئة للتغذية والاحتضان، ما يوجب النضال من أجل البقاء.

- النسل الأقوى الذي يتكيف مع البيئة بشكل أسرع هو الذي يتمكن من العيش والتعايش مع المتطلبات المحيطة.

- يستبدل النسل الأقوى الذي يتكيف مع المتطلبات المحيطة بشكل أفضل بالفصيلة الأضعف عبر الأجيال، ومع مرور الزمن ستظهر فصيلة جديدة كليًّا.

وكذلك الأفكار (سواء كانت كبيرة أو صغيرة) تخضع لنسختها الخاصة من التطور الداروينى مثل الأجناس الحية. فرغم أن الأفكار الخلاقة والكاملة تبدو جميلة وجاهزة أمامنا إلّا أن الصورة أكثر تعقيدًا من ذلك فهي تخضع لنسختها الخاصة من نظرية التطور.

حين نفكر في أجيال الفكرة، علينا التفكير في نقطتين. أولًا: إن العلاقة طردية بين تعقيد الفكرة والفترة التي تحتاجها لتنضج، ولذلك من الصعب التنبؤ (إن لم يكن من المستحيل) بعدد الأجيال المُتطلبة حتى تصل فكرة ما إلى صورتها النهائية. ثانيًا: كلما تعمقنا في الفكرة زاد تعقيدها، لأن ذلك سيقودنا دائمًا لاكتشاف أبعاد مختلفة تجعلنا نكتسب معرفة جديدة.

لتوضيح أهمية تراكم أجيال الأفكار المعقدة سنستشهد بقصص من العباقرة ورحلتهم الإبداعية لتطوير أفكار راديكالية.

لماذا تطول فترة القريحة الداروينية؟

لقد أثبتت القصص السابقة أن الفكرة العظيمة هي نتاج سلالة بحث مطولة وجهود فردية عظيمة. لا ننسى أيضًا أن العبقري نفسه هو سليل أجيال فكرية (لاجينية) كذلك، أي أن العبقري (ليس الفكرة فقط) بل هو جزء من نتاج ذلك التطور الداروينى!

علينا أن نتعمق أكثر في تاريخ تطور أجيال فكرة الإنترنت حتى نفهم ذلك العامل الداروينى، والذي أدى لتطوير الثورة الرقمية التي نعيشها اليوم والتي تُعرف بالعصر المعلوماتي.

على سبيل المثال: عند الاطلاع على وصف تيم بيرنرز لي، مؤسس الشبكة العنكبوتية، كيف أن المعرفة التي تراكمت في مخه احتاجت ما يزيد على عقد من الزمان من تجميع الأفكار وتراكمها لتتحول إلى الشبكة العملاقة التي نستخدمها اليوم: "كثيرًا ما يسألني الصحفيون عن الفكرة الحاسمة، أو عن اللحظة الاستثنائية التي خلقت الشبكة في يوم محدد... لكنهم يُصابون بالإحباط عندما أخبرهم أنه لا توجد لحظة (يوريكا)... تطلَّب اختراع الشبكة العنكبوتية إدراكي بأن هناك أهمية لترتيب الأفكار بطريقة غير مُتكلفة شبيه بالشبكة... أتى الإنترنت كإجابة لتحدٍّ مفتوح من خلال دمج خليط من المؤثرات والأفكار والإدراكات... ومنها نبعت فكرة جديدة. لكنها كانت عملية تراكمية... لحل مشكلة بعد الأخرى".

كان الصحفيون يبحثون عن قصة إلهامية رومانسية تتماشى مع أركتايب المخلص بينما كانت قصة تطوير الإنترنت غير رومانسية. وقد تطلبت تيم بيرنرزلي ما يزيد على عقدين من الزمان.

نشأ تيموثي بيرنرزلي (أو تيم كما اشتهر) في أحياء لندن في بداية ستينيات القرن الماضي، وكان مبهورًا بالاختراع الجديد (آنذاك) والذي عُرف باسم الحاسب الآلي. لقد لفت انتباهه كيف أن هذه الأجهزة تقوم بتطبيق الأوامر المبرمجة لكنها تعجز عن تكوين روابط بينها. طبعًا علينا تذكر أن الحاسبات الآلية حينها لم تكن مثل هذه التي بين أيدينا اليوم. فقد كانت تحتل مساحة كبيرة بحجم غرفة كاملة! كما كانت محدودة الانتشار والاستخدام والقدرات. أي أنها كانت متاحة فقط في الشركات الضخمة ولصالح موظفيها من أجل التقنيين في المستشفيات والطلاب في الجامعات. لكن تيم كان فتى محظوظًا، فكلا والديه كانا مبرمجي حاسبات آلية في جامعة مانشستر. وكان يقضي معهم أوقاتًا في النقاش في تلك الآلات التي أثارت فضوله. ويذكر أنه كان محظوظًا لدرجة أنه قال: "كلما تعرَّفنا إلى تكنولوجيا، أطلقت المصانع تكنولوجيا جديدة".

بل إن حادثة مهمة في صباه أثرت فيه كثيرًا. فقد رأى أباه خلال طفولته يجهِّز خطابًا يحاول أن يجيب فيه على سؤال: كيف تطور حدسًا لدى الحاسبات الآلية؟ يقول بيرنرز لي: "لقد ظللت أفكر أنه بإمكان الآلات الحاسبة أن تصبح أكثر فعالية إذا ما تمت برمجتها بطريقة تجعلها تربط المعلومات ببعض". وبعد

ذلك قرأ كشاب صغير موسوعة بريطانية باسم: Enquire Within Upon Everything أو (استقصاء في أصل كل شيء) وكان مبهورًا بكمية المعلومات المتراكمة بين دفتي الكتاب، ووصفها بأنها "بوابة لعالم المعلومات".

في عام 1980م عمل تيم بيرنرزلي كمستشار برمجي لمؤسسة علمية سويسرية. وكان متضايقًا من كمية المعلومات المتطايرة والمبعثرة في كل مكان، فقرر أن يبدأ بمشروع جانبي يساعده على تقنين المعلومات وجمعها في مكان واحد. أطلق تيم بيرنرزلي على برنامجه اسم Enquire تيمنًا بالكتاب الذي ألهمه في شبابه.

يربط البرنامج مجموعات من الناس أو المشاريع عبر شبكات، فصار بإمكانك معرفة معلومات عن الشخص والمشروع القائم عليه بالبحث في تلك الشبكة. طور بعد سنين نسخة أخرى سماها: Tangle، لكنها لم تحقق النجاح المتوقع. وبعد عشر سنين تقريبًا من إطلاق Enquire بدأ برنامجًا جديدًا يربط بين الملفات على أجهزة حواسيب آلي مختلفة عن طريق روابط إلكترونية، وأطلق عليها اسم الشبكة العنكبوتية العالمية. وكانت هذه الفترة التجريبية مهمة جدًّا لتبلور الأفكار الجيدة، وكلما زاد استثمار الوقت والجهد للإنجاز، ارتفعت قابلية تحويل الفكرة إلى واقع عملي. لنقرأ ماذا قال عالم النفس أندرِس أريكسون في هذا الشأن: "... تثبت الدراسات على الأشخاص الأكثر نجاحًا في الإبداع في مجالات مختلفة، خصوصا في العلم، أن الإبداع يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالجهد والحفاظ على التركيز لفترات طويلة... فمثلًا، أثبتت دراسة على مجموعة من الفائزين بجائزة نوبل أنهم أنتجوا بحوثًا علمية في وقت أبكر من زملائهم وأنهم كانوا ذوي نتاج غزير خلال عملهم في ذلك التخصص. بمعنى آخر: لقد بذلوا جهدًا أكثر من أقرانهم".

لا ينكر أحد أن بيرنرزلي كان ذكيًّا في صباه، فقد تمكن من تحويل آلية حاسبة إلى جهاز حاسب آلي محدود القدرات! لكن كل ذلك لم يكن ممكنًا لولا صبره واستثماره في فضوله. فهو أتى في زمن كانت صناعة الحاسب الآلي لا تزال يافعة ومجهولة المعالم، وقد مكنه ذلك من البقاء مطلعًا على كل المستجدات واكتساب واحتضان معرفة هائلة عبر السنين. فمن المؤكد أنَّه لم يعلم عندما قرأ تلك الموسوعة التي غيرت تفكيره بأنه سيصنع "بوابة رقمية لعالم المعلومات" فهو قد تعلق بفكرة مبهمة عائمة ونصف مكتملة. ظلت الأفكار التي اكتسبها من خلفيات مختلفة عالقة في ذهنه وركز عليها لفترة تزيد على عقدين. وقد دمج تلك الفكرة بغيرها مرارًا وتكرارًا. ومع أنها نجحت

أحيانًا وفشلت أحيانًا أخرى، إلّا أنه لم يتخلّ عنها، وعندما أصبح العالم جاهزًا بالمصادر المناسبة لفكرته اخترع تيم بيرنرزلي الإنترنت!

عاقبة الشغف (أو الهوس)

"العباقرة انتهازيون. هذه حقيقة لا مفر منها. لعلنا نتصالح مع هذه الفكرة حين ندرك أنهم ليسوا انتهازيين لمصالحهم الذاتية، إنما لصالح أفكارهم".

جوزيف غوبلز،

وزير الإعلام النازي،

رواية "مايكل"

العبقري كفاوست

المقامر

يعد الروائي فيودور دوستويفسكي، الذي وُلد وعاش في القرن التاسع عشر، أحد أهم الروائيين في التراث الروسي والعالمي. أعماله كفيلسوف وروائي وكاتب قصص قصيرة وصحفي تعد ذات أثر عظيم خلال حياته وحتى بعد مماته. كتشريف له، وبعد أن أنهى عمله العظيم (والأخير) رواية "الأخوة كارامازوف"، استقبل إمبراطور روسيا المستقبلي نسخته من المؤلف نفسه شخصيا. في مقال بعنوان "دوستويفسكي ونحر الوالدين"، يثني أبو علم النفس سيجموند فرويد على دوستويفسكي بقوله: "رواية الأخوة كارامازوف هي أعظم عمل أدبي مكتوب".

في عام 1880م، بعد أن قرأ دوستويفسكي أجزاء من رواية الأخوة كارامازوف في رابطة "أصدقاء الأدب الروسي"، والتي حضرتها حشود هائلة، كتب لزوجته آنا رسالة نقتطف منها:

> **"... عندما مشيت على خشبة المسرح، تفجرت القاعة تصفيقًا لفترةٍ طويلة، طويلة جدًّا، ولم أتمكن أن أبدأ الخطبة، فجعلت انحني لهم وأصبحت آتي بإشاراتٍ راجيًا منهم أن يمنحوني الفرصة كي أبدأ، لكن جهودي ذهبت أدراج الرياح. لقد أشعلت رواية "الأخوة كارامازوف" في أنفسهم البهجة والحماس. وعندما بدأت أخيرًا القراءة، في كل صفحة، وفي نهاية كل جملة، قاطعوني بالتصفيق!... وفي النهاية... بدا أن الجميع في حالة هيستيريا...!**
>
> **لقد كان في الجمهور أشخاص لم أرهم من قبل، وكانوا يدمعون ويجهشون بالبكاء ويحتضنون بعضهم بعضًا، وبعضهم قطع عهدًا أن يصبحوا بشرًا أحسن، وألا يكرهوا بعضهم بعضًا، بل أن يحبوا بعضهم بعضًا... الجميع سارع إلى خشبة المسرح وحضنوني وقبلوني. وكذلك فعل أعضاء الرابطة...**
>
> **وحتى أمنحك صورةً لطبيعة المجريات، اقترب مني فجأة شيخان طاعنان في السن لا أعرفهما، وقالا لي: (لم نتحادث منذ عشرين عامًا، لكننا الآن تصالحنا وتحاضنا، وذلك بفضلك. أنت قسيسنا، أنت نبي!) وبدأ الجمهور يهتف: نبي! نبي!".**

حين وفاته، دُفن دوستويفسكي في مقبرة ألكسندر نيفسكي، التي احتضنت أعظم الفنانين الروسيين، والذين كان بعضهم موسيقاريين، وبعضهم فلاسفة، وبعضهم شعراء، وبعضهم كتابًا. وقد ودع جثمانه ما يقارب ثلاثين ألف شخص (خمسين ألف شخص في رواية أخرى)، وكان ذلك في حضور خمس عشرة فرقة موسيقية، واثنين وسبعين وفدًا.

لقد كان رجلًا من الشعب وللشعب، نور عبقريته أضاء حيوات الآخرين وألهمت روحه المتحرقة الملايين في كل أطياف الأرض. لقد احتفى العالم بأعماله.

ولكن... هناك تفصيل في حياة هذا النبي يصعب تجاوزه.

وهذا التفصيل مهم في حياته وقد يثير حيرتنا. ويأتينا هذا التفصيل من مذكرات زوجته آنا دوستويفسكايا حيث تكتب عن زوجها:

> **"لقد بدا لي الأمر محيرًا. كيف أن فيودور ميخايلوفيتش، ذلك الرجل الذي واجه بشجاعة الكثير من العناء في حياته - في السجن، الإعدام، النفي، وفاة أخيه، وفاة زوجته - كيف له أن لا يقدر على التحكم بذاته...؟ لقد بدا لي ذلك مهينًا، وغير لائق بسمعته العظيمة. إن الإقرار بهذا الضعف في شخصية زوجي العزيز مؤلمٌ جدًّا".**

إن ما دفع آنا لكتابة هذا النص هي قصة مؤلمة ومهينة لزوجها، فقد استيقظت ذات ليلة من نومها لتجد زوجها واقفًا بجانبها، محمر العينين منتفخ الوجه، وبدون أن يقول هو أي شيء، أدركت هي حينها أنه خسر كل القطع الذهبية التي منحته إياها على طاولة القمار. وحاولت مواساته وتهدئة روعه كثيرًا، وبدلًا من ردعه على سلوكه وخسارته، سألته إن كان يرغب في المزيد من المال ليعوض خسارته، وشكرها كثيرًا ووعدها أن يعود في أقرب فرصة، لكنه تأخر كثيرًا، وعندما عاد، كان في حالة أسوأ من التي رأته عليها مبكرًا: محمر العينين منتفخ الوجه، إذ أنه خسر مرة أخرى. وظل يرجو مغفرتها، وقال إنه شيطان بينما هي الملاك، ولم تفلح أي محاولة في تهدئته.

لقد كان القمار آفة حياته، وجذور هذه الآفة كانت مترسبة فيه منذ سن الشباب، وكما سنرى بعد قليل، كان لها دور مهم في حياة دوستويفسكي الأدبية.

* * *

يتحدث الناقد والكاتب رمسيس عوض في كتابه "رباعية الشذوذ والإبداع" عن الانحلال الخلقي الذي شاهده في الكثير من الأدباء المهمين مثل إي إم فورستر وأوسكار وايلد ودابليوه أودين، ويستغرب تحرج زملائه في

الجامعة من ذكر تلك الحقائق أمام طلابهم، ويقرر أن يفرد كتابًا يتحدث فيه عن الشذوذ والإبداع، ويخص بالذكر أربعة أدباء: جان جينيه، وأندريه جيد، ومارسيل بروست، وتوماس مان.

في خضم حديثه عن حياة مارسيل بروست، فإنه يذكر واقعة مثيرة للاهتمام، وهي أن شخصًا وجه سؤالًا للروائي الفرنسي عن الخطيئة الوحيدة التي يغفرها لغيره. أجاب حينها: "إني على استعدادٍ أن أغفر للعباقرة حياتهم الخاصة!"، وبينما يصعب ترجمة قصد مارسيل بروست بالتحديد في هذه الإجابة، إلا أنه يجوز لنا استنتاج أنه كان يتحدث عن ذلك الانحلال الذي أشار إليه رمسيس عوض. وبروست ليس وحيدًا في هذا الرأي، فنجد الكاتب الفرنسي هيلاير بيلو يتحدث عن آماله بعد موته: "عندما أموت، آمل أن يقولوا: حياته كانت فاسقة، لكن كتبه كانت تستحق القراءة".

ويبدو أن حياة دوستويفسكي (وغيره الكثير) تتوافق مع هذه المقولات بصورة أو بأخرى. فقد بدأت العلاقة بين القمار والكاتب الأريب في مرحلة مبكرة من حياته. بعد تخرجه من أكاديمية الهندسة، التحق دوستويفسكي الشاب بالخدمة العسكرية حيث حظي بمرتب عالٍ. ورغم أنه كان يستلم مبلغًا شهريًّا من إرث والدته، ما ساعده على أن يعيش حياة فارهة، لكن ذلك لم يكن كافيًا لحياته الطائشة وتبذيره. بل إنه عندما نفد المال، كان من عادته أن يرهن حاجياته ليمارس عادته الخبيثة.

في عام 1844م، ترك دوستويفسكي الخدمة العسكرية ليكرس حياته للكتابة، فقد كان الأدب جزءًا أساسيًّا من حياته. منذ طفولته كان والداه يقرآن معًا تحفًا أدبيةً مختلفة، أمه قرأت له حين حان وقت نومه، أما خادمة المنزل فقد عرفته إلى التراث الروسي، والتي أشعلت مخيلته. بل يُقال إنه في سن الثالثة بدأ يكتب قصصًا استلهمها من الفلكلور الروسي. أما في سن الثامنة عشرة، فكان دوستويفسكي متيقنًا من هدفه في الحياة، ومدركًا كيف يحقق ذلك الهدف:

> **"إني أتعلم الكثير عن ماهية الرجل وماهية الحياة. أستطيع أن أفهم شخصية الإنسان من الكُتّاب الذين قضيتُ معهم معظم أوقات حياتي، بسعادة وحرية. وهذا كل ما يسعني قوله حيال ذاتي. إني أثق بذاتي. إن الإنسان كيانٌ غامض، ويجب فهمه، وإذا تطلب ذلك طيلة العمر، فلا يحق لنا أن نقول إن ذلك مضيعة للوقت. هذا الغموض يشغلني لأني أريد أن أكون إنسانًا".**

وفي أول فرصة صار مستقلًا؛ ترك وظيفته وتفرغ ليبدأ حياته ككاتب. لكن رافق ذلك لعنة القمار كما أشرنا سابقًا، وذلك جعل حياته جحيمًا.

خلال عمله على روايته الأولى "المساكين"، كان دوستويفسكي نفسه فقيرًا، وقد ذاق حينها طعم الجوع القارص والفقر المهين. لكن هدفه لم يتزحزح، فقد رغب في الكتابة. وقد استهلكت الرواية حياته آنذاك، إذ كان على مكتبه صباح مساء يُنَقِّحُ الرواية ويعيد كتابة أجزاء منها، وقد تسرب اليأس إلى حياته وراودته أفكار الانتحار.

كوفئت جهوده بسخاء وكرم، وكان لروايته بعد نشرها صيت رائع وحققت نجاحًا متميزًا، وارتقت بحالته الاجتماعية وجعلته محط أنظار المجتمع حوله، وذلك جعل دوستويفسكي يقطع عهدًا على نفسه ألا يتوقف عن الكتابة. لكن كل ذلك لم ينقذه من سقطته المالية، فقد كان عائمًا في ديون مع ناشره، والذي دفع له مقدمًا لأحد أعماله. واستمر في الكتابة وتنقيح المقالات الصحفية والترجمة حتى يحصل على المال، وهو ما وصفه لاحقًا أنه "عمل العبيد".

في عام 1849م، واجه دوستويفسكي آفةً من نوع آخر، فقد تم القبض عليه بسبب نشاطاته السياسية، وقد حُكم عليه بالموت. وفي الثاني والعشرين من شهر ديسمبر في نفس العام، تم جره ورفاقه إلى ساحة الإعدام ووقفت الكتيبة أمامهم بأسلحتهم، وقبل إطلاق الرصاص عليه بثوانٍ معدودة اتضح أنه لا يوجد إعدام، إنما كانت دعابة سادية من القيصر نيكولاي الأول (إمبراطور روسيا آنذاك)، ولنا أن نتخيل ما نتخيله من أثر التجربة على روح الكاتب.

لكن العفو من الإعدام لم يعنِ إطلاق سراح دوستويفسكي وعصبته، إنما تم إرسالهم إلى سجن في سيبيريا لمدة أربع سنوات، تلتها خدمة كجندي عادي. بعد خروجه من السجن في عام 1854م، بدأ دوستويفسكي توثيق تجربته المريعة في كتابه القاتم: "مذكرات من بيت الأموات"، والتي وصفها أنها مريرة وعنيفة، وقد احتاج عشر سنين كي ينهيها.

خلال خدمته كجندي، وقع دوستويفسكي في حب آنسة باسم ماريا إساييفا، لكن الحب الذي أكنّه لها لم يكن صحيًّا، إذ إن ماريا لم تقدره لموهبته وشغفه، بل لشهرته وسمعته، إلا أن حبه لها أعماه عن كل ذلك، بل إنه صرح أن حبه لها إما سيقتله أو سيفقده عقله، ورغم أنها استغلته بأسوأ الصور إلا أنه ظل متعلقًا بها، واضطر أن يستدين مالًا حتى يتمكن من تزوجها. ويجمع المؤرخون أن قريحته الإبداعية في تلك الفترة عن حياته كانت مُجوفة، كأن حبه لها استهلك طاقته الإبداعية. استمر زواجهما سبع سنين، وإن عاشا آخرها منفصلين. خلال تلك الفترة، قابل دوستويفسكي حبيبته وعشيقته بولينا سوسلوفا في باريس، وظلا يسافران معًا لسنتين، وكان دوستويفسكي

خلالهما يزور دور القمار باستمرار حتى خسر تقريبًا كُل أمواله التي راهن عليها في المقامرة في فيسبادن وبادن بادن. ويبدو أنه استوحى فكرة روايته الشهيرة "المقامر" من تلك الفترة.

في عام 1864م توفيت زوجته ماريا، وأصبح دوستويفسكي الوصي القانوني لابن زوجته. بعد فشل مجلّة Epoch التي أسّسها مع شقيقه ميخائيل (والذي توفي في نفس عام وفاة زوجته ماريا)، وأصبح دوستويفسكي العائل الوحيد لعائلة شقيقه، ما جعل وضعه المالي يتدهور، وكان يحصل على مساعدات بسيطة من أقاربه وأصدقائه منعًا للإفلاس الكامل.

ورغم تعاسة موقفه، إلا أن دوستويفسكي عاد إلى دور القمار في فيسبادن، وخلال خمسة أيام فقد نقوده، فقامر بساعته، وخسرها أيضًا. حاول حينها استدانة نقود من أصدقائه، بل حتى من حبيبته السابقة بولينا، واضطر مدير الفندق أن يمنع عنه الطعام والشموع في الفندق (لكنه لم يطرده من غرفته). وأخيرًا أعانه قسّيس أرثوذكسي واشترى له تذكرة سفر إلى وطنه.

من يمكنه تصور مشاعر الذنب والمهانة والعجز التي اعتصرته على متن ذلك القطار خلال تلك الرحلة؟

عاد إلى سان بطرسبرغ في منتصف سبتمبر، مفلسًا، اضطر حينها دوستويفسكي أن يكتب روايةً جديدة على أن تنشر بشكل دوري كأجزاء في صحيفة روسية، وقبض منها مالًا. هذه الرواية عرفت باسم "الجريمة والعقاب" أحد أهم وأشهر أعمال التراث العالمي.

في تلك الأثناء طالبه ناشره فيودور ستيلوفسكي أن يسلمه نص رواية "المقامر" كاملًا قبل تاريخ الأول من شهر نوفمبر (أي في أقل من شهرين)، وإلا فإنه سيسيطر على الملكية الفكرية لجميع أعمال الروائي المستقبلية لعدة سنين. أما طلب دوستويفسكي لفترة تمديد حتى يسلم النص فإنه قوبل بالرفض. مدركًا سوء مأزقه، اقترح أحد أصدقائه عليه توظيف سكرتيرة لديه، فتواصل فيودور مع بافل أليخين وهو كاتِبٌ اختزالي أوصى بتلميذته البالغة عشرين عامًا آنا غريغوري سنيتكينا، وساعدته على إنهاء رواية "المقامر" خلال ستٍ وعشرين يومًا من العمل، وتم تسليم المسوّدة كاملةً يوم ثلاثين أكتوبر. وبعدها ساعدته آنا في إنهاء "الجريمة والعقاب".

في عام 1867م، تزوج دوستويفسكي آنا. ورغم أنها تصغره بخمس وعشرين سنة، إلا أنها كرست حياتها للعناية بالكاتب الطائش، وقد أعانته في كتابته وكتبت معه أعماله وساعدته في مشاكل قماره واهتمت به خلال مرضه

وأشرفت على منزله وأطفاله. بل إنها أيضًا جمعت مالًا احتياطيًّا في حالة الحاجة.

لكن علاقة دوستويفسكي بالقمار كانت نقمة حياته إذ أنه عاد للمقامرة واستهلك كل المال، ما اضطر آنا لرهن مجوهراتها حتى يتمكن زوجها من ممارسة تلك الرذيلة.

تمكن دوستويفسكي في رواياته من توثيق جميع ألوان الإدمان التي عاشها وعرفها. فمثلًا، في الروايتين "الجريمة والعقاب" و"الأخوة كارامازوف" يصف ماذا يفعل الإدمان بالشخص مما يجعله تحت رحمة من ديّنه المال، والتي عكست علاقته بالكثير من حوله آنذاك، خصوصًا ناشره فيودور ستيلوفسكي. في عمله القصير "السيد بروخارشين" يصف مشاعر الوحدة التي تعانيها الروح البشرية والتي تقودها رغبته في الثراء.

المحزن هو إدراك دوستويفسكي لإدمانه مع القمار، بل أن يقارن جحيم دور القمار بالجحيم الذي عايشه في السجن، والذي تحدث عنه في روايته "مذكرات من بيت الأموات". ولأمد طويل كان يعد زوجته أن يقلع عن القمار، لكنه نكث كل وعد قطعه على نفسه أمام زوجته آنا. في الواقع يمكننا أن نجد بين صفحات كتب الأدب الكثير من الأعمال حيث يسقط المؤلف إدمانه أو إدمان غيره على شخصياته، وهذا ما فعله روائيون مثل الروائي الأمريكي جاك لندن الذي وثق في روايته "جون بارليكورن" أعراض الكحوليات التي يعانيها بطل الرواية، والتي ماهي في الواقع إلا نفس الأعراض التي خاضها جاك لندن نفسه. أما الروائية جين ريز فتصف إدمانها العاطفي في روايتها "صباح الخير منتصف الليل".

في نهاية المطاف، تمكّن دوستويفسكي بالفعل من قهر المقامرة، وكان ذلك بعد خمس سنين من كتابة روايته "المقامر".

صفقة فاوست

يكتب الباحث وعالم النفس هاورد جاردنر مقارنة يقارن فيها بين حياة العباقرة وقصة أسطورية شهيرة من التراث الشعبي الألماني عن حياة وجحيم الطبيب والخيميائي يوهان جورج فاوست. فاوست كان طبيبًا على قدر كبيرٍ من النجاح، لكنه كان بائسًا وغير راضٍ عن حياته فبدأ سعيه لاكتشاف الجوهر الحقيقي للحياة. وبعد التطلع إلى بعض الكتب في مكتبته في مختلف المجالات مثل اللاهوت والرياضيات والكيمياء، توصل أخيرًا إلى أن السحر هو أفضل بلسمٍ لروحه! وهذا ما قاده إلى استدعاء الشيطان (أو لوسيفر) فحضر

عنه مبعوثه مفستوفيليس في هيئة رجلٍ طويلٍ مسربلٍ بالسواد حاملًا معه كتابًا أحمر يوقع فيه المُريد ليبيع له روحه! يبرم فاوست صفقة معه، ويُكتب العقد بدمه وتقضي شروطه بأن يقوم لوسيفر بخدمته طوال حياته ليستولي على روحه بعد مماته في مقابل حصول فاوست على المعرفة المُطلقة وإشباع كافة الملذات والشهوات الدنيوية.

ومن هذه القصة حصل التراث العالمي على المصطلح الشهير "الصفقة الفاوستية" أو "الصفقة مع الشيطان" والتي تقضي أن يكرس المرء حياته في سبيل سعيه لتحقيق طموحه وشغفه وليحصل على علومٍ ومعرفةٍ، لكن ذلك كان بثمن أن يضحي ذلك الشخص بنزاهته الأخلاقية.

هل عقد دوستويفسكي (وغيره الكثير من العباقرة) صفقة مع مفستوفيليس كي يحظى بقدرات فنية فوق مستوى البشر؟ وكثمن لذلك العقد، فقد وازعه الأخلاقي رغم أن الحشود رأوه كنبي؟

* * *

منذ فجر التاريخ، نظرنا إلى العباقرة من ناحية أثرهم علينا: كيف قادوا تفكيرنا وأثَّروا على حضارتنا وغيروا طريقة حياتنا. وكما ذكرنا في مقدمة الكتاب، كاد العباقرة أن يكونوا في مصاف الأنبياء والصالحين. فأصبحوا في قمة الهرم البشري وليس من المبالغة أن نقول أنهم استبدلوا الأرباب الوثنيين. وقد أعمانا ذلك عن حقيقة مهمة، وهي أنهم بشر مثلنا يخطئون ويأثمون. وبصورة أو بأخرى، سنجد في تاريخ كلٍّ منهم صفقة فاوستية متفاوتة الحجم. لكننا نتغافل عنها في الغالب ونتجاهل مثل تلك الحقائق، فوضعهم أكثر حساسية مقارنةً بباقي البشر لأن شريحة العباقرة لها قدسيتها. إن الانطباع الذي نراه في القصص التنظيرية التي كُتبت لتهذيب الأطفال الصغار هو أن الشخص الفاضل ذا الأخلاق الحميدة هو القادر على إنتاج عمل مميز ومبدع. لو تعمقنا قليلًا في سلوكياتهم، سنكتشف أن الكثير من العباقرة عقدوا صفقةً مع لوسيفر تبرر سلوكياتهم الفاوستية.

وحتى نفهم هذه العبارة، لنطَّلع على وجهة نظر البروفيسور هاورد جاردنر، والذي درس حياة الكثير من العباقرة أمثال سيجموند فرويد، ألبرت أينشتاين وغاندي، ثم كتب عنهم:

> **"كان عملهم يمثل الأولوية العظمى ويأتي فوق كل شيء آخر. رغم ذلك، يصعب عليّ تصور صعوبة التعامل معهم كأفراد. فقد كانوا مستعدين تمامًا لاستغلال الأشخاص ومن ثم التخلص منهم حالما تنتهي الحاجة إليهم! كما يُصاب كل من يدخل في دائرة أولئك المبدعين بالأذى والكثير من المآسي. إن النشوة التي تنتج عن البقاء مع العباقرة عظيمة ولكن الضغط النفسي الذي ينتج بعد ذلك متعب جدًّا".**

ثم يذكرنا جاردنر بأن العباقرة عادة ما يحتفظون بطباع طفولية لم يتخلُّوا عنها خلال نشأتهم، مثل تجاهل التقاليد والعناد والأنانية، وعن ذلك كتب: "في بعض الأحيان تترسب تلك الجوانب البغيضة من مرحلة الطفولة مثل الأنانية، والنرجسية، والتعصب، والعناد".

في العادة لا نناقش مثل هذه المواضيع لأننا نعيش في بيئة اعتادت على إجلال العبقري ورفعه فوق منزلته، فكتبنا تقدسهم، وشعراؤنا يتغنون بهم، والأمم تبني لهم أضرحة وتماثيل. لكن الحقيقة أن العباقرة يعلمون بأن عليهم التعامل مع العالم كما هو وكما يحتاجون وليس كما يقول الخطباء والمُنظرون، بل يجوز القول إن لدى الكثير منهم سلوكًا ميكيافيليًّا واضحًا، وقد قاموا باستغلال أقرانهم وأزواجهم وأسرهم من أجل تحقيق هدفهم وإتقان فن حرفتهم. بل إنَّهم قد يقومون بتلك التضحية دون وعي أو تفكير لدرجة تخطِّي العديد من الخطوط الحمراء (وخاصة ما قد يعدّها البعض أعرافًا اجتماعية) فهم عمليون نفعيون مدفوعون بأهدافهم، ولا يبدو أنهم فعلوا ذلك تكاسلًا أو تقاعسًا، أو وفقًا لنزعة خبيثة مقيتة، إنما اندفاعًا ورغبةً منهم في إنجاز ما ينبغي إنجازه.

لنقرأ اعتراف الروائي أورهان باموك، الذي يبدو أنه استخدم فنه ليتعامل مع فوضى المشاعر والأحاسيس الصعبة:

> **"توقعت أن أُنهي كتاب "الذكريات والمدينة" خلال ستة أشهر، لكنه تطلب مني سنة. كنت أعمل فيها اثنتي عشرة ساعة في اليوم ما بين قراءة وعمل. كانت حياتي كارثة بسبب عدة عوامل... الطلاق ووفاة أبي ومشاكل في العمل.. كل شيء كان يتدهور. أعتقد أنني كنت سأصاب بالاكتئاب لو كنت ضعيفًا، لكنني كنت أستيقظ كل يوم، واستحم بماء بارد، وأجلس لأتذكر وأحاول الكتابة! لقد كنت مهووسًا بجمال الكتاب. أعتقد أنني آذيت أمي وعائلتي وقتها. لقد توفي أبي وأمي لا تزال على قيد الحياة. لكنني لم أستطع أن أهتم بذلك، كل ما كنت أريده هو التركيز على جمال الكتاب".**

قد يُلاحظ المُطَّلع على سير العباقرة هذا السلوك المتكرر بأنماط مختلفة. يبدو أن كل عبقري اتَّبع شغفه وصعد إلى قمة الهرم أصابته اللعنة ذاتها! إن الأمثلة على هذا النوع من السلوك كثيرة في حيوات العباقرة. الشاعر الإسكتلندي لورد بايرون الذي قال: "نحن الذين نمارس صنعة الفن مجانين! بعضنا تحت وطأة السعادة وبعضنا تحت وطأة الحزن، فبطريقة أو بأخرى، جميعنا مجانين"، لعله بهذه المقولة كان يبرر ممارساته الجنسية الشنيعة الدنيئة، والتي اضطرت زوجته البارونة آن "آنابيلا" أن تمنعه من لقاء ابنته (الشاعرة وعالمة الرياضيات المستقبلية) آدا لوفلايس. أما كارل يونج، طالب فرويد الشهير (ولاحقًا) خصمه، عاش على نفقة زوجته رغم تدنيسه الطقوس الزوجية مرارًا وتكرارًا! ومن الموثق أن ألبرت أينشتاين في زواجه

وعد زوجته ميلفا ماريك بأن يمنحها مبلغ جائزة نوبل لأنها تحمّلت جانبه المظلم لسنوات طويلة وحتى ترعى أطفالهما، وقد أهمل فروضه العائلية ليركز على العلم. وليس سرًّا أن كان بيكاسو كان فظًّا غليظًا مع النساء حوله، أما فرانز كافكا فيبدو أنه فضَّل بيوت الدعارة لفشله في الارتباط بزيجة شريفة، والقائمة تطول.

ويبدو أن هناك ما يؤثر بشكل مرعب على سلوك الفنان، فبعضهم تصيبه حالة إحباط واكتئاب مريعة تقود البعض إلى الانتحار.

هل يجوز أن نسأل إن كان الفنانون قد عانوا بسبب التزامهم بنشاطهم الفني؟

من المعروف أن أمثال نيوتن وداروين وأينشتاين عانوا من عزلة ثقافية وصعوبة التواصل مع الغير، وكأن ذلك كان ثمن عبقريتهم. ولعلنا نذكر وصف الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور تلك الحالة بقوله:

> **"ولا مجال للعجب إذن، إذا ما وجدنا أن أهل العبقرية والنبوغ بصفة عامة هم ممن تصعب معاشرتهم، ولا تُستحب صحبتهم. ولا يعود ذلك إلى افتقارهم للروح الاجتماعية... لكن من الأغلب أن صاحب العقل العظيم يفضل مناجاة الذات على أي حوار مع الآخرين".**

لا يجب أن يفهم هذا الاقتباس كمناقض لما سبق ذكره في فصل "القبيلة" بأن العبقري يخالط أقرانه المبدعين، لكن على الأغلب أن شوبنهاور كان يقصد أن العبقري يتجنب الرجل العادي (أو المنطقي كما قال جورج برنارد شو) ذا الميول التقليدية أو الميول البليدة.

بل بإمكاننا رؤيته على مستوى أعمق في حياة الشاعر تي. إس. إليوت الذي يبدو أنه عقد صفقته الفاوستية مع لوسيفر في شبابه، إذ فشل في زواجه الأول مع أن العالم كان يقدِّس شعره، بينما لم يوفَّق في شعره رغم سعادته في زيجته الثانية! قال المؤلف نورمان ميلر في آخر مقابلة له: "كل كتاب من كتبي قتلني أكثر قليلًا". وهذا يتوافق مع ما قاله المؤلف إرنست هيمنجواي: "الكتابة هي أن تنزف أمام الآلة الكاتبة!" بينما كتب الروائي تشارلز بوكوفسكي: "جدْ ما تحب ودعه يقتلك". كما يُذكِّرنا كتاب "سيجيء الموت وستكون له عيناك" أن هناك مائة وخمسين شاعرًا أقدموا على الانتحار في القرن العشرين وحده! عن ذلك ختمت الكاتبة جمانة حداد مقدمة كتابها بهذه العبارة: "مئة وخمسون زيارة، إذًا، لمئة وخمسين عالمًا، بل لمئة وخمسين جحيمًا...".

علينا أن لا نعتقد أن تلك المعاناة مقتصرة على الفنانين فحسب، فبإمكاننا أن نجد نمطًا متطرفًا مشابهًا بين العلماء والأكاديميين الذين أوفوا بعهدهم الذي وثّقوه مع مفستوفيليس وقدموا حياتهم كاملة بعد صراعٍ طويلٍ مع حرفتهم.

نتحدث هنا عن أولئك الذين عاشوا حياة ضنكًا حتى يتقنوا حرفتهم أو أنهم أقدموا على الانتحار، سواء كان ذلك في منتصف رحلتهم الفكرية أو بعد وصولهم إلى قمة الهرم الفكري في مجالهم.

قد يكون كل هذا صادمًا لنا. إذ هل يُعقل أن المعرفة التي احتوتها تلك العقول التي قدمت جمالًا وعلمًا وغيّرت وجه العالم، كانت لعنةً على العبقري أكثر من أن تكون طوق نجاة؟

سيحاول هذا الفصل رفض نظرية الجنون والنظر إلى مصدر آخر يقود إلى تلك التصرفات والسلوكيات الغريبة. ربما بإمكاننا فهمهم إذا ما درسناها من زاوية أخرى: الإدمان.

"أي علم أدمنته؟"

كتب الدكتور السابق ذكره چايبور ماتي (والذي تعامل مع ضحايا الإدمان في معظم مراحل حياته الاحترافية):

> **"بإمكاننا فهم الكثير من الظواهر التي نراها حولنا إذا ما نظرنا إليها من منظور الإدمان... المدمن لا يشبع أبدًا وتعاني حالته العاطفية والروحانية افتقارًا دائمًا بغض النظر عن إنجازاته ومكتسباته أو ممتلكاته...[في حالة الإدمان] نظل في حالة جوع دائم. يتقلّص الوازع في وجه احتياجات الإدمان. لذلك تجد الرحمة ضئيلة لدى المدمنين، ولذلك يفتقرون إلى صفاتٍ مثل الشرف والنزاهة والولاء".**

تخبرنا المؤلفة ليندا ليونارد (والتي عانت أعراض إدمان الكحوليات لفترة طويلة من عمرها) أن تاريخ كلمة الإدمان في أصوله اللاتينية يختلف عن المعنى المُهين الذي نستخدمه الآن. فقد كانت تستخدم في سياق روحاني يأتي بمقصد الاستسلام ووهب الذات وتكريسها للآلهة، ومع حلول العصر الروماني تحورت إلى معنى أن شخصًا لا صوت له، وهو وصف منمّق لمبدأ العبودية. فمثلًا، إذا عجز المرء عن دفع ديونه أصبح عبدًا للشخص المدين له. وفي القرون الماضية (على الأقل منذ عصر شكسبير) تحور تعريف الإدمان قليلًا ليمثل كل ما يتعلق بشغف المرء أو عمله. على سبيل المثال، في كتاب الأمير (1532م) نجد ميكيافيللي يستخدمها في أحد نصوصه عندما كان يوصي الأمير بأن "لا ينسى فن الحرب، وألا يفارق ذهنه، بل عليه أن يدمن تعلم

الحرفة حتى خلال أوقات السلم". أما في الرواية الشهيرة "دون كيخوته" (عام 1605م) فيوجه دون لورنثو سؤالًا لدون كيخوته: "أخبرني يا سيدي... أي علمٍ أدمنته؟".

* * *

يقدم چايبور تعريفه للإدمان كما يلي:

> **"الإدمان هو سلوك متكرر، سواءً كان مرتبطًا بمواد أو بدونها، حيث يصر المرء على السلوك حتى لو كان ذا جوانب سلبية كثيرة على حياته الشخصية أو على حياة أولئك الذين من حوله".**

يشدد الدكتور چايبور على حقيقة عادة ما نغفل عنها: أن الإدمان ليس دائمًا كيميائيًّا (مخدرات، نيكوتين، كافيين)، فقد يكون سلوكيًّا، مثل الإدمان على العمل أو التسوق أو القمار أو الإنترنت (أو كما نحاول أن نثبت في الفصل: الإدمان على الشغف)، بشكل مبالغ فيه مما يجعله سلوكًا هادمًا للصحة الجسدية والنفسية، والتوازن الشخصي والاجتماعي. يذكر چايبور الإدمان على القوة والسلطة والحكم كمثال لإدمان سلوكي متفشٍّ جدًّا. حيث نجده لدى قادة التاريخ المتعطشين دائمًا للمزيد. وبعد دراسة قام بها على قادةٍ مثل الإسكندر العظيم، نابليون بونابرت، هتلر، وستالين لاحظ وجود عدة عوامل مشتركة بينهم، مثل كونهم صغار البنية، وأنهم لم يكونوا من مواطني البلد الذي أقاموا ثورتهم [39] فيه واستشهد چايبور بنابليون بونابرت، الإمبراطور الذي أراد أن يكون الإسكندر المقدوني الحديث:

> **"نابليون مثال ممتاز إذا أردت الحديث عن عبقري، لكنه كان كذلك مدمنًا على السُلطة حتى في منفاه فقد كان يقول: أحب السُلطة! بل إنه وصفها كعشيقته".**

كما يركِّز چايبور على أن: "ما يعده مجتمعنا مقبولًا ومحترمًا هو ظاهرة تعسفية من الدرجة الأولى" وما يحاول قوله هنا هو أن المجتمع يبجل بعض حالات الإدمان بينما يشيطن الأخرى وبإمكاننا فهم وجهة نظره إذا ما طبَّقناها على عادات مجتمعنا تجاه بعض حالات الإدمان. فمثلًا الإدمان على المخدرات محظور بينما الإدمان على العمل محمود ويُحتفى به بل ويتم تُقديره لدرجة أن بعض الأفراد يتفاخرون بتلك الحقيقة: "أنا مدمن عمل!" وهم لا يعلمون مدى دقة وصفهم. فهم استبدلوا إدمانًا كيميائيًّا بآخر سلوكي، وكلاهما يمتلك الأعراض ذاتها، لكن أعراض الإدمان السلوكي تتضاءل أمام الإدمان الكيميائي.

ويصنِّف چايبور أي سلوك كإدمان إذا ما استوفى النقاط الأربع التالية:

- المداومة القسرية على السلوك والانشغال به.
- ضعف التحكم في السلوك.
- الاستمرارية أو الانتكاس إلى السلوك رغم ضرره الواضح.
- الضيق أو الاستياء أو الجوع الشديد لمصدر الإدمان (سواء كانت مخدرات أو سلوكًا) إذا لم يكن متاحًا مباشرة.

ويجب أن نشير هنا إلى أننا لا نقصد أن الإبداع يأتي من خلال الإدمان (خاصةً أن صورة المبدع المدمن صارت حاضرة في ثقافتنا المعاصرة) إنما نشير إلى أن هناك خطوطًا متشابهة بينها. تكتب ليندا ليونارد عن هذا الخلط:

> **"كلاهما يهوي إلى عالم الفوضى، في العالم السفلي والمجهول لوعي الإنسان. كلاهما مهووس بما يكتشفانه هناك. كلاهما يواجه الموت والألم والمعاناة. لكن المدمن لا خيار لديه إلا السقوط، فهو رهينة إدمانه، أما المبدع فإنه يختار أن يمضي في ذاك الدرب الغامض، حتى لو آمن أن ذلك الدرب مفروضٌ عليه".**

ويبدو أن الهبوط إلى العالم السفلي هو صورة مجازية تشابه توقيع فاوست عقد لوسيفر بالدم، ففي كلتا الصورتين، يبدأ المرء يفقد سيطرته على حياته. وتحذرنا ليندا من الفوضى التي تعم تلك الهاوية، إذ على المرء هناك أن يتقبّل ويتأقلم مع مشاعر بغيضة مثل الخوف، القلق، الضيق، الاضطراب، الأرق، الضجر، الملل، الوحدة، الإحباط، وخيبة الأمل، والصمت، والبكاء، والحزن، والجزع، والجوع، والاكتئاب. فهذه المشاعر مألوفة جدًّا لدى الشخص المبدع.

لعل الحقيقة الثانية التي يقدِّمها چايبور وتدعم هذا المنظور أكثر هي أن مصدر الإدمان (سواء كان كيمائيًّا أو سلوكيًّا) ليس قويًّا بسبب طبيعته، إنما يصبح قويًّا بسبب تعلقنا به سواء كان إدمان طعام أو تسوّق أو إنترنت أو عمل وحتى إدمان المخدرات. وكتب عن ذلك: "الإدمان هو رد فعل للألم". فأبحاث چايبور قادته إلى حقيقة أن المدمنين هم في الواقع ضحايا متأثرين بمعاناة وآلام طفولتهم والتي تركت جرحًا عميقًا وقد يخفي عقلنا عنّا تلك الذاكرة حماية لنا. وغالبًا ما تؤثر تلك التجارب في ثقتهم بأنفسهم وتقييمهم لذاتهم ما يحثهم على سد ذلك الفراغ بالإدمان. لكنه ينبه أيضًا إلى أن ليس كل مدمن عانى تلك المُعاناة في طفولته:

"ليس بالضرورة أن يكون مصدر الإدمان صدمات أو إساءات عاطفية، لكنني أؤمن بأن كل ألوان الإدمان تنبع من تجارب مؤلمة. كل السلوكيات الإدمانية تنبع من ألم. وهذا ينطبق على المقامر ومدمن الإنترنت والشخص الذي لا يقاوم التسوق والمدمن على عمله. الجرح قد لا يكون عميقًا والألم قد لا يكون مدمرًا، وفي بعض الأحيان قد لا نعلم بوجوده، لكنه موجود".

ويوافقه على ذلك عالم النفس لانس دودس من جامعة هارفارد والذي كتب: "الإدمان مشكلة بشرية تكمن في البشر، وليس في المخدرات أو في مقدرتها على ترك أثر جسدي". وهو بذلك يخبرنا أن الإدمان ليس تحت رحمة الجينات كما نتصور، فبينما توجد جينات تجعلنا أكثر عرضةً للإدمان، إلا أنها لا تفرض علينا سلوكًا معينًا أو تقودنا للإدمان. لكن الألم، والذي قد يأتي في عدة صور، هو ما يقودنا إلى الإدمان. وعن ذلك قال: "نعلم أن الجينات تستجيب للبيئة، والفيصل في الحالات التي تقود للإدمان هو المعاناة النفسية والمعاناة العاطفية في الطفولة أو التعرض للأذى".

وهما في هذا الحديث لا ينفيان قدرة المخدرات وأثرها الكيميائي على الجسد، إنما ينبهاننا إلى حقيقة أهم: أهمية العامل البشري وأن حضوره في الإدمان أقوى من المخدر نفسه. فنحن ندمن لنهرب من واقعٍ معين، ليس لأننا تحت سيطرته، ويضرب لنا مثالًا على ما يقصده بذكر أن الكثير من القبائل البدائية تستخدم المخدرات في طقوسها وشعائرها الدينية لكنها لا تطور إدمانًا لتلك المخدرات. وكذلك يذكر أن الطعام والإنترنت والتسوق وغيرها ليست مسببة للإدمان، لكن بعض الأفراد أدمنوها من أجل سد فراغ في داخلهم.

إن الشخص المبدع، والذي يطور فضوله وشغفه وإبداعه إلى عبقرية معينة هو شخص حساس، وهي إحدى سمات كون المرء قبوليًّا ومقبلًا على تجارب جديدة. وتشير ليندا إلى أن الشخص المبدع والشخص المدمن يتشابهان في حقيقة أن كليهما حساس، فهما عرضة لمشاعر قوية فياضة وقد تقود طاقة نفسية وعاطفية (السقوط في الهاوية والتعامل على العقل اللاواعي).

وتشير ليندا إلى أن هناك ثلاثة خيارات يلجأ إليها الشخص عندما تطغى عليهم مشاعر مشابهة.

الحالة الأولى:

يلجأ المرء إلى مصدر خارجي كي يتعامل مع تلك المشاعر، وقد يكون سبب ذلك أن المدمن لا يثق بقدراته الإبداعية، فهو إما يسمع صوتًا داخليًّا يردع طاقته الإبداعية أو يأتي الردع من مصدر خارجي (العائلة، المجتمع، المدرسة،

الشركة)، في كلتا الحالتين لا يجرؤ الشخص حينها على تطويع طاقته الإبداعية، وعوضًا عن ذلك نجد المدمن يضعف أمام هذه المشاعر فيتجه إلى ما ينسيه ويلهيه عنها: الخمر أو المخدرات أو القمار أو التسوق أو الجنس. حينها يصبح المرء عبدًا لذلك المصدر الخارجي الذي لا قوة له بدون حاجة المدمن إليه، وذلك يضيِّق نظرة المرء إلى الحياة بل إنها تورثه ضيقًا في نفسه ورؤيته وتخنق حريته، وتكلفه كرامته. وإذا عجز الشخص عن تغيير مصدر القوة من خارجي إلى مصدر داخلي (مثل القريحة الإبداعية أو الدين أو الحب)، فإنه يخسر روحه لإدمانه. تستشهد ليندا بمقولة أحد الذين أدمنوا القمار:

> **"الإثارة تكتم صوت الإجهاد والضيق في الحياة، وتحميك من الاحتياجات الأساسية من المودة والأمن والجوع والنوم. لكن في المقابل، كل ذلك يولد وجعًا مؤلمًا يصعب تحمله".**

الحالة الثانية:

يتعامل الشخص مع تلك المشاعر بأن يلجأ إلى مصدر قوة داخلي، وحينها يقدر على تحويل تلك الطاقة ويطوعها لإرادته، ما يوسع دروب الحياة أمامه ويمكنه من تطوير اهتمامه وممارسة حرفته وإنتاج فنه. لكن ينبغي أن لا ننسى ما ذكرته ليندا أن المبدع (مثل المدمن) يهبط إلى عالم المجهول، إلى غياهب العقل الباطن، ما يولد الكثير من السلوكيات السلبية التي يحتاجها ليهرب من تلك الأعماق (الأنانية، والنرجسية، والتعصب، والعناد). سببٌ آخر قد يقود لهذا النوع من المشاعر أن الشخص المبدع هو شخصٌ متمرد (كما ذكرنا سابقًا)، وهذا يقوده للإيمان أنه فوق باقي أفراد المجتمع، وأن همومه وآلامه وأفكاره أهم منهم، وهو بذلك يجعل المجتمع دونه وتحته، وربما أضمر للمجتمع احتقارًا كذلك لسبب أو لآخر.

الحالة الثالثة:

وهي ما تسميها ليندا: السقوط الثنائي، وهي الحالة التي يمارس فيها الشخص إبداعه بينما يتمسك بإدمانه. لكن ليندا تحذر من تلك الحالة، فحتى يستمر إبداعه، يجب على إدمانه أن يخمد الألم (كما رأينا في حالة المقامر دوستويفسكي)، وفي أحيان أخرى فإن المبدع يستخدم مصدر الإدمان (كحوليات أو مخدرات) كمصدر للجرأة، حتى يتمكن من أن يتمرد وأن يأتي بما لم يأتِ به غيره، وذلك يقود المبدع إلى جحور مظلمة ومؤلمة وتكلفه الكثير. في حالةٍ أخرى قد تكلف المبدع حياته كما في حالة الرسام جاكسون بولوك والروائي جاك لندن وكذلك الروائي فرانسيس سكوت فيتزجيرالد، والذين ماتوا في شبابهم ضحية تشبثهم بإدمانهم.

تنقل ليندا عن أحد أولئك الذين تخبطوا في فوضى الهاوية وعادوا منها بإبداع بدلًا من إدمان:

"هناك لحظات أتفهم فيها لماذا يشرب الفنانون، أو يفسدون، أو يضلون عن الطريق، إلخ. يحتاج الفنان إلى شخصية قوية حتى ينجو من الحطام الأخلاقي والنفسي".

آمن دوستويفسكي بهذه الحقيقة وفهمها تمامًا، وعن ذلك كتب أنه "بدون المعاناة، فإنه لا يمكننا فهم السعادة..." ولو أنه أنكر ذاته الإبداعية، ولو أنه لم يعالج نفسه بالكتابة، ولو أنه لم يواجه إدمانه في عتمات الهاوية، فربما لم نكن لنحظى بتراثه الأدبي العظيم. بالتأكيد، تضرب لنا ليندا ليونارد مثالًا على أولئك الذي زاروا الهاوية وتمكنوا من العودة منها: الأم تريزا، كارل ماركس، فريدريك نيتشه، سورين كيركجارد، كارل يونج، سيجموند فرويد، ألبير كامو، ألبرت شفايتزر، وغيرهم.

لكن الخطر الحقيقي الذي يضخم حالة الإدمان لدينا هو انكارنا لتلك الحالة، رغم كل الأدلة، ورغم كل المعاناة، نختار أن نتجاهل كل ذلك كي لا نُضر قريحتنا الإبداعية. بل إن الكثير من المدمنين في المجال الإبداعي يخشون أن يخسروا روحهم الإبداعية إذا ما تخلوا عن إدمانهم، فهم يتوهمون أن هناك علاقة وطيدة طردية بين الاثنين. لذلك نجد بعضهم يتشبث بإدمانه خشية أن يفقد إبداعه، وتكون النتيجة أنهم يخسرون ذاتهم وكرامتهم وحياتهم. وما يضخم هذه الحالة عادةً أن المدمن يجد تبريرًا لإدمانه كأن يقول المرء: "أنا أسعى لتغيير البشرية، إني أتكبد الكثير من المعاناة، لذلك يحق لي مثل هذه النزوات!" وهذا الإنكار هو إحدى أهم وأقوى علامات الإدمان والذي من آثاره الشغف الذي يلتهم مالكه. على ذلك الشخص حينها أن يضحي بإدمانه حتى لا يغوص أكثر في ذلك المستنقع.

من السهل أن يتحكم المرء في شغفه وأن لا يعميه عن مسؤولياته وحياته، لكن الحقيقة المُخيفة أنه أيضًا من السهل جدًّا أن ينزلق الشغف إلى حالة هوس، وما الهوس بالشغف إلا صورة من صور الإدمان. وكيف تعرف أنك وصلت مرحلة الإدمان؟ بسؤال واحد: هل أنت مستعد لترك تلك العادة؟

إلا أننا لا نسأل أنفسنا ذلك السؤال في حالة الإدمان، وقد تكون حالة ذلك الشغف صحية، فيمنح صاحبه تلك الحرية والتي تمكنه من موازنة حياته، لكن في أغلب حالات العباقرة يكون ذلك الشغف هوسًا وتطرفًا يقود صاحبه للإدمان، فهو يمنح صاحبه وعودًا مزيفة عن السعادة التي ترافق الإنجاز، لكنها ستكون سرابًا.

يصف جابور معاناة المدمن الشهير دوِن خوان:

"زير النساء القسري. لقد كان مبدعًا، فاتنًا، وحيويًّا. لقد كان مغامرًا جريئًا، لكنه كان جبانًا أخلاقيًّا، عاجزًا عن التصالح مع ذاته. وبغض النظر عن عدد المرات التي مارس الجنس فيها، فإن جوعه الجنسي لا يشبع، دائمًا في حالة اضطراب وفقدان للرضى. وموهبته الشعرية ورغبته للإتقان يضخمان حاجته لامتلاك المزيد. دائمًا ما يبحث عن الغنيمة التالية... لقد حظي بالعديد من الفرص للتوبة، لكنه رفض ذلك. لقد عذب الآخرين وضحّى بروحه الفانية.

لقد كره التوبة، وفي النهاية، كلفه ذلك روحه".

لكن جابور لا يصف معاناة دون خوان فحسب، إنما كان اعترافًا بإدمانه كذلك، فمثل ليندا ليونارد، عانى جابور لفترة طويلة من إدمان من نوع آخر: شراء الموسيقى الكلاسيكية. ويقر جابور أن إدمانه يعد أقل تطرفًا من حالات الإدمان الكيميائية، لكنه أبدى نفس أعراض أولئك المدمنين وسلوكياتهم.

* * *

هل من المستغرب إذًا أن يكون الكاتب قد أدمن "جمال الكتاب"؟

أو أن يدمن العالم العزلة حتى يستكشف علومًا جديدة؟

أو أن يصرخ قائدٌ منفي عن أهمية السلطة التي نُزعت منه؟

هل من المبالغة مقارنة شغف العباقرة بالإدمان الذي يدمر حياتهم؟

لا يبدو ذلك مبالغًا فيه الآن، فقد رأينا كيف كانت عاقبة الشغف، وكيف قادهم إلى حالات متطرفة من العزلة أو السلوكيات المؤذية لأنفسهم وللآخرين من حولهم بل وفي بعض الحالات إلى الانتحار.

الخاتمة

امتدت رحلة هذا البحث لمدة عشر سنوات من الأبحاث وأربع سنوات من الكتابة المتواصلة، وما يزيد على خمس وعشرين مُسوّدة، كل ذلك جعلني ملمًّا بالمصادر والجدليات والأحاجي التي تحيط بهذا الموضوع، ما جعل هذه المادة بالنسبة إليّ مكررة مملة، وكلما أعدت قراءته بهدف التنقيح والتعديل، ازداد بغضي له ولمحتواه. وأصبحت أخشى أن استنتاجاتي ومخرجاتي في هذا العمل مكررة وباهتة.

اضطررت للتعامل مع هذه المخاوف بعدة سبل، وهي:

- إقامة ورشات عمل مع شرائح فكرية ومجتمعية وثقافية مختلفة، وكان الهدف من هذه الجلسات هو تحدي نفسي للتأكد من أصالة عملي ونقائه أمام العلن.

- مراجعة مصادري والاطلاع على المواد الجديدة حيال هذا الموضوع.

- وأخيرا عن طريق تذكير نفسي بمقولة جورج أورويل: "أفضل الكتب هي تلك التي تقول لك ما تعرفه بالفعل".

هذه الرحلة أجبرتني على إعادة الكثير من التعاريف، مثل الإبداع والذكاء والعبقرية، وأتاحت لي أن أنظر إلى محتوى الكتب التي تناقش هذه المصطلحات، وأن أقيّمها، وأن أنظر إلى تلك الكتب التي تناقش حيوات العباقرة وتمجدها وترفعها فوق قدرها، وبإمكاني التعرف إلى الفجوات والأخطاء وتحدي تلك المسلمات.

لقد أثرت فيّ تلك الكتب لفترة طويلة، ولطالما شعرت أن التقصير من طرفي ومن ذكائي وجيناتي، لكن دراسة رحلات العباقرة قدّمت لي منظورًا مختلفًا وارتقى تقييمي لذاتي واحترامي لها. وأصبحت في الوقت نفسه متعاطفًا مع غيري ومتفهمًا لإحباطهم وفشلهم، وأحاول أن أساعدهم، كما احتجت أنا ذلك في أيامي القاتمة. وهذا أحد الأهداف التي أرجو أن يحققها الكتاب.

وما كان بالإمكان أن أقطع هذه الرحلة لولا جهود أصدقائي الصارمين الشرسين الذين كانوا صريحين في مراجعاتهم وآرائهم في ما يخص محتوى الكتاب، واللغة، والأسلوب. ومن الوارد جدًّا أنني سأغفل عن ذكر بعضهم، إذ أن رحلة كتابة هذا الكتاب امتدت كما أشرت لمدة عقد من الزمان، عقد من عمري، لكني سأبذل قصارى جهدي لشكرهم وتقديرهم.

صديقي المهندس والشاعر مهند الطهبوب، الذي أشار عليّ بأهمية كتابة هذا الكتاب وراجع المسوّدات بكل صبر وأمانة، ولذلك أنا ممتن له كل الامتنان. يجب أيضًا أن أشكر الشاعرة والمحررة إيثار المصيبيح، والتي قامت بتحرير ومراجعة الكتاب، وطالبتني بتسليم كل المقتبسات بلغتها الأصلية حتى تتأكد من سلامة النقل والترجمة، وساعدتني في الارتقاء بجمال النص ومراجعة كل الحقائق. أدين بفضل كبير للمفكر تركي التركي، الذي جادلني في كل فكرة وسطر وكلمة في الكتاب، ليس من باب الجدل، بل حتى يتأكد من أصالة أفكاري ووضوح نهجي. يجب كذلك أن أوجه الشكر والتقدير لابن عمي ريان سفر، الذي عاصر نشأة الفكرة من قبل المسوّدة الأولى وحتى الأخيرة بالتزام وحب، وواظب على الاستماع إلى أفكاري المرتبكة في ساعات وهني في مكتبي في ساعات الليل الأخيرة، وشجعني كل التشجيع على العمل عليها وتحسينها ونشرها. كما يجب أن أشكر الصديقين المؤلف راضي النماصي ورائد الأعمال عمر الشبعان، اللذين ساعداني في فهم تخطي صعاب مشوار النشر. وأخص بالشكر الدكتور فيصل أسعد وأختي لينا سفر لكونهما قدوتين آمنا بي وبشغفي وساعداني دائمًا على تحدي المستحيل.

وأخيرًا، أشكرك أنت أيها القارئ، على صبرك وقراءتك وإنهاء الرحلة معي.

تحياتي،

عبدالرحمن سفر،

جدة، ديسمبر، 2019

Notes [← 1]

على سبيل المثال: يستشهد السياسي البريطاني دوغلاس موراي بقس علماني يقول إنه لا يمكن للإنسان الغربي أن يتخلص من مسيحيته مهما يحاول، وأن أحلامه ستظل أحلامًا مسيحية حتى لو تخلى عن معتقداته.

[2 ←]

في كتابه "نقد ملكة الحكم" يتحدث كانط بإسهاب عن العبقرية، وعن أصل الكلمة يكتب: "... لهذا أيضًا من المحتمل أن تكون كلمة عبقرية (Genie) مشتقة من اللاتينية (Genius) أي الروح الخاصة المعطاة للإنسان عند ميلاده لحمايته وتوجيهه، والتي هي مصدر الإلهام (الذي تصدر عنه تلك الأفكار الأصيلة)". من طرف آخر: تشير بعض المصادر أن كلمة "Genius" هي مشتقة من كلمة "Genii"، والتي هي نفسها مشتقة من كلمة "جني" العربية، لكن ذلك يثير قضيةً جدلية لا مفر منها: كلمة جني أو Genii (والتي أيضًا تكتب بتهجئات مختلفة مثل djinn وjinn) دخلت ساحة الأدب الأوروبي بعد ترجمة الكتاب القصصي الأهم "ألف ليلة وليلة"، وقد حدث ذلك بين القرنين السابع عشر والثامن عشر. هذا التناقض خلق نظرية مُضادة تدعي أن كلمة جني العربية هي نفسها مشتقة من كلمة Genius الرومانية، وقد حدث ذلك خلال فترة حكم الإمبراطور الروماني تيبريوس قيصر قبل الميلاد بقليل، لكن ذلك الرأي مرفوض. لذلك يظل أصل العلاقة بين الكلمتين مُحير وغير مُؤكد.

[3 ←]

يجب أن لا نقلل من قدر الإيمان بالأرواح ودورها في عقل الإنسان الأوروبي، فتلك هي نفس الفترة التي شهدت انتشار الكتاب الشهير "Malleus Maleficarum" أو "مطرقة الساحرات" والذي تلى الكتاب المقدس من ناحية إقبال العامة على قراءته. ألهم هذا الكتاب الكنيسة الكاثوليكية (عن طريق ذراعها محاكم التفتيش) لحرق ملايين النساء بتهمة السحر والشعوذة ولأنهن عقدن "صفقة مع الشيطان".

[4 ←]

تكتب هذه العلوم الزائفة باللغة الإنجليزية كالتالي: Physiognomy, Phrenology, Craniometry.

[5 ←]

كل جزء من هذه الأجزاء استلهم عنوانه من مؤلف شهير. الجزء الأول يستلهم عنوانه من كتاب عالم الفيزياء النظرية البريطاني الشهير ستيفن هوكينغ: "تاريخ موجز للزمان". الجزء الثاني يستلهم عنوانه من كتاب الروائي التركي الشهير أورهان باموق: "الروائي العفوي والحساس". أما الجزء الثالث فيستلهم عنوانه من أعمال عالم الميثولوجي الأمريكي جوزيف كامبل: "رحلة البطل".

[6 ←]

في عام 1887، نشر آرثر كونان دويل رواية شيرلوك هولمز الأولى "دراسة في اللون القرمزي"، وفيها يصف المحقق الشهير مخ الإنسان أنه: "أشبه ما يكون بغرفة صغيرة، فعليك أن تملأه بالأثاث الذي تختاره. والأحمق هو الذي يحشره بكل تفاهة يمر بها لدرجة تتعذر معها على المعلومات المفيدة أن تجد مكانًا وسط هذا الحشد من سقط المتاع... العامل الماهر مثلًا حريص

على ما يضعه في تلك الغرفة؛ عقله، لا يحتفظ إلا بالأدوات التي تنفعه في عمله... ومن الخطأ أن نظن أن جوانب هذه الغرفة مطاطية يمكن أن تتسع لأي مدى". عندما تمت ترجمة الرواية إلى حلقة في مسلسل قناة BBC الشهير "شيرلوك" (الحلقة الثالثة)، قام الكاتب بتحديث الاستعارة، فنرى شيرلوك هولمز القرن الحادي والعشرين يقول عن مخه: "إنه بمثابة القرص الصلب الخاص بي، ومن المنطقي أن أملأه بأمور مفيدة... الناس العاديون يملؤون رؤوسهم بالتفاهات".

[7 ←]

لعل سقراط هنا يشير إلى عامل الشجاعة، فبينما الشاعر والنبي والفيلسوف والسياسي محاسبون على كلماتهم التي تأتي من ذاكرتهم وهم يخطبون أمام الحشود، فبإمكان النحات والرسام والكاتب والعالم الاختفاء خلف صفحات ما ينتجونه (مجرد فرضية).

[8 ←]

هناك نظرية تقول إن الفنان الإيطالي الشهير مايكل أنجلو سجل اعتراضه على فكرة أن الإلهام مصدره إلهي، أو بالأحرى نقول رسم اعتراضه. فقد سمعنا مؤخرًا نظريات متداولة عن رسمته الشهيرة: خلق آدم، والتي رسمها عام 1511م. وتجسد هذه اللوحة الشهيرة الرواية الإنجيلية الواردة في سفر التكوين حين قام "الرب الآب بنفخ الحياة في آدم أول إنسان". اللوحة مقسمة تقريبا إلى جزءين، الجزء الأيسر يمثل الأرض حيث يظهر آدم ممدّدًا باسترخاء، في حين يمثل الجزء الأيمن السماء حيث "يظهر الخالق" محاطًا بملائكة يمد يده نحو يد آدم وأصابعهما تكاد تتلامس. في عام 1990م، أشار أحد الأطباء إلى أن السحابة التي تحيط بالخالق وملائكته ما هي إلا رسم دقيق للمخ. وكأن مايكل أنجلو يخبرنا أن الوحي والإلهام لا يأتيان في صور غيبية، إنما من عقل الإنسان.

[9 ←]

بالنظر إلى واقعنا اليوم، بالإمكان رؤية آثار أفكار عصر التنوير، فقد مهدوا الدرب لنا لحياة أفضل، فنحن ندين لهم بتلك الأفكار التي بشروا بها، إذ أنهم عملوا جاهدين لسد أي "فراغات" ميتافيزيقية وتوفير أجوبة علمية لها. بل ويغلب الظن أنَّهم هم من وضعوا مُسمَّى "العصور المظلمة" للإشارة إلى الفترة التي سبقتهم، والتي اعتمدت على الإيمان الأعمى والتسليم المُطلق دون نقاش أو جدال. نتيجة لذلك، تعيش البشرية اليوم أفضل حقبة صحية وأخلاقية وتقنية في تاريخ البشرية: أعمار المواليد الجدد مديدة وصحية، أصبحت العبودية من ظلال التاريخ المظلم، تحتفي الدول والمجتمعات بحقوق المرأة والأقليات، استبدلت الأدوية والحقن الشعوذات والسحر، لم نعد ننسب أفعال الرجال الفاسدين إلى أرواح شريرة، استبدل الصرع مس الجن، تضاءلت الحروب، إحقاق الحق صار أهم من شرف القبيلة، العلماء والنقاد لا يُسجنون أو يُعدمون، تضاؤل الجهل وتطور المعرفة قلصا الكثير من تحديات الحياة، وغير ذلك الكثير. نحن لا نقول إن كل تلك الأفكار أتت حصريًّا من عصر التنوير أو لم تأتِ بثمن، لكننا ندين لها بالكثير في عصرنا الحاضر، وقد سمحت لنا أن نعيش بشكل أفضل.

[10 ←]

من الأخطاء الشائعة الاعتقاد بأن كارل يونج هو مؤسس مبدأ الأركتايب، فهو في كتابه: "علم النفس والدين" يذكر أنها ليست من بنات أفكاره. ونجد أن نيتشه ذكرها في كتابه "إنسان كلي الإنسانية"، وكذلك سبقه إليها أدولف باستيان الذي سماها "الأفكار الأصلية"، وفرانز بواز في كتابه "عقل الإنسان البدائي" وكذلك جيمس فريزر في كتابه "الغصن الذهبي" وسيجموند فرويد في كتابه "تفسير الأحلام".

[11 ←]

في عام 1976، قدم لنا عالم الأحياء البيولوجية البريطاني ريتشارد دوكينز في كتابه المهم: "الجين الأناني" مفهومًا مقاربًا للأركتايب، وهو "الميم" أو "المتضاعفات"، ويذكر كمثال ميم الإله والإيمان بالحياة بعد الموت. إلا أن متضاعفات دوكينز تكاد تكون صورية ومقتصرة على التواصل الحضاري والثقافي مقارنة بفكرة يونج للأركتايب الفكرية المجردة والتي تنتمي للبشرية ككل. يكتب دوكينز: "يبدو أننا بحاجة إلى اسم نطلقه على المتضاعف الجديد، اسم يجسد فكرة الوحدة القائمة على الانتقال الثقافي أو الوحدة القائمة على التقليد. وصحيح أن المصطلح "ميميم" (Mimeme) مشتق من جذر إغريقي ملائم، إلا أنني أود استخدام كلمة أحادية المقطع على قياس "الجينة" وأتمنى أن يغفر لي أصدقائي الكلاسيكيون اختصار كلمة "ميميم" إلى "ميم"... والتي ترتبط نسبيا بكلمة Memory (الذكرى)... وأذكر من الأمثلة على الميمات الألحان والأفكار والشعارات والأزياء وطريقة صنع الأواني أو بناء القناطر. وتماما كما تنتشر الجينات في الجمعية الجينية عبر القفز من جسد إلى آخر، تنتشر الميميات في الجمعية الميمية عبر القفز من دماغ إلى آخر بواسطة مسار يمكن تسميته بالمعنى الواسع "التقليد".

[12 ←]

في العصر الحالي، أصبح البعض يستخدم مصطلح أركتايب خارج الإطار اليونجي، ويقصدون بها عادة نمطًا أو رمزًا شائعًا، لكن بدون ربطها باللاوعي الجماعي، أي أنها "نمط" وليست "نمطًا أوليًّا"، على سبيل المثال: أركتايب المراهقين في القرن العشرين هو التمرد وعدم احترام السلطات إلخ. أو أن فلان يمثل أركتايب لمؤسسة دينية معينة. لذلك حرصنا في النص أعلاه على إظهار التعريف اليونجي كما ورد عنه وعن أتباعه.

[13 ←]

يعدُّ لويس تيرمان أحد أكثر العلماء المؤثِّرين في فهمنا للعبقرية. فإذا اطّلعت على صفحة "العبقرية" في موقع ويكيبيديا العربية، ستجد أن للعبقرية معنيين، ويُعرف المعنى الأول (حتى لحظة كتابة هذه السطور) على النحو التالي: "يرادف النبوغ - ليكون المرء نابغة - الذي يتكشَّف عنه من كان حاصل ذكائه 140 فما فوق، وقد أكد على هذا المعنى عالم النفس الأميركي لويس ماديسون تيرمان"، وذلك معنى مغلوط كما سنرى خلال صفحات الكتاب.

[14 ←]

الجدير بالذكر أن تيرمان درس جثة فرانسيس غالتون، الأب الروحي لعلمه، في محاولة استنتاج معدل ذكائه، وتوصل إلى نتيجة أن معدل ذكاء غالتون يصل إلى 200 نقطة، بينما لم يتجاوز أي طالب في عينته 170 نقطة، ما قاده إلى استنتاج أن عبقرية غالتون تجاوزت المعتاد.

[15 ←]

الانثيال: هو الماء الذي يصب من أعلى الشلال إلى أسفله.

[16 ←]

من باب الإفادة، هذه هي تعاريف السمات الخمس: ● العُصابية (مضادها الاستقرار العاطفي): يتعلّق بكآبَة النفس والغَم والانْقِباض وانخفاض النفسية وهبوطها وقابليّة تعرّض المرء للمشاعر السلبيّة وعدم تقبل الآخرين.

● الاجتماعية (مضادها الانطواء): تقيس قدرة المرء على مخالطة غيره ودرجة اندماجه في المجتمع وما يحيطه، وذلك أيضًا متعلق بدرجة الإصرار النفسيّة والثقة بالنّفس والشخص ومشاعره الإيجابيّة.

● القبولية (مضادها التزمت): مذكورة في النص أعلاه.

- الانضباط (مضادها التوهان): يتعلّق بالتنظيم واتباع التّعليمات والواجب ودرجة الحذر وضبط النفس.
- الوداعة (مضادها التمرد): تتعلّق بالثّقة بالآخرين ودرجة مساعدة المرء لغيره واللَّطافة وحسن المعاملة.

[17 ←]
بعد فترة طويلة، تحدَّث ألبرت أينشتاين عن تلك الأيام قائلًا: "كان طموحي أن أنطق جملة كاملة... صرت أتمتم كل جملة بصوت منخفض. وإذا تمكَّنت منها نطقتها بصوت مسموع". أي أنَّ مراده كان أن ينطق جملة كاملة متكاملة مرَّة واحدة دون أن تكون متقطِّعة أو مبعثرة، إلَّا أن العامَّة أخطأوا فهمه.

[18 ←]
في سنة 1905م، لم يقدم أينشتاين عشرة بحوث، إنما أربعة فقط، وهي التي وضعته على خارطة الفيزياء. كانت مواضيع تلك البحوث هي التأثير الكهروضوئي والحركة البراونية للجزيئات والنسبية الخاصة وتكافؤ المادة والطاقة. تُعد هذه البحوث من أروع بنات أفكاره وأهمها، ما منح تلك السنة المهمة في حياة ألبرت أينشتاين الاسم اللاتيني The Annus Mirabilis (أي السنة العظيمة).

[19 ←]
الجائزة كانت مشتركة مع البروفيسور فيرن سميث، وليس مع عاموس تفيرسكي.

[20 ←]
يجب أن نفرق هنا بين أهمية دور العائلة التي درسها تشكسنتميهاي، والتي تُعنى أكثر بالجانب النفسي للطفل، ودراسة بلوم التي تهدف إلى التعرُّف إلى مجالات التفوق وأنماط الموهبة التي ساعدت في تكوين العبقرية.

[21 ←]
في سيرته الذاتية المعنونة باسم "عصر العلم" ذكر أحمد زويل تلك القصة وأنَّه أرسل خطابًا كتب فيه: "ربنا يوفقك ويوفق مصر" وتحدَّث عن سعادته العارمة عندما رد عليه الرئيس المصري بخطاب موجَّه إليه بالاسم!

[22 ←]
من الجدير بالذكر أنه بينما يعود لزولا فضل كبير في تشجيع صديق طفولته سيزان على الرسم، إلا أن تلك الصداقة انتهت بشكل تراجيدي لما كتب زولا روايته الشهيرة "الآية الفنية" أو "The Masterpiece"، والذي تطابق تفاصيل حياة شخصيتها الرئيسية كلود لانتير حياة سيزان. فنجد أن كلود، مثل سيزان، ابن لأب مستبد، يعاني من مشاكل بصرية، وكان يقايض رسوماته للحصول على طعام من البقالات والمتاجر (من وقاحة زولا أنه جعل لكلود صديقًا روائيًّا ويصف أعماله أنه قمة الإنجاز الأدبي). لكن الضربة المؤلمة كانت إهانة زولا لأعمال كلود الفنية في عدة نصوص. لم يتحدث سيزان بعدها مع زولا.

[23 ←]
تمكن بيتهوفن من التعرُّف على الموسيقى بهذه الطريقة، ويطلق عليها اسم "الاتصال العظمي".

[24 ←]
تُنسب هذه المقولة كثيرًا للإمام علي بن أبي طالب، لكن الواقع يخبرنا أنها لسقراط، أما الشائع أن علي بن أبي طالب قال: "لا تؤدبوا أولادكم بأخلاقكم، لأنهم خُلقوا لزمان غير زمانكم" وقد ذُكرت عبر التاريخ بصيغ مختلفة.

[25 ←]
من باب التوضيح: تم افتتاح أول مقهى للعموم في منتصف القرن السابع عشر، وذلك لأنه سابقًا لم يكن الماء صالحًا للشرب بشكل عام، فكانت عامة الشعب تستهلك الكحوليات كبديل للماء. بعد أن تغير الحال، أصبح الشاي والقهوة هما المشروب المفضل لدى العموم والمثقفين، وأصبحت المقاهي نقطة تجمُّع للعقول النيرة والتي فضَّلت المشروب المُنبِّه على مشروب كحولي في الحانات، فكان المثقفون يلتقون فيها ويستمتعون بالقهوة والشاي والنقاشات البنَّاءة. وقد كان للمقاهي دورٌ في نشأة عصر التنوير الأوروبي.

[26 ←]
نسبة إلى مدينة شنقيط الواقعة في شمال موريتانيا وتأسست سنة 660هـ/1261م. واشتهرت المدينة بكثرة علمائها ومدارسها الدينية حتى باتت قوافل الحجيج في هذا القُطر تتخذها منطلقًا باتجاه الحجاز.

[27 ←]
العلامة ليس لقبه، إنما اسمه.

[28 ←]
تلفت دوكورث انتباهنا إلى حقيقة إحدى أهم فوائد "البيئة" وهي التنافس، لكنها كذلك تلفت انتباهنا إلى أن أصول كلمة منافسة في اللغة الإنجليزية (Compete) تعني في اللغة اللاتينية: أن نتفوق معًا أي أن نرتقي معًا. ولا تعني بتاتًا أن يهزم شخص الآخر أو أن تهزم فئة الأخرى كما هو معناها اليوم.

[29 ←]
بشكل متوافق مع قصص العباقرة الذين درسناهم حتى الآن، حصل سيرجي على درجة البكالوريوس من جامعة ميري لاند، على خطى أبيه وجدّه دارسًا الرياضيات وعلوم الحاسوب، وهو في ذلك يشابه ألبرت أينشتاين وأحمد زويل.

[30 ←]
بشكل متوافق مع قصص العباقرة الذين درسناهم حتى الآن، عمل والد صابر ضابطًا في الجيش الهندي، وانضم في وقت لاحق إلى وزارة الدفاع الهندية، بينما كانت والدته تعمل في منصب مهم في بنك الهند المركزي، وهو في ذلك يشابه عاموس تفيرسكي ولويس ألفريز.

[31 ←]
كتبت هاريت هذه الملاحظة في عام 1977، أي أنه من الوارد جدًّا أن هذا الرقم ازداد.

[32 ←]

المصادفات وفقًا لفرويد هي نتيجة رغبات وصراعات مكبوتة.

[33 ←]
برتراند راسل فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني، وهو كذلك حاصل على جائزة نوبل عام 1950.

[34 ←]
حصد خريجو هذه الجامعة 21 جائزة نوبل.

[35 ←]
اشتُهر باسم لورينزو العظيم.

[36 ←]
لسبب ما، كان اسم ستيفين فالون مخفيًا في معظم الكتب التي ناقشت هذه التجربة، وكان يُشار إليه فقط بالحرفين الأولين من اسمه (SP). على حد علمنا، أول مرة يذكر اسمه الكامل كانت في كتاب أندرِس أريكسون الصادر عام 2016: Peak.

[37 ←]
لعل أكثر سوء فهم يحدث عند قراءة بحث تشايس وسايمون بخصوص الرقم 10,000 ساعة، هو أن القارئ اعتبر هذا الرقم رقمًا موحدًا مُطلقًا وموثوقًا، وقد ساهم في شهرة هذه الفكرة الصحفي مالكوم جلادويل في كتابه "الاستثنائيون"، حيث أنه أفرد لهذا الرقم جزءًا من الكتاب وحاول استخدام حالات مثل بيل جايتس وفرقة البيتلز لإثبات رأيه. أي أنه ثابت ومنطبق على كل المجالات (سواء كانت الرياضات أو الفنون أو الموسيقى أو العلوم). لكن الرقم يختلف لكل مجال حتى لو كان في حقل معين. فمثلًا: قد يتطلب معدل ساعات التدريب للتفوق في عزف البيانو 3,000 ساعة بينما يتطلب إتقان الكمان 7,000 ساعة. ومع أن إتقان رياضة كرة السلة يتطلب 4,000 ساعة إلا أن المصارعة الاحترافية تتطلب 6,000 ساعة (ولا ننسى بأن هذه الأرقام تتراوح بين فردٍ وآخر في نفس التخصص كذلك!) إذًا يبدو أن اختيار رقم الـ 10,000 هو رقم رمزي فقط، فعند التحقيق في المسارات والتخصصات المختلفة سنرى الرقم يتغير. أما ما يُقصد بموثوق فهو أن معظم الذين قرأوا النظرية اعتقدوا بأن وصولهم لهذا الرقم السحري من الساعات سيضمن لهم التفوق! لكن كما ذكرنا في بداية الكتاب ليس كل من جد وجد، وليس كل من زرع حصد. فالبعض قد يخيب حتى لو حصد 20,000 ساعة تدريب! أما البعض الآخر فقد امتلك معدل ذكاء استثنائيًّا يمكنه من التفوق أسرع من غيره. ونضيف إلى ذلك العوامل التي ناقشناها مسبقًا مثل دعم الوالدين والقبيلة والتمرد ووجود المرشد، كل تلك العوامل تجعل خرائط العبقرية أكثر وضوحًا وأسرع في العبور. وإذا طبقنا مبدأ آنا كارنينا للعباقرة كما ذُكرت في مقدمة الكتاب، سنجد أن هناك عوامل كثيرة تؤثر في أداء المرء وسرعة أو بطء تحسن أدائه. يجب حينها أن نفكر بعوامل أخرى مثل: متى بدأ التدريب؟ أين كان يتدرب؟ هل دعمه والداه للأسباب الصحيحة أم أنهما طلبا الشهرة أو المال من ورائه؟ هل كان لديه مرشد واحد أو اثنان أو لم يرشده أحد؟ هل كانت لديه قبيلة تساعده وتحثه على الاستمرار؟ إلخ... ونذكر هنا أن هناك دراسة أخرى مكسيكية أثبتت أن التفوق في الشطرنج قد يتطلب 11,000 ساعة للتفوق، أي ألف ساعة إضافية على النظرية الأصلية، وقرابة الألفي ساعة إضافية عن بوبي فيشر. كما ظهر في نفس الدراسة متفوق في 3,000 ساعة، وآخر في 23,000 ساعة! يعتمد الفرق في عدد ساعات التدريب المطلوبة للوصول إلى الإتقان عدة عوامل: معدل الذكاء، البيئة التي أتى منها الفرد، الرغبة في التعلم، وجود القبيلة والمرشد، وكل ما أسلفنا ذكره.

[38 ←]
هم مجموعة عرقية وقومية ينتمون إلى منطقة غاليسيا التاريخية والخاضعة لسيطرة إسبانيا. وتقع غاليسيا في الشمال الغربي من إسبانيا.

[39 ←]
الإسكندر كان من مقدونيا وليس من اليونان، نابليون كان كورسيكيًّا وليس فرنسيًّا، ستالين كان من جورجيا وليس من روسيا، هتلر كان من النمسا وليس من ألمانيا. العامل المشترك بين هؤلاء القادة هو أن كونهم من خارج تلك البلاد أورثهم حسًّا بالدونية، والأقلية جعلتهم جائعين إلى السلطة لتعويض ذلك الإحساس بالنقص.